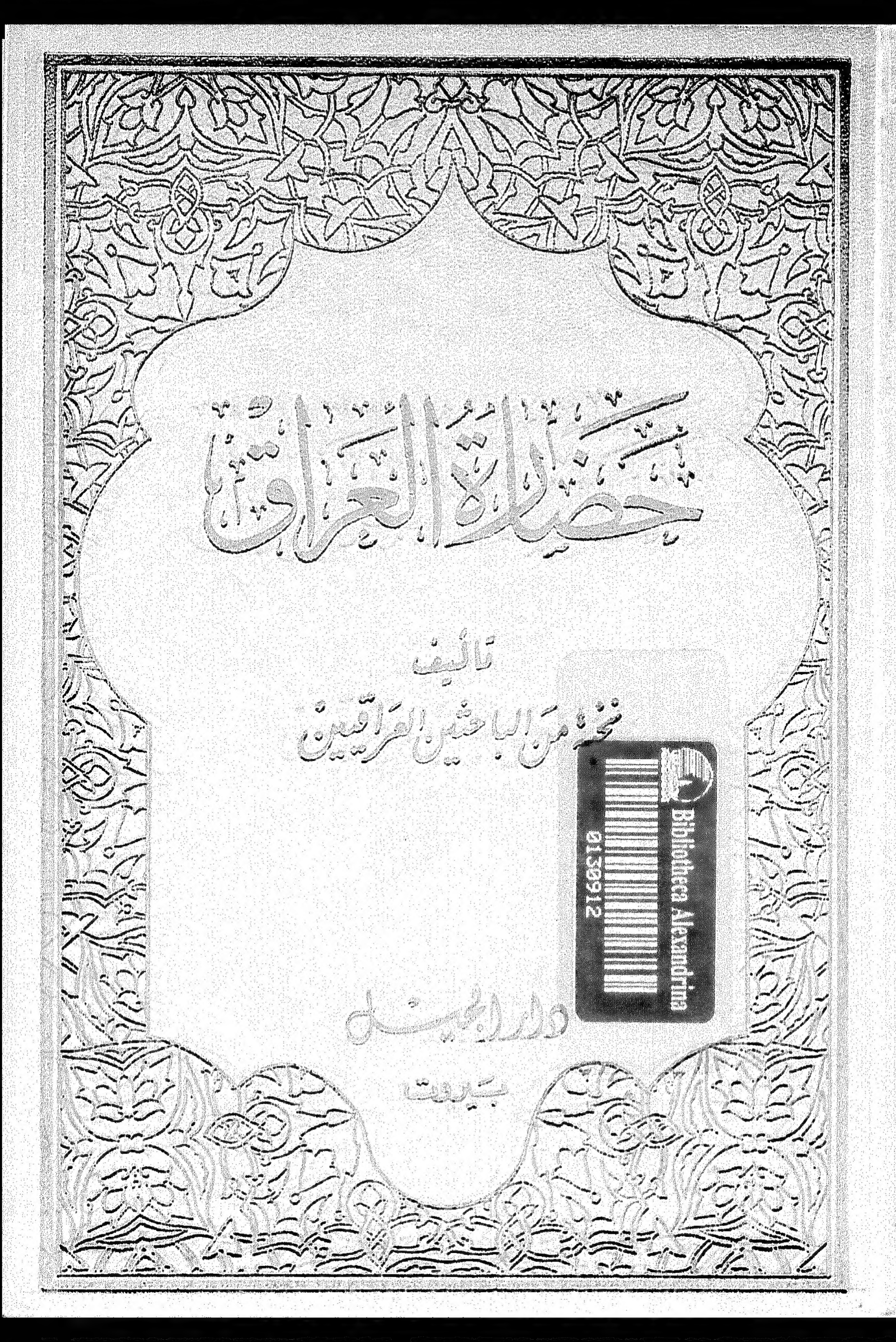


حضارة العراق

تأليف

نخبة من الباحثين العراقيين

دار الجيل

بيروت



تأليف
نخبة من الباحثين العراقيين

الجزء العاشر

بغداد ١٩٨٥

العصور الحديثة

(١)

١٢٥٨ ـ ١٩١٤

الفصل الأول

النظام الاداري

د . صالح محمد العابد

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

١ ـ النظام الاداري من الاحتلال المغولي حتى عهد السيطرة العثمانية ٦٥٦ ـ ٩٤١ هـ (١٢٥٨ ـ ١٥٣٤ م)

تحول العراق بعد ان احتله المغول الى جزء من الامبراطورية الايلخانية التي اتخذت من تبريز عاصمة لها ، ثم تحولت الى السلطانية في اذربيجان . وبذلك فقدت بغداد مركزها المتميز في العالم الاسلامي منطلق اشعاع فكري وحضاري ، وحل الدمار والخراب محل الازدهار والعمران . وبادرت الدولة الايلخانية الى تقسيم العراق على ثلاثة اقسام هي : اقليم الجبال ، وفيه شهرزور ، واقليم الجزيرة الفراتية ، وفيه ماردين والموصل وسنجار والعمادية واربيل ، واقليم العراق وعاصمته بغداد ،وهو القسم الاهم ، ويمتد ما بين الزاب الاعلى الى عبادان طولا ، وبين القادسية وحلوان عرضا . وقسم

الاقليم الاخير على ست مناطق رئيسية اطلق عليها اسم اعمال وهي : بغداد ، الاعمال الشرقية، الاعمال الفراتية، الاعمال الحلية والكوفية، والاعمال الواسطية والبصرية، ثم اضيفت اليها بعد سقوط امارة الموصل في ٦٥٩هـ ــ ١٢٦٠م الموصل واربيل • واصبح على رأس كل منها مسؤول يطلق عليه لقب صدر ، وهي وظيفة عرفت في اواخر العصر العباسي • الا انها اخذت شكل نظام مستقر في عهد الاحتلال ، وتتميز عامة بجمعها بين ضمان الارض وتولي حكمها • ولم تكن هذه التقسيمات محددة واقرب الى ان تكون نظرية • اذ انه من العسير تعيين حدودها وحصر المدن والمناطق المرتبطة بها اداريا • ويرجع ذلك الى عدم الاستقرار السياسي والعسكري والاقتصادي مما ادى الى تغير مستمر في حدودها • ومع ذلك يلاحظ ان حكومة بغداد بدأت باستعادة نفوذها ليس على حدود الولاية المحددة لها ، وانما على الاقسام الادارية المجاورة لها • فضمت اليها اقليم الاحواز وعاصمته تستر وكذلك جزءا من اقليم ديار بكر • ولهذا يمكن القول ان معظم اراضي العراق خضعت الى ادارة واحدة عاصمتها بغداد ، متجاوزة في هذا التقسيمات الادارية الايلخانية المفترضة • ومن هنا جاءت اهمية ولاية بغداد بالنسبة الى الدولة الايلخانية ، فكانت تسمى مملكة ولقب حكامها احيانا بالملوك ، وكانت ترابط فيها حامية عسكرية قوية •

ان ادارة الايلخانيين للعراق في كثير من مظاهرها استمرار للادارة العباسية في عهودها المتأخرة • ويمكننا ان نرى فيها تبسيطا لتلك الادارة ، حيث ابقى هولاكو على الوضع الاداري كما كان عليه ، وحافظ الى حد ما على التقسيمات الادارية القديمة ، ولتسهيل مهمته في ادارة العراق ، فقد عهد بعد الاحتلال الى بعض الاداريين من عهد الخليفة العباسي الاخير ان يضعوا اسس تنظيم ادارة العراق • وتألفت الادارة المؤقتة من علي بهادر الخراساني شحنة ، ومؤيدالدين بن العلقمي وزيرا ، وفخرالدين الدامغاني

صاحبا للديوان ، ونجم الدين احمد بن عمران صـــدرا للاعمال الشرقية ، وعبدالمنعم البندنيجي قاضيا ، وتاج الدين علي بن الدوامـــي صدرا للاعمال الفراتية ، فكانوا جميعا من العراقيين باستثناء الاول • وقد جاءت التبديلات الادارية لتتلاءم في الواقع وتطور الاوضاع العامة ، وتحول البلاد الى التبعية لدولة اجنبية كبيرة ، فادمجت الوحدات المعروفة في العهـد العباسي الاخير في وحدات اكبر وصولا الى تحقيق سيطرة قوية • والغيت الدواوين المركزية وابقي على ديوان الزمام الذي كان ديوان الدواوين في اواخر العصر العباسي وديوان الوزيـــر • ولكن سرعان ما ادمجا بديوان واحد اطلق عليه اســم الديوان ويرأسه صاحب الديوان الذي اصبح يحتل مكانـة عليا في الادارة المدنية ، حيث يشرف على شؤون البلاد المالية ، ويتمتع بسلطة تعيـــين كبار الموظفين كقاضي القضاة والصدور والنظار • ويرتبط بصاحب الديوان (كاتب السلة) ، ويترأس كتاب العراق ، ولهذا يطلـق عليه احيانا اسـم كاتـب العـــراق • ومن الوظائف المدنية المهمة الاخرى التي استمرت في العـــهد الايلخانـــي (خازن الديـوان) و (صـــدر وقوف) و (الناظـــر) و (المشـــــرف) •

والناظر وظيفة مالية بالدرجة الاولى ، ولكن بسبب فقدان التحديد في الادارة ، فأنه كان يقوم بالاشراف على امور ادارية احيانا ، بل ويقوم بواجبات الصدر نفســـها • اما المشرف وهي الوظيفة التي تقوم الى جانب اكثـــر الوظائف المهمة كالصدر والناظر ، فقد ازدادت اهميتها في العهد الايلخانـــي ، فصار هناك مشرف على صاحب ديوان بغداد ومشرف العــراق • ومهمة شاغل الوظيفة الاشراف على ضبط الحسابات والصادرات والواردات والموازنـــة بينهما • ولا شك في أن تأكيد الايلخانيين على هذه الوظيفة ، بحيث ان تعيين شاغلها وعزله ، كان يتم بأمر من السلطان المغولي نفسه ، يعود الى معرفتهـم بفساد جهازهم الاداري ، والـــى رغبتهم في احكام سيطرتهم علـى اجـــزاء

ممتلكاتهم وجشعهم الشديد الذي كان يدفعهم الى الحصـول على اكبـر قدر من الاموال من السكان الخاضعين لهم . ولهذا كان المشرف يقدم حساباته الى السلطان نفسه . ولكن التطور الذي حصل فيما بعد باستحداث منصب (مشرف الممالك) ، وهو المشرف العام للدولة الايلخانية جعل مشرف بغداد مسؤولا لديه . وكان مشرف بغداد ينيب عنه في كل ولاية او اقليم نائبا يحمل الاسم نفسه . وتجدر الملاحظة بان معظم المشرفين في ادارة العراق كانوا من ابنائه لانهم الأعلم بأموره المالية .

ومن المناصب المهمة التي هي استمرار لما كانت عليه في العصر العباسي ، منصب قاضي القضاة ويحتل شاغله منزلة ارفع الوظائف الدينية واجلها قدرا . ولهذا كان امر تعيينه يصدره السلطان نفسه . ومهمته القيام بالامور الشرعية والحكم بين الخصوم ، وهو مسؤول عن تعيين القضاة والنواب ومتقلدي المناصب الشرعية في مختلف انحاء البلاد ومراقبتهم ونقلهم وعزلهم ، وتثبيت الحجج والوثائق وعقود الزواج وقسمة التركات وتولية الاوقاف والنظر في القضايا المتعلقة بالامور الشرعية . وغالبا ما كان المرشحون لتولي مناصب القضاة هم مدرسو المدارس الدينية ، بحكم معرفتهم باصول الشريعة الاسلامية التي هي مصدر الاحكام في الفصل في الخلافات بين المسلمين . وكان لكل قاضي عدد من العدول يساعدونه في مهمته ، كما كان الحال في العصر العباسي .

واقرب الوظائف من وظيفة القاضي ، الحسبة وصاحبها المحتسب ، ومهمته مراقبة الاسواق ومحاسبة المقصرين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ونظام الاحتساب كغيره من الانظمة الادارية الاخرى ، كان قائما في العصر العباسي واستمر في العهد الايلخاني .

وهذه الوظائف الادارية المدنية والمالية المهمة غالبا ما تركت بيد العراقيين ، الا ان الادارة العسكرية ، وعلى رأسها وظيفة (الشحنكية) بقيت بيد المغول ،

مما يدل على طبيعة نظام الاحتلال القائم على التعسف والاستغلال . فمع انــه نظريــا كان هناك نوع من الاستقلال بين الادارتين المدنية والعسكرية ، بحيث لايجوز لمتولي أي منهما عزل الاخر ، لانها مهمة الايلخان وحده ، فا ن بامكان والشحنة (القائد العسكري التنكيل بصاحب الديوان نفسه ، قبل ان يبعث بالامر الى الايلخان طالبا موافقته على ذلك الاجراء والشحنة في الاصل منصب استحدثه السلاجقة في القرن الخامس للهجرة (القرن الحادي عشر الميلادي) وشاع في البلاد الاسلامية ، وكان شاغله مسؤولا عن ادارة المدينة والمحافظة على امنها واستقرارها . ولكن الشحنة اصـبح في عهد الاحتلال المغولــي يؤدي ما يشبه وظيفة الحاكم العسكري العام . واهم واجباته استتباب الامن في البلاد والقضاء على التمرد والانتفاضـــات ، ومراقبة صاحب الديــوان اي حاكــم العــراق الاداري لضمان ولائه للايلخان . فكان الشــحنة عــين الايلخان على رؤســاء ادارة العراق من الموظفين المدنيين . ولهــذا بقي الذين ولوا هذا المنصب في المدن العراقيـــة من المغول ، ولاسـيما من كبار ضباط الاحتلال ، بخلاف المناصب الادارية الاخرى . فقد كـــان الشحنة يمثل الصلة بين المدن والحكومة المركزية . وكانت لشحنة بغداد اهمية تفوق اهمية اقرانـــه في المدن العراقية الاخرى نظرا لثقلها الاداري والسياســـي وجسامة دور حاميتها العسكرية المغولية في تثبيت سلطة الاحتلال .

ومــن الوظائف العسكرية الاخرى المهمة نائب الشرطة وهــو المسؤول عــن المحافظة على شؤون الامن في بغــداد والمــدن الاخرى . ويتدخــل الشحنة اذا ما عجز نائب الشرطة عن مواجهة أمر خطير يهدد الهيمنة المغوليــة فــي البــلاد .

لم يحصل تبدل كبير في العهد الجلائــري (٧٣٩ ــ ٨١٤هـ / ١٣٣٨ ــ ١٤١١م) فالسلالة الجلائرية التي هي امتداد لسلطة المغول الايلخانيــين ، عملت بالانظمة السابقة ولم تضف شيئا جديدا اليها . ولكن الظاهــــرة

الجديـرة بالتسجيل ، ان العراق كان يشــكل القسم الاكبر والأهم مــن الدولــة ، ومن ثم اصبحت بغداد مركزا للدواوين ومقرا للحكومة مدة اطول مما كانت عليه العاصمة تبريز • وهذا ما يوضح ازدياد اهمية بغداد في العهد الجديـــد • فقد كانت مقرا للسلطان الجلائري عندما يكون في العراق ، او لنائبه ان غاب عنها ، ومقرا للوالي والديوان حينما انتقلت العاصمة الى تبريز من ٧٦٠ـ٧٨٨هـ الى ١٣٥٨ـ١٨٣٦م • ومع ان اسلوب الادارة في العهد الجلائري اتبع الاسس والاساليب التي كانت قائمة في العهد السابق، الا انه لايتسم بالثبات تبعا للظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية للدولة • ففي مدى طويل من حكم الجلائريين ، شــاع اســلوب الادارة بطريقة (المقاطعة والضمان) ، وبموجبه يفوض الديوان حكم احدى الولايات او المــدن الى (الضامــن) وعادة يكون صدر الديوان (الوزيــر) في الولاية او الحاكم ، مقابل تأديـة مبلغ معين من المال • ويقوم الحاكم باستحصال الضرائب المقــررة في منطقته محتفظا بالزيادة لنفسه • وكانت تناط بالضامن بموجب هذا النظام شــؤون الولاية ولاسيما اقرار الامن وتشجيع الزراعـــة • وهو مسؤول عن تعيين عمال او نواب عنه في المدن الواقعة في منطقة ضمانه • واتبعت طريقة اخــرى تقوم على ادارة الولايات بما عرف بـ (أمانت) وبموجبها يعهد الى احـــد المقربين من السلطان او حكام الاطراف بحكم احدى المناطق والمدن بشــكل (عهدة او امانــة) مدة معينة ، وله راتب من الديوان ، ويكون على هـــذا المسؤول ضبط الامن والنظام في منطقته • وفي كل منطقة ادارية مــن مناطق البلاد ، وفي كل مدينة ، ديوان خاص او عدد من الموظفين يمثلون ديــوان بغداد عرفوا باسم الحكام او المتصرفين والعمال اما السلطة العســكرية في بغـــداد وبقية مــدن العـــراق ، فكان علــى رأســها موظف يسمى (داروغة) ــ وتعنـــي الرئيـــس او الحافظ ــ وهو في ســلطته وصلاحياتــه اشبه بالحاكم العسكري في العصــر الحاضــر • ويساعده في اعمالـــه الشـــحنة •

لم تدم حقبة الاستقرار التي شهدها الحكم الجلائري طويـلا ، ودخلت البلاد عهدا من الاضطراب والفتن وتسلط الامراء على شـؤون الحـكم • وتحول العـراق الى ميدان للحروب الاهلية كانت فاتحتها اندلاع النزاع بين السلطان جلال الدين حسين (٧٧٦-٧٨٤هـ/١٣٨٤-١٣٨٢م) وأخويه الشيخ علي حاكم بغداد ، واحمد حاكم البصرة • وتواصل النزاع حتى بعد مصرع السلطان ، واشترك فيه الاخ الرابع بايزيد • وما ان تمت التسويـة في ١٣٨٣ بمقتل الشيخ علي واقتسام ممتلكات الدولة بين بايزيد وله منطقة الجبـال ، والسلطان احمد الذي تملك منطقة العراق العربي ، حتى تعرضت البـلاد الى تهديد خطير نتيجة الغزوات التيمورية للعراق • وكان على بغداد ان تواجه استباحتها في اوقات متقاربة (٧٩٦ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ هـ / ١٣٩٣ و ١٤٠١ م و ١٤٠٢م) • وتمخضـت عـن ذلـك نتائج سـلبية في اوضاع العـراق السـياسية والاقتصادية والاجتماعية والاداريـة • فقد اودى الصـراع الاسـري الجلائري ، ثـم الغـزو التيموري بحيـاة عدد كبـير من الناس ، وتسـبب في تشريـد عـدد اخـر وتهجـير اصحـاب الخبرات العلمية والحرفية الى بلاد ما وراء النهر ، ورافق ذلك اضطراب كبير كان لـه تأثير كبير في تدهور النشاطات الاقتصادية والفكرية والعمرانية • واضطربت الادارة ، وفقدت السلطة سيطرتها على كثير من المدن التي اعلنت استقلالهـا وصار نفوذ السلطان الجلائري لا يتعدى المدن القريبة من بغداد • ونتيجـة للتدهور الاقتصادي ، وقلة موارد الدولة ، كان السلطان يمنح ادارة هـذه المـدن الى ابنائه وامرائه الذين يطمئن لولائهم • وشمل هذا النمط مـن الادارة الذي هو ضرب من ضروب الاقطاع ، مدن الحلة ومندلي وبعقوبـة وتكريت وغيرهـا •

اتسم الجهاز الاداري في العهد الجلائري في مراحله الاخيرة عامـة ، بالضعف والارتباك وقلة كفاية الموظفين وانعدام الضبط بينهم ، وعجز في اوقات كثيرة عن توفير الامن وحماية الطرق خارج المدن الكبيرة • وافتقد

المواطنون الحماية ، وتعرضوا في حالات كثيرة الى النهب وهجمات قطاع الطرق . ولم يشرك الجلائريون سكان البلاد في الادارة . فلاعجب ان ينهار حكم هذه السلالة على يد قوة تركمانية عرفت بأسم دولة الخروف الاسود (قره قوينلو) ، حينما نجح زعيمهـا قره يوسف في دحر السلطان احمـد الجلائري الذي لقى مصرعه وهو يحاول الفرار في ٨٣١هـ ــ ١٤١٠م وفي السنة التالية دخلت قوات قره يوسف بغداد .

ولم يول الحكم الجديد الذي اتخذ من تبريز عاصمة له اهتماما بالعراق الذي تحول الى ساحة للغزوات الموسمية والحروب الأهلية بين امراء هـذه السلالة . وعبر عن حالة العراق في هذا العهد المؤرخ ابـن تغري بـردي (ت ٨٧٤هـ ــ ١٤٦٩م) بقوله : « نسأل الله تعالـى أن يلحق به (قـره يوسف) مـن بقى من ذريته ، فانـه واولاده كانوا سـببا لخـراب بغداد وغـيرها ... وهم شـر عصبة ، لازالت الفتن في ايامـهم ثائـرة والحـروب قائمة الى يومنـا هذا .. » والحـادثة التالية تعـكس جانبا من التعسف الذي كـان صفة مؤسس هذا السـلالة . حيث لم يرق لقره يوسف التزام قاضي بغداد تاج الدين احمد النعماني بتطبيق الشريعـة والعدالة ، فقبض عليه ،وأمر بجدع انفه واخراجهمن بغداد في ٨٢٠هـ/١٤١٧م مع ان ذلك القاضي العادل كان قد تجاوز السبعين من عمره .

واغتنم زعيم امارة تركمانية اخرى تعرف بالخروف الابيض (اق قوينلو) مركزهـا ديار بكر هو حسن الطويل ، حالة الانشقاقات في دولـة الخروف الاسود ، لمد سلطانه على المناطق التابعة لها ، وفي المعركة التي جرت بـين الامارتين في ديار بكر سنة ٨٧٣ هـ /١٤٦٧ م اندحر أشهر امـراء الخروف الأسود جهان شاه (٨٣٨ ــ ٨٧٣هـ / ١٤٣٤ ــ ١٤٦٧م) ولقى مصرعه.واعقب ذلك اندحار آخر امرائهم حسن على قرب تبريز ، فكأن نهاية حكم سلالتهم . وتقرر مصير العراق على اثر ذلك ، ودخلت قوات مقصود بن حسن الطويل

بغداد في ٨٧٣هـ ــ ١٤٦٨م ، واصبح العراق جزءا من الدولة الجديدة التي ضمت ديار بكر واذربيجان •

وتحقق للبلاد شيء من الاستقرار في عهد مؤسس الدولة ، ولكن سرعان ما عاد الاضطراب بعد موته في٨٨٢هـ ــ ١٤٧٧م اذ تمزقت وحدةالدولة وتنازع على السلطة اولاده واحفاده ، فكان ذلك ايذانا بتفككها•واصبح العراق ولاية مهملة من دولة مجزأة يتنافس عليها الطامعون لفرض سلطانهم بالسلب تارة ، وبالقتل تارة اخرى • وعانى العراقيون من جراء ذلك مآسي كثيرة ، وقدر لهم ان يحيوا حقبا من الفزع والحروب الاهلية استنزفت خيرات البلاد ، فمهد ذلك الطريق لسقوطها على يد طامع جديد هو اسماعيل الصفوي ، مؤسس الدولة الصفوية•فقد تمكن اسماعيل من احتلال بغداد في٩١٤هـ ــ ١٥٠٨م وضم مناطق واسعة من العراق الى دولته التي شملت معظم ارجاء ايران واذربيجان وديار بكر ، متخذا من تبريز عاصمة له •

لكن الاحتلال الصفوي للعراق لم يدم طويلا ، ولم تترك الدولة الصفوية اي اثر مهم في تاريخ العراق السياسي والاقتصادي لانها كانت لاتزال في طور التأسيس فظلت جميع الانظمة والمناصب الادارية السابقة في العراق قائمة ، وبقي النظام الزراعي كما كان عليه من ضمور وتخلف • وكل ما حدث بعد الاحتلال هو تعيين بعض القزلباش (اتباع الشاه ذوي العمائم الحمراء) او الموالين لهم في المناصب الرئيسة ، وحتى هذه التعيينات كانت تجري على نحو مرتجل واضح • وكان مما يلفت النظر حقا من الزاوية الادارية خلال مرحلة الاحتلال الصفوي للعراق ، اطلاق الشاه اسماعيل لقب (خليفة الخلفاء) على الوالي الذي عينه على بغداد ، وهو امير ديوانه خادم بك طالش الذي سماه ابا المنصور ، مما عكس غطرسة مقيتة • واستحدث هذا الشاه منصب مساعد الوالي واسنده الى احد العراقيين وعد" ذلك خطوة توفيقية •

تزعزعت قبضة الصفويين على العراق وفقدوا مقاطعات واسعة بما فيها اقليم الجزيرة وولاية الموصل لصالح العثمانيين على اثر الانتصار الكبير الذي

حققه الجيش العثماني على الجيش الصفوي في معركة جالديران عام ٩٢٠ هـ ــ ١٥١٤م ٠ وتعرضت الاقسام المحتلة الاخرى من العراق الى الاهمال الشديد بسبب انشغال الدولة الصفوية في حروبها لامع العثمانيين في الغرب فحسب ، وانما مع الاوزبك في الشرق ايضا ٠ ولا أدل على ذلك الاهمال من نجاح احد المغامرين ، وهو ذو الفقار بن نخود سلطان في اعلانه الاستقلال بولاية بغداد عن الدولة الصفوية مدة تزيد على السنتين اثر قيامه بحركة عسكرية بارعة تمكن فيها من صرع الوالي الصفوي ابراهيم خان موصلو في ٩٣٣هـ/١٥٢٦م واعلن تبعيته للسلطان العثماني سليمان القانوني (٩٢٧ ــ ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ ــ ١٥٦٦م) ٠ واستطاع ذو الفقار ان يقاوم ببسالة حصار الجيش الصفوي الذي قاده الشاه طهماسب (٩٣١ ــ ٩٨٤هـ / ١٥٢٤ ــ ١٧٥٦م) ، قبل ان تعمل الخيانة دورها ، حيث اغتيل ذو الفقار وفتحت ابواب بغداد للشاه في حزيران من عام ٩٣٦هـ ــ ١٥٢٩م ٠

حاول طهماسب بعد احتلال بغداد تقوية قبضته عليها ، فرفع درجتها من سلطان (وهو اسم في النظام الاداري الصفوي) يطلق على عامل المنطقة الذي يلي الخان الى مرتبة خان ٠ وجعل من كركوك وكلهر ومندلجين ولاية عين عليها خانا ايضا ، ووزع بعض المناصب في الحلة وواسط والرماحية على اتباعه ٠ اما بقية اجزاء العراق ولا سيما ديار العشائر في الجنوب والغرب ، فانها ظلت بعيدة عن النفوذ الصفوي متمتعة بالاستقلال ، وهذا يؤكد لنا سطحية النظام الاداري الصفوي في العراق خلال مرحلة الاحتلال ٩١٤ ــ ٩٤١هـ / ١٥٠٨ ــ ١٥٣٤م ٠

٢ ــ النظام الاداري في عهد السيطرة العثمانية

التقسيمات الادارية :

بادرت الدولة العثمانية على اثر الاستيلاء على بغداد في ٩٤١هـ ــ ١٥٣٤م ، والحاق البصرة على نحو مباشر بالدولة في ٩٥٣هـ ــ ١٥٤٦م ، الى وضع تقسيم

اداري منظم للعراق لكونه احد أهم ولاياتها من ناحية ، ولانها لم تجد تقسيماً ادارياً واضحا له ، من ناحية اخرى • وقد روعيت في التقسيم الاوضاع الخاصة بالبلاد ، ولاسيما ما يتعلق بالعشائر العربية والكردية التي تؤلف نسبة كبيرة من السكان •

طبق العثمانيون على العراق نظام الايالات (الولايات) المعمول به في بقية انحاء الامبراطورية • والايالة او الولاية هي اكبر وحدة ادارية ، وتقسم على وحدات ادارية اصغر تعرف بالسناجق ، ومفردها (سنجق) اي لواء ، وحاكمها يعرف بالسنجق بك اي امير اللواء • وقسم العراق اول الامر على اربع ولايات اخذت شكلها المنتظم في اوائل القرن الحادي عشر الهجري ، (القرن السابع عشر الميلادي) وهي : بغداد ، والموصل ، والبصرة ، وشهرزور (كركوك) •

١ ــ بغداد

وهي اهم واكبر ولايات العراق ، لانها كانت دار الخلافة واحد مراكز الحضارة في عهد ازدهار الدولة العربية الاسلامية ، ولكونها هدفا مستمرا لكل الحملات الايرانية ، وقاعدة مهمة للعمليات العسكرية ضد ايران • وباشا بغداد اعلى باشوات العراق رتبة ، وغالبا ما يعهد اليه الاشراف على الولايات الاخرى وحمايتها مما قد تتعرض له من خطر • وفيها ثمانية عشر سنجقا او لواء هي : المركز ، ويسمى (باشا سنجقي) أي سنجق الباشا ، واسط ، بيات ، السماوة ، دم بالا ، درتنك درنه ، كرند ، كيلان ، قزانية ، دميرقبو ، آل صايح ، الحلة ، زنكي آباد ، الجوازر ، جنكوله ، الرماحية ، قره داغ •

وولاية بغداد ، فيما عدا سناجقها الستة الاخيرة ، من النوع الذي يطلق عليه في نظام الادارة العثماني مصطلح (سااليانة) ، وكانت وارداتها مع سناجقها تعطى بالالتزام (بروجه تخمين) ، وترسل وارداتها بعد استقطاع مصاريف الولاة والسنجق بكيه وبقية الموظفين واحتياجات الولاية

الاخـرى الى خزانـة الدولة تحت اسم (مال ارساليه) • وبمقتضى هـــذا النظام ، كانت الدولة تعهد الى شخص من ذوي النفوذ والثراء بجباية الضرائب المقررة على منطقة معينة مدة زمنية محددة اول الامر • وكان عليه قبل مباشرة عمله ملتزمـــا (مقاطعجي) ، ان يدفـــع مبلغا مـــن المال ، يعادل ضريبـة سنة من الضرائب المقررة على المنطقة التي تســـمى (دائرة الالتزام) التـــي يمارس فيها اختصاصاته ، يســـدده الى دائرة تعرف باسم ديوان الروزنامـــة (المسؤول عن تحرير وضبط الحسابات في الدفاتـــر الرســـمية) ليحمل لقب (ملتزم) مع المستندات الرسمية التي توضح منطقة التزامه ومقدار الامـــوال المقـــررة عليهـــا • وكان ديوان الروزنامة يصدر في الوقت ذاته (تذاكـــر ديوانية) الى سكان المنطقة المعينة يحدد فيها اسم الملتزم ومقدار المال الواجب دفعه ، وذلك من قبيل الرعاية لمصالح السكان ، فلا يطالبهم الملتزم باكثر ممـا هـــو مقرر عليهم • ومع ذلك ، كان الملتزم يحقق في ظل هذا النظام ارباحـــا مادية مختلفة منها حصوله على (الفائض) وهو الفرق بين ما دفعه وحصيلة ما يجبيه فعلا من السكان في دائرة التزامه • وبالرغم من اشتراط الدولة علـــى الملتزم عدم الحصول على اكثر من النسبة المحددة ، الا ان تدهور مؤســـساتها شجع الملتزمين على استغلال مناصبهم وجمع ما يزيد على المبالـــغ القانونية كثيرا ، فأساءوا الى الفلاحين واقتصاد الريف اساءة بالغة • وتسلل نظام الالتزام الى مختلف نواحي الدخل الحكومي ، فكانت المدن والقرى تمنح بموجبـــه ، كما كان شيخ العشيرة يلتزم بجمع الاموال الاميرية من افراد عشيرته • وقـــد وقد الغي هذا النظام بموجب مرســـوم الاصلاح (خطى كولخانة) الـــذي صدر في ٢٥ شعبان ١٢٥٥هـ/٣ تشرين الثاني ١٨٣٩ م • وفي شهر كانـــون الاول من السنة نفسها ، صدر قانون تقرر فيـــه ان يجمع حكام الولايـــات ابتداء من آخر ذي الحجة ١٢٥٦هـ/اول اذار ١٨٤٠ م الضرائب القانونيـــة فقط ، وان يتولى جمعها جباة مدنيون يتقاضون رواتبهم من الدولة • الا ان تطبيق ذلك ظل متعثرا ، وبقي الالتزام ساري المفعول بالرغم من صدور مرسوم

سلطاني اصلاحي اخر في ٢٣ جماد الثاني ١٢٧٣هـ/١٨ شباط ١٨٥٦ م عرف باسم (خطي همايون) منع فيه الموظفون واعضاء المجالس المحلية من الاشتراك في أي (التزام) كخطوة اولى للقضاء على هذا النظام نهائيا • وقد ظل نظام الالتزام مطبقا في العراق على الاراضي العشائرية والاميرية ، حيث كان يسند الى الشيوخ التزام ديرة عشائرهم وساد هذا الاسلوب طويلا حتى توقف في اواخر القرن التاسع عشر •

٢ ـ الموصل

وهي اولى مناطق العراق التي دخلت في حوزة الدولة العثمانية منذ عام ٩٢٣هـ ـ ١٥١٧م ، على أثر الانتصار الكبير الذي حققه السلطان سليم الاول (٩١٨ ـ ٩٢٧هـ / ١٥١٢ ـ ١٥٢٠م) على الشاه اسماعيل الصفوي في معركة جالديران في ٩٢٠هـ ـ ١٥١٤م•وطبق عليها منذ منتصف القرن السادس عشر نظام الاقطاع الحربي العثماني وبموجبه كان السلطان يمنح ارضا لافراد من سلاح الخيالة يستقرون فيها ويشرفون على زراعتها بمساعدة الفلاحين الذين كانوا يتولون زراعتها بصفتهم مستأجرين • وكانت هذه الاراضي تسمى اقطاعات (ديرلكات) • ويطلق على الفرسان الذين يحصل عليهم الجيش عن طريق الاقطاع الحربي اسم (السباهية الاقطاعية) • وهم لايتقاضون مرتبات نقدية من الحكومة بل يعتمدون على واردات اقطاعاتهم التي يطلق عليها المصطلح التركي (مال مقاتله) ، وفي مقابل ذلك ، كان على هؤلاء الفرسان ان ينضموا الى الجيش حالما تشتبك الدولة في حرب ، ومعهم عدد من الاتباع بخيولهم واسلحتهم•وكان عدد هؤلاء الفرسان الاقطاعيين يتناسب مع مساحة الاقطاع ومع الايراد الذي تغله هذه الارض الاقطاعية التي كانت على ثلاثة انواع رئيسية هي :

١ ـ اقطاع مساحته صغيرة نسبيا يسمى (تيمار) يغل على صاحبه ايرادا يبلغ ثلاثة الاف اقجة (عمله فضية لايزيد وزنها على

ربع مثقال من الفضة وقيمتها لم تكن مستقرة) وكان عليه ان يقدم الى للجيش وقت الحرب عددا من الفرسان يتراوح ما بين اثنين واربعة بخيولهم واسلحتهم .

٢ ـ اقطاع اكبر مساحة يسمى (زعامت) يمنحه السلطان للفارس اذا اظهر كفاية قتالية . ويغل على صاحبه دخلا يصل الى مائة الف اقجة ، وعليه ان يقدم للجيش وقت الحرب عدداً من الفرسان يتحدد بنسبة فارس واحد عن كل خمسة آلاف اقجة . وهذان النوعان (تيمار وزعامت) يخضعان لنظام التفتيش الذي يقوم به (الدفتر داريون) .

٣ ـ اقطاع اكبر مساحة من النوعين الاولين اسمه (خاص) لايخضع للتفتيش ، ويمنح عادة للولاة الذين يكونون في الخدمة الحكومية ، ويتجاوز وارده مائة الف اقجة . وبجانب هذه الاقطاعات الحربية ، كانت هناك بعض الاقطاعات التي هي من نوع (خاص) ملكا للسلطان ويطلق عليها (خواص همايون) وهي اكبر واهم الاقطاعات وكل مجموعة من هذه الاقطاعات كانت تشكل وحدة ادارية يطلق عليها (سنجق او لواء) على رأسها (سنجق بك) وهو مسؤول عن ادارة الشؤون المدنية في لوائه ، فضلا عن مهامه العسكرية .

كانت حدود ولاية الموصل تتوغل قليلا في كردستان شرقا ، وفي تكريت جنوبا . الا ان تلك الحدود لم تكن واضحة تماما . وتختلف المصادر حول عدد سناجقها ، فهي ستة حسب بعض المصادر هي : الموصل ، باجوانلو ، تكريت ، هورن ، بانه ، اسكي موصل . وثلاثة حسب مصادر اخرى هي : خارون (هرون) ، كشاف ، اسكي موصل . واربعة في مصادر اخرى هي : الموصل ، كشاف ، اسكي موصل ، تكريت .

٣ ـ البصرة

صـنفت مـن ولايـات السـاليانة . وهنـاك خـلاف تاريخـي حول تقسيم البصرة على وحدات ادارية . فبعض المصادر تشير الى ان البصرة لـم تقسم على سناجق بسبب تركيبها العشائري ، وتجبـى ضرائبها بالالتزام وعـدت وحدة ادارية واحدة يتسلم الوالي المعين لادارتها راتبا سنويا علـى شـكل ساليانة في حين ان هناك ما يدل على ان ولاية البصرة قسمت على ثمانية سـناجق هـي : المركز ، شرش ، قطيف ، غراف ، صـدر سـويب ، زكيـة ، محرزي ، قبـان ، وغالبيتهـا عبارة عن قلاع حربية فيهـا حاميات عسكرية مهيأة لمواجهة انتفاضات القبائل وتهديدات حكام ايران . ويشـير الدكتور خليل علي مـراد الى الاضطراب في تحديد التقسيمات الاداريـة للبصرة ، فيذكر ان عدد السناجق ارتفع الى سبعة وعشرين سنجقاً في الربع الاخير من القرن السادس عشر ومنها : حمار ، طاش كبرى ، بربـر ، القرنـة ، رحمانية ، نهر عنتر حارور ، مدينة ، قناسية ، ابو عرفة ، مدينة القلاع ، قلعة سعيد ، كوت داودية ، كوت ابو منصـور ، قلعة صالحية ، كوت بحـران ، قلعـة منصوريـة ، قلعة فتحية ، قلعة دخنة ، وغيرها من القلاع . ومن العسير تحديد مواقع هذه السناجق والقلاع كافة بدقة لاندثار الكثير منها خلال مدة لاتزيـد علـى القـرن ، بفعل الحروب والكوارث الطبيعية ، فأصبح لايذكـر في بدايـة القرن الثامن عشر من ولاية البصرة سوى : المركز وزكية وقبان وابـو عرفة وقلعة مدينة .

استمرت البصرة ولاية مستقلة يحكمها وال مثل غيرها من الولايات ، الا انها الحقت بولاية بغداد في ١١٤٦هـ ــ ١٧٣٣م حيث اصبح والي بغداد يعين عليها متسلما ينوب عنه في حكم المدينة . وظل الوضع الاداري للبصرة على هذه الصورة حتى منتصف القرن التاسع عشر حينما صارت ولاية قائمة تحت ادارة (باشـا) شبه مستقل وقد ضمت الاراضي الواقعة على شط العـرب والفرات

الى السماوة ، وعلى دجلة الى العمارة التي ادخلت ضمن حدودها وتشمل الحي وشط الغراف . وقد منح والي البصرة صلاحية الاتصال المباشر مع الباب العالي ، ولكنه في الشؤون العسكرية والمالية ظل يتبع والي بغداد . على ان الوضع الاداري للولاية لم يستقر كليا ، فاحيانا تلحق بولاية بغداد ثم تنفصل عنها فيلحق بها او تنتزع منها مناطق تقع بين المدينتين . ولكنها على نحو ماتبقىحتى في حالة انفصالها ولاية مستقلة ، تابعة لولاية بغداد التي يتمتع واليها بصلاحيات واسعة في ادارتها . فعلى سبيل المثال غدت البصرة عام ١٢٨٦هـ ـ ١٨٦٩م لواء تابعا لولاية بغداد ، تتبعه عدة اقضية هي : المركز ، القرنة ، والكويت ، وفي عام ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٥ م رفعت مرتبتها من لواء الى ولاية وصارت تشمل : القرنة ، الزبير ، العمارة ، سوق الشيوخ ، الناصرية ، كوت العمارة ، والكويت والاحساء (لواء نجد) . وفي عام ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م، انزلت درجتها مرة اخرى من ولاية الى متصرفية (لواء) عام ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م ، واستمرت حتى الاحتلال البريطاني عام ١٩١٤ م .

٤ ـ ولاية شهرزور (كركوك)

وطبق فيها نظام الاقطاع الحربي ، وقسمت على عشرين سنجقا خلال القرن السادس عشر ، ارتفع الى اثنين وثلاثين في منتصف القرن الحادي عشر الهجري (منتصف القرن السابع عشر) . وغالبية تلك السناجق قلاع تتحكم بالممرات المهمة ، بسبب طبيعة المنطقة العشائرية والتهديد الايراني المستمر لها ، وغالب اسمائها لا تعرف اليوم . وسناجق شهرزور هي : كركوك وكانت مقر الباشا ، اربيل ، حرير ، كيوى ، شمامك ، مخمور ، ابو رومان ، اوشتي ، باف ، برند ، بلقاص ، بيل ، شهربازار ، شهرزور ، عجور قلعة ، غازي كشان ، مركاوه ، مهربان ، هزارمرد ، رودين ، شميران ، قره داغ ، جاغان ، قزلجة قلعة ، بيبه ، زنكنة ، انجيران .

ومن الصعوبة وضع حدود دقيقة لولايات بغداد ، الموصل ، البصـرة ، شهرزور وذلك لعـدم الثبات الذي اتسمت به ، اذ كانت عرضـة لتغيرات مستمرة حيث يتم نقل قسم من السناجق من ولاية الى اخرى ، او زيادة عـدد سـناجق الولايـة نفسـها .

ان السناجق التي تتوزع الولايات تقسم على وحدات ادارية صـغيرة يطلق على كل منها قضاء . والاقضية تقسم على نواح وقرى صغيرة . ويدير الاقضية على نحو عام القاضي والصوباشي والسباهية الموجودون في القضاء. في حين يدبر النواحـي والقرى شيوخها الذين يسـمون كتخذا ، يعاونهـم نائب القاضي الموجود في الناحيـة .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، طبق على العراق نظام (تشكيل الولاية) الذي اصدرته الحكومة العثمانية عام ١٢٨١هـ — ١٨٦٤م. وقسم العراق بموجبه على ولايات ثلاث هي : بغداد والبصرة والموصل. وقسمت كل ولاية على عدد من الألوية وهذه بدورها قسمت على وحدات ادارية اصغر دعى كل منها بالقضاء ، والقضاء قسم على النواحي، وهذه انقسمت على أصغر الوحدات الادارية التي هي القرية . وتدار هذه الوحدات حسب تسلسلها من قبل : الوالي ، المتصرف ، القائممقام ، مدير الناحية ، والمختار .

الجهـاز الاداري :

استهدف العثمانيون من وراء تنظيم ولاياتهم عدم تركيز السلطات بيد مسؤول واحد تلافيا لظهور النزعات الانفصالية التي تراود ذلك المسؤول . ولهذا كانت هيئة الادارة في كل ولاية تتألف من : الوالي وموظفيه (الكتخداء المتسلم ، رئيس الكتاب ، الخزنه‌دار ، والقوات الخاصة) ، والدفتـردار (المسؤول المالي) واغا الانكشارية الذي يترأس قوات الدولة النظامـية الموجودة في مركز الولاية وقلاعها المختلفة ، والقاضي . والى جانب هؤلاء

يقوم ديوان استشاري يضم ابرز موظفي الولاية ووجوهها من السكان والمفتي ونقيب الاشراف .

١ ـ الوالي : وهو راس الجهاز الاداري للولاية وارفع منصب وأهمه فيه. فهو ممثل السلطان وسلطاته غير محدودة، بحيث كان الولاة الاقوياء يتجاوزون في كثير من الاحيان على اختصاصات الموظفين الكبار الاخرين في الولاية كالقاضي واغا الانكشارية ، وله حق مصادرة اموال الاشخاص الذين يرتاب بولائهم . ويتم تعيين الوالي او تجديد ولايته سنويا بفرمان (مرسوم) سلطاني يكتب بنسختين ، ترسل الاولى اليه وتحفظ الثانية في العاصمة استانبول . ومنذ اواخر القرن السادس عشر ، اصبح الوالي يحمل رتبة وزير ولقب باشا. وقد شاعت ظاهرة منح رتبة الوزير الى حكام الولايات المهمة ، غير انها في الواقع وظيفة شرفية يميز صاحبها بمنحه حق رفع ثلاثة اطواغ[1] ولهذا تسمى الولاية التي يحكمها وال برتبة وزير (باشوية) .

لم تكن هناك قاعدة ثابتة لتعيين الولاة او نقلهم فقد يقلد شخص معين المنصب وسيلة من وسائل المكافأة او التكريم او يحصل عليه لقاء رشوة معينة. وعلى نحو عام كان الوالي لا يظل في ولايته مدة تزيد على ثلاث سنوات (مع استثناءات نادرة) فمثلا حكم بغداد مابين عام ١٠٤٩و١١١٦هـ ـ ١٦٣٩و١٧٠٤م اربعة وثلاثون واليا.والهدف من وراء عملية التنقلات المستمرة، منع استقرار الوالي وتقوية علاقاته بالسكان والقوى الموجودة داخل ولايته، خوفا من ان يتعزز مركزه مما قد يدفعه طموحه الى التفكير بالانفصال.وقد أباحت التقاليد الادارية العثمانية للوالي ان يدخل في خدمته عددا من الاتباع وفقا لامكاناته (ايج أغاسي، جوخدار اغاسي، العلم دار، اضافة الى تشكيلات من القوات الخاصة كالدالاتية والتفنكجية) . ولتغطية نفقات الوالي في الولايات المطبق فيها اسلوب الاقطاع الحربي ، منح اقطاعاً من درجة (خاص) مثل الموصل وشهرزور . أما في ولايتي بغداد والبصرة ، فكان الوالي يتقاضى راتبا سنويا (ساليانه) .

اكتسب ولاة بغداد اهمية خاصة تفوق ولايات العراق الاخرى وتتوضح هذه الاهمية من جعلهم مسؤولين عن المناطق الكردية والبكوات الاكراد، كما كان لهم حق تعيين الموظفين دون الرجوع الى الباب العالي • وقد جاءت هذه الاهمية طبقا لما ذكرنا ، الى مكانة بغداد التاريخية ولدورها في التصدي للاطماع الايرانية ، حيث كان اغلب ضغط القوات الايرانية ، في معظم الحروب التي نشبت بين السلالات الايرانية والدولة العثمانية ، يقع على بغداد لكونها اهم مركز تسعى ايران الى احتلاله • وسلطة الوالي ودرجة هيمنته كانت تعتمد على شخصيته وقوته داخل الولاية وعلاقته المؤثرة فيها •

واهم واجبات الوالي المحافظة على الولاية وضمان ولائها للسلطة العثمانية وضبط الامن والنظام وحماية ارواح الناس وممتلكاتهم والعناية بتحصين القلاع والمدن ، وارسال الاموال المفروضة على الولاية الى العاصمة سنويا والمشاركة الفعلية في الحروب التي تنشب بين الدولة واعدائها من الدول الاخرى • وكان على الوالي ايضا ولاسيما في ولايتي بغداد وشهرزور مراقبة تطورات الاوضاع في ايران ، وارسال تقارير منتظمة الى الباب العالي حول ذلك • ولما كان من اهم واجبات الوالي المحافظة على الاوضاع الراهنة في الولاية فمن غير المتوقع منه احداث تغييرات اقتصادية واجتماعية لاصلاح الامور العامة • وكانت الحكومة العثمانية تطلع على شؤون الولايات عن طريق ارسال مبعوثين عنها في اوقات مختلفة لمراقبة احوالها وكتابة التقارير عن الاوضاع العامة فيها ومركز الوالي والتزامه بتنفيذ واجباته • على ان سلطات الوالي اخذت بالتقلص في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد حصرت وزارتا الداخلية والمالية، بموجب اوامر اصدرتها في سنة ١٣٠٣هـ ــ ١٨٨٥م الشؤون المالية كافة في الولاية بيد مدير مالية الولاية (الدفتردار) • كما قلصت سلطات الوالي على كثير من الدوائر التي كانت تدار من استانبول مباشرة وهي ماعرفت بالدوائر الامبراطورية ، واقتصرت واجباته على التنسيق فقط • وكانت تلك الدوائر تضم : دائرة العدلية ودائرة تسجيل

الاراضي ومصلحة الصحة ومصلحة التعليم ودائرة الدين العام ودائرة الكمارك ودائرة الاوقاف وادارة الاملاك السنية • فكان رؤساء تلك الدوائر يرفعون تقاريرهم الى الحكومة المركزية مباشرة كما كانوا يتلقون اوامرهم منها •

وكان هناك عدد من الموظفين يتسلمون رواتبهم من الوالي وهم : الكتخدا ، المتسلم ، رئيس الكتاب ، الخزنه دار •

الكتخدا او الكهية

- وهو مساعد الوالي ومعاونه في الشؤون الادارية والعسكرية والمالية المختلفة، او اي أمر من الامور التي يكلفه بها • وله مقر خاص يعرف بدار الكتخدائية، ومصيره مرتبط بمصير الوالي • ويلاحظ انه كثيرا ماتختلط اختصاصات الكتخدا باختصاص رئيس ديوان الانشاء او بمهام المتسلم • حيث حل الاخير محله بشأن النيابة عن الوالي عند غيابه او وفاته ، واخذ الاول مكانه في المجالين الاداري والعسكري ، فكتب الرسائل وقاد الجيوش حتى غدا كلا المنصبين واحدا • وسلطات الكتخدا ترتبط بشخصية الوالي ، فاذا كان قويا تضمحل سلطته ، اما اذا كان الوالي ضعيفا فان قوته تزداد • والمنصب بمثابة الدرجة الاخيرة في السلم للوصول الى مرتبة الوالي ، فصاحبه مؤهل بصفة عامة للتعيين بذلك المنصب • وتعرض هذا المنصب الى تغيرات مستمرة في القرن التاسع عشر ، حيث الغي عام ١٢٨٩هـ ــ ١٨٧٢م واعيد عام ١٢٩٨هـ ــ ١٨٨٠ م والغي مرةاخرى بعد سنة واحدة، وظل ملغيا حتىعام ١٣٢٥ هـ ــ ١٩٠٧ م ، حينما صدر مرسوم سلطاني باعادته • وحددت واجبات معاون الوالي بالنظر في المراسلات التي ترد الى الوالي من دوائر الولاية وغيرها من المراسلات التي يخوله الوالي النظر فيها ، وتقديم خلاصة بتلك المراسلات •

المتسلم :

نائب الوالي واشبه مايكون بولي عهد مؤقت • يقوم (بتسلم) مهام ادارةالولايةعند غيابواليها لأي سبب،وتعيينه يأتي من الوالي نفسه دون الرجوع

الى سلطة اعلى • وقد يعين لحكم منطقة او سنجق نائبا عن الوالي اي بمثابة قائمقام مثل متسلم البصرة الذي كان يعينه والي بغداد حينما تحولـــت البصرة الى (متسلمية) تابعة لبغداد • والمتسلم عادة شخص يتولى مقاليد الامور بين عزل الوالي ووصول الوالي الجديد • وفي هذه الحالة اما ان يرسله الوالي الجديد، او ان يقوم وجوه الولاية واعيانها باختيار متسلم حتىوصول وال جديد •

رئيس الكتــاب :

(ديوان افنديسي) : وهو بمثابة امين سر الوالي للشؤون الكتابيــة ويرأس مايعرف بديوان الانشاء ، وهو جهاز يتبع الوالي مباشرة ويضم مجموعة من الكتاب والمترجمين، ويختص بتحرير كتب الوالي ورسائله باللغات المتداولة وتسجيل الاوامر الحكومية الواردة للولاية وحفظها • واشتملت واجباته في القرن التاسع عشر على مراسلات الولاية ، واعداد (السالنامات) وهي التقارير التي كانت تصدرها الحكومات المحلية في الولايات سنويا • واصبح يطلق عليه تعبير (مكتوبجي) او مدير مراسلات الولاية •

الخزنه دار :

وهو الموكل بخزانة الوالي وضبط وارداتها ومصروفاتها ، ويشرف على امور شتى منها تسجيل الفرمانات الواردة للولاية ، وتسجيل مقدار الضرائب المفروضة على القرى وتثبيت مقدار ما استحصل منها •

الدفتردار :

وهو المسؤول عن ادارة المالية في الولاية وعصب النظام المالي القائم على الالتزام • ووظيفته منفصلة عن سلطة الوالي ، ويعين مباشرة من الباب العالي بفرمان سلطاني شأنه شأن الوالي أو القاضي • وكان للدفتردارية في الولايات

العراقية دائرة خاصة تعرف بـ (الدفترخانة) مستقلة عن سراى الوالي . ويعد الدفتردار ممثلا للسلطان في الشؤون المالية للولاية ، واجبه ضبط حساباتها، ولهذا يحتفظ بالدفاتر والسجلات التي تبين الموارد المالية للولاية سواء كانت اموالا سائلة او عينية ، ومقدار الاموال المحصلة والمنتظر انفاقها والفائض والاحتياطي ، وكيفية الحصول على موارد مالية اخرى في حالة حدوث عجز في ميزانية الولاية . ولكن الى جانب التخصص المالي نجد بعض الدفتردارية يشاركون في العمليات العسكرية . واستقلال سلطة الدفتردار عن الوالي لم تكن تراعى دوما ، حيث تمكن بعض الولاة من السيطرة على الامور المالية في الولاية جميعاً ، حتى لم يبق للدفتردار من دور مهم يقوم به ، مثلما حدث في ولاية الموصل خلال حكم اسرة ال الجليلي (١١٣٩ ـ ١٢٥٠هـ / ١٧٢٦ ـ ١٨٣٤م) الذين اخذوا على عاتقهم مسؤولية جمع الضرائب وارسال الاموال المطلوبة الى العاصمة سنويا ويساعد الدفتردار موظف يسمى (روزنامجي) واجبه مسك السجل الخاص بالوارد والمصروف، اي انه بمثابة كاتب حسابات الدفتردار. وفي القرن التاسع عشر ، أصبح مدير مالية الولاية (الدفتردار) مسؤولا عن حسابات الولاية كافة ، وكان من واجباته ان يبلغ الوالي عن اية مخالفة مالية يرتكبها موظفو الولاية وان يعرض رأيه عليه في الامور التي تتعلق بتعيين او عزل المحاسبين ومدراء المالية . وغدا الدفتردار (مدير المالية) هو المرجع الوحيد لكل ما يتعلق بالشؤون المالية في الولاية .

مجالس الادارة :

من التطورات المهمة التي حدثت في الجانب الاداري في اواخر القرن التاسع عشر تشكيل مجالس ادارية في الولايات العراقية ووحداتها الادارية : السنجق (اللواء) والقضاء . وتألف مجلس ادارة الولاية من اعضاء طبيعيين واعضاء

منتخبين • والاعضاء الطبيعيون في مجلس ادارة الولاية هم : القاضي ، مدير المالية ، مدير مراسلات الولاية ، المفتي ، ونقيب الاشراف واحيانا معاون الوالي • اما الاعضاء المنتخبون فكان يتم انتخابهم من لجان خاصة تعرف بلجان التفريق، ومن بين الرجال الحائزين على ثقة المواطنين، على ان لا يكونوا من اقارب اعضاء مجالس الادارة الطبيعيين • وكان عدد هؤلاء يتراوح مابين اربعة الى ستة اعضاء في المجلس • وتنعقد مجالس الادارة اربع مرات سنويا برئاسة رئيس الوحدة الادارية • واشتملت اعمالها على اجراء المبايعات والمقاولات الحكومية ، وتدقيق واردات الولاية ومصروفاتها ، والنظر في امور الضرائب ومتابعة الخدمات العامة ، والنظر في الشكاوى التي يقدمها المواطنون ضد تصرفات الموظفين •

والى جانب تلك المجالس المحلية يقوم مجلس الولاية العمومي في مركز كل ولاية ويتألف من اربعة اعضاء منتخبين من كل سنجق (لواء) ويعقد دورة واحدة سنويا تدوم اربعين يوما برئاسة الوالي او من يخوله من كبار الموظفين في حالة غيابه • واهم واجباته النظر في وسائل تحسين الاوضاع الاقتصادية في الولاية ونشر الثقافة فيها والنظر في امور الضرائب وانشاء ابنية الخدمات العامة واصلاحها وصيانتها ، وفتح الطرق وتشييد الجسور • ومع ان وظيفة المجلس استشارية ، الا ان الوالي مسؤول عن نقل توصياته الى الحكومة العثمانية لاستحصال الموافقة عليها •

السلطة القضائية :

نظرت الدولة العثمانية الى مرفق القضاء نظرة موضوعية ، ولم تسمح لغير المؤهلين علميا بتقلد مناصبه ووضعت نظاما دقيقا لتعيين القضاة وترقياتهم وتنقلاتهم ومتابعة اعمالهم • بل جرت محاولات لم يقدر لها الاستمرار من اجل اجراء امتحانات للقضاة عند كل تعيين جديد • ويمكن القول استنادا الى ذلك،

ن القضاء كان اكثر نفاذا وبقاء في الولايات العثمانية من النفوذ السياسي او العسكري للدولة في تلك الاقاليم •

وكانت المحاكم تنظر انواع القضايا المختلفة ، سواء كانت مدنيـة او جنائية • وكان القضاة يفصلون في القضايا في ضوء ثلاثة مبادىء اساسية هي:

أ ــ الشريعة الاسلامية وفق المذهب الرسمي للدولة وهو المذهب الحنفي ،

ب ــ القانون نامة (ملخصات الفرامين واوامر السلاطين التي تتعلق كل منها بحادثة او قضية معينة) وهي مجرد تذييل للشريعة وليست بديـلا عنها ،

جـ ــ العرف • وكان لابد ان يكون حنفيا القاضي الذي توفده الدولة العثمانية الى ولاياتها ومنها العراقية لاشغال منصب القضاء • وكان القضاة يحصلون على دخلهم من مصدرين : الاجور اليومية التي تمنحها الدولة للقضاة في اثنـاء خدمتهم الفعلية كل حسب درجته ، والرسوم القضائية على مختلف القضايا التي تعرض عليهم وتعرف باسم (اجرة صكوك) والغرامات التي يحكمون بها، وكلا المصدرين يدران ايرادا وفيرا •

وكان منصب قاضي بغداد اعلى المناصب القضائية وارفعها في الولايات العراقية ، وتصنف مرتبته ضمن المراتب القضائية العليا في الدولة المعروفة التي يطلق عليها (المولويات الصغار)[٢] الذين كان قضاتها من خريجي المدارس الدينية العليا الموجودة في استانبول ، ولم يكن يمنح هذا المنصب الا لمـن قضى مدة طويلة في الدراسة واثبت كفاية ونزاهة في اصدار الاحكام • وكانت صلاحية تعيين قضاة بغداد وعزلهم تعود الى قاضي عسكر الاناضول[٣]،ويقترن بصدور فرمان سلطاني يحدد فيه صلاحياتهم وواجباتهم كافة • وكانت خدمة القاضي دورية ومحددة بسنة واحدة قانونا ، حيث ينقل بعدها الى محـل اخر بدرجته نفسها ، او يرقى الى مرتبة اعلى • الا ان هذه القاعدة لم تكـن مطلقة كليا ، حيث تولى بعض قضاة بغداد مناصبهم بضعة اشهر ، في حين امضى قضاة اخرون في مناصبهم مدة تزيد على السنة • على ان انتهاء مدة خدمة

القاضي في الولاية ، لا تعني عدم عودته اليها ثانية ، حيث يمكن للقاضي ان يعين اكثر من مرة بالمنصب ذاته .

وكان قضاة الولايات العراقية الاخرى (الموصل والبصرة وشهرزور) من فئة القضاة العاديين الذين يشكلون الغالبية العظمى من عدد قضاة الهيئة التشريعية ، وحددت مدة بقائهم بسنة واحدة ايضا . اما في المدن الصغيرة فيشغل المنصب القضائي مسؤول يطلق عليه نائب القاضي ، وينظر في القضايا بأسم القاضي الذي انابه . علما بأنه كان هناك نواب قضاة الى جانب القاضي في مراكز الولايات يساعدونه وينوبون عنه ويصدرون احكامهم في قضايا شتى عند مرضه أو تغيبه . والنائب لا يتقاضى مرتبا من الحكومة ولكنه يحصل على ايرادات كبيرة من حصيلة الغرامات المالية التي كان يحكم بها على المخالفين . والجدير بالذكر ان حصول النائب على منصبه يتم بواسطة نظام الالتزام، كما ان على القاضي الحصول على مصادقة قاضي العسكر عند اختياره لنوابه . وطريقة الالتزام في تعيين نواب القاضي أثرت سلبيا في هيكل النظام القضائي ، حيث اصبح النائب الذي حصل على منصبه بالالتزام لا يفكر الا بالحصول على اكبر قدر من المال ، ويتم ذلك في كثير من الاحيان على حساب العدالة .

كانت سلطات القاضي واسعة جدا في منطقته القضائية ، فهو المكلف بتطبيق الاحكام الشرعية بين الناس ، بل وكان من المفترض فيه ان يراقب اعمال الوالي نفسه والنظر في مطابقتها للشريعة . وكان عليه النظر في الدعاوى والفصل فيها ومعالجة القضايا الشرعية الاخرى مثل تقسيم التركات وعقود الزواج وتنفيذ الوصايا ، ويشرف على امور الضرائب ومدى مطابقتها لما هو مسجل في سجل المحكمة الشرعية . ولهذا نلاحظ ان معظم المراسيم التي تخص الشؤون المالية كانت توجه باسم الوالي والقاضي والدفتردار . ومن واجباته المهمة تسعير السلع والمواد الغذائية في الاسواق ومراقبة التقيد بها.

كما كان يمارس نوعا من الاشراف على الامور الادارية في الولاية او السنجق الذي يعمل فيه وكان عليه حال انتهاء خدمته في الولاية تقديم تقرير الـــى المسؤولين في استانبول يبين فيه اوضاع المنطقة التي انهى خدمته فيها .

المفتـــي :

شكل المفتون قطاعا مهما في الهيئة التشريعية الاسلامية ، ويقومون بمهام منصبهم بجانب القضاة ولكنهم ادنى منهم درجة . ويظل المفتي فيمنصبه مدى الحياة ، ولاتحاط وظيفته بأي نوع من انواع المظهرية التي كانت تحاط بها المناصب الاخرى في الولاية . ومهمة المفتي اصدار الرأي القانوني في المسائل التي يطلب منه بحثها . فيعكف على دراستها ، ثم يسجل رأيه كتابة على ورقة معدة ومختومة من قبل . والرأي الذي ينتهي اليه يسمى (فتوى) ومع ان غالبية المفتين يعملون في المدن الرئيسة مع القضاة ، نجد بعضا منهم الى جانب رجال الحكم في الولايات مستشارين مدنيين .

الهوامش

(١) جمع طوغ ، وهو ذيل حصان معلق في سارية وفي اعلاها كرة من النحاس المطلي بالذهب . وكان كبار رجال الدولة العثمانية يتميزون بعدد الاطواغ التي ترفع امامهم في المواكب والاحتفالات الرسمية . فكان للسلطان تسعة اطواغ ، وللصدر الاعظم خمسة ، والوزير ثلاثة ، والسنجق بك (ميرلوا) مابين واحد الى طوغين .

(٢) كان القضاة يتدرجون تحت فئات سبع هي : قاضي القضاة او قاضي عسكر ، المولا الكبير (مولا بيوك) ــ من كلمة مولى العربية وتعني السيد ــ واقتصرت فئة المولا الكبير على سبعة عشر قاضيا بضمنهم قاضي عسكر الروملي وقاضي عسكر الاناضول ، يتولون مناصبهم في مدن الصف الاول ، ويشغلون مناصبهم القضائية مدى الحياة . والمولا الصغير (مولا كوجوك) ، المفتش القاضي ، النائب . وان كان الاسم العام للقاضي بصرف النظر عن درجته هو القاضي ، ولكن كان التعبير الذي يطلق على كل منهم احتراما وتقديرا هو المولا . وصنفت بغداد ضمن عشر مدن كبيرة يلي قضاءها القضاة من فئة المولا الصغير ، والمدن هي : مرعش ، بغداد ، بوسنة سراى ، صوفيا ، بلغراد ، عنتاب ، كوتاهيه ، قونيه ، فيلوبوليس ، وديار بكر .

(٣) منذ اواخر القرن الخامس عشر ، وجد في الدولة منصبان قضائيان ساميان يحمل كل منهما لقب قاضي عسكر مع اضافة الاسم الجغرافي الذي يحدد مناطق ولايته القضائية الى اسمه وهما : قاضي عسكر الروملي ، واختصاصه تعيين القضاة الذين يعملون في اوربا ، وقاضي عسكر الاناضول ، ويمارس مثل هذا الاختصاص فيما يختص بالاقاليم العثمانية في آسيا . وكان هذان القاضيان الكبيران يليان شيخ الاسلام (اعلى منصب في الدولة بعد السلطان) في المرتبة .

المراجـــع

ابن تغري بردي : جمال‌الدين ابو المحاسن :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ٧ ، طبعة مصورة ـ دار الكتب المصرية ، القاهـرة .
ابن الفوطي ، عبدالرزاق ـ منسوب له :
كتاب الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، تحقيق د. مصطفى جواد ، بغـداد ، ١٣٥١ هـ .
ابن اياس ، محمد بن أحمد :
بدائع الزهور ووقائع الدهور ، مصر ، ط١ ، ١٣١١ هـ .
البدليسي ، شرف خان :
شرفنامه ترجمة : محمد علي عوني ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٢ .
ابو الفدا ، عمادالدين اسماعيل بن علي :
المختصر في تاريخ البشر ، ٧ أجزاء ، بيروت دار الكتاب اللبناني .
احمد ، ابراهيم خليل :
تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦ ـ ١٩١٦، الموصل، ١٩٨٣ .
التشكيلات الادارية والعسكرية في ولاية الموصل اواخر العهد العثماني ، مجلة بين النهرين ، السنة العاشرة العددان ٣٧ـ٣٨ ، ١٩٨٢ .
جب ، هاملتون وهارولد بويون :
المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة : د. احمد عبدالرحيم مصطفى ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٧١ .
الحصري ، ســاطع :
البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٧٥ .
حسن ، جاسم محمد :
العراق في العهد الحميدي ١٨٧٦ـ١٩٠٩ ، رسالـة ماجستير ، كليـة الاداب ، جامعة بغـداد ، ١٩٧٥ .
خصباك ، د. جعفـر :
العراق في عهد المغول الايلخانيين ١٢٥٨ـ١٣٣٥ ، بغداد ، ١٩٦٨ .
رافق ، د. عبدالكريم :

العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦ ، دمشق ١٩٧٤ .
رؤوف ، د. عماد عبدالسلام :
الموصل في العهد العثماني فترة الحكم المحلي ، ١٧٢٦-١٨٣٤ ، النجف ، ١٩٧٥ .
حكام العراق وموظفوه في عهد المغول الايلخانيين ، مجلة المؤرخ العربي العدد ١١ .
سركيس ، يعقوب :
مباحث عراقية ، جزءان ، بغداد ، ١٩٥٥ .
الشناوى ، د. عبدالعزيز :
الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، جزءان، القاهرة، ١٩٨٠ .
العاني ، نوري عبدالحميد :
العراق في العهد الجلائري ١٣٣٧ - ١٤١١ ، رسالة ماجستير ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦ .
العزاوى ، عباس :
تاريخ العراق بين احتلالين ، ٨ اجزاء ، بغداد ، ١٩٣٥-١٩٥٦ .
علي ، علي شاكر :
العراق في العهد العثماني ١٦٣٨-١٧٥٠ ، رسالة ماجستير ، كلية الاداب، جامعة بغداد ، ١٩٧٦ .
الغياثي ، عبدالله بن فتح الله البغدادي :
التاريخ الغياثي ١٢٥٨ - ١٤٨٦ ، تحقيق طارق الحمداني بغداد ، ١٩٧٥ .
فريد ، محمد فريد :
تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، اوفست ، ١٩٧٧ .
القزاز ، د. محمد صالح :
الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ، النجف ، ١٩٧٠.
القهواني ، حسين محمد :
العراق بين الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ١٥٣٤-١٦٣٨ ، رسالة ماجستير ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ١٩٧٥ .
القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي :
صبح الاعشى ، ج٤ ، القاهرة ، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية .
لونكريك ، ستيفن همسلي :
اربعة قرون من تاريخ العراق ، ترجمة جعفر خياط ، بغداد ط ٥ ، ١٩٦٨ .

مراد ، خليل علي :
تاريخ العراق الاداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني ١٦٣٨ — ١٧٥٠ ، رسالة ماجستير ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ١٩٧٥ .
مهاوى ، جاسـم :
الغزو التيمـوري للعـراق واثاره السياسية ١٣٨٥ـ١٤٠٥ ، رسـالة ماجستير ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦ .
نوار ، د. عبدالعزيز :
تاريخ العراق الحديث ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
نورس ، علاء موسى كاظم :
حكم المماليك في العراق ، بغداد ١٩٦٨ .

Cook, M.A., ed., A History of the Ottoman Empire to 1730, Camridge, 1976.

Creasy, Edward, History of the Ottman Empire, Beirut, rep., 1961.

Inalcik, Halil, The Ottoman Empire, London, 1973.

Lyber, Albert, The Government of Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent, N.Y., 1966.

Shaw, Stanford. J., History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol. I, Camridge, 1977.

الفصل الثاني

الجيش

المبحث الأول

القوى والمؤسسات العسكرية

د. عماد عبد السلام رؤوف

مركز احياء التراث العلمي العربي ـ جامعة بغداد

كان انهيار المؤسسة العسكرية الفعلي امام المغول في معركة دجيل (٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م) قبل ايام من اسقاط الخلافة العباسية ، يمثل ضياع آخر فرصة لان تتولى القوات المسلحة في البلاد دورا في مقاومة المحتلين ومن هنا فقد انتقل مركز ثقل المقاومة الى الشعب مباشرة ، ليتولى امر الدفاع عن ارضه وامنه من عبث الغزاة في صيغ غير منتظمة على نحو قانوني محدد ، فكانت المقاومة الشعبية المسلحة في المدن والقرى والبادية على حد سواء ، ولقد اتخذت المقاومة في المدن ، نظرا للوجود المغولي الكثيف فيها ، اسلوب

تصفية المتعاونين مع السلطة المحتلة ، كما حدث سنوات ٦٦٨/١٢٦٨ و ٦٨٧/ ٢٨٨م و ٦٩٠/١٢٩٠م والقيام بالانتفاضات العامة ضدها كلما واتت الفرصة لذلك كما حدث في الموصل بقيادة مجد الدين ابن بد الدين لؤلؤ سـنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م ، اما في خارج المدن فقد اتخذت المقاومة مظاهر اكثر عنفا وبأسا يساعدها على ذلك وجود القبائل القوية هناك وكان دور هذه القبائل قد شهد تأكيدا مستمرا منذ اواخر العصر العباسي نفسه ، الى الحد الذي جعل القيادة العسكرية العباسية تستعين بها في الملمات ، وبخاصة ازاء ماكان يداهم البلاد من اخطار خارجية في ذلك العهد ، فكـان طبيعيا ان اصبحت (القبيلة) ابان عهد الاحتلال ، هـي المجال الوحيد تقريبا الذي تتمثل فيه المقاومة المسلحة في الريف وفي البادية ايضا • وتمكنت بعض القبائل العربية من طرد الوجود المغولي من مناطق عديدة وقصره على المدن الرئيسية حتى تقيم قواته فحسب من ذلك ان قبيلة ال فضل الطائيين التي كانت تنزل الفرات وتسيطر على منطقة الجزيرة وبادية الشام نجحت عن طريق فرضها وجودها القوى في تحرير مناطق واسعة من غربي العراق من نير الاحتلال الاجنبي كان منهـا مدن مهمة وقرى زراعية غنية وبوادي شاسعة ، واهم من ذلك ان تلك القبائل العربية استطاعت بقواها العسكرية ان تحافظ على الطريق التاريخية الرئيسة التي كانت تربط العراق بسائر بلاد المشرق العربي مفتوحة ، مما سهل لدولة المماليك في مصر والشام وهي الدولة الوحيدة التي ظلت مستقلة حتـى ذلك العهد ، ان تمارس ضغطا عسكريا غير يسير على السلطة المحتلة في العـراق وصل الى حد محاولتها اعادة الخلافة العباسية فيه عن طريق القوة المسلحة ، والتعاون مع ثوار العراق حيثما امكن ذلك وهو ماحدث في الموصل مثلا ، ومن المؤكد انه لو لم تكن هذه القبائل على مستوى عال من الضبط العسكري وحسن التسليح وكثرة المقاتلين والروح العسكرية لما تمكنت من تحريرها لاجزاء كبيرة من العراق واجبار السلطة المحتلة على القبول بها كحقيقة قائمة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا دون ان تتمكن من القضاء عليها •

واصبح الالتحاق بهذه القبائل يمثـل المجال الوحيد للذين يريـدون الابتعاد عن بطش السلطة وقهرها ، فضلا عن الذين يتصدون بقواهم الذاتية وسلاحهم ، فتعاظم دور القبائل العسكري في الحقبة اللاحقة وزاد نفوذها واتسعت دائرة ما تسيطر عليه من مناطق حتى لم يبق تحت احتلال السلطة الاجنبية في العهد الجلائري (٧٣٩ ـ ٨١٤ هـ /١٣٣٨ ـ ١٤١٠ م) الا بعض المدن الرئيسية فقط وتمكنت قوى عربية قبلية من الاحتفاظ بالحلة مستقلة عن سلطة الاحتلال ، رغم قربها من بغداد مدة تقرب من ربع قرن (٧١٦ ـ ٧٤٠هـ / ١٣١٦ ـ ١٣٣٩م) ولم يكن ذلك الا بسبب ماكان تحت تصرفها من قوات مسلحة حسنة العدة والعدد ، بل ان هذه القوات اصبحت هي المسؤولة عن تأمين سلامة الحجاج وطريق الحج ، وليست سلطة المحتل نفسها . وتكشف ضراوة مقاومتها محاولات الجلائريين من شدة باسها ووفرة قواتها وتأصل الروح العسكرية فيها ، اذ انها استمرت بالمقاومة ، رغم ان الظروف لم تكن في صفها ، وتحولت مقاومتها في المدن احيانا الى حرب شوارع حقيقية .

وعندما انتفضت بغداد ضد السلطة الجلائرية المركزية سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م كان للقبائل الطائية بما تملكه من قوات مسلحة فعالة ، دور مهم في اسناد هذه الانتفاضة ودعمهـا .

وعلى الرغم مـن ظروف الفوضى والاضطراب والاحتـلال الاجنبي المستمر ،فقد اثبتت القبيلة العراقيـة انها القوة الوحيدة التي ظلـت تحتفظ بالتدريب وبالقيم العسكرية والروح القتالية . ولم يكن ثمة فرق بين القبيلة وجيشها فالجميع يحملون السلاح اذا ما داهم امر ، وعليهم اتقان فنون الحرب وادارة المعارك ، وتصنيع قطع السلاح الضرورية ، بل كان مجرد اطلاق زعيم القبيلة نداء الحرب (الصيحة) المميزة لقبيلته ، حتى تصبح كلها كجسم واحد متهيء لممارسة القتال ، فرسانا ومشاة يتقلدون مختلف الاسلحة من الرماح الطوال والقصار والسيوف والقسي والنشاشيب ، وكانوا يقيمون حسـك

الحديد (الاسلاك الشائكة) لحماية (ديرتهم) ويبنون القلاع و (المفاتيل) (ضرب من الحصون الريفية) ليتحصنوا فيها ويحموا فيها اهل الارض والفلاحين حولهم ٠

ولما لم تكن القبائل لتعترف بسلطة الاحتلال في البلاد ، فانها كانت تأبى دفع اية ضرائب لها ، وهذا ماكان يجعلها على الداوم عرضة لخوض صراع مسلح ضدها حتى لقد اخذت هذه القبائل تتكاتف فيما بينها لتؤلف من قواها العسكرية جيوشا كبيرة نسبيا اقلقت الاجانب وتصدت للغزاة ، ففي اثناء فترة الاحتلال الفارسي الصفوي للعراق (٩١٤ ـ ٩٤١هـ / ١٥٠٨ ـ ١٥٣٤م) كانت البصرة واجزاء من العراق الجنوبي مستقلة تحت حكم امارة المنتفق العربية ، وكان حوض الفرات الادنى تحت سيادة قشعم وحوض الفرات الاعلى والاوسط تحت زعامة آل ابي ريشة القوية وعندما احتلت الدولة العثمانية العراق اعترفت ببقائه القانوني تحت سيطرة تلك القبائل ، وكل ما فعلته انها منحت بعض زعمائها القابا رسمية عثمانية في محاولة لاكساب نفوذهم المستقل شكلا مركزيا رسميا ٠

أما المشاة (الانكشارية) فقد توزعت افواجهم (اورطاتهم ـ جمع اورطة) العسكرية في المدن الرئيسة في داخل البلاد كبغداد والموصل والبصرة ، وفي بعض القصبات الحدودية الشرقية ، ورغم قلة عدد الفوج الواحد الذي يقدر بنحو ٣٠٠ الى ٥٠٠ شخص فان تخصص هذه الافواج باستخدام السلاح الناري واحتكارها له في عهودها الاولى جعلها ذات اهمية كبيرة في التاريخ العسكري للعراق وبخاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وكان معظم منتسبيها من المشاة حاملي الاسلحة النارية الخفيفة وبعضهم من المدفعية (الطوبجية) اضافة الى مسؤولي التموين (اكمك جية) والنقل ، ومايتصل بذلك من خدمات ، وعن طريق هذه الافواج عرف العراق المدفعية الثقيلة لاول مرة في تاريخه ، وترددت في مصادره المعاصرة ، اسماء انواع من المدافع مثل

ابو خزامة والعاون وباليمز والزنبرك واليان صاجمة وقوفوش والمدافـع القالعـة ٠

ولما كان العراق يمثل المنفذ الوحيد للدولة العثمانية، على الخليج العربي، فقد انشئت في البصرة قاعدة بحرية يتألف منتسبوها من جند انكشاريين مختصين بشؤون القتال في البحر ، بامرة ضابط كبير يدعى (قبودان باشا) ، وكان في البصرة اسطول من السفن العسكرية البحرية والنهرية ذوات انواع مختلفة كالاغربة (جمع غراب) والتكنات (جمع تكنة) والغلافات (جمع غلافة) زود بعضها بالمدفعية ٠ وكان ينفق على هذا الاسطول مـن واردات بعض المقاطعات الكبيرة في ولايتي بغداد والبصرة ، باعتبار ان قائده (القبودان باشا) هو المسؤول عن حماية سواحل العراق وانهاره الرئيسة ، الا ان هذه المسؤولية الخطيرة انيطت فيما بعد ، بوالي بغداد نفسه ، الذي ربط به امر قائد الاسطول مباشرة ٠

على ان عوامل الضعف التي ساعدت على تدهور الدولة العثمانية سياسيا ، كانت نفسها التي ادت الى اضعاف قواتها العسكرية واضطراب سبل امداد تلك القوات بالجند ، فان مرابطة تلك القطعات في مناطق العراق القاصية عن الدولة المركزية ، ومتطلبات الوضع السوقي الخاص للبلاد ، جعلت القوات أمام خيارين ، أولهما التأقلم على البيئة العراقية بوصفها قوات تأتمر بامـر الولاة المحليين لا الدولة المركزية ، وتخضع في شؤونها الادارية والمالية لسلطان الولاية مباشرة ، وثانيهما فتح الباب امام العراقيين للانخراط في سلك هذه القوات كوسيلة تعويض النقص الموجود فيها ، ولقد التقى ذلك التغير ، بما كان يجرى في المجتمع العراقي نفسه من تطور ذاتي مستمر ، فهذا المجتمع الذى اخذ يشهد منذ القرن الثامن عشر بروز فئات الحرفيين والتجار ، وتنامي مصالحها الاقتصادية قد وجد نفسه بحاجة الى ضمانات كافية تمنح تلك الفئات الفرصة لادارة شؤونها بنفسها بعيدا عن تعدي السلطات وبطشها ، ولذا فقد

انخرط عراقيون عديـدون ، من حرفيي المدن وتجارها في سـلك القـوات الانكشارية ، جاعلين من نظمها وصلاحياتها القشرة الضرورية التي يتمكنون من ورائها المحافظة على مصالحهم وممارسة التأثير على السلطة من خلالها ، حتى ان بعض السياح الذي أقاموا ببغداد في اواخر القرن الثامن عشر لاحظ ان معظم الانكشارية فيها كانوا من السكان الذين يقومون بممارسة التجـارة والصناعة وان افواج الانكشارية في البصرة اصبحت تمثل قطاعات المجتمع البصري كافة ، من الاغوات والتجار والملاحين والحمـالين وغيرهم ، اما في الموصل فلم تعد افواجها الخمسة الا سكان الموصل انفسهم يرتدون ملابس عسكرية ، وبهذا اكتسبت هذه الافواج نفس مؤثرات بيئتها الاجتماعيـة ، وكلما ازداد اندماجها في خضم الحياة العامة ، اخذت تتشكل بحسب الاحوال التي كانت سائدة في المدن والاحياء التي سكنت فيها •

بيد ان احتفاظ اولئك المنضوين تحت لواء الانكشارية بحرفهم السابقة قد جعل تنظيماتهم الحرفية (الاصـناف) تطغى على التنظيمات العسكرية نفسها ، وبذلك فقد فقدت هذه المؤسسة طابعها واهدافها الا قليلا ، وتلاشى ماكان معهودا فيها من ضبط ودقة في تنفيذ الاوامر ولم يعد قادتها (اغوات الانكشارية) يستجيبون لاوامر الولاة الا فيما يحقق مصالحهم • كما انهم من ناحية اخرى لم يعودوا يمثلون ارادة افراد مؤسستهم الا عند شعورهم بما يهدد بقاءهم في مناصبهم ، ولذلك فقد زاد ما كان يدفعه اولئك المنضوون في تلك المؤسسة من رشى الى اغواتهم واتباعهم دفعا لضررهم وحماية لمصالحهم• وفي الوقت نفسه كانوا يلتفون حولهم كلما احسوا باحتمال الغاء تنظيماتهم خشية من تعرض مصالحهم ـــ ان هي الغيت ــ الى الخطر من طرف الدولة المركزية أو ولاتها في العراق وتكرر تمرد قادة هذه المؤسسة مطالبين بتولي السلطة السياسية كاملة ، كما حدث اثناء فتنة بكر صوباشي رئيس الشرطة ببغداد سنة ١٠٢٩هـ / ١٦١٩م ، أو بالمشاركة فيها كما حـدث في عهد والي

بغداد محمد باشا الخاصكي سنة ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م وحينما حاولت القضاء على نفوذهم المتزايد سنة ١٠٨٩هـ/١٦٧٨ م باستبدال قادتهم ، اعلن هؤلاء الاضراب العام ، وقتلوا الاغا الجديد اظهارا لاحتجاجهم على هذه المحاولة ، فاظهر ذلك مدى ما وصلت اليه هذه القوات من نفوذ وسطوة واستقلال •

وما ان حل مطلع القرن الثامن عشر حتى ظهر جليا للجميع ان وضعـا عسكريا رخواً كهذا من شأنه ان يؤدي بالعراق كله ان هو تعرض الى أي خطر خارجي كما ان من شأنه ان يعيق محاولات بسط الامن والاستقرار في الداخل • وكان من الواضح ان أي حل مركزي لهذه الازمة يأتي من جانب الدولة العثمانية ليس هو الحل المناسب لما كان يمر به العراق من ظروف سياسية واجتماعية هي جزء مما كان يشهده الوطن العربي كله في تلك الحقبة ، وانه لابد للحل المناسب ان يكون عراقيا نابعا من تقدير سليم لوضع العراق وظروفه الخاصة وامكاناته الذاتيـــة •

ولما كانت القبيلة العراقية تشكل القوة العسكرية الفعالة الوحيدة خارج نطاق السلطة الرسمية ، فقد اضطر الولاة الى زيادة اعتمادهم على امكاناتها العسكرية في اعمالهم المختلفة ، ولكنهم ـــ في الوقت نفسه ـــ كانو يعمدون الى ضربها وتفتت تكتلها كلما شكلت خطرا على سلطاتهم ولذلك فقد كثرت حوادث الانتفاضات المسلحة لهذه القبائل بين حين وآخر (الجوازر ١٠٦٧ ـــ ١٠٨٩ هـ/١٦٥٦ ـــ ١٦٧٨ م) ، العرجة والســـماوة والجوازر ١١٠٥ هـ ـــ ١٦٩٣ م ، الشامية ١١٠٧ هـ ـــ ١٦٩٥ م مندلي ١١٠٩ هـ ـــ ١٦٩٧ م ، الحلة والحسكة ١١١٠هـ ـــ ١٦٩٨م، وهكذا فقد لاح للولاة انه لا مندوحة من انشاء جيش حديث حسن الاعداد والتدريب ، يكون مرتبطا ـــ بصفة وحيدة ـــ بالسلطة القائمة في العراق ، لا بالدولة المركزية في القسطنطينية ويتبع خطط رجال هذه السلطة وحدهم دون ان يكون للسلطان العثماني عليهم من النفوذ الا بما يتفق وارادة ولاته ، أي ما تمليه ظروف العراق الخاصة نفسها ، ليكون ـــ من ناحية اخرى ـــ اداة عسكرية في المدن تكافيء قوة القبائل خارجها •

ونظرا لتعدد الولايات في العراق انذاك فقد اصبح انشاء مثل هذه القوات الجديدة من مهام السلطات المحلية في تلك الولايات ، تنشؤها وفق ماتحس به من حاجة فعلية فكان من نتائج ذلك ان شهد العراق ابان القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) ظهور عدة تشكيلات عسكرية قوية اخذت تحل تدريجيا محل التشكيلات التقليدية القديمة ، ولم تكن هذه العملية الا جزءا من ظاهرة عامة شملت اقطارا عربية عديدة كانت ترزح تحت الحكم العثماني في الحقبة ذاتها ، على ان أزدياد أهمية ولاية بغداد السياسية والاجتماعية واستعادتها ثقلها الحضاري منذ أوائل القرن الثامن عشر كان سببا في بروز ظاهرة مهمة جديدة ، هي توحيد بعض تلك التشكيلات والتنسيق بين البعض الاخر لتغدو وكأنها جيش عراقي واحد، بلغ من قوته وبأسه الى حد شجع السلطة المحلية القائمة ببغداد انذاك على منازلة جيش الدولة العثمانية نفسه .

المحاولة الاولى لتأسيس جيش عراقي حديث

وكان ابرز تلك المحاولات الساعية لاقامة جيش حديث، ماشهدته بغداد في مطلع القرن المذكور ، حين قام والي بغداد القوي حسن باشا باعداد تشكيلات جديدة حذا فيها حذو الانظمة العثمانية الخاصة بتنشئة الجند والقواد والموظفين . وايمانا منه بان تكوين مثل هذه القوات يستلزم اولا ارساء قيم خاصة وتربية معينة فانه عمد الى انشاء مدارس عسكرية في بغداد وضم اليها عددا من اطفال المماليك المجلوبين من خارج البلاد . ويبدو ان حسن باشا لم يكن ينوى ان يخلق من اولئك الارقاء ، الذين انقطعت صلاتهم بمواطنهم الاولى ، طبقة حاكمة وحيدة في البلاد ، تنفرد بشؤون السياسة والادارة ، وتعلو على النظام الاجتماعي السائد ، كما اعتيد عليه في السوابق التي حدثت من قبل في مصر وفي الدولة العثمانية نفسها، وانما كان يهدف الى ايجاد عناصر عسكرية مثقفة يمكنه الاعتماد عليها في امور الحرب والسلم معا ، ولاشك في ان ادراكه مغبة الاحتمال،

الاخير دفعه الى اتخاذ خطوة هامة ، هي فتح هذه المدارس والثكنات امام عدد من ابناء الاسر العراقية الكبيرة ليدخلوا فيها ابناءهم وليتلقوا فيها من التدريب عن تلك الاسر العراقية التي ادخلت ابناءها المدارس العسكرية الاولى في العراق ، كما لاتقدم لنا المصادر ماتوضح اصولها الاجتماعية ، ويكتفي سليمان فائق مؤرخ المماليك بالقول بان اولئك الضباط كانوا « من ابناء الكبراء » وهو وصف عام يدل ـ على اية حال ـ على انهم لم يكونوا من فئات العامة التي طالما تمكنت من قبل النفاذ الى داخل النظام العسكري السابق المتمثل بفرق الانكشارية .

تشبه طرق اعداد اولئك الضباط ما كان متبعاً في مدارس البلاط العثماني الى حد كبير فكانت اسماء الجماعات التي ينقسمون اليها مماثلة لتلك التي اسسها السلاطين الاوائل في عاصمة الدولة ، ولم يكن عددهم في كل دفعة يزيد على ٢٠٠ شخص ، لكل مجموعة منهم مؤدبون (معلمون) يعرف احدهم باسم « لالا » وهم ملزمون بتعليمهم القراءة والكتابة وركوب الخيل والفنون الحربية الاخرى ، وفضلا عن ذلك فانهم يتلقون دراسة منتظمة على ايدي طائفة مختارة من علماء البلاد ، وقد يباح لهم الاستمرار في الدراسة وطلب العلم فيدرس احدهم بعض علوم القرآن والعقائد والفقه والنحو والصرف وغير ذلك ، فقد ظهر منهم من عرف بسعة ثقافته ، وكان لامثال هؤلاء دور بارز في تشجيع حركة الثقافة في البلاد . ويلحق المتخرجون، بعد انهائهم دراستهم وتدريبهم ، بصفوف مايعرف باغوات الداخل (ايج اغاسي) أي الضباط العاملين تحت امرة «السراي» مباشرة ، حيث يتولى قيادتهم في حالات السلم الخزندار ، أي الضابط الموكل بحسابات السراي وفيما يتولى هذه المهمة في أثناء الحروب (السلحدار) (أي حامل السيف) وهو ضابط برتبة كبيرة .

ولقد استمرت هذه المدارس مفتوحة لاستقبال دفعات جديدة من الفتيان على القواعد مارة الذكر ، زهاء قرن كامل ، تخرج منها ، خلال هذه الفترة

اعداد غير قليلة من الضباط والموظفين ، وتكشف حروب حسن باشا وابنه احمد باشا في ايران (استمرت من ١١٣٥ الى ١١٤٥هـ/١٧٢٢ الى ١٧٣٢ م) وفتحهما العديد من المدن الحصينة هناك، اهمها كرمنشاه وهمدان، وخوضهما معارك جمة في ظروف قاسية، وفي اماكن نائية عن قواعد امداد الجيش ، وذات طبيعة تضاريسية مختلفة، عن مدى صلابة هذا الجيش الجديد وصدق اخلاصه لقيادته ، وحسن ادارته للمعارك وتقديره للمواقف واتخاذه الخطط السوقية والتعبوية المناسبة دون أي عون خارجي من السلطان ، أو خبرة عسكرية عثمانية ، حتى وصف مؤرخ معاصر رجال هذا الجيش بانهم (توزن آحادهم بآلاف وافرادهم باضعاف ، يرون الملاحم ولائم .. رمتهم الحروب في جحورها وارهفتهم التجارب من شطورها) . وكان هذا الجيش هو الذي دافع عن بغداد شهورا طوالا في أثناء عدوان نادر شاه على العراق سنوات ١١٤٥ و ١١٤٦ و ١١٥٥ هـ/١٧٣٢ و ١٧٣٣ و ١٧٤٣ م والحق الهزائم بقواته في عدة معارك .

ولما اثبت الاحداث كفاءة هذه القوات ودورها في الدفاع عن العراق وبرهنت على ثقل وزنها في الحياة العامة ، اضطرت الدولة العثمانية الى الرضوخ لارادة قادتها فعينت ابرزهم وهو سليمان ابو ليلة واليا على بغداد واضافت اليه البصرة وبهذا اكدت القوات العراقية ، التي اصبحت الان مؤسسة عسكرية كاملة ، انها الاقدر على ادارة شؤون العراق والدفاع عنه ، فاستمرت في فرض ارادتها على الدولة المركزية في تعيين الولاة من بين قادتها حصرا . وفي اواخر القرن الثامن عشر نجح رجال هذه المؤسسة في تشتيت بقايا الافواج الانكشارية وخضد شوكتها ، وحصر قيادتها العليا بهم وحدهم سابقين بذلك ماقامت الدولة العثمانية نفسها حين صفت الجيش الانكشاري كله سنة ١٢٤١ هـ/١٨٢٥ م . وزاد من قدرات هذه القوات وامكاناتها رفدها المستمر من قبل الولاة (وهم من ضباطه كماذكرنا) بالعديد من الافواج التي عمادها

المتطوعون من السكان معظمها من الفرسان حملة البنادق والاسلحة النارية الخفيفة ، وكان اختيار اولئك المتطوعين يتم على اساس كفاءتهم السابقة في استخدام السلاح ولذا فانهم ينضمون الى الجيش وهم على مستوى عال من الكفاءة القتالية ويلاحظ انه رغم الاسماء الاجنبية لهذه الافواج ، فان جميع منتسبيها كانوا من العراقيين انفسهم ولم تكن لقيادتهم اية صلة ادارية او مالية فضلا عن العسكرية بالدولة العثمانية .

ويبلغ العدد الاجمالي لمنتسبي الجيش كله نحو ١٢٥٠٠ رجل . ويمكن زيادة هذا العدد بسرعة الى عدة اضعاف عند حالات الطوارىء ، فيصل عند ذلك الى ٣٠,٠٠٠ أو ٦٠,٠٠٠ مقاتل ، وتقدم هذه الزيادة السلطات المحلية الحاكمة في مدن العراق الاخرى ، وبخاصة الموصل والعمادية والسليمانية ، فضلا عن فرسان القبائل ، من العبيد والمنتفق وبنى لام وغيرهم من قبائل العراق حسنة التسليح انذاك . كان لهذه القوات المضافة على الدوام دور مهم في تقوية جيش ولاية بغداد وتوابعها في اية عملية عسكرية كبيرة وبخاصة مايستهدف منها حماية الوطن والدفاع عن سيادته وامنه وهو امر سهل ، فيما بعد ، دمج هذه القوات جميعا ، في مؤسسة عسكرية واحدة ورغم اختلاف نوع التشكيلات المباشرة انذاك ، فانها جميعها كانت عراقية بقيادتها ومنتسبيها. ففي الموصل كان تولى اسرة الجليليين العربية السلطة سنة ١١٨٣هـ/١٧٢٦م في تيسير عملية « تعريق » اورطات الانكشارية ، صحيح ان معظم منتسبي هذه القوات كانوا قد اصبحوا من ابناء المدينة نفسها قبل تولي الاسرة الحكم، الا ان المرحلة التالية شهدت تحول اورطاتها لتكون مجرد قوات محلية تماما ، لاترتبطها بقيادتها المركزية ، الدولة العثمانية ، الاصلة شكلية واهية واصبح الوالي الجليلي هو القائد الاعلى للجيش اما آغا الانكشارية فلم يعد الا واحدا

من قواده المباشرين ، وكان بوسعه التنازل عـن قيادته الجيش الى نائبه أو رئيس كتاب ديوانه بل غدا من الممكن ان يضع في مناصب الانكشارية الهامة افرادا من اسرته ايضا مما ولد نوعا من التلاحم والتآزر بين تلـك القـوات والسلطات المحلية استفاد منه كلا الفريقين في رفض اية محاولة عثمانية لغرض وال دخيل على الولاية وللاحتفاظ بشخصيتها العربية الخاصة ، ولقد كان لهذا التلاحم اثره الواضح في أثناء صمود المدينة ازاء العدوان الايراني عليها بقيادة نادر شاه سنة ١١٤٥ هـ / ١٧٣٢ م وسنة ١١٥٥ هـ / ١٧٤٣ م ، حين قاومت جيوشا ضخمة مزودة باحسن أنواع الاسلحة بضعة شهور تمكنت خلالها من الحاق خسائر فادحة بالمعتدين ، واعاقت خططهم في احتلال العراق والانطلاق لمنع احتلال الاقطار المجاورة الاخـرى •

ولقد اثبت قادة عسكريون لامعون من ابناء هذه المدينة ، من الكفاءة النادرة في ادارة المعارك والبصر على الحروب ما دفع بالدولة العثمانيـة الى الاستعانة بهم في حروبها الفاصلة مع اعدائها ، ففي سنة ١١٨٣هـ ـ ١٧٦٩م شارك والي الموصل محمدامين باشا الجليلي، بجيش معظمه من ابناء المدينة في فتح مدينة خوتن Khotin في بسارابيا والدفاع عن مدينة بندر ، Bender في مولد افيا ، ضد القوات الروسية وحاز دون غيره من القادة العثمانيين ارفع وسام ولقب عسكري عثماني هو «الغازي» الذي كان يختص به غالبا السلاطين أنفسهم • وفي سنة ١١٨٥هـ ـ ١٧٧١م قاد والي الموصل التالي عبدالفتاح باشا الجليلي جيشاً الى بلاد الشام للمساهمة في الحرب الدائرة هناك ضد علي بك الكبير موليا حكم مدينة طرابلس فاثبتت هذه الاحداث مدى مابلغته كفاءة العراقيين ومقدرتهم العسكرية من ذيوع في الاوساط الحاكمة ابان ذلك العصر • وكانت

في مدن عراقية اخرى ، مثل راوندوز والعمادية والسليمانية قوات عراقية حسنة التنظيم والتسليح ساهمت ، غير مرة ، في الدفاع عن مدنها ومناطقها الوعرة ضد اطماع القوى الاجنبية ، وشاركت ولاة بغداد في اعمالهم العسكرية ضد اعداء البلاد •

ان تزايد الاعتماد على القوى العسكرية المنظمة في المدن ، لم ينه غرور القبائل العراقية في الحياة العسكرية باية حال وانما جعل ممكنا اجراء تنسيق عسكري كبير بين الطرفين ، عن طريق استحداث دائرة رسمية خاصة لهذا الغرض •

وكان هذا التنسيق والتعاون يزداد حجما واهمية كلما داهم الوطن خطر خارجي يستهدف امنه وسيادته ، فعندما توجهت الجيوش الايرانية في عهد كريم خان الزند للعدوان على حدود العراق الشمالية سنة ١١٨٩هـ — ١٧٧٥م اتحدت القبائل الكردية بالقوات النظامية للتصدي لهذا العدوان والحيلولة دون اقتحام الايرانيين حدود الوطن، فهجموا على المعتدين هجمة رجل واحد «واندفعوا كالسهام الملتهبة يضربون اعداءهم بقوة وجلادة وحماس منقطع النظير ، فأنتصروا على اعدائهم واذاقوهم حربا لم يشاهدوها من قبل ، وكانوا يعرفون من بين صفوفهم عروق السهام •• وملأوا قلوب اعدائهم رعبا وخوفة » فكان ان توقف العدوان ، وتكبد الايرانيون من الخسائر مادفعهم الى التقهقر تاركين في ارض المعركة جثث قتلاهم الكثيرين ، ولم يمض عامان حتى تصدت قبيلة المنتفق العربية لقوات فارسية توغلت في منطقة الفرات الجنوبي في معركة شهيرة عرفت باسم (الفضيلة) فكبدتها خسائر فادحة ودحرتها ، وفي العام التالي تصدت القبيلة نفسها لجيش ايراني من ٠٠٠ ر١٠ رجل

مزودين بالزوارق والمدفعية في منطقة ابي حلانة قرب الفرات شمالي البصرة ، فابادتهم عن آخرهم بمن فيهم قائد الجيش نفسه .

واثار حسن تدريب هذه القبائل ووفرة سلاحها وكفاءتها القتالية اعجاب المعاصرين لها فوصفوا رجالها بان « في رؤوسهم المغافر ، وعلى ابدانهم الدروع الذهبية وان خمسة عشر منهم يقابلون الفا ، اعتادوا الرعي بالقوس على ظهور الخيل يلعبون برماحهم في الهيجاء بصورة لامثيل لها . والفارس منهم يهاجم الصفوف دون مبالاة » .

ومثلما مهر ابناء هذه القبائل في استعمال الاسلحة التقليدية فقد مهروا ايضا في استعمال الاسلحة النارية بعد ان حصلوا عليها بوسائل مختلفة فكان لزبيد مثلا في منتصف القرن التاسع عشر ١٥٠٠ فارس و ٦٠٠٠ سقمان (هداف بالبنادق) ولربيعة ١٢٠ فارسا و ٣٠٠٠ سقمان وللجنابيين ٢٠٠ فارس و ١٠٠٠ سقمان ولبني لام ٢٠٠٠ فارس و ٥٠٠٠ سقمان ولقبائل اخرى قوات غيرها ، فيشكل الجميع عند الملمات ، جيشا على مستوى مشهود من المهارة والمقدرة ، وقد وصف بعض المؤرخين المعاصرين تلك القبائل بانهم « ذوو سطوة مهلكة ، وهيبة مملكة ، وكفاح بالسيوف واشراح للضيوف » ، وبانهم « اشجع لدى القراع ، وارفع اقرانهم بقاع ، واطولهم في طلب العلياء باع » وانهم « البحر العذب للمسالم ، والحرب العطب للمقاوم » وانهم « ذوو الطعن والضرب » .

المحاولات الاولى لتحديث الجيش :

كان اهم ماشهدته الحياة العسكرية في العراق ابان هذه الحقبة هو تلك المحاولات الاولى لتحديث المؤسسات العسكرية فيه ، سواء من حيث تنظيمها

او تسليحها او مستوى تدريب منتسبيها ففي أواخر القرن الثامن عشر ، ادى ازدياد تجنيد المتطوعين من الرماة ، والتطور التقني للسلاح الناري ، الى ضرورة تحديث هذا النوع من الاسلحة فتم استبدال البنادق القديمة ذات الفتيل باخرى من نوع فرنسي « فوزيل » وتعرف محليا بام « شيشخانة » وهي تتميز عن سابقتها بوجود ستة خطوط طولا في سطح سبطانتها الداخلي تساعد على اندفاع القذيفة في الاتجاه المباشر نحو الهدف ، وبتزويدها بالزناد اللازم لالهاب البارود ، والحربة (السونكي)غالبا . وفي عهد والي بغداد داود باشا جرى استخدام عدد من المدافع السريعة مع فريق من المدفعيين . وفي سنة ١٢٤٢هـ — ١٨٢٦م استقدم هذا الوالي مدرسا وخمسة مدفعيين لتعليم عساكر بغداد الاساليب الحديثة في استخدام هذا النوع من السلاح.

وكان مصدر الاسلحة المستخدمة في الجيش هو الهند البريطانية ومن ثم كان استيرادها يخضع لرغبة البريطانيين وموافقتهم ، فحاول ولاة بغداد اتباع سياسة مستقلة اذ اشترى داود باشا مصنعا من اوربا لصناعة البنادق محليا وجلب الفنيين لادارته ولم يكف في الوقت نفسه عن بذل الجهود لطلب الاسلحة والسفن من الهند .

وفي عهد هذا الوالي جرت اول محاولة لاعادة تنظيم الجيش وفق الاسس الاوربية الحديثة ، فاستقدم ضابط فرنسي هو ديفو Devaux ليتولى الاشراف على الجيش وتدريبه ووضع الخطط العسكرية عند احتدام الظروف .

وعرفت المدافع الثقيلة في مدن عراقية اخرى في الحقبة نفسها ، ففي راوندوز اقيم مصنع لهذا الغرض تولى الاشراف عليه مهندس عراقي نابه ،

هو « الاسطة رجب » وقد انجز هذا المصنع انتاج مايقرب من ٢٢٣ مدفعا ضخما . مازال موجودا حتى اليـوم في راوندوز وفي المتحف العسـكري ببغـداد .

البحث الثاني

دور العراقيين في المؤسسة العسكرية العثمانية

د . ياسين عبد الكريم

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

مقدمة

في خلال الحكم العثماني المباشر ١٢٤٧ ـ ١٣٣٣ هـ / ١٨٣١ ـ ١٩١٤م ، اهتمت الدولة العثمانية بتنظيم وتحسين المؤسسة العسكرية ،وفرضت الخدمة العسكرية الالزامية على الشعوب الاسلامية الخاضعة للامبراطورية.ونرغب هنا في عرض هذا التطبيق على العراقيين وموقفهم منها.وكذلك بيان مشاركة العراقيين في الحرب التي خاضتها الدولة العثمانية خلال هذه الفترة . ومدى استفادة ابناء العراق من المدارس والمعاهد العسكرية التي كانت تهيء الضباط للجيش القوي ، مع الاشارة الى الدور الذي لعبه الضباط العراقيون في المؤسسة العسكرية العثمانية .

الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر ، وموقف العراقيين منها

في سنة ١٢٤٧هـ ـــ ١٨٣١م تمكن علي رضا باشا من القضاء على حكم المماليك في بغداد ثم القضاء على حكم الجليليين في الموصل، وبعد ذلك تم القضاء على حكم البابانيين في السليمانية وبهذا انتقل العراق الى فترة الحكم العثماني المباشر •

وكان علي رضا باشا (١٢٤٧ ـــ ١٢٥٨ هـ / ١٨٣١ ـــ ١٨٤٢ م) قليل الاهتمام بالنواحي الاقتصادية ولم يتمكن من تدبير الاموال اللازمة لدفع نفقات الجيش الذي جلبه من خارج العراق ، فاضطر ان يسرح القسم الاعظم منه فأصبح جيشه مؤلفا من ثلاثة الاف جندي •

تألف الجيش العثماني في العراق في هذه الفترة من قوات نظامية ، اما القوات غير النظامية فكانت مؤلفة من قسمين اولهما الهايته أو الباشي بوزوق التي ضمت صنف الخيالة والمشاة ، وثانيهما القوات العشائرية الموالية للدولة العثمانية •

ولما قامت حرب القرم بين روسيا والدولة العثمانية في ١٢٧٠ ـــ ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٣ ـــ ١٨٥٦م ، حشدت ايران قواتها العسكرية على حدود لواء السليمانية، كما انها جمعت قواتها في شوشتر وكرمنشاه••ادرك العراقيون الخطر المحيط ببلادهم وصعوبة الدفاع عن العراق بواسطة القوات النظامية الموجودة في العراق والبالغ عددها عشرة الاف جندي ، وان الدولة العثمانية في وضع لا تتمكن من ارسال قوات جديدة الى العراق•وجه الوالي رشيد باشا الكوزلكلي (١٢٦٩ ـــ ١٢٧٤هـ / ١٨٥٢ ـــ ١٨٥٧م) نداء الى سكان العراق للتعاون مع ادارة الولاية للدفاع عن العراق،فهدأت العشائر الثائرة ضد الحكومة وجمعت الاموال لتمويل القوات التي كانت في دور التهيئة واظهر سكان العراق رغبة في التعاون مع الحكومة القائمة للدفاع عن اهلهم وبلادهم ضد الخطر الفارسي الغاشم •

وبعد ان تولى السردار الاكرم عمر باشا الحكم في بغداد (١٢٧٤ — ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٧ — ١٨٥٩ م) اراد ان يؤلف جيشا نظاميا من العراقيين وفي خلال بضعة ايام جند من بغداد نفسها خمسمائة نفر ، وشجعه هذا النجاح على فرض التجنيد الاجباري على سكان القرى والارياف وحتى العشائر • انتشر هذا الخبر كالبرق في العراق وترك الفلاحون مزارعهم وفرت العشائر الى الصحاري والاهوار • فاضطر الوالي ان يتراجع تدريجيا ، واهمل تطبيق التجنيد الاجباري ، وأصدر العفو العام عن الجميع فهدأت الاحوال •

شعر الوالي مدحت باشا (١٢٨٦ — ١٢٨٩هـ / ١٨٦٩ — ١٨٧٢م) بضرورة توفر جيش قوي ليسند الحكومة في فرض الاصلاحات على السكان ، كما انه لاحظ اكثرية الجيش النظامي ليسوا عراقيين ، وبالطبع يريدون الرجوع الى اوطانهم في اقرب فرصة ممكنة • امر مدحت باشا بتطبيق نظام التجنيد الاجباري في بغداد ، فاستاء الناس من عمله وقامت مظاهرة مسلحة في الجانب الشرقي (الرصافة) من بغداد ، في ١٩جماد اول ١٢٨٦هـ / ٢٨ آب ١٨٦٩م ، مؤلفة من سكان محلات قنبر علي وباب الشيخ والفضل مطالبين بألغاء نظام القرعة • اهتم مدحت باشا بالموضوع وأمر بأرسال القطعات العسكرية لحماية القنصليات والاسواق ومناطق سكن الاقليات ، وتمكن الجند من تفريق المتظاهرين واستمر تطبيق نظام القرعة في بغداد والمدن الاخرى تدريجيا دون العشائر ويجب الا نبالغ في نجاح مدحت باشا في تطبيق نظام القرعة في بغداد ، اذ طبق على المسلمين فقط وتمكن من جمع ٢٤٠ مكلفا من بغداد وكانت نفوسها آنئذ حوالي ١٥٠ر٠٠٠ نسمة •

أسس مدحت باشا اول مدرسة رشدية عسكرية في بغداد وسوف يأتي البحث عنها ، وبهذا مهد السبل امام العراقيين لاشغال الرتب والمناصب العسكرية العالية في الجيش العثماني • واهتم باكمال بناء الثكنات (القشلة) العسكرية التي لا تزال قائمة حتى الان وجلب معملا (عباخانة) لصناعة الملابس العسكرية وجلب ماكنة لطحن الحبوب ولسد حاجات الجيش من

الطحين . وأسس مطبعة الزوراء التي تطبع للجيش المنشورات . والغى باشي بوزوق وأحل محله الضبطين . واهتم بدار الحدادة بغية الاستفادة منها في تنظيف واصلاح الاسلحة ، وأسس اول مدرسة للصناعة في العــراق لتهيئة الحرفيين وسد حاجات الجيش منهم .

وحاول مدحت باشا ان يحل مشاكل الحدود مع الحكومة الفارســية وانتهز فرصة زيارة ناصرالدين شاه الى العراق في ١٢٨٨هـ ـ ١٨٧١م ، وعرض عليه القضايا التي تثير المشاكل على الحدود،واظهر استعداده للتفاوض مع فارس، ووعد الشاه خيرا ، وبعد ان رجع الى بلاده اخذت العشائر الايرانية تغير على القرى والمزارع العراقية بشكل اعنف واشد ، لذلك قرر مدحت باشا درء هذه الاخطــار .

رأى مدحت باشا من الضروري تهيئة فوج من المتطوعين العراقيــين وتدريبهم تدريبا جيدا ودفع رواتب جيدة لهم ، وضرورة بناء سلسلة مــن القلاع على طول الحدود العراقية الايرانية من كلفير في السليمانية الى خانقين، وتزويد هذه القلاع بالمتطوعين ثم بناء سلسلة اخرى من القلاع داخل الاراضي العراقية وتزويدها بعدد اكبر من المتطوعين لدعم اية حامية من الخط الاول عند تعرضها للخطر . واعتقد مدحت باشا ان هذه الترتيبات ستؤمن الامن والاستقرار للعراقيين الساكنين على الحدود العراقية الايرانية وتمنع الايرانيين المعتدين من الغزو والنهب والسلب والسرقة . وكان يؤمن تطبيق هــذه الخطة على القسم الثاني من الحدود العراقية الايرانية .

ولما قامــت الحرب الروسية العثمانيــة في ١٢٩٤ ـ ١٢٩٦هـ / ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨م ، طلبت الدولة العثمانية الامدادات العسكرية من العراق ثم ارسال جيش مؤلف من عشرة الاف جندي الى جبهة ققفاسية . لقيت القوة العراقية خلال السفر من بغداد الى ققفاسية الأمرين ، اذ مرت بالسهول وعبرت الوديان والجبال الوعرة ، وتعرضت للتقلبات الجوية والامراض ومن المؤسف ان نقول ان القسم الاعظم من هذه القوة لم يعد الى العراق .

من خلال هذه الحرب فرضت الضرائب على العراقيين ، وكذلك زود العراق الدولة العثمانية بعدد من الجمال للاستفادة منها في النقل ، وطالبت الدولة العراقيين زيادة انتاج المواد الغذائية لسد حاجات السكان .

ولما وصلت اخبار معاهدة برلين الجائرة ١٢٩٦هـ - ١٨٧٨م ، الى العراق ، اعتقد البعض من العراقيين ان ايام الدولة العثمانية اصبحت محدودة ، لذلك قل الاهتمام بها وباوامرها في العراق .

ثم أسست الحكومة العثمانية عددا من المعسكرات في بغداد والبصرة ، والموصل والعمارة وكركوك ، وبتطبيق نظام القرعة زاد عدد الجند ، وكذلك حصل تقدم في تدريب وتسليح الجيش واخذت القوات تستعمل التلغراف في العراق وسيلة للاتصال المباشر ، واشترت عددا من الزوارق البخارية ، وكذلك جرى تأسيس عدد من مراكز الشرطة في انحاء مختلفة من العراق .

اعداد الضباط

كان الضباط في الجيش العثماني يصنفون الى قسمين :

الاول - يتدرج فيه الجندي . الى ضابط صف ، فنائب ضابط وضابط ، وكانوا يمتازون بالشجاعة والخبرة العملية ، ولم تكن معلوماتهم النظرية كما يجب .

الثاني - يضم الذين درسوا في المدارس العسكرية وتخرجوا من المدرسة الحربية في استانبول ، وكانوا يمتازون بثقافة عالية .

وكان اعداد الضباط في المدارس العسكرية يتدرج على الوجه التالي :

١ - المدرسة الرشدية العسكرية

أسست هذه المدرسة في بغداد في ايام الوالي مدحت باشا ، ثم اسست مدرسة اخرى من هذا النوع في السليمانية في سنة ١٣١١هـ - ١٨٩٣م .

كانت هذه المدرسة تقبل الطلاب الذين تخرجوا من المدارس الأولية ، وكانت مدة الدراسة فيها اربع سنوات ، اضافة الى صف تمهيدي عرف بأسم (الاحتياط) وكانت المدرسة نهارية عسكرية ، ويدرس الطالب فيها اللغات التركية والعربية والفرنسية والمعلومات العامة الاخرى •

ب ــ الاعدادية العسكرية

تأسست الاعدادية العسكرية في بغداد في ايام الوالي عبد الرحمن باشا وفي سنة ١٢٩٦ هـ/١٨٧٨ م ، وكانت مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، وتقبل خريجي المدرسة الرشدية العسكرية في بغداد والسليمانية ، وتدرس فيها الرياضيات والفلك والعلوم الاجتماعية ودروس الدين واللغة التركية والفرنسية • وكانت ادارتها عسكرية وكل المدرسين فيها من الضباط ماعدا مدرس دروس الدين •

كانت هذه المدرسة تشغل بناية محاكم الرصافة الحالية ، وكانت تضم المدرسة الرشدية العسكرية ايضا ، ولكن الاخيرة نقلت بعد ذلك الى بناية الاعدادية المركزية الحالية للبنين •

تخرجت الدورة الاولى من هذه المدرسة سنة ١٢٩٩هـ ــ ١٨٨١م ، وكان عددهم ١٣ طالبا وارسلوا الى استانبول للدراسة في المدرسة الحربية بعد الاحتفاء بهم وتوديعهم رسميا وشعبيا من قبل السلطات في بغداد وطلاب المدرسة الاعدادية العسكرية والاقارب والاهالي • ثم زاد عدد الخريجين تدريجيا ووصل عددهم في سنة ١٣١٧ هـ/١٨٩٩ م الى ٧٦ طالبا •

ج ــ المعاهد العسكرية في استانبول

وكانت اهمها المدرسة الحربية ، وكانت تقبل خريجي الاعداديات العسكرية في انحاء الدولة العثمانية (وكانت ثماني مدارس) كانت الحربية

مدرسة داخلية وتقبل سنويا بين ٧٠٠ ـ ٨٠٠ طالب ، وكانت مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، وتدرس فيها العلوم العسكرية من قبل ضباط الاركان • وكانت تضم قسم المشاة والخيالة وفرع ابناء العشائر وابناء الذوات ، وقسم الطب العسكري ، ومدرسة الاركان • وكانت هناك مدارس خاصة للمدفعية والهندسة العسكرية والبحرية • ولعب الضابط الالماني فون دركولتز (غولج باشا) ، دورا بارزا في تنظيم المعاهد العسكرية العثمانية ، واهتم بمدرسة الاركان وأصبحت كلية مستقلة لتهيئة ضباط الاركان للجيش العثماني •

د ـ المدارس العسكرية في بغداد

في اواخر حكم عبدالحميد الثاني أسست مدرسة حربية في بغداد ، واشغلت الطابق الاسفل من بناية الاعدادية العسكرية وتخرجت الدورة الاولى في ١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٨م ، ثم تقرر نقل طلاب الصفين الاول والثاني الى المدرسة الحربية لاكمال دراستهم فيها •

وقبيل الحرب العالمية الاولى تقرر تأسيس تعليمكاه « مدرسة تدريب الضباط » في بغداد ، وكانت مدة الدراسة فيها ثلاثة اشهر ، وهدفها تزويد الضباط باحدث المعلومات العسكرية ، وانيطت ادارتها بالضابط العراقي اللامع الرائد الركن رشيد الخوجه (قول اغاسي اركان حرب) •

كما تأسست مدرسة لتهيئة ضباط للدرك (جندرمه) ، ومدرسة اخرى لتهيئة ضباط للشرطة « بوليس » •

هـ ـ مدرسة اعداد ضباط الصف (كوجك ضابطان مكتبى)

ولما عين ناظم باشا واليا على بغداد في ١٣٢٨ هـ ـ ١٩١٠ م ، جلب معه ٢٤ ضابطا و ٣٢ جنديا برتبة رئيس عرفاء متخرجين من مدرسة ضباط الصف في الاستانة واكمل دراسته العسكرية العالية في المانيا ، وانيط به تأسيس مدرسة

لاعداد ضباط الصف في بغداد واتخذ بناية الرشدية الملكية والمدنية في الكرخ مقرا له،وعرفت هذه البناية بعد ذلك باسم(كوجك ضابطان مكتبي)،واختار مع نجيب عددا من الضباط العراقيين للعمل في هذه المدرسة ، وكان منهم علي جودت ونوري السعيد وجعفر العسكري . ثم سافر العسكري الى المانيا للدراسة في معاهدها العسكرية العالية ، والتحق نوري السعيد بكلية الاركان في الاستانة ، واستمر علي جودت في تعليم الطلاب الذين كانوا يلتحقون بهذه المدرسة من اطراف بغداد حتى عام ١٣٣١هـ ــ ١٩١٢م وبعد تحويل علي نجيب من بغداد عين المقدم العراقي شاكر الخوجه آمراً لمدرسة كوجك ضابطان مكتبي واصبح الملازم عبدالحميد الشالجي مساعدا له والملازم ناظم مدربا في المدرسة. وعندما احتل الانكليز البصرة ، وتقدموا نحو القرنة تطوع المقدم شاكر الخوجه للدفاع عن تربة العراق وقاد منتسبي المدرسة الى ساحة القتال لمحاربة الانكليز واشتركت وحدته في معركة (مزيرعة) في جنوب القرنة في ١٩ محرم ١٣٣٣هـ / ٧ كانون الاول ١٩١٤ ، واستشهد في المعركة المقدم شاكر الخوجه والملازم ناظم ، ووقع الملازم عبدالحميد الشالجي في الاسر .

وفي بدء الثلاثينات كان الطابق الاول من بناية كوجك ضابطان مكتبي متوسطة الكرخ للبنين ، والطابق الثاني مناما للقسم الداخلي لدار المعلمين الابتدائية ، ثم هدمت البناية وتم انشاء بناية جديدة عصرية في محلها واصبحت ثانوية الكرخ للبنين .

دور الضباط العراقيين

تخرج من المعاهد العسكرية المختلفة في اواخر حكم الدولة العثمانية عدد كبير من العراقيين ونالوا رتبة الملازم ، ثم تدرجوا في الرتب العسكرية ، وشغل البعض منهم أعلى الرتب العسكرية في الدولة العثمانية (مشير ركن وهو محمود شوكت باشا) . وارفع المناصب العسكرية (رئاسة الاركان مثل

هادي باشا العمري) • ومع مرور الزمن انتقل البعض منهم من الحياة الفانية واستقر الاخرون لاسباب متعددة في خارج العراق ، وشارك عدد كبير منهم في الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية مثل حرب البلقان وحرب طرابلس الغرب والحرب العالمية الاولى ، واستشهد عدد منهم ووقع الاخرون في الاسر •

والتحق عدد منهم بثورة الشريف الحسين وكانوا العمود الفقري لجيشه ، وكذلك لعب الضباط العراقيون الدور البارز مدة حكم الملك فيصل في سوريا وشارك الاخرون في ثورة العشرين ، وبعد سقوط حكم الملك فيصل في سوريا اضطر الضباط العراقيون الى الرجوع للعراق •

والتحق بين ١٣٤٠ ـ ١٣٤٧هـ / ١٩٢١ ـ ١٩٢٨م بضعة مئات من الضباط العراقيين المتخرجين من المعاهد العسكرية العثمانية بالجيش العراقي الذي تأسس في ٢٦ ربيع الثاني ١٣٣٩هـ / ٦ كانون الثاني ١٩٢١م ، واستمر التحاق الاخرين بعد ذلك ولو باعداد قليلة •

ولم يرغب عدد من الضباط المتخرجين في العهد العثماني الخدمة في الجيش العراقي لان رتبهم كانت عالية بينما كان الجيش العراقي في اول تأسيسه مؤلفا من فوج واحد ولم يكن في الامكان استخدام مثل ياسين الهاشمي (العميد الركن) أو رشيد الخوجه (العقيد الركن) في ملاك فوج واحد • ومارس الاخرون منهم السياسة فكان منهم الوزراء ورؤساء الوزارات والسفراء والنواب والاعيان والمدراء العامون والموظفون الاداريون• وانتمى البعض منهم الى وظائف مديرية الطابو والبلديات والتدريس في المدارس الثانوية وغيرها من من الوظائف المدنية •

التجنيد

صدر اول قانون للخدمة العسكرية في الدولة العثمانية في سنة ١٢٥٩هـ ـ ١٨٤٣ م ، وحصلت عدة محاولات فاشلة لتطبيقه في العراق ، وتمكن مدحت باشا

من جمع عدد من المكلفين من بغداد، وبعد ذلك من المدن الاخرى، واقتصر تطبيقه على المسلمين وابناء المدن فقط .

وفي سنة ١٨٨٥ م صدر قانون جديد للخدمة العسكرية الاجبارية وبموجبه اصبحت مدة الخدمة العسكرية عشرين سنة وكما يلي :

خدمة نظامية والاحتياط مدتها ست سنوات

خدمة الرديف مدتها ثماني سنوات

خدمة المستحفظ ومدتها ست سنوات

اما الخدمة في الاسطول فكانت مدتها اثنتي عشرة سنة موزعة كما يلي :

خدمة نظامية امدها خمس سنوات

خدمة الاحتياط الاول مدتها ثلاث سنوات

خدمة الاحتياط الثاني مدتها اربع سنوات

واعفى من الخدمة العسكرية ابناء العشائر غير المستوطنة وأصحاب العاهات والمصابين بالامراض المزمنة التي تمنعهم عن اداء الخدمة العسكرية ورجال الدين ووحيد اسرته وطلبة المدارس الدينية واساتذتها ومشايخ العراق الدينية ومزارعو الاملاك السنية .

وأوجب القانون تأليف لجنة للتجنيد في كل قضاء برئاسة الوحدة الادارية وعضوية ضابط التجنيد وكان برتبة مقدم (يكباشي) والقاضي والمفتي وعضو المجلس الاداري .

وكانت الجيوش والفرق تعرف العدد الذي سيجري سوقه اليها من دوائر التجنيد التابعة لها ، والنقص الذي تعانيه في حالة زيادة العدد المسوق الذي تتسلمه الفرقة من دوائر التجنيد عن العدد المطلوب يجري الانتخاب بين المكلفين عند بلوغهم سن الرشد بموجب قرعة يضمن بواسطتها اخذ

العدد المطلوب ، ويحال الباقون على دورة تدريبية قصيرة لمدة خمسة اشهر ويلحقون بعدها بخدمة الاحتياط ويمكن سحبهم منها عند الضرورة •

وكان دافع البدل النقدي يخدم مدة خمسة اشهر في اقرب مركز عسكري من عثمانية ذهب في أوائل القرن التاسع عشر ثم خفض الى خمسين ليرة ذهب • وكان دافع البدل النقدي يخدم مدة خمسة اشهر في اقرب مركز عسكري من البلدة التي يقيم فيها وينقل بعد اكمالها الى الخدمة في الاحتياط •

اما المسيحيون واليهود فكانوا مستثنين من اداء الخدمة العسكرية وكانوا يدفعون عوضاً منها البدل واستثنى من دفع البدل رجال الدين والعجزة والمصابون بالامراض المزمنة •

اما جباية البدل من غير المسلمين فقد تولاها رجال الدين حتى سنة ١٣٢٠هـ ــ ١٩٠٢م ، وانيطت بعد ذلك جبايته بموظفي الحكومة •

بعد خلع السلطان عبدالحميد صدر قانون جديد للتجنيد في سنة ١٣٢٧ هـ /١٩٠٩ م وبموجبه كان يتحتم على كل عثماني ان يقوم بالخدمة الالزامية مسلحا او غير مسلح اذا كان عمره قد بلغ ٢١ سنة ، ومددت الخدمة في القوات البرية فأصبحت ٢٥ سنة (٣ سنوات نظامية و ٥ أحتياطية و ١٢ رديفية و ٥ مستحفظة) ، اما البحرية فقد مددت مدة الخدمة فيها الى عشرين سنة ثم صدر قبيل الحرب العالمية الاولى قانون جديد للتجنيد خفض بموجبه سن الدعوة الى ١٨ سنة والغى دفع البدل النقدي والشخصي، وفرضت الخدمة الالزامية على غير المسلمين ، واستمر قبول البدل النقدي منهم ، وشرح القانون بصورة تفصيلية دعوة المكلفين والاحتياط وغيرهم •

العراقيون والتجنيد

كان الفرد العراقي قد اعتاد على حمل السلاح وتحمل الصعوبات منذ نعومة اظافره وكان يرى من واجبه الدفاع عن نفسه وامواله وافراد اسرته

وعشيرته • وكان العراقي قد اعتاد ان يحارب ضمن افراد عشيرته وتحت قيادة وارشاد رؤسائه الذين كانوا شيوخ عشيرته •

وحمل ابناء العراق السلاح للذود عن العراق في عدة مناسبات استجابة لطلب الحكومة العثمانية عندما كان الطلب واضحا والعراق معرضاً للخطر وخاصة من ايران •

ومع ان العراقيين يتصفون بالشجاعة وتحمل المشاق ويحبون حمل السلاح والدفاع عن العشيرة والديرة ، الا ان فرض الخدمة العسكرية عليهم كان أمرا غريبا ومرفوضاً من قبلهم • كان عليهم بموجب الخدمة الالزامية ان يخدموا خارج عشيرتهم وديرتهم ويعيشوا في ثكنات بالنسبة لهم كانت اشبه بالسجون ، ويلبسوا ملابس لم يعتادوا عليها ينهض الواحد منهم بأمر ويأكل بأمر وينام بأمر وتفرض الاوامر عليهم من قبل اناس لا معرفة لهم بهم ، وعلى الاكثر كانوا لا يفهمون لغتهم ، وكان من الصعب عليهم تحمل كل هذه التغييرات (الضوابط) ، زد على ذلك طول مدة الخدمة العسكرية وقسوتها وعدم الاهتمام بهم وبأمورهم ، وكان يقضي الواحد منهم ضعف مدة الخدمة العسكرية ولا يتسرح وقد يرسل الى اماكن بعيدة مثل اليمن ونجد وقفقاسية وتنقطع اخباره وقد لا يعود الى اهله •

وكان قانون التجنيد الاجباري اكثر القوانين العثمانية اثارة لكراهية العراقيين ، وحاولت الدولة العثمانية تطبيق هذا القانون بحزم وصرامة ولكن المحاولة كانت خائبة ، وبأستمرار رفض المكلفون الحضور امام لجان التجنيد، وازداد الهروب من الخدمة العسكرية بعد الالتحاق بالوحدات • وعندما اعلن النفير العام بعد اندلاع الحرب العالمية الاولى وباسم « سفربرلك » انتشر بين سكان بغداد (سفر علك) اي الهروب من الخدمة العسكرية •

توزيع الجيش العثماني في العراق

كانت البلاد العثمانية مقسمة الى مناطق عسكرية ، وكان العراق منطقة الجيش السادس ، وكان يقوده ضابط برتبة « مشير » • وكانت القيادة تجمع احيانا مع ولاية بغداد في الوقت نفسه ، فيكون الوالي هو قائد الجيش السادس او بالعكس • وكان تنظيم الجيش في شكل فرق عاملة او احتياطية (رديف) ، ترتبط بالجيش ارتباطا مباشرا ، وكان التنظيم على النحو التالي :

كان الجيش السادس يتكون من :

الفرقة ١٢ وكانت تتألف من ثلاثة الوية

الفرقة ١١ وكانت تتألف من ستة الوية

فرقة الخيالة السادسة وكانت تتألف من ثلاثة الوية

وكتائب الخيالة المستقلة وكانت تتألف من ست كتائب

وكانت الفرق الاحتياطية (الرديف) ، تتألف من مقرات وهياكل دون جنود ومن :

فرقة الرديف ٢٥ وكانت تتألف من ستة الوية

فرقة الرديف ٢٦ وكانت تتألف من ستة الوية

وفي سنة ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٣م أعيد تنظيم الجيش العثماني واستخدمت الفيالق ، واصبح العراق منطقة المفتشية الرابعة ، والغيت تشكيلات الرديف ، واصبح موقف القطعات المرابطة في العراق كما يلي :

مقر مفتشية الجيش الرابع وكان في بغداد

قيادة الفيلق ١٢ في الموصل وكانت تشمل :

قيادة الفرقة الـ (٣٥) في الموصل

قيادة الفرقة الـ (٣٦) في كركوك
وقيادة الفيلق (١٣) في بغداد ، وكانت تشمل :
قيادة الفرقة الـ (٣٧) في بغداد
وقيادة الفرقة الـ (٣٨) في البصرة

وكان جل ما تقوم به هذه القطعات قبل الحرب العالمية الاولى القيام ببعض التمارين العسكرية والمناورات ، ومساعدة الوحدات الادارية في جمع الضرائب والقضاء على انتفاضات العشائر وتوطيد سطوة الحكومة العثمانية في العراق •

وعند اعلان الحرب العالمية الاولى نقل مقر مفتشي الجيش الرابع من بغداد الى سوريا وتألفت في العراق قيادة بأسم قيادة العراق وما حولها ، ثم اصبح العراق مقرا لقيادة الجيش العثماني السادس •

بعض الاصطلاحات العسكرية العثمانية

رتب قادة الوحدات العسكرية العثمانية

كان يقود الجيش العثماني (اوردو) في العراق ضابط برتبة مشير
وكان القائد يسمى قومندان
وتولى قيادة الفرقة ضابط برتبة فريق
وتولى قيادة اللواء ضابط برتبة لواء (ميرلوا)
وتولى قيادة الكتيبة ضابط برتبة عميد (ميرا لاى) او عقيد (قائمقام عسكري) •
وتولى قيادة الفوج (طابور) ضابط برتبة مقدم (بكباشي = بنباشي)
وتولى قيادة السرية (قول) ضابط برتبة رائد (قول اغاسى) او رتبة نقيب (يوزباشي) وكلمة قول تعني الجناح ايضا ولها مفاهيم عسكرية اخرى •

وتولى قيادة الفصيل (بلوك) ضابط برتبة ملازم اول او ثان (برنجـي ويا ايكنجى ملازم •

وكان ضابط الركن يسمى (اركان حرب) •

وكان ضابط الاعاشة يسمى بلوك اميني

المراتب العسكرية العثمانية

باشى بوزوق ، الجندي المتطوع الذي كان يلبس ملابسه الخاصـة ، ويحمل سلاحه الشخصي •

هايتن بوزوق جندرمة غير نظامية

ضابطين بوزوق جندرمة محلية

الجندي المكلف جندرمة نفر

الجندي المتطوع = كونللى

جندي اول المتطوع = اونباشي

العريف المتطوع = جاوش

رئيس العرفاء المتطوع = باشي جاوش

الحارس = نوبتجي

الخفر = قره قول

البوقي = بورزان ديورزانجي ويورزانجي ويورزان باشـى

الانضباط العسكري = قانون جاوشى

الصنوف العثمانية

المشاة = پياده

الخيالة = سوارى

المدفعية = طوبجي ، المدفع = طوب

القناصة = نشانجي

المقرات العسكرية

مقر الولاية في بغداد = مشير لك

مقر الجيش في بغداد = اوردكاه

الثكنة = قشلة

تعليمكاه = مقر دورة تدريب الضباط

المستشفى = خستخانه

المدرسة = مكتب

العلم = سنجاق = بيراق

القلعة = قله

الخندق = سويبر

مصادر الفصل الثاني

١ ـ ابن بسام : الدر المفاخر في اخبار العرب الاواخر (مخطوط) .

٢ ـ جب وبوون : المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة احمد عبدالرحيم مصطفى . جزآن القاهرة ١٩٧١ .

٣ ـ جودت ، علي : ذكريات ١٩٠٠ـ١٩٥٨ بيروت ١٩٦٧ .

٤ ـ راسم ، احمد : عثمانلي تاريخى . استانبول .

٥ ـ الراوي ، ابراهيم : من الثورة العربية الكبرى الى العراق الحديث . بيروت ١٩٦٩ .

٦ ـ الرحبى ، محمود بن سليمان : بهجة الاخوان في ذكر الوزير سليمان (مخطوط) .

٧ ـ رؤوف ، عماد عبدالسلام : الموصل في العهد العثماني ، النجف ١٩٧٥ .

٨ ـ الشيخلي ، محمد رؤوف : مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها . البصرة ١٩٧٢ .

٩ ـ العزاوي ، عباس : تاريخ العراق بين احتلالين الاجزاء ٤ ـ ٨ بغداد ١٩٥٣ ـ ١٩٥٦ .

١٠ـ العمري ، ياسين : الدر المكنون في الحوادث الماضية من القرون (مخطوط) .

١١ـ فائق ، سليمان : تاريخ المماليك الكوله مند في بغداد . بغداد ١٩٦١ .

١٢ـ الكركوكلي ، رسول حاوي : دوحة الوزراء في وقائع بغداد الزوراء . ترجمة موسى كاظم نورس . بلا . ت .

١٣ــ محمد حسن : جاسم : العـراق في العهـد العثماني ١٨٧٦ــ١٩٠٩ ، رسالة ماجستير قدمت الى كلية الاداب في ايار ١٩٧٥ .

١٤ــ المكرياني : تاريـخ امراء سـوران . ترجمـه عن الكرديـة محمـد الملا عبدالكريم . بغـــداد .

١٥ــ نديم ، شكري محمود : الاوضاع العسكرية في العهد العثماني الاخير .

١٦ــ نوار ، عبدالعزيز سليمان : داود باشا (القاهرة ١٩٦٧) .

١٧ــ نوار ، عبدالعزيز : تاريخ العراق الحديث (القاهرة ١٩٦٨) .

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية

المبحث الأول

من احتلال بغداد حتى القرن الثامن عشر

د . علاء موسى نورس

وزارة الخارجية - بغداد

الزراعـــة :

ان ازدهار الحياة الاقتصادية في العراق ابان الحكم العربي الاسلامي كان من بين اسسه المهمة البناء الزراعي لان العاملين في ميدانه هم اكثر السكان عددا وهم الذين يوفرون للدولة امكاناتها المالية الرئيسة وهو ما أستدعى عدالـــة التوزيع للارض من جهة والاهتمام بمشاريع الري وتوطيد الامـــن مـــن جهـــة اخـــرى .

ولذا كان رخاء العراق يعتمد بالدرجة الاولى على الزراعة التي كانت تقوم بصورة رئيسة على نهري دجلة والفرات وما يصب فيهما ويتفرع منهما من انهار الى جانب اعتماد منطقة الجزيرة والجبال على الامطـــار .

ولكن ما لبثت تلك الحياة الزراعية ان مالت الى التدهور منذ القرن العاشر الميلادي عندما ضعفت الدولة العباسية وتفككت اواصرها وتلاحقت اقدارها حتى اجتاحها المغول في القرن الثالث عشر ، ولم يعد العراق الا ولاية من ولايات دولتهم التي كانت تبريز قاعدتها • واستمرت عهود الانحطاط قرونا عديدة كان لها اثرها الكبير في تخريب نظام الري واندثار انهار وقنوات عديدة وتراجع الارض الزراعية • واقتصر الاهتمام بالاحوال الزراعية بالمقدار الذي يمكن ان يوفر للحكام ما يحتاجونه من واردات • وبخاصة وانه لايمكن تصور اي ازدهار اقتصادي في ظل اضطراب سياسي واداري ونكبات وأوبئة متلاحقة•

كما ان تلك الاقوام الغازية لم تكن تمتلك اساسا ادراكا لمقومات البناء الاقتصادي ولذلك لم يكن امام حكامها سوى الابقاء على الانظمة السابقة والمحافظة عليها • ولم تشر المصادر الى نظم جديدة اعتمدت في بناء كيانهم • ولهذا نجد استمرار تقسيمات ملكية الارض بانواعها الخاصة والاميرية والوقفية والفردية والمتغيرات التي حصلت شملت الجانب الضريبي فقط اصبحت اكثر ثقلا وتعسفا ، واستغلت الاراضي الوقفية بشكل خاص اسوأ استغلال ويكفي ان نشير انها وضعت تحت اشراف نصير الدين الطوسي وأولاده من بعده معظم حقبة الاحتلال الايلخاني • كما حاز تيمور لنفسه وافراد اسرته الاراضي العالية الغلة واكثر من اقطاع الاراضي الاميرية لقاء تقديم الخدمة الحربية له • ولقد اتسعت في عهود الاحتلال المتلاحقة « القره قوينلو والاق قوينلو » أجراءات التصرف في الاراضي الاميرية والوقفية ومنح الاراضي للاتباع دون خضوعهم للضرائب المشرعة رسميا •

واستمر العراق يعاني من تدهور اوضاعه الاقتصادية أبان العصر الحديث، حيث تعاقب على احتلاله مرات عديدة الايرانيون والعثمانيون • واستمر ساحة صراع بينهما ما يقرب من اربعة قرون • ولقد امتدت السيطرة العثمانية الاولى طوال سنوات « ٩٤١ ــ ١٠٣٣هـ / ١٥٣٤ ــ ١٦٢٣م » وكانت الثانية منذ

سنة ١٠٤٨هـ ـ ١٦٣٨م وحتى اوائل القرن العشرين وبذلك لم يكن العصر الحديث الا ضغثا على أبالة •

ولما كان هدف الدولة العثمانية فيما يخص نظام الارض والزراعة ، هـو تكوين القوة العسكرية وتأمين موارد العيش لها ، وللموظفين المدنيين ، فانها قامت بعد احتلالها للعراق بعملية مسح شامل للاراضي الزراعية ، غير انها لم تغير في طريقة توزيع الارض ولم يكن هناك جديد في نظام الضرائب الزراعية او في العلاقات بين المسيطرين على الارض والعاملين فيها •

وتعتبر الدولة صاحبة جميع الاراضي الاميرية تتصرف بها تصرفا مطلقا وكانت تقوم باقطاع قسم منها الى عدد من الموظفين والجنود مقابل خدماتهم للدولة وان لم يكن هذا الاقطاع يعني تملكهم للارض وانما تفويضهم حق جباية الضرائب الزراعية والى جانب ذلك منحت السلطة العثمانية كبار الموظفين وبعض الحكام والجنود الاقطاعيين اراضي زراعية بصورة اقطاعيات تباين ايرادها باختلاف درجة صاحبها •

ولقد قسمت تلك الاقطاعيات الى ثلاثة انواع : اقطاعيات صغيرة تعرف بالتيمار لايزيد ايرادها عن « ٢٠٫٠٠٠ » اقجة واقطاعيات متوسطة عرفت بـ « زعامت » يتراوح ايرادها بين « ٢٠٫٠٠٠ ـ ١٠٠٫٠٠٠ » آقجة واقطاعيات كبيرة تعرف بـ « الخاص » يزيد دخلها على « ١٠٠٫٠٠٠ » آقجة وهي تخصص عادة للولاة او للسلطان نفسه •

ويتمثل حق السلطة على صاحب الاقطاع بأن يكون دوما مستعدا للمشاركة في الحرب وتهيئة ما عليه من مستلزمات بشأنها وهي اعداد وتجهيز عدد من الخيالة المحاربين يتناسب وايراد اقطاعه بنسبة فارس واحد لكل خمسة الاف آقجة • وبذلك نجد انهم كانوا يشكلون عنصرا عسكريا مهما في الدولة •
وتجدر الاشارة الى ان الاقطاعيات الصغيرة كانت تمنح لعامة الجند واحيانا يضاف اليهم رؤساء العشائر الصغيرة وصغار الموظفين كبديل عن

رواتبهم في حين خصصت الاقطاعيات المتوسطة لكبار ضباط الجيش وبعض كبار الموظفين •

وكان هناك نوع آخر من الاراضي ، هي الاراضي المملوكة او بعبارة اخرى الملكيات الفردية وقد تركت لاصحابها كأملاك خاصة غير انه كان عليهم دفع الضرائب عنها وهي تعتبر قليلة في العراق قياسا الى اراضي الاقطاع والوقف وبخاصة وان اراضي الاوقاف كانت في زيادة مستمرة بسبب استمرار عملية الوقف من قبل مختلف الاطراف ولذلك كانت واسعة الامتداد ومتراكمة •

والصنف الآخر من الاراضي هو الارض المشاعة التي لم يكن يملكها فرد وانما يتصرف بها سكان قرية بمجموعها ويشمل ذلك المراعي بشكل خاص • وكثيرا ماعمدت السلطة العثمانية الى انتزاعها من الفلاحين وادخالها في ملكيتها •

ان تقسيم الارض بالشكل الذي اشرنا اليه ، يقترن به الوضع الذي كان عليه الفلاح آنذاك ، ن يوضح عمل الفلاحين الرئيس من جهة ونسبة ملكيتهم للارض من جهة اخرى فهم بين ملاكين ونسبتهم ضئيلة جدا وبين فلاحين مزارعين وهم الاكثرية الذين كان عليهم تزويد جا عي الضرائب بما فرض على الارض التي يعملون عليها • وهدف الدولة ابقاء الفلاح في الارض والعمل على زراعتها لضمان الانتاج الزراعي من جهة وحصولها او من يمثلها على الضرائب المفروضة على الارض وانتاجها من جهة اخرى ، ولهذا عمدت الى جعل مهنة الفلاحة وراثية في الاسرة •

ومن انماط التعامل الزراعي التي شهدها العراق ، هي المغارسة ، وكان شيوعها بشكل واسع أبان العقود الاخيرة من حكم المماليك « ١١٦٤ — ١٢٤٧هـ / ١٧٥٠ — ١٨٣١م » ، ويمكن تحديدها بتولي سليمان باشا الكبير السلطة سنة ١١٩٥هـ — ١٧٨٠م وهو احد ابرز ولاتهم • وتوضح عقود المغارسة بين المماليك والفلاحين ، كم كانت مساحة الاراضي الزراعية التي

استحوذ عليها المماليك واسعة ، الى جانب الايراد الـذي تحقق عنها وتوظيفه ثانية في المجالات التجارية والعقارية مما شكل ثروة كبيرة للاسر المملوكية .

اما الضرائب والرسوم التي يدفعها الفلاح فهي بين ضرائب مفروضة على الفلاح ذاته وبين اخرى مفروضة على مواشيه وحيواناته الـى جانب الضرائب المفروضة على الارض وانتاجها من المحاصيل الزراعية وتلـك المقررة علـى المنشآت القائمة في الارض الزراعية او التي لها علاقة بالزراعـة .

ويمكن القول ان معاناة الفلاحين كانت كبيرة جدا واوضاعهم سيئة وبخاصة تعسف الملتزمين الذي ساهم في هجرة الكثير من الفلاحين الى المدن وما ترتب عليها من تأثير سلبي على الزراعة بالاضافة الى الدور الذي كان يمارسـه بعض شيوخ العشائر في التحكم بالفلاحين واستيفاء ما يمكن استيفاءه من ايراد .

ولقد حاولت الدولة العثمانية في أواخر القرن السابع عشر تطويـر نظام الالتزام بالشكل الذي ينظم ايراد الدولة في هذا الباب ويعالج موضوع الهجرة والاضطرابات ايضا فأتبعت نظام « المالكانة » الذي لم يغير كثيرا في اوضـاع الفلاحين التي ظلت متدهورة وقاسـية .

ولقد انعكست تلك الاوضاع على مجمل عملية الانتاج الزراعي حيث لم تستغل الارض استغلالا جيدا ليس فقط بسبب انعدام الحافز لـدى الفلاح بأعتباره في واقع الامر اجيرا لها وانما كان لاضطراب الاوضاع السياسـية وفقدان الامن تأثيره في تقليص مساحات الارض المزروعـة فكثـيرا ما أدت الحملات العسكرية التي يوجهها الولاة لاخضاع العشائر الى احراق المحاصيل واتلافها وترك الارض بورا دونما زراعة الى جانب ما كانت تحدثـه الكوارث الطبيعية كالفيضانات والاوبئة والافات حيث تهلك الحرث والنسل مما ادى الى تـرك الكثير من الفلاحين لقراهم وهو ما يفسر لنا ظاهرة انتشار القرى الخربة والمناطق القاحلة في اجزاء عديـدة من البـلاد .

ومهما يكن ، فأن المحاصيل الزراعية تنوعت تبعا للتوزيع الجغرافي ويأتي

في مقدمتها تلك التي تشكل المواد الاساسية في الغذاء اليومي كالرز والشعير والقمح الى جانب العدس والحمص والسمسم والماش والباقلاء والبصل •

كما انتشرت زراعة القطن الذي امتاز بطول تيلته واشتهرت منطقة الاهوار بزراعة قصب السكر وكذلك عرفت المنطقة الشمالية بزراعة التبغ وبالاضافة الى تلك الزراعات الرئيسة قامت زراعة الاشجار المثمرة وبخاصة منها شجر التوت والعنب والتمور والحمضيات والفواكه المختلفة الاخرى • وكانت الخضروات هي الاخرى تتوزع زراعتها في مناطق مختلفة •

وفي كل الاحوال بقيت المحاصيل الزراعية اسيرة بناء اقتصادي واجتماعي متخلف يقترن بالادوات الزراعية ووسائل الري من جهة ، وانعدام الاتصال والتبادل بين المدن من الوجهة الزراعية من جهة اخرى • فلم تكن طرق المواصلات متوافرة ليس بين القرى والمدن حسب وانما بين القرى وبعضها وان كثيرا منها عسيرة وصعبة ايام الشتاء مما جعل قرى عديدة في شبه عزلة كاملة في ذلك الموسم •

اما اداة الفلاح الزراعية ووسائل ريه لارضه فأن المحراث الخشبي الذي لايشق الارض الا سطحيا كان هو الوسيلة الوحيدة المستخدمة آنذاك ويقوم الري هو الاخر على وسائل بدائية في مجملها عبارة عن قنوات وترع متفرعة من النهر على طول مجاري الانهر والجداول بعضها كانت مملوكة من قبل الدولة •

وفي مواسم انخفاض مناسيب المياه كانت تستخدم الدواليب والنواعير وكذلك في المناطق التي تكون فيها القنوات اعلى من مستوى النهر • وقد بذلت بعض الجهود من قبل عدد من الولاة لتطهير انهر رئيسة مثل الدجيل ايام ولاية مرتضى باشا لبغداد سنة ١٠٧٢هـ ــ ١٦٦١م وكذلك نهر شريف أو نهر عطا الجويني القديم الذي ياخذ مياهه من الفرات الى النجف حيث اعيد تطهيره في عهد والي بغداد ابراهيم باشا «١٠٩٢ ــ ١٠٩٣هـ / ١٦٨١ ــ ١٦٨٣م» فأزدهرت ضفافه ثانية بالزراعة • كما تم في عهد الوالي سليمان باشا

الكبير « ١٠٩٥ ـ ١٢١٧هـ / ١٧٨٠ ـ ١٨٠٢م » حفر نهر الهندية من جنوب المسيب وجرى احياء بعض الانهار المندرسة في عهد داو باشا « ١٢٣٣ ـ ١٢٤٧ هـ / ١٨١٧ ـ ١٨٣١ م » كنهر عيسى الواقع في غرب بغداد بظاهر الكرخ ، ونهر النيل الذي كان قد احتفره الحجاج بن يوسف الثقفي ، وقد استخدم داود باشا في كريه خمسة الاف عامل اتموا حفر مأخذه من الفرات سنة ١٢٤٢هـ ـ ١٨٢٦م • كما اهتم باستخدام الات الري وتم انجاز مشروع لرفع المياه من نهر دجلة •

الصناعة :

لقد اضحت الصناعة بفضل التقدم الحضاري الذي اصاب المجتمع العربي الاسلامي أبان العصر العباسي ، اكثر ازدهارا فتعددت الصنائع وتنوعت ونشأت التنظيمات الحرفية على نطاق واسع وعرفت الاسواق المتخصصة حيث كان يتجمع اصحاب كل حرفة او مهنة في سوق واحدة حتى غدت عنصرا مهما في تخطيط اية مدينة اسلامية ولعل بغداد كان التخصص فيها اكثر وضوحا ويستدل ذلك من اسماء اسواقها ، فهناك سوق النحاسين والدباغين والصفارين والحدادين والوراقين والصاغه وغيرها •

ويقدم الجغرافيون والسواح صورة مهمة عن انواع الصناعات وتوزيعها الجغرافي في العراق زمن العصر العباسي ، وبخاصة كتابات الاصطخري والمقدسي وابن جبير • ومن بين ابرز الصناعات صناعة الزجاج والاقمشة الفاخرة كالعتابي والنصافي وتلك المصنوعة من الحرير والصوف والقطن بالاضافة الى صناعة الورق والتحف الذهبية والفضية والخزفية ونوع من صناعة الساعات •

بيد ان ذلك الازدهار الصناعي تعرض للانحطاط على أثر الغزو المغولي وما أصاب بغداد من خراب يوضح مقدار ما فقدته من الايدي الماهرة في الصناعة وان استمرت بعض الصناعات وحافظت على مكانتها • وبتعاقب الغزاة

في الحقب اللاحقة تعرضت البلاد الى تخلف صناعـــي اضحت فيــه الوظيفة الصناعية للمدن في مركز ثانوي قياسا للوظيفة الحربية والتجارية •

وفي مطالع العصر الحديث كان للتطورات السياسية والاقتصادية التـــي شهدها الشرق العربـــي تأثيرها الكبير في الانهاك الاقتصادي العـــام الـــذي أصـــاب العـــــراق •

فالى جانب عدم الاستقرار السياسي الذي حفلت به الحقبة العثمانية كانت الصناعة الاوربية قد اخذت تنشط بالشكل الذي خلق منافسة متزايدة مـــن جانب البضائع الاوربية للصناعات المحلية • وبالطبع لم تعمل الدولة العثمانيــة على حمايتها بالرسوم الكمركية المرتفعة بل بالعكس سهلت للاوربيين ســبل التجارة وقدمت لهم اخفض تعريفة كمركيـــة •

يضاف الى ذلك ان الحروب والكوارث الطبيعية التي كان يتعرض لهـــا العـــراق ، قد ساهمت في انقراض عائلات حرفية ماهرة • ولم يكن مـــن النادر ان تنقرض حرفة قاصرة على اسرة واحدة وكثيرا ما كان يحدث ان تنهار حرفة اكبر ومتخصصة بفعل كارثة طبيعية وثمة عامل اخر ذو طابع سياســـي واداري يتعلق بالحكام انفسهم وهو انعدام التشجيع الايجابي للصناعة وركود الاحوال الاقتصادية عامة ، يدعمه عسف وابتزاز مستمر •

وعلى الرغم من تراجع الصناعة وتقهقرها ، فأن مراكز المدن الرئيسة لــم تفقد اهميتها الصناعية وبخاصة في ميدان صناعة المنسوجات الصوفية والقطنية والحريرية وقد امتدحها الرحالة عند زيارتهم للعراق واشادوا بمهارة صناعهـــا وكان يقوم على صناعة نسيج الصوف عدد من المتاجر المرتبطة بها كالصباغـــة والتطريز وصناعة الخيوط المذهبة والمفضضة • وكانت النساء تقوم بعمليـــة الغزل في بيوتات ويجري النسيج في بيوت صغيرة وبأنوال يدوية • والصناعات في مجملها كانت تعتمد اساسا على المواد الخام المحلية •

وتجدر الاشارة الى ان مدينة الموصل تبوأت مرتبة متميزة مقارنة بالمدن الاخرى في مجال الصناعات النسيجية على اختلاف انواعها وقد جمعت بين الكفاية المحلية والتصدير الخارجي في آن واحد ويعزى ذلك الى ظهور طبقة تجارية قوية منذ القرن الثامن عشر كان لها تأثيرها في وضع بدايات لحركة صناعية نشطة اخذت بالتصاعد بتحول المدينة الى مركز تجاري مهم يصل بين تجارة البحر المتوسط وبين الخليج العربي والمحيط الهندي وهو ما ترتب عليه من اتساع نطاق مجال العمل الجماعي ليفي بمطالب التجارة فانشئت عدة مصانع بسيطة لانتاج مختلف السلع •

ولقد لفت انتباه الرحالة البريطاني آيفز الذي زار الموصل سنة ١١٧٢هـ ــ ١٧٥٨م ان المدينة تنتج كميات جيدة من الموسلين وهو قماش متين ناعم جدا ويصدر الى الاسواق الاوربية فتجارته رابحة كانت آنذاك كما اشاد الرحالة الدنماركي كارستن نيبور الذي شاهدها سنة ١١٨٠هـ ــ ١٧٦٦م بجودة صناعاتها واشار الى وجود مصانع كثيرة للنسيج والحياكة والصباغة وطباعة النقوش على المنسوجات • وفي عام ١٢١٢هـ/١٧٩٧ م زارها الرحالة البريطاني جاكسون فكتب يقول « بدا على السكان انهم اكثر اهتماما بالصناعة من أي قوم آخرين رأيتهم منذ غادرت الهند • فهناك عدة مصانع يجري تشغيلها وبعض مصنوعاتها تتفوق على المصنوعات الاوربية فسروج الخيول وأحزمتها تظهر جد أنيقة بوجه خاص • وهم يصنعون سجاد الحرير ويطرزونه بالازهار فيظهر احسن وامتن من السجاد الذي نصنعه نحن ، وهم مبرزون في صنع المطرزات الثمينة المدهشة للرجال والنساء معا ولديهم العديد من مصانع النحاس والحديد وهناك كميات كبيرة من مختلف المواد التي تصنع من هذه المعادن يتم ارسالها عبر نهر دجلة نحو الجنوب حتى البصرة » •

والى جانب ماتقدم فان من الصناعات الاخرى التي اشتهرت بها مراكز

المدن هي الحدادة والنجارة والدباغة والصياغة وبعض الصناعات الغذائية .
ونالت صناعة البارود اهمية خاصة بحكم الحاجة المستمرة اليها في الاستعمال للبنادق والمدافع وقد كانت بغداد مركزا مهما لصناعة البارود منذ القرن السادس عشر وتزايد عدد معاملها في القرون اللاحقة وبلغت ستة عشر معملا في أواخر القرن الثاني عشر الهجري (أواخر القرن الثامن عشر الميلادي) .

وساعد على قيامها توفر موادها الاولية في العراق مثل الكبريت ونترات الصوديوم وفيما يخص اوضاع العاملين في الميدان الصناعي فانها كانت متدهورة ايضا فهم يخضعون لضرائب عديدة وباهضة الى جانب ظروف العمل السيئة وبالرغم من انتظامهم في الاصناف الحرفية التي كانت قائمة آنذاك الا ان تلك الاصناف لم تكن مؤسسة فعالة تجاه السلطة مما جعلها خاضعة لها .

التجـــارة :

استطاع العراق بحكم موقعه الجغرافي ان يحافظ على مركزه التجاري المهم على مر العصور ولذا كانت التجارة من اهم مقومات حياته الاقتصادية حتى في عصور الغزو والاحتلال وان كان نشاطه الواسع في التجارة العالمية قد أتخذ منذ العهد الايلخاني مسارا آخر اذ بينما ازدادت علاقاته مع تركستان والصين ضعفت مع سوريا ومصر بشكل خاص . وكان هذا يهدف في الدرجة الاولى الى دعم الامبراطورية المغولية التي كانت قاعدتها في منغوليا والصين بعدئذ، وفي الوقت نفسه أضعاف قدرة مصر وبلاد الشام في مواجهة الايلخانيين كما أن طريق العراق البري بأتجاه اواسط اسيا اضحى في خدمة بلاد فارس، القاعدة الاساسية للدولة الايلخانية حيث اتخذت من تبريز عاصمة لها .

وكان من الطبيعي أن يصاب النشاط التجاري بشيء من الركود ويواجه العقبات التي تقترن اساسا بأضطراب الاوضاع السياسية وماترتب عليها من أنعدام الامن في الطرقات التي تسير فيها القوافل واستمر هذا الحال في عهود الاحتلال التالية حيث يشير مؤرخو تلك الحقب الى تدهور التجارة في العراق وتعثر نشاط تجارته الخارجية يضاف الى ذلك أن الجانب الضريبي الخاص

بالتجارة كان ثقله الى الدرجة التي ادت في بعض الاحيان الى غلق الاسواق ، وزاد من الاضطراب الاقتصادي مضايقة السلطات المحتلة لاصحاب رؤوس الاموال كما أن عدم توحيد النقود ساهم في ارباك التجارة ووصل الامر الى الحد الذي انقطعت فيه حركة الحج العراقية مرات عديدة ولسنوات وغـدت محطاتها الرئيسة خربة وهذا مالفت انتباه رحالة تلك العصور .

وأذا كان لابد من الحديث عن التجارة بالحجم الذي كانت عليه آنذاك فانها استمرت في اطارها العام الداخلي والخارجي وأعتمادها على الطـرق البرية والبحرية وهي ذاتها الطرق المعروفة في العصر العباسي مع تعديـلات طرأت عليها بأتجاه خدمة قاعدة الدولة المحتلة . وبقيت المدن مراكز طبيعية للمواصلات والتجارة وبخاصة بغداد والموصل والبصرة .

ومع مطالع القرن السادس عشر تعرض العراق الى مزيد من التدهور بأحتلال الصفويين له عام ٩١٤هـ ـ ١٥٠٨م واخضاع تجارته في مجمل حركتها بما يخدم تطلعاتهم ، وتجلى ذلك بشكل خاص من خلال تحالفهم مع البرتغاليين الذين فرضوا سيطرتهم على منافذ وسواحل الخليج العربي وماترتب عليه من تحويل طرق التجارة الشرقية الى رأس الرجاء الصالح وحرمان التجار مـن موارد كبيرة كانت قائمة اساسا على التجارة الهندية الاوربية يضاف الى ذلك أن البرتغاليين حاولوا أخضاع طرق التجارة البرية ايضا لسيطرتهم وبخاصة طريق البصرة ـ حلب بهدف احتكار كل الطرق التجارية المؤدية الى الهند .

وبأزدياد الصراع بين قوى عديدة طامعة في المنطقة بقيت تجارة العراق تخضع في حجمها لتلك التطورات ويمكن ملاحظة ذلك بأندفاع العثمانيـين والصفويين وماشهده العراق من اضطراب وعدم استقرار .

وفي الحقيقة ان التجارة الداخلية بقيت بعد الاحتلال العثماني في العراق تتابع سيرتها السابقة وذلك لاستمرار تأخر وسائل النقل والمواصلات وانعدام الامن في الطرقات وعجز السلطة العثمانية عن توفير الحماية الكافية يضاف الى ذلك ان فقر الشعب العام وأنحطاط مستواه المعاشي ساهم ايضا في تضييـق

ساحة التجارة الداخلية وأضعافها • كما ان الضرائب كانت عديدة ومفروضة على جميع مايمكن ان يباع في الاسواق والرسم الكمركي يؤخذ على كل مايؤتى به من خارج المدينة لاعلى البضائع الواردة من خارج الدولة العثمانية فقط وقد كانت البضائع المتبادلة داخليا تمثل المنتجات الزراعية والحيوانية بالاضافة الى المنتجات الصناعية المختلفة وكل مدينة كانت لها تقاليدها الخاصة في ممارسة العمليات التجارية ومايتعلق بها من رسوم وموازين ومقاييس ومكاييل •

والطرق البرية الرئيسية التي كانت مستخدمة للنقل التجاري ، هي طريق بغداد البصرة وطريق بغداد ــ الموصل ، وبغداد ــ حلوان ، وبغداد ــ كركوك ــ التون كوبري • ولكون هذه الطرق كانت تتعرض باستمرار الى الاخطار فأن الطرق النهرية هي المعمول عليها في الغالب مما جعل لها اهمية خاصة في التجارة الداخلية اضافة الى كونها ذات ارتباط كبير بحركة التجارة الخارجية ايضا ويأتي في مقدمتها الطريق النهري بين الموصل وبغداد والذي تستخدم فيه « الاكلاك » لنقل البضائع وطريق بغداد ــ البصرة الذي يعد طريقا للتجارة الداخلية والخارجية معا ، وواسطة النقل فيه كانت السفن الشراعية في الغالب والمصنوعة بطريقة بدائية • وكانت هناك عدة مراكز كمركية على طول شاطيء نهر دجلة لاستلام الرسوم والضرائب المفروضة على البضائع التجارية •

ويمكن تحديد مراكز التجارة الرئيسة في العراق بمحطتين واحدة في الشمال ، والاخرى في الجنوب وتمثل الاولى مدينة الموصل التي كانت تصدر منتجات تلك المنطقة أضافة الى منتجاتها هي • وتمثل البصرة المحطة التجارية الثانية وكانت ذات نشاط مزدوج بحكم موقعها كميناء للعراق •

وبشأن تجارة العراق الخارجية فأنها اقترنت ــ كما أشرنا ــ بطبيعة التطورات التي كانت تشهدها المنطقة ، فقد اصيبت بالتدهور طيلة القرن السادس عشر تقريبا بسبب الهيمنة البرتغالية على مياه المحيط الهندي والخليج

العربي واعتماد طريق رأس الرجاء الصالح • بيد أن تحسنا ملحوظا قد طرأ على التجارة منذ بداية القرن السابع عشر وتصاعد خلال العقود التالية بشكل كبير وأقترن ذلك بأزدياد أهمية العراق في المواصلات الدولية في خضم المنافسة التي قامت بين الشركات الشرقية الاوربية ومنها شركة الهند الشرقية الانكليزية وشركة الهند الشرقية الهولندية والتي كان نشاطها في حقيقته بدايات للتغلغل الاستعماري الذي شهدته المنطقة فيما بعد • وقد أسست تلك الشركات وكالات تجارية لها في موانيء عديدة من الخليج العربي ومنها ميناء البصرة الى جانب المواقع التي كان البرتغاليون مازالوا يحتفظون بها انذاك • بل نجد البرتغاليين يقيمون في البصرة عام ١٠٣٣ هـ/١٦٢٣ م وكالة تجارة تعد آخر مركز لهم في المنطقة بعد أن تمت تصفية معقلهم الرئيسي في هرمز عام ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢ م •

وبذا غدت البصرة مركزا تجاريا ناشطا كان له تأثيره على تجارة بغداد ذاتها فأخذت بالانتعاش هي الاخرى • واستمرت البصرة تشهد في ذلك القرن تداخلا في المنافسة بين البرتغاليين والهولنديين والانكليز حتى انفردت القوتان الاخيرتان في النشاط السياسي والتجاري معا بعد ان انهار النفوذ البرتغالي في المنطقة تماما •

وتسابق الهولنديون والانكليز في الحصول على الامتيازات وتدفقت في آن واحد السلع التي كانت تحملها سفنهم وبالرغم من الكساد الذي تعرضت له شركة الهند الشرقية الانكليزية في البصرة خلال العقد الرابع من القرن السابع عشر بسبب الفائض الذي شهده سوقها لتدفق السلع بشكل كبير ومنافسة الهولنديين لها فان اوامر بومباي كانت تقضي بالاستمرار في المتاجرة ضمن اطار السياسة البريطانية التي كانت تعمل على الانفراد في المنطقة وما تتطلبه من مواجهة للقوى المنافسة لها •

وتحولت البصرة الى سوق مهم للتجارة الهولندية التي كان عمادها التوابل والبن والسكر والفلفل والالبسة على اختلافها واقتضى ذلك ليس فقط

مقرا تجاريا وانما تأسيس مقيمية تشرف على الوجود الهولندي في منطقة الخليج العربي وقد تسبب ذلك في حدوث منافسة قوية بينهم وبين الانكليز الذين اعتبروا النشاط الهولندي خطرا على مصالحهم لذلك عملوا على ايقافه بكل الوسائل • ومنذ منتصف القرن الثامن عشر كان الاوان قد آن لاختفاء النفوذ الهولندي في المنطقة ، ففي سنة ١١٦٦ هـ/١٧٥٢ م اغلقت المقيمية الهولندية في البصرة بعد ان طرد البارون نيبهاوزن الذي كان مسؤولا عنها في ذلك الحين من قبل سلطات البصرة على أثر نزاع نشب بينه وبينها • كما أنسحبوا من بوشهر سنة ١١٦٧ هـ/١٧٥٣ م وبعد ذلك كان انسحابهم من بندر عباس سنة ١١٧٢ هـ/١٧٥٨ م ولم يبق لهم في الخليج العربي موقع الا جزيرة خارج التي رحلوا عنها سنة ١١٨٠ هـ / ١٧٦٦ م •

أن تصفية الوجود الهولندي قد منح الانكليز الفرصة كاملة للانفراد بالنشاط التجاري والسياسي معا • حقيقة ان شركة الهند الشرقية الانكليزية كانت قد اسست لها مقرا في البصرة سنة ١٠٥٣ هـ/١٦٤٣ م الا أن الامر لم يستقر لها بسبب ما أشرنا اليه وأستمرت تجارتها مع البصرة ضعيفة حتى العقود الاولى من القرن الثامن عشر حيث غدت البصرة بعد ذلك مقرا على درجة كبيرة من الاهمية بالنسبة للتجارة الانكليزية في منطقة الخليج العربي عموما اضافة الى أتخاذها محطة لنقل البريد بين الهند واوربا •

وشهدت تجارة البصرة نشاطا واسعا واخذ يتردد عليها العديد من اثرياء التجار من حلب واورفة وديار بكر والموصل وماردين وبغداد ومعهم مبالغ طائلة من المال ومستثمرات وفيرة من أنواع البضائع الصالحة للاسواق الهندية وترد الى الميناء سنويا سفن كثيرة للانكليز ولغيرهم من الاوربيين ولتجار سورات المسلمين جالبة اليها مشحونات ضخمة بالغة القيمة تشمل الادوات الاوربية ونتاج الهند ومصنوعاتها وتحمل منها مبالغ ضخمة من النقود وبضائع صالحة للاسواق الهندية ــ كما ذكرنا •

وكانت تجارة بغداد تعتمد اعتمادا كبيرا على تجارة البصرة ، وموقع

بغداد ساعد على تحقيق الاغراض التجارية أذ ان الصلة بين هذه المدينة والاجزاء الشمالية من بلاد فارس وارمينيا وجورجيا والاناضول ، والقسم الاوربي من تركيا وسوريا يهيء للتاجر ما يشاء ان يختار من صنوف الفروع التجارية .

وكثيرا ما تعبر القوافل بين بغداد وأصفهان عبر همدان وارضروم وبين بغداد وكثير من مدن ارمينيا وجورجيا وبين بغداد وماردين والموصل ودياربكر والقسطنطينية وكذلك بين بغداد وحلب ودمشق وتنقل الى بغداد كميات كبيرة من المال كما تنقل منها واليها العديد من المواد التجارية كالنحاس والزرنيخ والحرير الخام والذهب والفضة والاقمشة الكتانية البغدادية والكوفيات والمرجان وانواع الخرز والزجاج والتبغ والاسلاك النحاسية والسكر والبن ومواد تجارية أخرى عديدة متفرقة مما ينتج في البلاد الاوربية أو مما يصلح للاستهلاك فيها وفي غيرها من الاماكن مثلما يصلح في أسواق أوربا .

ولقد لفتت تلك التجارة الخارجية انتباه عدد كبير من التجار فأستخدمت فيها رؤوس اموال كبيرة. ويقدم الرحالة البريطاني بارسونز وصفا لتجارة العراق انذاك فيذكر انه سوق مهم مهيأ للاغراض التجارية كافة ويخص بغداد التي زارها سنة ١١٨٩ هـ/١٧٧٥ م بقوله : « أنها السوق الكبير لمنتجات الهند وايران والقسطنطينية وحلب ودمشق وبأختصار انها أكبر مخزن في الشرق » .

ويرتفع سنويا تصدير المواد غير الضرورية للاستهلاك المحلي من بغداد بمعدل « ٣٥٠ » الف قرش وتأتي الخيول العربية في مقدمة الصادرات العراقية الى الهند .

وقد اصدر الباب العالي امرا منع بموجبه تصدير الخيول من أي جزء من أجزاء الدولة العثمانية وذلك لاهمية الخيول في الحرب ولكن لما كان تصدير تلك الخيول يوفر أرباحا كبيرة على حكام البصرة وبغداد فقد استمرت هذه التجارة نشطة كما تشكل صادرات البصرة من التمر جزء مهما من صادرات

العراق وكان يصدر الى كرمنشاه وهمدان وشمال ايران ومسقط والهند وتتضمن صادرات العراق الاخرى بصورة خاصة الرز والحنطة والشعير وتصدر هذه الى مسقط وبعض مناطق الخليج العربي •

ولقد تمتع التجار الانكليز بأمتيازات كمركية حيث كانت التعريفة على بضائعهم تبلغ ثلاثة في المائة من قيمة البضاعة وهذه النسبة تنظم حسب السعر الذي تباع به البضاعة فعلا ولذلك لن يكون الرسم الكمركي مستحق الدفع الا بعد ان يتم البيع فعلا كما يتمتع الرعايا الانكليز بأمتياز تفريغ بضائعهم في مخزن الوكالة في البصرة أو في اي مكان أخر من دون ان يذهبوا بها الى دائرة الكمرك التي يتحتم على السلع الاخرى نقلها اليها • ويسمح للزوارق الملحقة بالسفن الانكليزية أن تمر بالنهر الى داخل المدينة وتعود فيه دون أن يجري تفتيشها مع أن هذه الامتيازات كانت غير مطبقة على السفن العربية التي ترفع العلم البريطاني •

وكان للانكليز ايضا امتياز تجاري هام وهو انه في حالة افلاس احد التجار الوطنيين يصبح مالدائنيه من الانكليز مستحقة السداد بكاملها قبل توزيع ما يتبقى على دائنيه من أهل البلاد •

أما الضرائب على التجارة التي يقوم بها الاهالي والدول الاخرى فكانت « ٧ر٥٪ » وهذه هي القيمة الرسمية للضريبة وكانت الضريبة تقدر حسب البالة أو الصندوق أوحسب الوزن وهذه تسمى سقط أو حسب الاطوال وهذه تسمى صاغ وكان يستقطع قرش عن كل بالة كرسم وهناك بعض البضائع المعفاة من الضريبة مثل النقد والذهب والفضة والى جانب تلك الضرائب الكمركية كانت هناك ضرائب تجارية عديدة وهي ضريبة الباج والتمغة والقبان والاحتساب والمسقفات على الحوانيت والخانات • وهي تجبى عادة عن طريق منحها بالالتزام الى اشخاص معينين ولم تعرف تلك الضرائب حدا مقررا في بعض الاحيان بسبب ماكان يصاحبها من ابتزاز ورشوة •

وكانت تجارة العراق الخارجية تتعرض بين حين واخر الى اضرار كبيرة بسبب اجتياح الطاعون لمدن بغداد والبصرة كالذي تعرضت له سنة ١١٨٧ هـ/ ١٧٧٣ م حيث قضى على القسم الاعظم من السكان بالاضافة الى الغزوات الايرانية للمدن العراقية ويكفي أن نشير الى التدهور الكبير الذي اصاب تجارة البصرة من جراء الغزو الايراني لها عام ١١٨٩ هـ/١٧٧٥ م •

وجاء في تقرير للمقيمية البريطانية في البصرة « لقد تلقت تجارة البصرة أكبر الضرر من جراء الظلم الغاشم والابتزاز الذي قام به الفرس ومن فرار كثير من اغنياء التجار تنيجة لذلك عنها وفرار قسم كبير من سكانها الاخرين ، ومن حمل الفرس لكميات ضخمة من النقد الى بلدهم • وكانت البصـرة في عامي ١١٩٣ و ١١٩٤ هـ/١٧٧٩ و ١٧٨٠ م تبدو قرية كبيرة لا مدينة غنية ناشطة مكتظة بالسكان ولا ميناء بحريا مزدهرا وكانت تزهو من قبل بأنها أحق المدن بذلك اللقب دون منازع » •

غير ان البصرة استطاعت أن تسترد مكانتها وتعود الى ماكانت عليه من الازدهار الاقتصادي بعد سنوات من انتهاء الاحتلال الايراني لها واخـذت السفن الاوربية تتردد اليها مرة أخرى وكذلك تجار القسطنطينية ودمشـق وحلب واورفة وديار بكر وماردين والموصل وبغداد • ويعزى هذا الى موقعها المتميز والفوائد التي تترتب عليه ، ولو كانت تلك الفوائد اقل اثرا لما استطاعت المدينة كما يقول المقيم البريطاني في البصرة هارفورد جونز ان تقاوم النكبات التي حلت بها خلال الربع الاخير من القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) ، وتظافرت عليها لتخربها ويضيف انها تقع على ضفة نهر كبير يمكن للسفن التي تحمل خمسمائة طن أن تدخل فيه وهو صالح للملاحة وبينها وبين تستر صلات سهلة عن طريق نهري الحفار وكارون وبحلب عن طريق الصحراء وعن طريق هذه المنافذ تتصل بالاجزاء الشمالية من فارس وبأرمينيا وجورجيا والاناضول وسورية واوربا ويمكنها البحر تلقائيا من أقامة صلات تجارية مع الهند •

المصـــادر

بكنغهام ، جمس
رحلتي الى العراق ، ترجمة سليم طه التكريتي ، جـ١ بغداد ١٩٦٨ .
تافرنييه ، جان بابتست
العراق في القرن السابع عشر ، ترجمه عن الفرنسية بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ١٩٤٤ .
جب وبوون
المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة احمد عبدالرحيم مصطفى ، جزءان ، القاهرة ١٩٧١ .
حسن ، محمد سلمان ، التطور الاقتصادي في العراق ، جـ١ ، بيروت ١٩٦٥ .
الحصري ، ساطع
البلاد العربية والدولة العثمانية ، القاهرة ١٩٥٧ .
خصباك ، جعفر
العراق في عهد المغول الايلخانيين ، بغداد ١٩٦٨
دائرة المعارف الاسلامية
(الترجمة العربية) ، مواد متعددة في الاجزاء ـ ١٣ .
رؤوف ، عماد عبدالسلام
الموصل في العهد العثماني ، النجف ١٩٧٥ .
رؤوف ، عماد عبدالسلام
صور من العلاقات الزراعية في العراق ابان القرن الثامن عشر ، مجلة المورد ، المجلد الحادي عشر العدد الثالث بغداد ١٩٨٢ .
سركيس ، يعقوب
مباحث عراقية ، جزءان ، بغداد ١٩٤٨ ، ١٩٥٣ .
سوسة ، احمد
فيضانات بغداد في التاريخ ، بغداد ١٩٦٣ .
صالح ، زكي
موجز تاريخ العراق ، بغداد ١٩٤٩ .

الصباغ ، ليلى
المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، دمشق ١٩٧٣ .
العابد ، صالح
دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ ــ ١٨٢٠ ، بغداد ١٩٧٦ .
العاني ، نوري عبدالحميد
العراق في العهد الجلائري ، رسالة ماجستير ، كلية الاداب ، جامعة بغداد .
عوض ، عبدالعزيز محمد
الادارة العثمانية في ولاية سورية ، القاهرة ١٩٦٩ .
العزاوي ، عباس
تاريخ العراق بين احتلالين ، الاجزاء ٤ ــ ٦ (بغداد ١٩٤٩ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٤) .
العزاوي ، عباس
تاريخ النقود العراقية ، بغداد ١٩٥٨ .
العزاوي ، عباس
تاريخ الضرائب العراقية ، بغداد ١٩٥٨ .
هادي ، جاسم ،
الغزو التيموري للعراق ، رسالة ماجستير ، كلية الاداب ــ جامعة بغداد ١٩٧٦ :
فائق ، سليمان ،
تاريخ بغداد ، تعريب موسى كاظم نورس ، بغداد ١٩٦٢ .
القهواني ، حسين ،
العراق بين الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ، رسالة ماجستير ، كلية الاداب ــ جامعة بغداد ، ١٩٧٥ .
لوريمر ، جون غوردون ،
دليل الخليج (القسم التاريخي) ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر ، بيروت ١٩٧٠
لونكريك ، ستيفن هيمسلي ،
اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، ط ٤ ، بغداد ١٩٦٨ .
محمد امين ، عبدالامير ،
القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، بغداد ١٩٦٦ .

محمد امين ، عبدالامير ،
التنافس بين الشركات التجارية الانكليزية ، مجلة كلية الاداب العدد السادس ، بغداد ١٩٦٣
مراد ، خليل علي ،
تاريخ العراق الاداري والاقتصادي في العهد العثماني ، رسالة ماجستير ، كلية الاداب ـ جامعة بغداد .
المنشيء البغدادي ، محمد بن احمد الحسني
رحلة المنشيء البغدادي ، ترجمة عباس العزاوي ، بغداد ١٩٤٨ م.
نوار ، عبدالعزيز ، داود باشا والي بغداد ، القاهرة ١٩٦٧ .
نورس ، علاء موسى كاظم
حكم المماليك في العراق ١٧٥٠ ـ ١٨٣١ ، بغداد ١٩٧٥ .
نيبور ، كارستن ،
رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمة محمود الامين ، بغداد ١٩٦٥
لانزا ، دومينيكو ،
الموصل في القرن الثامن عشر ، مذكرات عربها عن النص الايطالي روفائيل بيداويد ، الموصل ١٩٥٣ .

— Dupr'e, Adrien, Voyage en perse faitdans les ann'ees 1807-9, en traver sant la Natolie et la Mesopotamie, (Paris, 1819).
— Ives, Edward, A Journey from persia to England by an Unusual Route, (London, 1773).
— Lorimer, J.G., Gazetteer of the persian Gulf, Oman, and Central Arabia, 2 Vols, (Calcutta, 1915).
— Olivier, G.A., Voyage dans l'Empire Ottoman, l'Egypte, et la perse, (Paris, 1801).
— Parsons, A., Travels in Asia and Africa, (London, 1808).
— Samuel Monesty and Harford Jones., Report on the Commece of Arabia and persia, 15 August, 1790, (Selections from state papers, Appendix F.).

المبحث الثاني

من القرن التاسع عشر حتى نهاية العصر العثماني

حسين محمد القهواتي

كلية الاداب – جامعة البصرة

الزراعـة

ان السوق الخارجية وبخاصة الاوربية في القرن التاسع عشر صارت تحدد نوع وكمية الانتاج الزراعي في العراق وتبعا لذلـك فان منتجات زراعيـة وحيوانية كثيرة وجدت لها طريقا للتصدير الى الخارج .

الا ان التطور الزراعي في القطر ظل كسيحا ولم يتناسب مـع قدرات العـراق الزراعية التاريخية ومع بعض المحاولات الاصلاحية وبخاصة تلك التي بادر بها الوالي المصلح مدحت باشا (١٢٨٦ – ١٢٨٩ هـ / ١٨٦٩ – ١٨٧٢ م) لتحديث الزراعة وتوسيع الاراضي المزروعة عن طريق اعفاء الالات الزراعية

الحديثة من الرسوم الكمركية وتوزيع البذور المحسنة على الفلاحين، ولكن الذي حدث هو زيادة في انتاج غلة معينة على حساب نقص في غلة اخرى وذلك استجابة للسوق الخارجية وقد عبر احد محرري جريدة الزوراء عن حسرته علـى اهمال الاراضي الزراعية في القطر واستمرار تأخر الزراعة وقلة الانتاج قياسا الـى الامم التي وسعت اراضيها الزراعية عن طريق استصلاحها بقوله :

تقدمتني اناس كان شوطهم	وراء ظهري اذا امشـي على مهل
وربما ضـر بعض الناس بطوءهم	وكان خيرا لهم لو انهم عجلوا

وذكر آخر متألما ان منطقة عقرقوف لوحدها كانت تنتج في ثلاثينات واربعينات القرن التاسع عشر حوالي ١٠ آلاف منّ من الحرير نتيجة تربية دود القز على اوراق اشـجار التوت وكان فائض الحاصل يصدر الى الخارج بعد استهلاك قسم منه في الصناعات الحريرية وتساءل هذا المحرر عن الاسـباب التي ادت الى توقف هـذا الانتاج تماما في سبعينات القـرن المذكـور .

ان الجواب على ذلك هو تسابق المنتجين في تلبية السوق الخارجية التـي لـم تكن في تلك الفترة بحاجة الى خامات الحرير بقدر ما كانت تطلب التمور والحبوب ، وبخاصة الحنطة والشعير اضف الى ذلك استمرار تردي الاوضاع الزراعية في القطر بسبب مشاكل الارض وكثرة المحن والمنازعات والحـروب والكوارث الطبيعية والافات الزراعيـة والاوبئة الفتاكة واهمال معظم الولاة لمشاريع الري اما اهم الاسباب التي ادت الى استمرار قلة الانتاج الزراعي في العراق في القرن التاسع عشر قياسا الى الدول الاوربية التي حدثت فيها ثورة زراعية فهـي :

أولا ـ الاساليب الزراعية

ا ـ الري :

كانت اساليب الري تختلف باختلاف المناطق في العـــراق وكان لتلـك الاساليب اثرهـا في قابلية الارض الانباتية وبالتالي على الانتـاج الزراعـي بصورة عامة فالاراضي السيحية كانت من الاراضي المشغولة منذ زمن قديـم وقد قلت قابليتها الانباتية بسبب الاستمرار في زراعتها دون عنايـة فكثـرت ملوحتها وقلت خصوبتها وانخفض منتوجهـا •

اما الاراضي التي صارت تسقى بالمضخات والالات الرافعة فهي تلـك الواقعة على ضفاف الانهر الرئيسة مباشرة فانها لم تخسر شيئا من قابليتهـا الانباتية وكان تصريفها جيدا وملوحتها قليلة الا ان تلك الاراضي كانت محدودة جـدا بسبب حداثة استخدام الالات الرافعة في الري • اما الاراضي المطريـة فانها كانت تحتاج الى خدمة متواصلة في الحرث والزرع والحصاد وغالبية هذه الاراضي كانت تنحصر في المناطق الجبلية وكان الوصول اليها صعبا نظرا لرداءة طـرق المواصـلات •

ب ـ الحراثة

كان الفلاح لايزال يتبع في حراثته للارض الاساليب القديمة ويسـتعمل الالات البسيطة كالمحراث الخشبي القديم الذي تجره الحيوانات لذلك لـم يستطع الفلاح ان يحرث اكثر من مشارة ونصف في اليوم الواحد مهما اجهد نفسه وهذه عملية بطيئة كانت تضيع الوقت عليه وتحدد استفادته من المواسـم الزراعية المختلفة •

ج ـ قلة العناية بالبذور

كان الفلاح العراقي لايزال يستخدم بذوره التي كان ينتجها بنفسه مـن مواسم زراعية سابقة واصبحت هذه البذور بمرور الاجيال ذات صفات انتاجية

تكفي لسد حاجته البيتية دون ان تصلح لزيادة الانتاج بغية عرضها في الاسواق الخارجية في الوقت الذي بدأت فيه اوربا بانتاج البذور المحسنة وذات القابلية الانتاجية العالية في الزراعة وان انعزال العراق السابق عن العالم الخارجي كان عاملا للاستمرار في طريقة انتاجه البدائية التي لم تتغير على مدى العصور الامر الذي ادى الى تدني صفات الغلة وهبوط سعرها في السوق اضف الى ذلك عدم دراية الفلاح بمواسم الانبات والحصاد المناسبة لكل محصول وعدم اهتمامه بتنقية وتصنيف الغلة لذا اختلط جيدها برديئها .

د ـ الدورة الزراعية

اعتاد الفلاح العراقي ان يزرع ارضه باحد المحاصيل صيفا او شتاء ثم يتركها دون زرع (بورا) مدة موسم زراعي كامل او موسمين او اكثر احيانا وقد نشأت طريقة ترك الارض (بورا) نتيجة عوامل كثيرة اهمها :

١ ـ سعة المساحات الزراعية التي كانت تحت تصرف المالكين .

٢ ـ اصول المناوبة في الري الامر الذي كان يدعو المزارع الى الاعتماد على الزراعة الشتوية اكثر من اعتماده على الزراعة الصيفية وقد ورث الفلاح العراقي هذه الطريقة منذ اجيال بعيدة حتى اصبحت شبه عادة له بحيث لم يعد يفكر في الاضرار التي تنجم عنها وكان مصدرها ارتباك اصول الري وعدم انتظامه والعناية به وصرف المجهود من اجله .

٣ ـ هبوط كمية المياه خلال موسم الصيف الامر الذي كان يقف دون تمكن الفلاحين في ذلك الموسم من زراعة نفس المساحات التي يزرعونها خلال موسم الشتاء .

٤ ـ انخفاض مستوى دخل الفلاح بالدرجة التي كانت تمنعه من شراء مختلف البذور لمختلف المواسم .

٥ ـ كما ان معظم المحاصيل الصيفية التي تعطي موردا ماديا عاليـــا كانت تحتاج الى خدمة كثيرة ومستمرة على خلاف المحاصيل الشتوية ٠

٦ ـ جهل الفلاح والذي زاد في جعل هذه الطريقة (الدورة الزراعية) غـير اقتصادية اذ ان النظام المتبع في ترك الاراضي بورا لم يجـر حســب الاصول او حسب ما تقتضيه الشروط العلمية لاصلاح التربة وذلك لان العادة المتبعة هي ان تترك الارض على حالتها بعد حصاد الناتج منها في حين ان الحراثة عامل اساسي في نظام (الدورة الزراعية) وذلـك لحفظ كيـــان التربـــة ٠

ثانيا ـ حصة الفلاح

ان اكثرية اراضي العراق الزراعية كانت تستغل على اساس الايجار بالمحاصة في الغلة النهائية بين المالك والفلاح ففي الشمال كان صاحب الارض يأخـــذ نصف الناتج اما في الجنوب فكانت هناك طريقة مختلفة في توزيع الغلة بـين الفلاح والمالك وذلك تبعا لصنف الاراضي ولنوع ملكيتها وللجهة التـــي تجهز البذور ولطرق الري والطريقـــة التـــي كانت شائعة هـي قسـمة الغلة الى خمسة اقســام او حصص متساوية تدعى محليا (الكومـــات او الفراديس) واحدة للرســوم واثنتان لصاحب الارض والمفروض ان تـكون الحصتان الباقيتان الى الفلاح الا انه هذا الأخير لم يكن يحصل على هـــذه الحصة كاملة لانه كان عليه ان يدفع ما يعرف بـ (البراتيل) وهي الشوباصية والقهوجية والكتابية وغيرها من الاستقطاعات الكثيرة ٠

واخيرا نقول ان قيام الفلاح الواحد بكافة العمليات التـــي تقتضيهـــا الزراعة مـــن حراثة وبذار وسقاية وحصاد ودياسة ووقاية ومراقبة الى غـير ذلك طوال المواسم هي اعمال كانت تؤدي الى اتعاب الفلاح وانهاك قـواه

الجسمية اضف الى ذلك انه كان معرضا الى برد الشتاء وقيظ الصيف دون وسائل تحميه او تقيه وهذه امور كانت تشتت قواه ، وتضيع قابليته على العمل كما ان غذاءه البسيط المتشابه والمتكرر من يوم لاخر والذي لايحوى على المواد الغذائية الضرورية للاعمال الجسدية ، ومسكنه التعيس سواء كان بيتا من طين او كوخا من قصب ، كان لايقيه حر الصيف وزمهرير الشتاء اضف الى ذلك الامراض المختلفة التي كانت تفتك به فتكا كالملاريا والانكلوستوما والبلهاريزيا والهيضة كل هذه عوامل كانت تقلل من كفاءته الانتاجية كثيرا .

اما سبب موقف الفلاح السلبي ازاء الارض والتكاسل عن الزراعة او عدم ابداء الاهتمام الكافي بها فهو لانه كان يشعر با نكده لغيره وان ما يناله في نهاية الموسم قلما يكفي لسد حاجته الاسرية من طعام ولباس والبقية كان لابد ان يقدمها لصاحب الارض وللسلطة العثمانية كضرائب .

الصناعة

كانت غالبية سكان العراق حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر من الفلاحين ذوي الدخل القليل والقوة الشرائية المحدودة واذا اضفنا الى ذلك جهل الفلاح وتحفظه ازاء تغير او تبديل كثير من ادواته المنزلية والحقلية علمنا اسباب تأخر تطور الصناعات المحلية في العراق فدخل الفلاح القليل كان يضطره الى ممارسة بعض الحرف كعمل المحراث او تصليحه او قيام المرأة بغزل وحياكة الصوف او القطن لافراد العائلة او طحن الحبوب اوبناء البيت او عمل بعض الادوات المنزلية الخ .

ومما لاشك فيه ان نوع الطلب وكميته هما اللذان يعينان نوع البضائع التي نجدها في سوق القرية او المدينة وبعبارة اخرى لما كان الفلاح فقيرا وجاهلا فان طلبه كان يقتصر على الضروريات الاساسية في حياته اليومية فهي اولا ادوات زراعية مثل المحراث والمنجل والمبذر وثانيا ادوات منزلية للطبخ

والاكل مثل القدور والاواني والجاون والرحى وثالثا ملابس بسيطة كالعباءة والزبون واليشماغ الخ وهذه كلها مصنوعات قديمة وبسيطة وهي محدودة العـدد تقوم بانتاجها طبقة من الصناع اليدويين كالحدادين والنجارين والصفارين والحاكة وغيرهم من المنتجين الذين يعتمدون في تصريف بضائعهم على الفلاحين وبهذا تكون سوقهم محدودة من حيث كمية الانتاج ونوعيته . وكانت الحرف السائدة في مدن العراق قديمة وتقليدية وفي وضع ثابت على الرغم من مرور السنين .

وكان الحرفيون في المدن الصغيرة يشتغلون في بيوتهم او في حوانيت صغيرة كما كانوا يستعملون ادوات انتاج ابتدائية وكان الحرفي يقوم بالانتاج وحده او مستعينا باولاده او ببعض الاطفال الذين يرسلهم اولياؤهم ليتعلموا اسرار الحرفة وكانت غالبية منتجات هذه الحرف بعيدة عن صفقات التجارة الخارجية ولم يؤثر فيها تقدم وسائل النقل وغزو المصنوعات الاجنبية للسوق العراقية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الا تأثيرا سطحيا وفي بعض الصناعات التي استجابت للطلب الخارجي .

ومن بعض الصناعات الحرفية التي عرفتها مدن العراق هي النجارة والحدادة ونسج الملابس وصنع الصابون وعصر الزيوت النباتية والتقطير وصنع الاغطية والسجاد والبسط والخياطة والدباغة والسراجة الخ .

وقد جرت العادة من اقدم الازمنة عند اهل الصنائع اليدوية ان يحتل ذوو الحرفة الواحدة سوقا في المدينة وتعرف باسم الحرفيين الذين يشغلون اكثر الحوانيت فيها .

فهناك سوق للنحاسين واخر للحدادين والسراجين والخياطين الخ وكان للسوق مأمور خاص وملتزم معين . وكان الحرفيون في المدن العراقية ينقسمون الى ثلاثة اقسام رغم ان الخط الفاصل بين قسم واخر كان غير واضح احيانا وهذه الاقسام هي :

١ ـ الحرفيون المستقلون الذين يشتغلون في بيوتهم او في حوانيت خاصة وبأدوات يملكونها بانفسهم ويستعملون مواد اولية يشترونها وتكون سوقهم التجارية محدودة قد لاتتعدى المدينة نفسها .

٢ ـ اصحاب الصنائع وهم الذين كانوا يشتغلون في محلات نظمت بصورة شبيهة بالمصنع اقيست فيها ادوات الانتاج بعدد كبير يحركها مساعدون وعمال عديدون .

٣ ـ عمال ماهرون واولئك كانوا يشتغلون مستقلين او بالاشتراك مع غيرهم وكانوا يعتمدون في بيع منتوجهم على وسيط يكون عادة من التجار وتكون سوقهم اوسع من سوق الحرفيين وربما اصبحت في بعض الاحيان خارجية كصناع السجاد والاغطية والحرائر والصياغة .

ولم تتغير الصناعات الحرفية في العراق كثيرا في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين بل اقتصرت على سبيل المثال صناعة النسيج المحلية على انتاج الانسجة الصوفية والحريرية والقطنية .

ومن جهة اخرى اقامت الشركات الاجنبية في المدن الكبرى بعض المصانع من اجل اعداد الخامات المخصصة للتصدير اعدادا صناعيا اوليا مثل غسل وكبس الصوف ورزم عرق السوس .

وقد تأسست في بغداد ورشات لغزل الحرير ونسج القطن وحياكة البسط وصنع الاباريق النحاسية وصناعة المنتجات الخشبية الدقيقة . وفي ضواحي المدن الكبرى كان الحرفيون يشتغلون بدباغة وصناعة الجلود لتموين صناعات الاحذية والاحزمة والسروج بالمواد الاولية .

وتأسست في بغداد والبصرة ورشات لصناعة السفن المحلية واشتهرت السليمانية بصناعة الاسلحة وبخاصة البنادق واستمرت تلك الصناعة حتى الاحتلال البريطاني للعراق .

وافتتحت في البصرة بعض المكابس الحديثة للتمور بالاضافة الـــى مصانع للثلج والمياه الغازية وغيرها •

لقد كان مستوى التطور الصناعي في العراق في نهاية فترة السيطـرة العثمانية واطئا جدا وذلك لان العراق كان في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تابعا في اقتصاده للرأسمال الاجنبي وسوقا لتصريف البضائع الصناعية للبلدان الاوربية لذلك قضى النسيج الاوربي الرخيص بالتدريج على انتاج النسيج المحلي وادي فيض البضائع الاوربية الى تقلص انتاج الحرفيين المحليين •

التجــارة

حدثت تغيرات هائلة في التجارة الدولية في النصف الاول من القــرن التاسع عشر نتيجة لقيام الثورة الصناعية في اوربا وتأثرت تجارة العــراق هي الاخرى بالتطورات العالمية الجديدة ولكن بدرجة اقل الا ان التجــارة العراقية شهدت في النصف الثاني من القرن المذكور قفزات واضحة لاسباب عديدة منها تخفيض التعريفة الكمركية العثمانية على السلع المصدرة مــن اراضيها عام ١٢٧٨هـ ــ ١٨٦١م وتنظيم المواصلات التجارية بـين الموانىء الهندية والبصرة عام ١٢٧٩هـ ــ ١٨٦٢م وتأسيس مكاتب البريد والتلغراف في انحاء مختلفة من القطر كما ان فتح قناة السويس للملاحة عام ١٢٨٦هـ ــ ١٨٦٩م اسهم في تسهيل اتصال العراق باوربا عن طريق البصرة مثلما اسفرت جهـــود مدحــت باشــا الاصــلاحية في العــراق ١٢٨٦ ــ ١٢٨٩هـ / ١٨٦٩ ــ ١٨٧٢م عن توحيد الولايات العراقية وتغـــيير وسائل الانتــاج لا ســيما الزراعية منها وتطوير وسائل المواصلات النهرية والبحرية كل هذه الاسباب ادت الى توافد الشركات الاوربية وبخاصة البريطانية منها على العـــراق للحصول على ما ينتجه القطر من محاصيل زراعية ومنتجات حيوانية ويمكننا

التعرف على تجارة العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى قيام الحرب الاولى من خلال اطلاعنا على تطور الصادرات والواردات :

أ ــ الصادرات

اخذت تجارة العراق بالتطور منذ سبعينات القرن التاسع عشر وغدت لا تقتصر على سلع المرور فحسب وانما شملت تصدير المنتجات الزراعية والحيوانية الى الدول الاوربية والهند وموانيء الخليج العربي والبحر الاحمر والدولة العثمانية بحيث تضاعفت التجارة خمس مرات قياسا الى تجارة الستينات من القرن المذكور وشهدت الثمانينات زيادة في التجارة ولكنها لم تكن بنسبة الزيادة السابقة وسبب ذلك عدم قدرة وسائل انتاج القطر الزراعية والرعوية المتاحة آنئذ على اللحاق بالطلبات الاوربية المتزايدة من جهة وللعوائق الطبيعية والسياسية والادارية التي اعترضت طريق تطور المواصلات النهرية في هذا العقد والعقد اللاحق ايضا الا ان العقد الاول من القرن العشرين شهد زيادة كبيرة سببها تطور الملاحة النهرية وبخاصة تأسيس الشركة الحميدية التي حلت محل شركة عمان العثماني للملاحة وسماح السلطات العثمانية العليا لشركة لنج في العراق لسحب المقطورات وراء بواخرها بعد طول ممانعة مما سهل نقل المنتجات الزراعية والحيوانية من اعالي القطر الى البصرة بقصد تصديرها الى الخارج •

ومن جهة اخرى ارتفع معدل صادرات القطر عن طريق البصرة خلال السنوات الثلاث التي سبقت اندلاع الحرب الاولى ارتفاعا كبيرا بسبب المنافسة بين الشركات الاجنبية البريطانية والالمانية والروسية والامريكية وغيرها لشراء منتجات القطر الرخيصة ولما وفره النقل المائي الالماني من تسهيلات في نقل تلك المنتجات بواسطة لنشاتها التجارية التي سمحت لها السلطات العثمانية لاول مرة بالاشتغال بين البصرة وبغداد وبعد ان كان

امتياز الملاحة في شط العرب ونهر دجلة بالنسبة للاجانب مقتصرا على شركة لنج فقط طيلة الفترات السابقة .

ولوقارنا معدل مبلغ صادرات العراق خلال الاعوام ١٣٢٩ — ١٣٣٢ هـ / ١٩١١ — ١٩١٣ م (٢٫٥٧٠٫٠٠) باون بمعدل قيمة الصادرات لستينات القرن التاسع عشر لظهر بأن قيمة تجارة الصادرات العراقية قد تضاعفت عشرين مرة تقريبا ، ولو استعرضنا السلع والمنتجات المصدرة من العراق عن طريق ميناء البصرة خلال العقد الاول من القرن العشرين لوجدنا ان دول اوربية اخرى اخذت تنافس بريطانيا في استيراد ماتحتاج اليه اسواقها ومصانعها من منتجات زراعية وحيوانية فالتمور بسائر انواعها المعبأة بالاكياس أو في الصناديق أو المكبوسة في الجلود أو في الخصاف لم تعد تصدر الى بريطانيا والهند والدولة العثمانية فحسب وانما الى النمسا والمجر والولايات المتحدة الامريكية وروسيا واستراليا ، والشعير الذي كان يصدر برمته الى بريطانيا والهند صار يصدر الى المانيا ويصح القول نفسه ايضا على محصول القمح .

اما الشلب والرز فصارا يصدران بالاضافة الى بريطانيا والدولة العثمانية وموانىء الخليج العربي الى المانيا ايضا ورغم ان الدخن والهرطمان والذرة استمرت تصدر الى بريطانيا والهند وموانيء الخليج العربي وموانىء البحر المتوسط الا ان السمسم صار يصدر الى فرنسا بالاضافة الى الاقطار المذكورة واقتصر تصدير العفص على اسواق بريطانيا ولكن الصمغ وجد له اسواقا في فرنسا والمانيا بالاضافة الى بريطانيا .

والصوف الذي كان مخصصا لمصانع بريطانيا صار يصدر بالاضافة اليها الى كل من فرنسا والمانيا والولايات المتحدة وكذلك شعر الماعز اما الجلود المدبوغة فلم تعد اسواقها مقتصرة على بريطانيا وانما اخذت تنافسها المانيا ايضا وتجارة عرق السوس التي بدأت اصلا مع الولايات المتحدة الامريكية

اخذت فرنسا وبريطانيا تتاجران به ايضا والسجاد المحلي وجد له اسواقا في فرنسا والمانيا وظلت اسواق بومباي في الهند هي المركز الرئيسي لتجارة الخيل المصدرة عن طريق البصرة ٠

ب ـ الواردات

كان العراق قبل افتتاح قناة السويس يستورد من السلع التجارية اكثر مما يصدر وبعد افتتاح القناة للملاحة اخذ يوازن ذلك بالمنتجات الزراعية المحلية وبخاصة التمور والحبوب التي ازداد الطلب الاوربي عليها ٠

لقد تضاعفت تجارة الاستيراد في ثمانينات القرن التاسع عشر مرتين ونصف بالنسبة لتجارة الستينات وتضاعفت التجارة مرة اخرى في السبعينات وشهد العقد الاول من القرن العشرين زيادة تعادل مرة ونصف من قيمة الاستيرادات قياسا الى العقد الذي سبقه وخلاصة القول ان قيمة الاستيرادات تضاعفت اكثر من اربع عشرة مرة ونصف في الاعوام الثلاثة التي سبقت الحرب الاولى قياسا الى معدل تجارة الاستيراد في ستينات القرن التاسع عشر ٠

واشهر السلع التي دخلت العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى قيام الحرب الاولى هي الاقمشة القطنية وغالبيتها كانت تستورد من بريطانيا والسكر بانواعه الروسي والبلجيكي والالماني والالواح الخشبية وصناديق التمور الجاهزة من بريطانيا وروسيا وصفيح النفط الروسي والامريكي والبن اليمني والهندي والشاي الهندي بالاضافة الى اكياس الجوت والفحم الحجري والتبغ والتنباك وعلب الكبريت والاسلحة والمعدات المعدنية المختلفة وبخاصة الحديدية منها التي اخذت تتزايد نسبيا خلال الاعوام ١٣٢٨ ـ ١٣٣٢هـ / ١٩١٠ ـ ١٩١٣م بسبب وصول كميات كبيرة من المواد الحديدية المتعلقة بمشروع سكة حديد برلين بغداد،اما السلع المعدنية

الاخرى التي كانت تستورد فهي المبارد والمناشير واواني الشاي المعدنية والملاعق وابر الخياطة والساعات اليدوية والجدارية والمكائن واللنشات التجارية والمضخات ومكائن الخياطة وقطع الحديد والفولاذ والقصدير والنحاس ومن السلع الاخرى المستوردة الاواني الخزفية والزجاجيات وزجاج النوافذ والعدد المختلفة والصابون والحبال والخيوط واحجار الرحى والشموع والاسمنت والاصباغ والزيوت والقرطاسية والقمح والرز احيانا (عند شحتها في العراق) والليمون العماني (نومي البصرة) والتوابل والاعشاب الطبية بمختلف انواعها .

ومن الجدير بالذكر ان قسما كبيرا من سلع تجارة الواردات كانت عبارة عن بضائع مرور فقط (ترانسييت) الى الاقطار المجاورة وان معظم عمليات الاستيراد والتصدير كان مقتصرا على الشركات الاجنبية في حين عمل التجار العراقيون كوكلاء لتصريف البضائع الاجنبية .

اما أهم الشركات الاجنبية التي كانت تعمل في العراق منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر فهي شركة لنج اخوان وكري مكنزي ودربي اندروز وموير تويدي وهوتز وشركة اصفر وشركة ويبر بريمن الالمانية وشركات بوكنال وستريك وونكهاوس واندروير بالاضافة الى شركات ملاحة وتجارة مشتركة منها روسية وامريكية والمانية ونمساوية وسويسرية وهندية بالاضافة الى البريطانية وكانت مراكز هذه الشركات في الغالب في البصرة وكانت لها احيانا فروع في بغداد .

وخلاصة القول لقد تحولت اسواق العراق في القرن التاسع عشر وحتى قيام الحرب الاولى الى مستودعات للصناعة الغربية ولم تكن هذه الاسواق بحاجة الى معظمها وانما كانت تتوارد عليها لاستبدالها بمنتجات القطر الزراعية والحيوانية ولصالح فئة صغيرة من المنتجين واللاهثين وراء الشركات الاجنبية وقد سبب ذلك السيل الواسع من السلع غير الانتاجية ، تقليص انتاج

الحرفيين المحليين ومن ثم توقفهم عن العمل وادى بالنتيجة الى نشوء ظاهرة تبعية الاقتصاد الى الاقتصاد الرأسمالي وبخاصة البريطاني .

الضرائب

كانت الضرائب العثمانية السائدة في العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر متنوعة منها ضريبة العشر وضريبة الماشية (الكودة) وضريبة الدخل وضريبة العقار وبدل الخدمة العسكرية ورسوم الكمارك ورسوم الجسور وضرائب اخرى .

ومعظم هذه الضرائب كانت تمنح باللزمة والملتزمون كانوا يتلاعبون بمقدار الضرائب المفروضة عن طريق الرشوة ويقتسمون الارباح مع السلطات العثمانية المحلية فضريبة العقار كانت تجبى على اساس بدل الايجار المحتمل الا أن الملتزمين كانوا يتقاضون ضريبة لا تقل عن ٥٠ قرشا في السنة عن كل دار او خيمة او صريفة .

وضريبة العشر كانت في واقع الامر نسبة تتراوح بين ١٠ ــ ١٢٪ من الحاصل ولكن مالكي الارض المروية كانوا يدفعون اضافة لذلك نسبة اخرى من الضرائب تتراوح بين عشر المحصول وثلثه تبعا لنظام الري المعمول به فالارض الديمية والتي تروى بالكرود كانت تدفع عشر الحاصل والتي تروى بواسطة القنوات والانهر تدفع خمس الحاصل في حين تدفع ثلث الحاصل تلك التي تسقى سيحا .

وكان الملتزمون او الموظفون الحكوميون يحضرون الى الحقل قبل الحصاد او بعده ويحددون مقدار المنتجات الزراعية المطلوب جبايتها وكثيرا ما جانب هؤلاء العدالة في تقديراتهم الامر الذي كان يؤدي الى امتناع الفلاحين عن الدفع وعندها كانت تجري محاولات من قبل السلطة العثمانية

لجباية الضرائب بالقـوة وذلك عن طريق توجيـه الحملات العسكريـة الى القبائل ولكن السلطة العثمانية كانت تفشل في غالب الاحيان ، لان سكان المناطق التي كانت تكثر فيها الاهوار سرعان ما كانـوا يختبئون في أحراش البردي ، والقريبون من الحدود كانوا يتجاوزونها الى الدول المجاورة ، اما القبائل التي كانت تسكن على ضفاف الفرات فانها كانت تتوغل في الصحراء .

كما أن قبائل اخرى وقفت اكثر من مرة وهي شاهرة السلاح في وجه السلطة العثمانية ممتنعة عن الدفع لذا وجدت السلطات بعد تجارب مريرة ان من الافضل لها ان تجمع الضرائب بواسطة شيوخ القبائل عن طريق منحها لهم بالالتزام وبذلك ضربوا اسفينا بين الشيوخ والفلاحـين .

وبالاضافة الى هذه الضرائب كانت هناك الرسوم التجارية ورغم انها كانت مقننة وفق القوانين والانظمة الا ان موظفي الكمارك كانوا يتلاعبون بها وفق ما يدفعه التاجر من رشوة او هدايـا .

فمعاهدة بلطه ليمان ١٢٥٤هـ ـ ١٨٣٨م حددت رسوم الواردات البريطانية الى الدولة العثمانية ومن ممتلكاتها (العراق) بـ ٣٪ بالاضافة الى ٩٪ كضريبة داخلية فيكون المجموع ١٢٪ اما الرسوم المفروضة على الصادرات من الدولة العثمانية فهي ٣٪ ، يضاف اليها ٢٪ كضريبة داخلية ويكون مجموعها ٥٪ .

وفي عام ١٢٧٨هـ/١٨٦١م عقدت الدولة العثمانية معاهدة التجارة والملاحة مع بريطانيا وبموجبها قلصت الرسوم المفروضة على الصادرات مـن الدولة العثمانية الى ٨٪ على ان تخفض نسبة ١٪ سنويا حتى تستقر اخيرا على ١٪ من قيمة البضاعة وحددت رسوم الواردات الى الدولة العثمانية بـ ٨٪ على ان تبقى ثابتة ، اما رسوم الترانسيت فكانت ١٪ ولكن عند دخول البضـائع المراد ارسالها الى ايران عن طريق العراق كان عليها ان تدفع رسـما كمركيا قدره ٨٪ على ان تستعيد الفرق وهو ٧٪ من قيمة البضاعة في خانقين قـرب الحدود الايرانية عندما يتم التأكد من تصديرها خلال فترة لا تزيد على ستة

شهور اما اذا صدرت عن طريق طرابزون (الى الدولة العثمانية) فيعاد الرسم الكمركي كله لان ذلك الطريق كان معفيا من رسم الترانسبيت ، اما السلع الاجنبية التي لها ما يماثلها في العراق فلابد من ايداعها في دوائر الكمرك فيما اذا كان التاجر يرغب في تصديرها ثانية الى بلاد اخرى واذا لم يفعل ذلك فعليه دفع الرسم الكمركي كاملا أي ٨٪ كما لا يحق له استرداد الـ ٧٪ مرة اخرى على الحدود . وقبيل الاحتلال البريطاني للعراق ارتفعت الرسوم الى ١٥٪ من قيمة البضاعة وفي فترة الاحتلال خفضت الى ١٠٪ اما ضريبة الصادرات التي كانت ١٪ فانها الغيت وكان ذلك لصالح المحتكرين الاجانب .

ومن جهة اخرى كان رؤساء العشائر في انحاء مختلفة من العراق يفرضون بعض الاتاوات على البضائع التجارية المارة عبر مناطق سكناهم في الزبير والصحراء الغربية وعلى طول شط العرب ونهر دجلة بين البصرة وبغداد واكتسبت بمرور الزمن الصفة الشرعية واساءت الى التجارة وعرقلت تطورها فشيوخ البو محمد وبنو لام كانوا على سبيل المثال يتقاضون رسوما كيفية من السفن والبواخر لقاء السماح لها بالمرور عبر مناطقهم وقد عرفت هذه الضريبة في العراق بأسم (الخاوة) وكانت تدفع على الاقل في عشرة مواقع بين البصرة وبغداد ناهيك عن مناطق الصحراء المترامية الاطراف بين البصرة وحلب ورغم ان هذه الرسوم لم تكن محددة الا انها لم تكن قليلة ايضا وكانت تجبى حتى من سفن وقوافل الدولة العثمانية نفسها .

وبالاضافة الى هذه الاتاوات كانت هناك رسوم الجسور التي كانت تمنح بالالتزام . وقد كان الملتزمون يسيئون كثيرا في جبايتها ويتجاوزون حدود امتيازاتهم فعندما انشأت السلطة العثمانية جسرا في العمارة عام ١٢٧٨هـ ــ ١٨٧٠م فرضت رسوما على السفن المارة تحته بمعدل عشرين قرشا على السفينة الواحدة وعشرة قروش على (الدوبة) التي تجرها السفينة .

اما دوائر الكمارك في العراق فانها كانت تمنح بالالتزام واستمر ذلك حتى نهاية ولاية نجيب باشا للعراق عام ١٢٦٥هـ ـ ١٨٤٨م ثم الحقت بالخزينة وخضعت للقوانين والانظمة التجارية العثمانية وطبقت التعريفة الكمركية التي كانت تعلنها الدولة بموجب اتفاقياتها مع الدول الاجنبية .

وكانت عوامل كثيرة تلعب دورا في كيفية تقدير الرسوم الكمركية وجبايتها تأتي في مقدمتها التعريفة الكمركية كما ان الرشوة على مايبدو كانت تشجع من قبل التجار بنفس القدر الذي كان يدعو اليها الموظفون العثمانيون . وعند وصول البضائع التجارية الى دار الكمارك كانت ترسم بموجب القوانين وقوائم التعريفة الكمركية وحسب منشأ البضائع الا ان تغيرا حدث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في كمرك البصرة ، وذلك بالسماح للبضائع المستوردة لغرض التصريف في بغداد او اعادة التصدير الى ايران المرور الى بغداد لتدفع الرسوم في كمرك بغداد لقاء رسم بسيط في البصرة يسمى (التمغا) (رسم الطابع) لتختم الرزم التجارية لضمان عدم التلاعب بها في الطريق الى بغداد الا ان بعض التجار ظلوا يفضلون دفع الرسوم في البصرة واستلام بضائعهم بسرعة بدلا من انتظار نقلها الى بغداد لترسيمها رغم ان الاجراء الجديد كان لصالحهم .

ولم تكن المعاملة الكمركية لتنجز مالم يدفع التاجر نسبة تتراوح بين ¼ ، ½ من قيمة البضاعة كضريبة غير رسمية على شكل هدايا (بخشيش) الى موظفي دار الكمارك .

كما أن الرسوم على سلعة معينة كانت تتفاوت من حين لاخر تبعا للاتفاقيات التجارية المعقودة بين الدولة العثمانية والدول الاخرى ووفقا لمواقف الدولة السياسية والعسكرية وتبعا لمزاج مخمني الكمرك . فعلى سبيل المثال كانت الرسوم المفروضة على تصدير الخيل في الظروف الاعتيادية هي نفس الرسوم المفروضة على الصادرات الاخرى أي ٨٪ الا ان ظروف الحرب احيانا وحاجة الدولة الى الخيل كانت ترفع هذه الضريبة الى ١٠٠٪

من قيمة الحصان او اكثر واحيانا يحظر تصديرها وكذلك الحال بالنسبة للحبوب في مواسم شحتها في العراق •

وبصورة عامة كانت معظم الضرائب في العراق جائرة عانى منها الشعب العراقي كثيرا طيلة الحكم العثماني •

السكة (النقود)

كانت النقود المتداولة في العراق في القرن التاسع عشر متنوعة جدا ولها حسابات محلية في غاية التعقيد بحيث ان القيمة الحقيقية لبعضها كانت في كثير من الاحيان تختلف عن القيمة المتعارف عليها وعن اسعارها الرسمية وكل هذه القيم كانت في تغير مستمر تبعا لتوفر او ندرة المسكوكات الذهبية والفضية في السوق •

ومما يجدر ذكره ان نقودا اوربية واجنبية كثيرة كانت قيد التداول في اسواق القطر جنبا الى جنب مع النقود العثمانية منها الباون الانكليزي والربية الهندية والكراون الالماني والفرنك الفرنسي والدولار النمساوي والدولار الاسباني والدولار الامريكي والتالر البروسي والروبل الروسي والدوكات الهولندي والقران الايراني •

الا ان الحسابات النهائية لدوائر الكمرك في العراق كانت تجرى وفق القروش العثمانية وصفقات التمور كانت تتم بموجب عملة تسمى (الشامي) كانت قد انقرضت منذ اواخر القرن الثامن عشر الا انها ظلت كأساس لبيع التمور •

وحاولت الدولة العثمانية في عديد من المرات انهاء الوضع الشاذ لفوضى العملة الاجنبية في العراق وذلك عن طريق تحديد تداولها وتخفيض اسعارها ولكنها فشلت في مسعاها لان النقود سرعان ما كانت تتحول الى سلع يجري تصديرها لاحتوائها على كمية من الذهب تزيد احيانا على السعر المحدد لها وعند ندرة العملات في الاسواق كانت الدولة تضطر الى التوقف عن ملاحقة

قرارانها لتعود النقود ثانية الى اوضـاعها وليعـود التجار والصـيارفة الى مبادلاتهم المعقدة .

ويبدو ان التعقيد لم يقف عند حد الاسواق فحسب وانما شمل الدوائر الرسمية وبخاصة دوائر الكمرك التي لم تكن تقبل في معاملاتها الا الليرات الذهبية العثمانية وفي حالات نادرة جدا كانت تقبل النقود الذهبية الاخرى وعلى اساس اسـعارها الخاصة كما انها كانت ترفض اسـتلام اجزاء اللـيرة بالعملات الفضية او النحاسية وانمـا على التاجر ان يقدم لها الليرات الصحيحة ولو كان حسابه يزيد قرشا واحدا على الليرة الصحيحة وفي مثل هذه الحالة كان يقدم ليرة ذهبية اخرى ليستعيد بقية اجزائها بالقروشـ وفق جـداول الدائرة التي تقل عن اسعار السوق كثيرا .

ومن جهة اخرى فان دوائر التلغراف والبريد والضرائب العثمانية كانت تقبل المجيدي العثماني الفضي في معاملاتها ولكنها تقبله على اساس تسعة عشر قرشا وربما اكثر احيانا . هذا وان مكتب البريد البريطاني كان لا يقبل هو الاخر سوى الباون الانكليزي او الربية الهندية وبموجب حسابه الخاص .

اما دائرة التلغراف البريطاني في العراق فانهـا كانت لاتقبل الا الفرنك الذهبي الفرنسي واذا قدمت عملة اخرى فيتم معادلتها بأسعار الفرنك الرسمية وأشهر العملات العثمائية التي كانت قيد التداول خلال القرن التاسع عشر في العراق هي : الليرة الذهبية ومن مضاعفاتها الخمس ليرات والليرتان والنصف ومن اجزاءها نصف الليرة وربع الليرة وكلها ذهبية . ومن العملات الفضية العثمانية المجيدي ونصف المجيدي وربع المجيدي وهناك القرش النحاسي ومن مضاعفاته خمسة قروش وقرشان ومن اجزائه نصف القرش وربع القرش .

ومن المسكوكات الذهبية الاخرى التي كانت قيد التداول ايضا الباون الانكليزي والاميريال الروسي ، الليرة الفرنسية (نابليون) التومان الايراني ، والدوكات الهولندي . ومن العملات الفضية الاجنبية التي شاعت في العـراق الدولار الاسباني والكراون الالماني والروبية الهندية والقران الايراني .

المصـــادر

(١) جواد . هاشم . مقدمة في كيان العراق الاجتماعي بغداد ؛ ١٩٤٦ .
(٢) حسن خان ، ميرزا ، تاريخ ولاية البصرة ؛ ترجمة د. وصفي ابو مغلي تحقيق د. حسين محمد القهواتي بغداد ، ١٩٨٠ .
(٣) حسن ، د. محمد سلمان ، التطور الاقتصـادي في العـراق التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي ، ١٨٦٤ – ١٩٥٨ بيروت ، ١٩٦٥ .
(٤) الزوراء ، جريدة ، صدرت في بغداد ١٨٦٩ لغاية ١٩١٧ اعدادية متفرقة.
(٥) سركيس ، يعقوب ، مباحث عراقية ، بغداد ، ١٩٥٥ .
(٦) العزاوي ، عباس ، تاريخ الضرائب في العراق ، بغداد .
(٧) العزاوي ، عباس ، النقود العراقية لما بعد العهود العباسية ، بغداد ، ١٩٥٨ .
(٨) القهواتي ، د. حسين محمد ، اضـواء على تجارة البصرة في القرنـين الثامن عشر والتاسع عشر ، مجلة الخليج العربي ، ١٩٨٠ .
(٩) القهواتي د. حسين محمد ، دور البصـرة التجاري في الخليج العربـي ١٨٦٩ – ١٩١٤ بغداد ، ١٩٨٠ .
(١٠) لغة العرب ، مجلة ، المجلد الاول والثاني ١٩١١ – ١٩١٣ اعداد متفرقة .
(١١) لوريمر . جج ، دليل الخليج العربي ، القســم التاريخي والجغرافي ، الدوحة ١٩٦٧–١٩٧٠ .
(١٢) لونكرك ستيفن همسلي ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، بغداد ، ١٩٦٢ .
(١٣) منتشاشفيلي ، البرت ، العراق في سنوات الانتداب البريطاني ، ترجمة د. هاشم صالح التكريتي ، بغداد ، ١٩٧٨ .
(١٤) نوار ، د. عبدالعزيز ، تاريخ العراق الحديث ، القاهره ، ١٩٦٨ .
(١٥) الهلالي ، عبدالرزاق ، نظرات في أصلاح الريف ، بغداد ، ١٩٥٠ .

British Parliamentary Papers Diplomatic and Consular Reports, Reportes on the Trade of Basrah, Baghdad and Musel, for the Years 1864 - 1914.

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية

المبحث الأول

التركيب الاجتماعي

حسين محمد القهواتي

كلية الآداب ــ جامعة البصرة

القبائل

كانت القبائل العربية تقطن العراق قبل ظهور الاسلام منذ عصور بعيدة من السنين ، وبعد الفتح العربي الاسلامي توجهت عشائر كثيرة عدنانية وقحطانية من شبه الجزيرة العربية الى ضفاف الفرات ، فوجدت عشائر عربية قد سبقتها ولمست من لدنها مناصرة وترحيبا ، ومن العشائر العدنانية التي اشتهرت فيما بعد في العراق ، هي عشائر عنزة والضفير وحرب والمنتفق وربيعة وكعب وقيس وعبادة وتميم ، ومن العشائر القحطانية التي ذاع صيتها عشائر الزبيد والعشائر الطائية وما يتصل بها من فروع وافخاذ ، وقد اسست مجموعة

من هذه العشائر احلافا وامارات عربية وقفت في وجه المحتلين بأباء وناضلت من اجلال استقلال العشيرة عن السلطة الحاكمة الاجنبية •

وخلال فترة البحث (٦٥٦ ــ ١٣٣٣هـ / ١٢٥٨ ــ ١٩١٤م) يمكن تقسيم القبائل العراقية الى قسمين :

القسم الاول : العشائر البدوية الصرفة التي كانت تهيم في حيز غير محدود من الاراضي وتعتمد على تربية الابل في معيشتها •

القسم الثاني : العشائر شبه المستقرة التي كانت تعتمد على تربية المواشي ، او حراسة البضائع او نقلها من اجل لقمة العيش ، وقد كان حوالي ثلث العشائر تقريبا يتجول او يعيش في المنطقة المطرية في الشمال ، بينما كانت بقية العشائر تقطن او تنتقل في اواسط العراق وجنوبه حيث المنطقة الاروائيــة •

من جهة اخرى كانت سهول اربيل ووديان السليمانية تضم اكبر عدد من القبائل الكردية المستقرة • وفي اعالي الجبال كانت تستقر وتتجول القبائل المتنقلة منها والمشتغلة في الرعــي •

اما سهول الجنوب والوسط فانها كانت موطنا للقبائل العربية المتنقلة وشبه المستقرة ، وقسم من هذه العشائر كان يتنقل بين بغداد والعمارة بمحاذاة نهر دجلة ، ويعيش قسم منها في الصحراء الممتدة بين الفرات ونجد ، وهذه العشائر برمتها كانت تسكن الخيام وتعتمد على تربية الخيل والجمال وتحتفظ بمراعيها الخاصة تتجول فيها بحثا عن الكلا والماء ، ولم تترك القبيلة اماكنها طالما كانت الماشية تجد ما تأكله من عشب وما تشربه من ماء •

ان العشائر العربية في العراق حافظت ، بأستقلاليتها ، على وجه العراق العربي ووقفت بشموخ في وجه الغزاة المحتلين من مغول وجلائريين وتركمان وصفويين ومنعتهم من توسيع نفوذهم خارج المدن التي احتلوهــا ، حتى

سقطت بغداد بيد العثمانيين عام ٩٤١هـ ـ ١٥٣٤م ، وهـؤلاء حاولوا فرض سيطرتهم على الاطراف واخضاع العشائر لهيمنتهم ، الا أن كثيرا من القبائل لم ترضخ للمحاولات القسرية للدولة العثمانية بل وقاومتها ، حتى اضطرت الدولة الى مهادنة بعضها والاعتماد على بعضها الاخـر في حروبهـا ، وأن ال « ابى ريشة » وهم من عشائر طي على سبيل المثال ظهروا اثناء تعـرض بغداد للحصار من قبل الفرس اكثر من مرة ودافعوا جنبا الى جنب مع اهلها عن المدينة ، كما ان عشائر عربية وكردية اشتركت بحماس في حروب الدولة العثمانية ضد بلاد فارس دفاعا عن الارض والسيادة .

ومما يجدر ذكره ان من الصفات التي اشتركت بها القبائل في العراق هي الانتقال من مكان الى آخر سواء كان ذلك بشـكل واسع او محدود ضمن ديرة القبيلة ، وكذلك الزعامة الرئيسة حيث كان يتزعم القبيلة الام شيخ رئيس له صلاحيات واسعة منها اتخاذ القرار بالارتحال من مكان الى آخر ، وعندما كانت القبيلة تنوي على الانتقال كان يعقد لجتماع في خيمة الشيخ الرئيس حيث يتم الاتفاق على تحـديد يوم التحرك وموضع النزول الجديد ، وحين الوصول الى المكان المتفق عليه يختار شيخ القبيلة محـل نزوله وتحدد كل اسرة مكان خيمتها ثم يجري اقتسام المرعـى على اسـاس عدد الماشية ولذلك فأن احسن الاقسام كانت تخصص لافراد القبيلة المتنفذين الذين يملكون عدداً أكبر من الجمال والخيل ، اما تدبير شؤون المخيم فكان يقع بالدرجة الاولى على النساء حيث كن يقمن باكثر الاعمال صعوبة فهـن اللواتي يجلبن الماء من الآبار القريبة ويجمعن الحطب ويحلبن الماشية ويغزلن الصوف وينسجن البسط بالاضافة الى نصبهن للخيام .

وكانت الخيمة في العادة تنقسم الى قسمين احدهما للرجال والاخـر للنساء ويضم النصف الاول السلاح والسروج في حـين ان النصف الثاني يستخدم للنوم ويشغل كمطبخ ومستودع للمؤنة حيث تخزن فيه اكيـاس

المؤن وكافة اللوازم الضرورية من جرن خشبي لطحن البن وعدد من الدلال والفناجين واواني وملاعق خشبية ورحى ومجمرة وقرب للماء والحليب •

وكانت الحياة اليومية لافراد القبائل قاسية جدا فطعامهم كان يتألف من التمر والرز والدخن والشعير والحنطة وكانوا يتزودون بها من المدن مرة او مرتين في السنة بمبادلتها بالمنتجات الحيوانية ، اما اللحم فكان بالنسبة لهم ترفا لا يؤكل الا في المناسبات ، كما أن ظروف الحل والترحال ظلت كما هي لم تتبدل طيلة قرون عديدة وكثيرا ما نشبت العداوات والمنازعات بين القبائل من اجل امتلاك المراعي وسرعان ما كانت تلك المنازعات تتحول الى صراعات دموية تشمل عددا غير قليل من القبائل المتحالفة بعضها مع البعض الاخر بحيث تتوسع الحلقة ويفقد الكثير منهم ماشيته اي مورد رزقهم الرئيس ، الامر الذي كان يؤدي الى الافتقار التام ، كما ان الكوارث الطبيعية (كالجفاف والبرد) كانت هي الاخرى تؤدي الى ايقاع الضرر بافراد القبائل وممتلكاتهم من الابل والماشية الاخرى •

وقد اتسعت المنازعات بين القبائل في العراق في نهاية القرن التاسع عشر بسبب فشل السلطة العثمانية الضعيفة في فرض هيمنتها على العشائر العراقية لذا كانت القبيلة الاقوى تخضع الاضعف ويتخذ هذا الخضوع شكل الحماية (الخوة) وتقوم القبيلة المحمية بدفع الاتاوة وتسمى (الخوة) ، لمن يحميها لذلك ظلت التجمعات القبلية مثل المنتفق وبني لام والخزاعل وربيعة ، وحدة سياسية كاملة حتى نهاية السيطرة العثمانية على العراق •

ولابد لنا ان نشير الى ان العشائر العربية والكردية في العراق كانت كثيرة ومتشعبة جدا لدرجة يتعذر علينا في هذا البحث ذكرها جميعا ، لذا سنحاول الاشارة الى اشهرها بايجاز تام •

١ ـ المنتفق

تعتبر قبائل المنتفق من اشهر التجمعات القبليـة العدنانية في العراق ، وترجع هذه القبائل في اصلها الى وسط شبه الجزيرة العربية ثم هاجـرت الى شمالها ثم اضطرت تحت ضغط النازحين الجدد من الجنوب الى الاتجاه شرقا ودخول منطقة جنوب العراق حيث استقرت في المناطق المتاخمة لضفتي شط الحي وضفة الفرات اليمنى وكذلك المناطق الواقعة بين نهري دجلـة والفرات باتجاه الجنوب ، وبذلك اصبحت تحتل منطقة واسعة تمتد مـن السماوة والكوت حتى القرنة .

شكل اتحـاد المنتفق الذي كان يضم اثنين وعشرين قبيلة واحدا من اقوى الاحلاف القبلية واكثرها عددا وكان لكل قبيلة من قبائل هذا الاتحاد شيخ وقد آلت المشيخة الرئيسة آخر الامر الى آل السعدون الا ان بعض شيوخ العشائر المنضوية في الحلف وقفوا اكثر من مرة في وجه هذه الزعامة تحديا للسلطة العثمانية التي ناصرت آل السعدون وارسلت مرارا السفن الحربية لحمايتهم والتنكيل بالعشائر المعادية لهم .

وفي سبعينات القرن التاسع عشر اتخذ ناصر باشا السعدون ، الناصرية مقرا له ، الا ان افراد العشيرة ظلوا يتنقلون في الديرة من مكان الى آخر ، ومن اشهر عشائر المنتفـق :

١ ـ بنو مالك : ومنهم البو صالح والعليات وآل حسن وآل ابراهيـم وآل حجام وبنو حطيط والكوام والمطيرات وبنو اسد .

٢ ـ بنو سعيد : ومنهم آل عيسى والبزون وآل مريان .

٣ ـ الاجـود : وكانت تسيطر على الاحساء قبل احتلال العثمانيين لها ومن

فروع هـذه القبيلة ، الغزية ، وخفاجـة ، والشريفـات ، والبدور ، والزهيرية والحسينات وعبودة والمـارد •

ومن هذه العشائر الثلاث الرئيسة ومن فروعها كانت تتشعب فـروع وافخاذ كثيرة اخرى كانت تتوزع في سكناها في البطيحة واطراف الناصرية وسوق الشيوخ ، وابتعد قسم منها عن ديرة العشيرة كثيرا ، واختلط بعشائر اخرى تبعا للظروف التي مرت بجنوب العـراق •

٢ ـ قبيلة بني لام

وهي من العشائر الطائية التي استوطنت العراق قبل الاسلام ، وكانت ديرتها واسعة جدا الا انها اخذت بالتقلص تدريجيا وصارت تقطن على ضفتي نهر دجلة ، ففي الجهة اليسرى من النهر كانت تجوب في المنطقة الواقعة بين الكوت والحويزة ، اما في الجهة اليمنى من النهر فكـانت تنتقل بين شط الحي والعمارة وظلت هذه العشائر في تنقل دائم حتى القرن التاسع عشر ، وامتلك من استقر منهم الاراضي الجيدة التي كانت تزرع بالحنطة والشعير والدخـن في حين اهتـم البقيـة منهم بتربيـة الابقـار والابل والخيـل والاغنام ، وكانت لهذه القبيلة قوة ذات شأن كبير على الطريق بين بغـداد والبصرة ، دوخت الولاة العثمانيين ردحا من الزمن ، وقاتلت عشائر المنتفق حتى استقرت في اراضي العمارة •

٣ ـ قبيلة البو محمد

كانت تقطن الى الجنوب من منطقة بني لام ، وتتألف من ثلاثة عشر فرعا ، وتحتل المنطقة الممتدة من البتيرة حتى القرنة ، وتعيش حياة شـبه حضرية ، وحتى ثلاثينات القرن التاسع عشر خضع شيوخ البو محمد لبني لام ولكن قوة البو محمد ازدادت بعد ذلك بحيث شهرت السلاح في وجـه

عشائر بني لام والسلطة العثمانية معا ، وامتنعت عن دفع (الخوة) لبني لام ، والضرائب للدولة العثمانية ، وقطعت في كثير من الاحيان طريق النهر على السفن التجارية والحربية التي كانت تمتلكها الدولة .

واشتهرت هذه العشائر بزراعة الرز بالدرجة الاولى وبتربية الجاموس .

٤ ـ الخزاعل

أصل هذه العشائر من خزاعة ، وقد نزحت من نجد الى العراق واتصلت اتصالا وثيقا بسكانها ، واتبعتها عشائر الفرات الاوسط جميعها ، منها عشائر الطاهر وعفك وبنو حجيم وآل شبل وآل فتلة وبنو حسن ، وكانت في صراع مع الدولة العثمانية الا انها احتفظت باستقلاليتها ونفوذها في المنطقة رغم محاولات العثمانيين في تقليص سيطرتها .

٥ ـ عشائر شمر

هي من العشائر الطائية القحطانية التي استوطنت فروع منها العراق قبل الفتح الاسلامي ، الا ان الموجة الجديدة التي عرفت بشمر خرجت من الجزيرة العربية في اواسط القرن السابع عشر بضغط من عشائر عنزة وانتشرت في جبل شمر والصحراء الشامية واصبحت حتى بداية القرن الثامن عشر هي القوة المسيطرة على البادية نظرا لضعف الدولة العثمانية ، وقد استطاعت ان تفرض سطوتها على عشائر اخرى في العراق منها القبائل الزبيدية ، وكانت في صراع دائم مع الدولة العثمانية .

٦ ـ عشائر عنزة

خرجت هذه العشائر العدنانية من نجد في فترة لاحقة من خروج عشائر شمر وتحالفت مع قبائل الموالي ، ونجحت في ابعاد شمر عن البادية السورية

الى اعماق العراق ، وعنزة هي واحدة من اقوى القبائل العربية التي سيطرت ردحا من الزمن على كل المنطقة الواقعة بين حلب وجبل شمر .

وكانت تنقسم الى تسعة فروع رئيسية ينقسم كل منها بدوره الى عدة افخاذ وكانت في صراع دائم مع عشائر شمر ، والدولة العثمانية ، حتى افلح الوالي المصلح مدحت باشا في اقناع شيخها آنئذ (عبدالمحسن الهـذال) بالاستقرار ووزع عليه الأراضي الواقعة على طـول نهر الفرات الى يمين المسيب وشكل مركزا للقضاء اسماه المحسنية وربطه بلواء كربلاء واحيلت تلك القائمقامية الى الشيخ نفسه الذى قدم الى بغداد وتعهد بالاستيطان ، الا ان تلك العشائر لم تستقر تماما وكانت في تجوال دائم ونزاع مستمر مع العشائر الاخرى والدولة العثمانية .

٧ ـ عشائر ربيعـة

استوطنت وسط العراق على امتداد نهر دجلة بين البغيلة (النعمانية) والكوت ، وكذلك حوض نهر الغراف ، واهم العشائر التي كانت تتبعها هـي المياح وآل سراج والعبودة وبنو ركاب وآل غريب وعقيل وكنانة . الا ان الصراع المستمر بين العشائر في جنوب العراق ادى الى سيطرة عشائر المنتفق في عهد آل السعدون على مناطق واسعة من الغراف بحيث تداخلت عشائر المنتفق مع عشائر ربيعة في المنطقة .

٨ ـ عشائر الزبيد

هي من العشائر القحطانية المعروفة بكثرتها وقد دخلت العراق مع الفتح الاسلامي ثم استوطنت المناطق الواقعة في وسط وغرب العراق .

ومن فروع عشائر الزبيد الاكبر البو سلطان والجحيش والسعيد وبنو عجيل والمعامرة والعمار وآل حميد والسواعد .

ومن فروع الزبيد الاصغر ، الجبور ، والجنابيون ، والدليم والعبيد والعزة ، ومعظم هذه القبائل وقفت في وجه السلطة العثمانية ، وامتنعت عن دفع الضرائب لها ولم تستطع الدولة رغم محاولاتها المتعددة ان تحد من نزعاتها وتسيطر عليها .

ومن العشائر الاخرى ايضا ، عشيرة الضفير التى كانت تعيش في القسم الجنوبي الغربي من الصحراء السورية الى اطراف البصرة وكانت في صراع دائم مع عشائر شمر ، وكذلك عشيرة آل ازيرج وهي من القبائل الحميرية وقد عاشت مع القبائل العدنانية وتوزعت في المنطقة الممتدة بين الناصرية والغراف والعمارة .

وهناك مجموعة من العشائر استوطنت المنطقة الواقعة بين بغداد وسامراء منها بنو تميم والبو دراج والبو اسود والخزرج والجبور والبو فراج والكبيشات والعزة والغوالبة والبو بدري والبوعيسى .

ومن جهة اخرى خضعت منطقة شمالي العراق لعدد من رؤساء العشائر الكردية بعد الاحتلال المغولي لبغداد عام ٦٥٦هـ ـــ ١٢٥٨م،واسس كل من هؤلاء امارة سميت باسم عشيرته رغم انضواء عشائر اخرى تحت لوائه ، وظلت هذه الامارات تتأرجح في نفوذها وقوتها ، حتى اشتهرت منها في العهد العثماني الامارة الصورانية في هوديان ثم حرير واخيرا في راوندوز ، والامارة البابانية في السليمانية ، والامارة البهدنانية في العمادية ، والامارة البوتانية في جزيرة ابن عمر ، ولم تستطع امارة واحدة من هذه الامارات العشائرية ان تفرض سيطرتها على الامارات الاخرى جميعا ، وبالاضافة الى هذه الامارات كانت هناك عشائر كردية لها نفوذ في المنطقة ايضا ، والعشائر الكردية بوجه عام كانت تنقسم الى عشائر رحل وآخرين شبه مستقرين ، فسهول اربيل والسليمانية كانت مأهولة في غالبيتها بقبائل كردية شبه مستقرة في حين كانت المناطق الجبلية تقطن من قبل القبائل المتنقلة ، وقد مال قسم

من القبائل شبه المستقرة الى حياة الاستقرار ، وسكن القرى ، ومن هؤلاء جماعات من عشائر هورمان وبلباس وبايلان وسنجابي والجـاف وهركي ، ومن الجدير بالذكر ان هذه القبائل كانت تنقسم الى عدة فروع والفـروع بدورها كانت تنقسم على نفسها الى وحدات اصغـر ويتزعم كل وحدة او طائفة او فخذ شيخ ، ومن الاحلاف القبلية في المنطقة الكردية حلف زنكنة الذى كان يقطن بالقرب من جبال قره تبه ، وقبائل الطالباني والشوان التي كانت تسكن المنطقة الواقعة بين كركوك وكفري ، وقبائل (دزهئي) التـي كانت تتجول باتجاه اربيل والموصل ، وقبائل الهماوند التي كانت تقيم في المنقطة الواقعة بين كركوك والسليمانية •

في حين ان قبيلة خشناو ومجموعة من قبائل اخرى توزعت على المنطقة المحيطة باربيل ، وقبائل الجاف شغلت المنطقة المحيطة بالسليمانية وقد وقفت هذه العشائر جميعا جنبا الى جنب مع العشائر العربية في القطر في وجه الغزاة الطامعين وامتزجت دماء الجميع في ساحات الوغى دفاعا عن قدسية الارض •

اهل الريف

كان العراق قطرا زراعيا مرموقا منذ القدم ، نظرا لخصوبة اراضيـه وكثرة مياهه ، وتوفر العوامل الطبيعية المساعدة للزراعة ، كأشعة الشمس وعوامل المناخ الاخرى ، وقد تطورت الزراعة في العراق بعد الفتح الاسلامي، وبخاصة في العهد العباسي وذلك لعناية العرب بالارض ، من زاوية عدالـة توزيعها ، والاهتمام بمشاريع الري فيها ، وتوطيد الامن في ربوعها ، وتجفيف المستنقعات من وديانها •

الا ان تلك الحياة الزراعية المتطورة بدأت بالتدهور والانحطاط منذ

ان ضعفت الدولة العباسية في اواخر ايامها ، وتعرضت البلاد لهجمات الغزاة من مغول وجلائريين وتركمان وصفويين ، ومارافق حكم هذه الاسر الرعوية من حروب ومنازعات وكوارث طبيعية وآفات زراعية وأوبئة ، واختلال في اساليب الري ، وتهدم السدود والقناطر ، واهمال الانهر التي اخذت تغير مجاريها بسبب تراكم الطمى المستمر فيها ، هذه المحن اسهمت في تخـريب الاراضي وبخاصة عندما تكونت البرك والمستنقعات من جـديد وهدمت القرى وعبثت بحيا ةالريف فاضطر الفلاح الى ترك قريته ، ولم تتحسن حالـة الفلاح العراقي في عهد الاحتلال العثماني عام ٩٤١هـ–١٥٤٣م رغم محاولات السلطان سليمان القانوني الاصلاحية،لان القديم استمر على قدمه ولم تحاول السلطات العثمانية التي تعاقبت على حكم العراق بعد ذلك ان تبحث عن حلول ايجابية جديدة لمشاكل الارض واوضاع الفلاحين بل تركت الفـلاح يرزح تحت عبء عبودية صاحب الارض او الملتـزم او المتولي (اراضي الملك ، الاميرية ، الوقف) ويقع تحت ضغط الضرائب والديون ، ومما كان يزيـد وضعه سوءاً اضطراب الامن وتعرض المـزارع والقرى لغارات البدو التي اصبحت تشكل خطرا كبيرا على الزراعة والفلاحين ، واستمرت كذلك طيلة القرون الاربعة التي حكمت فيها الدولة العثمانية العراق ، هـذه الاوضاع ادت الى انخفاض نسبة الاراضي الصالحة للزراعة بحيث قدرت بـ (٢٠٪) من مساحة العراق العامة كما ان الجزء الذي كان يزرع من هـذه النسبة الصالحة للزراعة لم تكن تتجاوز خمسها في فترات طويلة من تاريخ العراق الحـديث .

ومع هذا فأن الاكثرية الغالبة من سكان القطر كانت في مختلف الفترات من الفلاحين من سكنة الريف لان جميع الذين يكسبون معاشهم من الرعي او الزراعة يدخلون ضمن تعريف اهل الريف ، وعلى الرغم من ارتفاع نسبة المزارعين من سكان العراق بحيث بلغت مع اواخر الحكم العثماني اكثـر مـن

(٦٠٪) نظر لاستقرار بعض القبائل البدويه واشتغالها في الزراعة ، الا انــه بالامكان القول ان مستوى الانتاج الزراعي اخذ بالانخفاض لاسباب عديدة منها علاقة الفلاح بالارض ، ولان المزارع الجديد كان قليل الخبرة كثيــر الميل الى التنقل ، اضف الى ذلك استمرار تأخر اساليب الزراعــة ووسائل الانتاج ورداءة طرق المواصلات وبخاصة في ايام الشتاء الموحلة •

كانت الوحدة الاجتماعية في العراق وبخاصة في المنطقة المطرية هي القرية التي كانت تعيش على الاكتفاء الذاتي ، حيث يقطنها فلاحون يملكون الارض الا ان ملكية الارض في عدد غير قليل من القرى قــد انتقلت مع الزمن الى ملاكين مدنيين عن طريق اغراق الفلاح بالديون والاستيلاء على ارضه ، ومع ذلك بقيت الملكيــة الصغيرة ســائدة في بعض المناطــق الجبلية من شمال العــراق •

وكانت الزعامة او الرئاسة في تلــك القرى بيــد الاغــا او الشيخ او المختار وكثيرا ما استغل احد هؤلاء سلطانه للاستيلاء على ارض الفـــلاح الصغير وبالنتيجة على القرية كلها رغم مخالفة ذلك لقانون الاراضي العثماني، الا ان السلطات العثمانية قد سكتت حينئذ عن خرق الاغا للقانون خشــية جانبه ، وقد سادت هذه الطريقة في مناطق كثيرة في العهــد العثماني ، حتى اصبح الفلاح بعدها عاملا مأجورا للاغوات دون ان يكون له اية حصة في غلة الارض •

اما في المنطقة الاروائية فكانت الوحدة الاجتماعية خلال فترة البحث، القبيلة وليست القرية كما هي الحال في المنطقة الشمالية ، ولهذا فملكية القبيلة للارض معناه حقها في سكنى اراضي واسعة تعرف (بالديرة) وتشمل الاراضي المزروعة وكذلك الاراضي التي تغمرها الاهوار وهذا ما يخول القبيلة حــق الانتقال في زراعتها من قطعة ارض الى اخرى داخل الديرة تبعا لحالة الارض من ناحية الخصوبة والملوحة ووفرة مياه الرى وغيرها من العوامل ، وقــد

تبعت القبائل في زراعة الاراضي نظاما عملياً يستمد مبادئه من النظام القبلي نفسه ، فقسمت القبيلة الاراضي المزروعة في (الديرة) الى قطع ووزعتها بين رؤسائها ومنحت شيخها الاعلى حصة اكبر من غيره ، لمكانته الاجتماعية التي يحتلها والواجبات المترتبة على ذلك .

وبهذه الطريقة اصبح واجب الشيوخ كل بدوره ان يوزع الاراضي بين الافراد التابعين له لاستثمارها على ان يشاركهم هو في غلتها . ويلاحظ من هذا الوضع ان الاساس الذي بنيت عليه ملكيـــة الاراضي لم يكن اساسا فرديا بل جماعيا فالارض للقبيلة كلها او لذلك الفخذ الذي ينتسب اليـــه رئيســـها .

الا ان مرور الزمن جعل ملكيتها فردية بيد الشيخ واصبح الفلاح عاملا لديه . والفلاحون افراد القبيلة في الاراضي المزروعة هم الذين يفلحـــــون الارض ويسقونها ويزرعون المحصول ويحصدونه وهم مبدئيا شركاء الشيخ في اللزمة نفسها لذلك فهم يقاسمون الشيخ الغلـــة النهائية بحسب اصـــول تعارفوا عليها وهي اقرب الى ما يعرف بنظام المحاصة .

الا ان النظام المتبع في اللزمة وطريقة تنفيذه يدلان على ان الشيخ وحده اصبح صاحب اللزمة في الواقع ، وقد تصدف المشاركة في اللزمة بين الشيخ والفلاح حيث تكون العلاقـــات بين افراد القبيلة قوية ، اما اذا كانت تلـــك العلاقات ضعيفة فان فكرة المشاركة تنحصر في اللزمة في الغلة وحدها وهذا معناه انحصار الملكية بالشيخ وحده .

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وبسبب تصدع النظـــام القبلي تدريجيا واسكان العشائر ونشر الامن في القطر اخذت ملكية الارض تتوزع بين المتنفذين من الشيوخ والاغنياء من سكان المدينة .

ومن جهة اخرى يمكن ان نشير ايضا الى ســـكان الاهوار في جنوب

العراق ، تلك الاهوار التي تكونت منذ اقدم العصور ومونتها مياه الفيضانات المتكررة وقد كان السكان يعيشون في تلك الاهوار على جزر صغيرة جدا منها طبيعية ، ومنها اصطناعية يشيدون عليها بيوتهم البدائية المصنوعة من القصب والبردي اللذين كانا ينبتان بكثرة فيها • والاهوار بصورة عامة ، كانت ضحلة لا يزيد معدل عمق مياهها عن ثلاثة اقدام كما ان قسما من مياهها كان يجف في بعض السنين حتى يصبح السير فيها على الاقدام ممكناً، اما الاقسام الاخرى منها فكان النقل فيها يتم بواسطة قوارب خاصة تسمى « المشاحيف » •

ارتزق الاهالي في المنطقة من تربية الجاموس وزراعة الرز وصيد السمك وكان الجاموس يؤلف ثروة كبيرة للاهالي ، فمن الاشخاص من كان يملك واحدة منها ومنهم من كان يملك العشرات وكانوا يتجرون بمنتوجاتها ولاسيما الدهن والجبن والجلود ، ومن المعروف ان دخل اهل الجاموس كان عاليا جدا قياسا الى زارعي الرز وصائدي الاسماك •

الا ان حياة السكان كانت قاسية للغاية وطرق معيشتهم بدائية ونستطيع القول بانهم كانوا يعيشون على هامش الحياة معرضين في كل لحظة لفتك الامراض والاوبئة وبخاصة الملاريا •

ويستخلص من كل ما تقدم ان المجمعات الفلاحية كانت تتركز على طول ضفاف نهري دجلة والفرات وشط العرب والفروع المتشعبة منها والروافد التي تمونها والاهوار الملحقة بها • واعتبرت المنطقة الواقعة في اواسط الفرات واسفله اكبر منطقة تسكنها القبائل المستقرة التي تشتغل بالزراعة وهي ايضا من اقدم المناطق المأهولة بالنظر الى طبيعة الاراضي هناك وسهولة انسياب المياه فيها الى مساحات واسعة •

وبالاضافة الى هذه المنطقة كانت الارياف تمتد على طول نهر دجلة

من موقع العمارة جنوبا حتى نهر ديالى شمالا وتشتمل على اراضي خصبة ومياه وفيرة • وانتشرت الارياف أيضا في المناطق الممتدة على طول نهر شط العرب ، وفي شمال القطر تناثرت القرى في السهول التي توفرت فيها المياه بدرجة كافية للزراعة •

وكانت الحياة في القرى على انواع ، فهناك من يسكن الاكواخ المصنوعة من الطين او القصب ، وهم على الاكثر من القبائل نصف المتحضرة، ومنهم من يسكن قرى كبيرة تقرب معيشتها من معيشة اهل المدن الصغيرة • أن اكثرية القرى العراقية كانت صغيرة لا يتجاوز سكانها الخمسين نسمة وقسم منها كانت كبيرة يزيد سكانها على بضع مئات من الانفس وتدريجيا كانت تتحول الى مراكز لبعض الاعمال التجارية (البيع والشراء) للقرى الصغيرة المجاورة فتصبح سوقا تؤمها العشائر في المواسم لسداد حاجاتهم وبيع حاصلاتهم ، وفي مثل هذه القرى كان يوجد عادة امام مسجد ومختار واعضاء مجلس الاختيارية وهؤلاء كانوا ينظمون شؤون القرية بعيدا عن سلطة الحكومة •

ويمكن تقسيم الفلاحين فيالقرى والارياف العراقية الى ثلاثة اقسام :ـ

القسم الاول : وهم فلاحو الفاكهة والخضروات وكانوا اسعد حظا من البقية واكثر دخلا •

القسم الثاني : وهم فلاحو المنطقة الشمالية (عدا القسم الجبلي) وكانوا يزرعون المحاصيل الشتوية بانتظام ويصرفون جهد اكبيرا ولهذا كانوا في وضع متوسط •

اما القسم الثالث : فهم فلاحو المنطقة الجنوبية (عدا زرع الشلب) فكانوا اقل تنوعا في زراعة المحاصيل ولهذا كانوا افقر الفلاحين حالا •

لذا فأن غذاء الفلاحين وبخاصة الاغلبية الساحقة منهم كان بسيطا جدا

ومتشابها تقريبا ويتكون على الاكثر من الحبوب كالرز والحنطة والشعير والذرة والدخن ، وكذلك بعض المنتجات الحيوانية مثل اللبن والسمك وكذلك التمر والخضروات وقليل من اللحم في فترات متباعدة وربما في الاعياد فقط.

ومن جهة اخرى كان يقيم الى جانب الفلاحين في بعض القرى الكبيرة بعض الحرفيين مثل النجارين والحدادين والباعة والوسطاء ... الخ .

واخيرا نقول ان طبقة صغيرة في عددها ، كبيرة في نفوذها وثروتها ، هي طبقة الملاك ، وهي مؤلفة من شيوخ القبائل والاغوات واصحاب الاراضي، كانت تستغل موارد البلاد الطبيعية والبشرية ولها دخل يزيد عن حاجتها الضرورية والكمالية ، في حين ان طبقة الفلاحين كانت فقيرة تعيش عيشة بائسة جدا لا تحصل على حاجتها الضرورية من مأكل ومشرب ومسكن ومن تعليم وصحة الا بصعوبة ، جعلت عيشتها دون المستوى الضروري المعقول من النواحي المادية والثقافية والاجتماعية ، وان اثار شظف العيش كانت واضحة عليها من انحطاط الصحة العامة وسوء التغذية ورثاثة الملبس ورداءة المسكن وشيوع الامية والجهل طيلة الفترات من عهد الغزاة رغم انها كانت السباقة في الذود عن حياض الوطن ابان تعرض القطر للاخطار الخارجية .

المصـــادر

١ ـ ابن بطوطة ، تحفة النظار ، القاهرة ، ١٩٣٨ .

٢ ـ جب وبوون ، المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة احمد عبدالرحيم مصطفى ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٣ ـ جواد ، هاشم ، مقدمة في كيان العراق الاجتماعي ، بغداد ، ١٩٤٦ .

٤ ـ الجواهري ، عماد ، تاريخ مشكلة الاراضي في العراق ، ١٩١٤-١٩٣٢ ، بغداد ، ١٩٧٨ .

٥ ـ حسن خان ، ميرزا ، تاريخ ولاية البصرة ، ترجمة د. محمد وصفي ابو فعلي ، تحقيق د. حسين محمد القهواتي ، بغداد ، ١٩٨٠ .

٦ ـ الحيدري ، ابراهيم فصيح ، كتاب عنوان المجد في بيان احوال بغداد والبصرة ونجد ، بغداد ـ بدون تاريخ .

٧ ـ الزوراء ، جريدة صدرت في بغداد خلال الفترة ١٨٦٩ ـ ١٩١٧ ، اعداد متفرقة .

٨ ـ سركيس ، يعقوب ، مباحث عراقية ، ق٢ ، بغداد ، ١٩٥٥ .

٩ ـ فرج ، لطفي جعفر ، عبدالمحسن السعدون ، بغداد ، ١٩٧٨ .

١٠ـ العزاوي ، عباس ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ثمانية اجزاء ، بغداد ، ١٩٣٦ ـ ١٩٥٦ .

١١ـ العزاوي ، عباس ، العشائر العراقية (اربعة اجزاء) ١٩٥٦ .

١٢ـ منتشاشفيلي ، البرت ، العراق في سنوات الانتداب البريطاني ، ترجمة د. هاشم صالح التكريتي ، بغداد ، ١٩٧٨ .

١٣ـ الهلالي ، عبدالرزاق ، نظرات في اصلاح الريف ، بغداد ، ١٩٥٠ .

Blunt, Anne, Bedouin Tribes of the Euphrate 2 volums, London, 1968.

Della Valle, Sig Pitro, The Travels of Sig Pitro Della Valle into East India and Arabia Deserta, London, 1665.

Fraser, B.J.B., Travels in Koordistan, Mesopotamia, volum II, London, 1840.

Grant, C.P. The Syrian Desert Caravans, Travel and Exploration, London, 1937.

Wellested, J.R. Travels to the City of the Caliphs London, 1840.

المبحث الثاني

التنظيمات الاجتماعية

د. عماد عبد السلام رؤوف

مركز احياء التراث العلمي العربي - جامعة بغداد

نقابات الاشراف

تأتي نقابات الاشراف على رأس التنظيمات الاجتماعية من حيث أهميتها وفاعليتها السياسية ، نظرا لما كانت تمثله من سلطة ادارية في مدنها عند انحسار الاحتلال الاجنبي عنها ، وقوة أجتماعية مهمة يمكن أن تؤدى ادوارا مختلفة في صالح السكان في حالة رزحهم تحت سلطة الاحتلال . ورغم أن الرقعة الجغرافية لنفوذ هذه النقابات قد شهدت تقلصا ملحوظا بسبب تقلص دور المدينة العراقية نفسها في حالة الانحطاط التي عاشتها ، فان دور النقابة ظل محسوسا في كثير من الاحيان ، تدل عليه شواهد تاريخية عديدة ، فعندما

غـزا تيمورلنك العراق في مفتتح القرن التاسع (١٥ م) وحاصر الموصل ، كانت لمساعي نقيبها السيد نصيرالدين عبيدالله الاعرجي الدبلوماسية دور هام في فك الحصار والتخفيف عن السكان • وتولى نقيب الاشـــراف في كربلاء السيد محمد آل كمونة حكم المدينة في أثناء الغزو الصفوي في مفتتح القرن العاشر الهجري (١٦م)•ومارس نقباء آخرون دورهم في رعاية الفئات الاقل دخلا في مدنهم ، مما منحهم طابعا شعبيا عاما أخذ بالتعاظم تدريجيا بتقـدم الزمن ، حتى تحول بعضهم ، في فترات متأخرة الى زعماء شعبيين حقيقيين يتزعمون مدنهم ، أو احياء كبيرة ، ويفرضون كلمتهـم على الحكـام السياسيين أحيانا ، وكان مما يزيد من موقف تلك النقابات قوة شعبية انها كانت ، على الاطلاق ، عراقية صميمة ، تتولاها أسر عراقية صريحة النسب ، معروفة السيرة ، لا صلة لها بالقوى الغازية من قريب أو بعيد •

ففي الموصل ، استمر منصب نقيب الاشراف منحصرا في أسرة موصلية واحدة تنتمي نسبا الى السادة نقباء الموصل العلويين أحفاد الامام عبيدالله الاعرج الحسيني العلوي واشتهر منهم في النقابة عدد من الاشخاص ، عرفوا في القرون المتأخرة بالفخريين ، نسبة الى احد أجدادهـم السيد فخرالدين المتوفى في اوائل القرن الثامن عشر •

وفي البصرة ، تولى آل النقيب من ذرية الشيخ أحمد الرفاعي الحسيني الصوفي الشهير ، منصب النقابة ، فكان لهم من النفوذ والمنزلة ما جعل هذا المنصب يكاد يكون حكرا عليهم طيلة العصر العثماني •

وفي بغـداد ، حيث شـغر منصب النقابة أو الغي تماما في فتـرات الاضطراب ابان القرنين الثامن والتاسع للهجرة (١٤ و ١٥ م) ، أسند السلطان سليمان القانوني عام ٩٢٠هـ / ١٥٣٤ م للشيخ زين الدين القادري الكيلانـي من أحفاد الشيخ عبدالقادر الكيلاني الحسني نقابة أشراف بغداد بفـرمان سلطاني خاص ، فتوارثت الاسرة القادرية من بعده هذا المنصب جيلا بعد جيل طيلة العصر العثماني في العراق •

وعرفت مدن المراقد الدينية في وسط العراق مؤسسات فعالة من هذا النوع فكان في كربلاء ، مدينة قبر الحسين بن علي (ع) أسرتان علويتان كبيرتان ، هما أكبر اسر المدينة قاطبة ، تتنافسان على نيل هذا المنصب ، واشتهرتا بآل فائز وآل زحيك وفي فترة الاحتلال الصفوي كانت الاسرة الاخيرة تتولى نقابة المدينة فاقرها السلطان سليمان القانوني على ذلك . وفي اواخر القرن العاشر (١٦ م) انتقلت النقابة الى آل فائز ، واختصت بأسرة آل طعمة الفائزية طيلة العصر العثماني الاول (المنتهي بالغزو الفارسي الصفوى سنة ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢ م) ثم انتقلت بعدها الى آل زحيك حتى اواخر القرن السابع عشر ، وبعد هذا التاريخ استقرت نقابة الاشراف بيد آل طعمة حتى منتصف القرن التاسع عشر .

اما النجف ، مدينة قبر الامام علي بن ابي طالب (ع) فقد انحصرت النقابة في بيوت معروفة بنسبها الحسيني ومكانتها الاجتماعية الرفيعة كآل المختار وآل الاشتر وبيت كتيلة وآل طاووس وآل الصوفي وآل الجماز وآل الآوى وآل كمونة . وفي العصر العثماني تولت أسرة نجفية حسنية عرفت بالسادة النقباء نقابة المدينة ، ثم انتقلت من بعدهم ، من اوائل القرن التاسع عشر الى آل الرفيعي من اكبر بيوتات المدينة واشهرها .

على الرغم من ان وظيفة هذه المؤسسات كانت ، في الاصل ، العناية بأمور المتحدرين من سلالة الرسول (ص) وضبط أنسابهم وتدقيقها ، وذلك « بصيانة ذوى الانساب الشريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النسب ولا يساويهم في الشرف » ، الا أن دورها أخذ بالتطور في العهود التالية للعصر العباسي ، وبخاصة في فترات الاضطراب والفوضى (عهود الجلائريين والقره قوينلو والآق قوينلو والصفويين) حتى أصبح للنقابة في معظم المدن العراقية مسؤوليات جديدة ناجمة عن طبيعة الاحوال الاجتماعية فيها ، فلم تعد في اغلب الاحوال ممثلة لطبقة او فئة رفيعة متميزة فحسب ، كما ظل

يوحي بذلك اسمها ، بل غدت تنظيمات لفئات عديدة من طبقة العامة . وما يرتبط بها من فئات اخرى،يدخل بينهم الحرفيون والكسبة مثل السقائين والباعة الجائلين وصغار العلماء والدراويش ومشايخ الصوفية والفقراء بل والعاطلين أيضا ، والغرباء وكل من يمكن أن يدخل ضمن نطاق هذه الطبقة .

وبما ان هذه التنظيمات كانت تعكس طبيعة القوى العاملة المكونة للمجتمع وان تلك القوى كانت تختلف في تكوينها الاجتماعي بين كل مدينة واخرى ، فقد لعبت نقابات الاشراف ــ من ثم ــ ادوارا مختلفة بحسب اختلاف طبيعة تلك القوى نفسها سواء كان طابع القوى صوفيا ، ام دينيا تقليديا ، ام قبليا . ففي حين نجد نقابة الاشراف في كل من بغداد والبصرة تستند الى قاعدة روحية صوفية ، تتمثل في كون نقيب بغداد رئيسا عاما للطريقة القادرية « وخادما لسجادة جده » الشيخ عبدالقادر الكيلاني ونقيب البصرة رئيسا للطريقة الرفاعية ، وهما اكبر الطرق الصوفية في العراق في العصر العثماني . نلاحظ ان دور رجال الدين والفقهاء بقي بارزا في تكوين نقابة الاشراف في النجف ، حيث تغلبت الصفة العلمية الفقهية على الاسر التي شغلت هذا المنصب جيلا بعد جيل ، حتى باتت النقابة تنظيما يضم داخله فئات من العامة ، ويمثل الفقهاء وطلبة العلوم الدينية والمعلمين وعلماء الدين والمجاورين .

ويتمثل العامل القبلي جليا في تكوين نقابة الاشراف في كربلاء ، حين امسى منصب النقابة هدفا قبليا بين اسرتين قبليتين تتزعمان المدينة . وصار استقرار زعامة المؤسسة بيد أحدى الاسرتين ، معناه تغلب نفوذ قبيلتها على الاخرى .. وتكمنها من السيادة على المدينة وأطرافها ، على ان هذا العامل ما لبث ان اخذ بالتضاؤل تدريجيا وبخاصة في القرن الثامن عشر ، وذلك حينما ضعفت صلة الاسر المتنافسة بالقبائل التي تنتمي اليها ، وتحولت المنافسة لان تكون مدنية الطابع تماما فتمكنت نقابة الاشراف من ان تشكل تنظيما شعبيا قويا شارك قادته في معظم الاحداث الهامة التي جرت في

المدينة آنذاك • ونظرا لماشهدته فئات العلماء والفقهاء من تنام في القرن الثامن عشر ، فقد سلكت النقابة عند ذاك طريقا مشابهة لنظيرتها في مدينة النجف ، وذلك بتمثيلها ـ بالدرجة الاولى ـ مصالح تلك الفئات الفتية المتنامية ثم ما لحق بها من فئات شعبية أخرى •

ولقد لعبت النقابات دورا هاما في الحياة الاجتماعية في العراق في العهد الذي ندرسه ، وشاركت مشاركة فعالة في الحياة السياسية أيضا ، الى درجة أن أصبحت احيانا القوى المنظمة الرئيسة في الوقوف ازاء السلطات الرسمية القائمة ، فليس بغريب اذن ان يتولى نقيب الاشراف ببغداد قيادة اكبر حي من مدينته وأكثر كثافة واستقلالا عن سلطة الولاة ، وان يمارس قدرا غير قليل من السيادة والنفوذ على أضخم تجمع سكاني مدني في ذلك العهد •

وكان شيوخ الطريقة القادرية ، اوسع الطرق الصوفية انتشارا في بغداد حتى مطلع القرن التاسع عشر ، يمثلون حلقات اتصال في تنظيم نقابة الاشراف ، وكان الدراويش والمشايخ واهل الطريقة يعدون الهيكل الاساسي لقيام ذلك التنظيم ومصدر قوته وتأثيره ، وهو امر يرجع الى ايمان الناس بقواهم الروحية ، وتمكنهم من معرفة المغيبات وقدرتهم على اتيان الكرامات واستخدامهم القوى الغيبية في تيسير أمور الناس المتعسرة بل وادعائهم امورا غريبة مثيرة للاهتمام ، مثل قدرتهم على تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب ، والظاهر ان مثل هذه الافكار كانت تجد طريقها دائما الى عقول اعلى الطبقات في المجتمع ، حتى أن بعض اولئك الدراويش كان يمارس تأثيره على الولاة أنفسهم •

ويبذو دور نقيب الاشراف ببغداد واضحا كلما شبت انتفاضة على الولاة ، وكان بترأسه حي « باب الشيخ » الكبير ، يمثل عمليا اكبر تجمع شعبي في المدينة ، ففي اثناء أحداث سنة ١١٩٢ هـ / ١٧٧٨ م ونشوب الثورة في بغداد ضد القيادة العثمانية العاجزة عن حماية البلاد ، ترأس النقيب ثوار

الجانب الشرقي من بغداد برمته وكان دراويشه يؤدون دورهم في تعضيــد جانب الانتفاضة الناشبة بحماسة بالغة • وفي الايام الاخيرة لحكم داود باشا في بغداد (سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م) انضم نقيب الاشراف بجماهيره الى جانب هذا الوالي ، وترأس بشخصه بضعة مئات من الرجال المدججين بالسلاح فحال بذلك دون تسليم داود باشا الى القوات القادمة لاعتقالــه • وكان نزول النقيب الى الشارع يمثل اولى خطوات مقاومة الجماهير لمحاولات العثمانيين الرامية نحو انهاء سيادة داود باشا واكثرها اهمية اذ سرعان ما انضم الــى قوات النقيب عدة آلاف من الاهالي، ثم لحق بهم المماليك انفسهم « صاروا جبهة واحدة وعلى رأى واحد » وبانضمام قوات عشيرة عقيــل في الجانب الغربي الى الثوار ، شملت الثورة بغداد برمتها ، مما عرقل مساعي القيادة العثمانية خارج المدينة في السيطرة على الاوضاع السياسية برهة من الزمن •

وبلغ من خطورة دور النقيب ان لم تجد السلطات الحكومية في سبيل تنفيذ خططها سوى التخلص منه شخصيا • ففي سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م اغتال والي بغداد سليمان باشا نقيب الاشراف السيد رمضان باسقائه السم ، وكان ذلك بعد أجتماع عقد بين النقيب ومندوب الدولة العثمانية دام ساعة واحدة ، وسبب هذا الاغتيال فيما يبدو شك الوالــي في تعاون النقيب في الجهود العثمانية الرامية لعزله •

وفي عام ١٢٤٧هـ ــ ١٨٣١م لم يتمكن علي رضا باشا ، الوالي العثماني المكلف باقصاء داود باشا من القضاء على ثورة البغداديين عليه ، الا بعد تدبير مؤامرة نجحت في خطف السيد محمود افندي النقيب ،ونقله الى معسكر الجيش العثماني خارج اسوار المدينة وبذلك تم عزله عن قيادة جماهير العامة الثائرة•

وفي الواقع فان قوة النقابات كانت تستند ــ في احد جوانبها ــ على ما كان لها من ثروات موقوفة غنية ، وهي موارد عرف النقباء استغلالها في سبيل بسط سيادتهم على العامة من جهة ، وتثبيت مركزهم الاجتماعي ازاء

السلطة الحاكمة من جهة أخرى • وأغلب تلك الاوقاف مما وقفه السلاطين ، أو النقباء السابقون ، على المراقد الدينية التي يتولى النقباء حمايتها ورعايتها • وبما ان نقيب اشراف بغداد كان في الوقت نفسه متوليا على الاوقاف القادرية العديدة المخصصة لجامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ببغداد وفقرائه وطلابه ومجاوريه ، فيمكننا ان نصور مقدار الثروة السائلة التي كان يتمتع بها اولئك النقباء ، خاصة وان جميع تلك الاوقاف كان مصانا معفيا من الضرائب والرسوم ، وتكشف لنا السجلات العثمانية ، ووقفيات النقباء ، عن ضخامة اوقاف الشيخ عبدالقادر ، وعظم ما تدره على النقباء من مال • ولقد مكنت تلك الثروة للنقباء ان يقوموا بأعمال اجتماعية وعمرانية عديدة ، فكانوا يوزعون الطعام يوميا على الفقراء والمجاورين في جامع الكيلاني ، ويصلون بعض اسر الحي بالهبات والعطايا وينفحون رجال الطريقة القادرية من الدراويش وأهل التصوف بأنواع الصلات ، هذا فضلا عن اضطلاعهم بالتعمير المستمر لمباني الجامع وتكيته ومدرسته وسائر مرافقه وتشييدهم لبعض المدارس والمساجد •

ومثل ذلك كان نقباء الاشراف في البصرة يفعلون ، فاشتهر بيت الرفاعي، وفيهم انحصرت النقابة ، باطعام الفقراء واقراء الضيف ، وشيد احدهم زاوية ببغداد خاصة بطريقته ، وعرف آخرون بالافتاء والتدريس ، فكانت هذه الاعمال الاجتماعية والثقافية • تمثل في جوهرها الوجه الآخر لنقابات الاشراف في العهد المذكور •

الطرق الصوفية

تعتبر ظاهرة التنظيمات الصوفية من اشد الظواهر تداخلا وتعقدا في العراق ، والمشرق الاسلامي عامة ، في عصر الغزاة • ومع ان معظم رجال الصوفية الاوائل كانوا من اهل العراق كمعروف الكرخي ، والحسن البصري،

والجنيد والسهروردي والرفاعي والكيلاني وغيرهم ، فان من الملاحظ ان فكر اولئك الرواد كان يفقد كثيرا من جوانبه الايجابية البناءة بجهود مفارقته بيئته العربية وتعرضه من ثم الى مؤثرات البيئات الاجتماعية الاخرى التي يحل فيها ليتحول الى جملة من العقائد الغريبة التي تفرغ الفكرة من محتواها الاصيل بل الاسلام نفسه من روحه الثوري الصحيح . وكان لتوالي النكبات البشرية والطبيعية على العراق وما يرتبط به من اقطار بعد انهيار نظمه السياسية المستقلة في القرن السابع للهجرة (الثالث عشر للميلاد) دورها المهم في انتشار الافكار الصوفية بوصفها نوعا من القيم الروحية التي تحمل معتنقها على الرضا التام بواقعه على اساس ان هذا الواقع هو جزء من ارادة الله ، وهكذا فبعد ان خفتت دعوات الصوفية الاوائل الى نبذ الواقع السيىء اصبح الصوفيون في حقيقة امرهم دعاه الى التسليم بما هو قائم فعلا بغض النظر عما فيه من مساويء وعيوب واخذت بعض تلك الطرق بالتسلل الى داخل البيئة الاجتماعية العراقية مستغلة حالة التدهور الثقافي آنذاك ، فوجدت في القرن السابع للهجرة (١٣ م) تكية كبيرة للطريقة القلندرية على شاطيء دجلة ببغداد عرفت بالقلندرخانة وكان اتباعها يتصفون بالتحلل من اكثر الفرائض الدينية الاسلامية وبسمات فوضوية اخرى ، الا ان اهميتهم ضعفت – فيما يبدو – في الفترة السابقة على الاحتلال العثماني للعراق وصاروا يتكسبون معاشهم بممارسة اعمال غريبة اختصوا بها مثل الاشتغال بالكيمياء القديمة والتنجيم والعرافة والسحر وبصناعة معاجين العشق واشربة المحبة والرقى والتعاويذ وما الى ذلك من امور .

ومن الطرق الصوفية التي وجدت حظها في الانتشار في بعض مجتمعات المدن العراقية ، الطريقة المولوية ، وهي تنظيم صوفي نشأ في مدينة (قونية) في آسيا الصغرى على يد الشيخ (مولانا جلال الدين الرومي) المتوفي سنة ٦٨٣ هـ – ١٢٧٣ م ومنه انتشر برعاية السلاطين العثمانيين – في البلاد العثمانية

المفتوحة وقد اتخذ رجال هذه الطريقة من احدى المباني الملحقة بالمدرسة المستنصرية القديمة ببغداد تكية لهم عرفت « بالمولى خانة » وشهدت هذه التكية في مناسبات عديدة من كل عام احتفالات دينية شائقة تقوم على الرقص الصوفي الذي يجري وفق ايقاع تركي تؤديه فرقة موسيقية خاصة •

وحاول العثمانيون منذ دخولهم العراق في القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي) نشر طرقهم الصوفية الخاصة بهم وترغيب الناس في الانتظام فيها بماكانوا يقدمونه الى شيوخها من التسهيلات الاجتماعية ومايضفونه عليهم من مكانة واحترام • وكانت اهم تلك الطرق، الطرق البكتاشة، التي ينتظم فيها جانب مهم من المجتمع وهو قوات المشاة (الانكشارية) المرابطة في المدن العراقية آنذاك • على ان هذه الحركة لم تلق تأييدا من سكان تلك المدن بل عدوها في كثير من الاحيان تنظيما اجتماعيا خاصا بالجيش المحتل حقيقة ان عدة تكايا بكتاشية انتشرت في مدن عراقية مهمة مثل بغداد وكربلاء والنجف الا ان الطريقة نفسها بقيت محدودة الاثر الى حد كبير ولم يكن لها من الجمهور ما يناسب اهميتها الرسمية ، وفي الواقع فان المجتمع العراقي الوجه عام وقف منها على الدوام موقف الحذر بل الريبة احيانا •

ويبدو ان قيام اتباع هذه الطرق باعمال طفيلية كالتي ذكرنا ، او ارتباطهم بالسلطات المحتلة ، كان اشعاراً حقيقياً بمدى الازمة الروحية التي تعيشها ، فقد زالت التكية القلندرية في فترة متقدمة نسبيا لتشغل أرضها خانات للتجار ثم لحقتها التكية المولوية حين امر والي بغداد داود باشا بنقضها سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٠م وتحويلها الى مسجد كبير والحق به مدرسة فقهية عرفت بالمدرسة الآصفية نسبة الى احد القابه • اما التكايا البكتاشية فقد تحولت الى منازل استراحة ينزل بها الزوار والاتراك عند زيارتهم للمشاهد الدينية هناك •

وعلى هذا النحو تم للبيئة العربية الاسلامية في العراق التخلص من اخر المواقع الفكرية الدخيلة التي حاول الغزاة تثبيتها وظهر جلياً مدى البون بفقدانها اية جاذبية واقتصارها على فئات محدودة من المجتمع لم تكن لتتمكن من منافسة الطريقتين العراقيتين في المدن العراقية وفي الريف ايضا ، وهما الطريقتان القادرية والرفاعية اشهر تنظيمين صوفيين في العراق خلال القرون الاربعة الاخيرة • وتعتبر الطريقة القادرية أول طريقة صوفية في العالم الاسلامي فهي تنتسب الى مؤسسها الشيخ عبدالقادر محيي‌الدين بن ابي صالح موسى الجيلاني (الكيلاني) ثم البغدادي ، الزاهد ، الحنبلي الحسنى النسب (توفي سنة ٥٦١هـ ـ ١١٦٥م) واتخذت من شخصية مؤسسها المتزهدة المستقلة سماتها العامة التي حافظت عليها ردحا من الزمن • وكان لوجود قبر الشيخ ومدرسته وتكيته واسرته في بغداد اثر في ان تتغلب هذه الطريقة على سواها في وسط العراق وشماله الى حد كبير وان تنتشر بين فئات العامة والعلماء على حد سواء •

وكان طبيعياً ان تتولى سلالة الشيخ الكيلاني قيادة الطريقة القادرية فان لهم جاه (وحرمة عند الخاص والعام ، ولهم رزق ومرتبات برسم الفقراء والمترددين على الزاوية) وما ان حل القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر) حتى اصبحت هذه الطريقة باتباعها المنتظمين في سلكها قوة حقيقية في بغداد تتخذ من قبر الشيخ الكيلاني رمزاً لها ومن ذريته قيادة تنضوي تحت لوائها • وادى امتداد نفوذ القادريين الى خارج بغداد الى انشاء اتباعهم سلسلة من التكايا في انحاء مختلفة من العراق وبخاصة في المناطق الجبلية الشمالية منه ، فكانت تكية العقر (اوائل القرن الثامن الهجري ، القرن الرابع عشر الميلادي) وتكية زيوه كان (نهاية القرن العاشر الهجري ، القرن السادس عشر الميلادي) وتكية بريفكان (القرن السابع عشر الميلادي) وتكية كاي رمان (القرن الحادي عشر الهجري ، القرن السابع عشر الميلادي) وتكايا اخرى عديدة مثل تكية الشيخ بقاء بن بطو ، والشيخ علي الهيتي وتكية الشيخ حسن الجوسقي وغير ذلك •

ولم يقتصر نفوذ هذه الطريقة ودورها الاجتماعي الروحي على العراق وحده وانما وجدت انتشاراً منذ عهود مبكرة في اقطار عربية واسلامية كثيرة، فساعدت مع غيرها من الطرق على ايجاد تنظيمات شعبية في عصر اتسم بانهيار المؤسسات الرسمية او ضعفها ، وقد ادى بعض تلك التنظيمات ادواراً محمودة في التصدي للاجانب والحفاظ على النسيج الداخلي للمجتمع ازاء محاولات الطمس والتفتت ويلاحظ ان انتشار هذه الطريقة العراقية كان سريعاً وواسعاً فبعد اقل من قرن واحد بعد وفاه مؤسسها وصل دعاتها الى مصر وتونس والمغرب والاندلس فكانت اقدم الطرق الصوفية هناك ، ولكنها لم تتخذ لها مقار ثابتة (زوايا ، او تكايا) الى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجري (القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي) وفي القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) شهدت الطريقة القادرية توسعا جديداً حين دخلت بلاد الهند وتحولت تكاياها الى مراكز دينية لنشر الثقافة العربية الاسلامية بين الهندوس ونظرا لتسامحها مع غير المسلمين فقد شهدت انتشاراً هائلا في شبه القارة الهندية وانتظم في سلكها عدد كبير من فئات الشعب ومن الامراء على حد سواء بل وصلت في مداها جاوه وبعض انحاء اندونوسيا فكان لها الفضل في نشر الدين الاسلامي وثقافتهم في تلك الربوع ومثلما حدث هذا في اقصى المشرق فقد حدث ايضا في انحاء مختلفة من القارة الافريقية اذ ساهمت الطريقة بوصفها تنظيما شعبيا محكما في نشر الاسلام والثقافة العربية وتثبيت دعائمها في السواحل الشرقية للقارة وفي الجزر وفي دواخل القارة احيانا وكان لها دور في نشرهما في مناطق واسعة من السودان الغربي حيث عملت على التخفيف من الاختلافات القبلية او القضاء عليها احيانا مؤلفة بذلك مجتمعات اكثر تجانسا واقوى لحمة وانفتاحا على التيارات الثقافية للحضارة العربية .

ولا ريب في ان لهذه القوة المتزايدة اثرا كبيرا في دفع السلطان سليمان القانوني الى اختيار عميد الاسرة القادرية في عهده نقيباً للاشراف فوجدت

الطريقة القادرية في شخص النقيب سنداً قوياً وقيادة محكمة من شأنها تنظيم علاقاتها بالسلطة الرسمية العثمانية .

اما الطريقة الرفاعية فتنتسب الى مؤسسها الشيخ احمد الرفاعي الحسيني الواسطي العراقي . وكان انتشارها اولا في انحاء البطائح والبصرة حيث مر باتباعها الرحالة ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر) فوصف حلقات ذكرهم ومظاهرهم الروحية الاجتماعية ثم سرعان ما وجدت لها مجالات جديدة للعمل حين انتشر دعاتها في ارجاء واسعة من الوطن العربي وبخاصة مصر وبلاد الشام وانحاء مختلفة من شرقي افريقيا وبخاصة زنجبار والسواحل وغيرها مؤدية الى شد اواصر المجتمعات الافريقية هناك وتماسكها فضلا عن صبغها بالثقافة العربية .

ومثلما اتخذت الطريقة القادرية من سلالة الشيخ عبدالقادر قيادة لها فقد اتخذ الرفاعيون من اولاد الرفاعي قيادة مثلها الا ان مركز الاخيرة كان في البصرة لا بغداد حيث استقرت ذرية الرفاعي ونالت مثل نظيرتها ببغداد منصب نقابة اشراف البصرة فصار للرفاعيين السيادة على الطرق الصوفية في هذه المدينة وامسى لتنظيمهم قوة واهمية حتى تمكن الشيخ السيد مهدى الرفاعي نقيب البصرة في اواخر القرن الثاني عشر الهجري (القرن الثامن عشر) من ان يمد نفوذ اتباعه الى بغداد نفسها فشيد فيها الزاوية الرفاعية الصغرى وجدد رفاعيونا خرون مرقد السيد سلطان علي والد الشيخ احمد الرفاعي ببغداد وعمروه تكية رفاعية كبرى لهم ولاشك في ان حركة كهذه كانت تكشف عن روح المنافسة بين التنظيمات الصوفية ذاتها باعتبارها تنظيمات اجتماعية اكثر من كونها اختلافات على اسسها الروحية المحضة . وبالاضافة الى هاتين الطريقتين العراقيتين فان العالم الاسلامي عرف في خلال القرون التالية للغزو المغولي انتشار عديد من التنظيمات الصوفية المحكمة التي اسسها عراقيون نابهون او التي ينسبها اتباعها الى قيادات روحية عراقية سابقة لم تحل ظلمة العصر من انتشارها واتخاذها اتباعا كثيرين .

فالطريقة الجشتية مثلا ، وهي احد اوسع الطرق الصوفية انتشارا في الهند تستند اصولها من مؤسسي الطرق العراقية الاوائل وتنسب نفسها الى الصوفي العراقي ابي الحسن البصري وقد لقيت هذه الطريقة رواجاً في انحاء عديدة من القارة الهندية وبخاصة في منطقة دلهي والبنغال قبل ان تشوبهـا التأثيرات الهندية المحلية ، وبالطريقة السـهروردية منسوبـة الى الشيخ الشـيخ نجيب الديـن عبدالقاهـر السـهروردي البغـدادي والـى ابن اخيـه الشـيخ عمـر السـهروردي البغـدادي وكـان عـدد مـن اتباعهمـا قـد التجـأ الـى الهنـد بسـبب ظروف الفوضى التي سادت العالم الاسلامي ومنه العراق ، وقام بتأسيس الطريقة هنـاك أحد هـؤلاء اللاجئين من القرن الثالث عشر ليتولى خلفاؤه من بعده نشرهـا في البنغال ودلهي وشمالي السند وكجرات حيث عملت على تشجيع الثقافة العربية هناك والمتتبع لاسماء الطرق الصوفية الاخرى يجد ان معظمها يكشف عن عراقية اصوله او رموزه فالحلاجية نسبة الى الحسين بن منصور الحلاج البغدادي (المتوفي ٣٠٩ هـ/٩٩٩ م) والخرازية منسوبة الى احمد بن عيسى الخراز البغدادي (المتوفى ٢٧٧هـ/٨٩٠ م) والجنيدية منسوبة الى ابي القاسم الجنيد البغدادي (المتوفى سنة ٣٩٧هـ/٩٠٩ م) والمحاسبية منسوبة الى ابي الحارث المحاسبي البغدادي •

وقد وجدت جميع هذه الطرق طريقها الى انحاء مختلفة من العالـم الاسلامي ومنهما تفرعت طرق اخرى مشكلة بذلك هرما محكما من تنظيمات شعبية قوية كان لهـا الاثر البارز في الحفاظ عـلى الثقافة العربية والتراث الاسلامي ردحا طويلا من الزمن •

ومثلما كان العراق هو القاعدة التي انبعثت منها تنظيمات الصوفية في القرون الوسطى ومطالع العصر الحديث فانه شهد في اواخر العصر العثماني عدة محاولات قوية لاصلاح هذه التنظيمات يكون من شأنها تخليصها مما

علق بها من شوائب ومظاهر غريبة واحياء التربية الخلقية لدى اتباعها بل دعت بعض تلك الاتجاهات الى الغاء التنظيمات الصوفية فكرة ومسلكا وبينما وجدت هذه الفكرة تطبيقا في ولاية الموصل متمثلة في الحركة السلفية القوية التي شهدتها منذ منتصف القرن الثاني عشر الهجري (القرن الثامن عشر الميلادي) فان محاولات الاصلاح تمثلت في خلق تنظيم صوفي جديد هو الطريقة النقشبندية التي رفع رايتها في العراق الشيخ خالد الشهرزوري النقشبندي (١١٩٠ ـ ١٢٤٢هـ / ١٧٧٦ ـ ١٨٢٧م) ورغم ان اصول هذه الطريقة كانت قد وجدت في الهند منذ القرن الثامن للهجرة (١٤م) الا ان الشيخ خالد استطاع ان يحولها الى حركة فكرية قوية سرعان ما تحولت الى حركة اجتماعية منظمة احدثت اصداء واسعة في العراق في الثلث الاول من القرن الثالث عشر الهجري / القرن التاسع عشر الميلادي ، ثم انتشرت منه الى الاقطار العربية الاخرى كالاحساء والشام ومصر بل وصلت في انتشارها الى الاناضول •

وتظهر رسائل الشيخ خالد الى خلفائه في التنظيم الذي اسسه نزعة سلفية واضحة وروحاً ثائرة على المجتمع الذي عاش فيه ، من ذلك « التأكيد الاكيد بشدة التمسك بالسنة السنية ، والاعراض عن الرسوم الجاهلية والبدع الردية ، وعدم الاغترار بالشطحات الصوفية » ويلمح الشيخ الى القيم السائدة لدى طبقات المجتمع المختلفة في عهده فينصح خلفاءه بعدم التداخل مع الملوك والامراء والاغوات واعوانهم ويمكن تفسير ذلك برغبته في مخاطبة الطبقات العامة من المجتمع دون ان يثير حفيظة الطبقة الحاكمة فيه ولذلك فهو يؤكد على عدم انتقادهم باى شكل من الاشكال معللا ذلك بعدم استطاعة رجال التنظيم (الطريقة) الوقوف في وجه الحكام لعدم تكافؤ القوى بينهم •

وعلى الرغم من اعلان النقشبنديين عن عدم تدخلهم في السياسة الا ان رسائل الشيخ خالد الى ولاة العراق المعاصرين تكشف عن آرائه في هذا

الامر ، فعندما ارسل اليه داود باشا يسأله شموله بالدعاء الرسمي في المساجد كان جوابه بانه « على مقدار صدق نيتكم وتعلق همتكم برعاية الانام وحماية الارامل والايتام لكم الانتظام في سلك الدعاء له » وبهذا فقد جعل من التزام الوالي بتطبيق تلك الاعمال شرطا للدعاء له • وقد روى عنه معاصروه بانه « كان يحب الفقراء والمساكين ، ولا سيما المجاذيب ، فانه كان يألفهم جداً وهم كانوا يحبونه ايضا » • وعلى الرغم من عدم استناد تنظيم النقشبندية هذا الى اسرة قوية ذات شعبية عامة كنقباء بغداد والبصرة فاننا نلحظ انـه كان تنظيما اكثر قوة وفاعلية في الحياة الاجتماعية من غيره وانه اتخذ شكل منظمة محكمة موصولة العرى امتدت فروعها بسرعة فائقة في مختلف الفئات والطبقـات •

مما لا شك فيه ان لشخصية الشيخ خالد النقشبندي القوية اثرهـا البالغ في ارساء دعائم الطريقة الاولى ، كما ان لتولية قيادة الطريقة فترة تزيد على عقد من السنين تأثيرا مهما ايضا ولقد تولى هـذه القيادة من بعـده « خلفاؤه » الذين كان قد اختارهم بنفسه وكانوا يتولون في اثناء حياته نشر افكار الطريقة وضم الاتباع اليها وتظهر لها تراجم اولئك الخلفاء عن نشاط واسع غير محدود في ذلك السبيل شمل مدنا واقطارا عديدة •

ورغم موقف النقشبنديين من السـلطة فانهم حـاولوا عـلى ما يبدو الاستفادة من الولاه المحليين من دعم تنظيمهم وحمايته فكان سعيد باشـا (١٢٢٨—١٢٣٢هـ / ١٨١٣—١٨١٦م) لا يخفي تأييده للشيخ خالد ، وقدم له ــ كدليل على ثقته فيه ــ مساعدات قيمة ذات شأن • وبلغ الامر بمحمود باشا البابانی ان استعان به في توحيد قوى الاسرة البابانية للقضاء على الفتن الاهلية في بلاده ودافـع داود باشا عنه ازاء اتهامات رسمية وجهت اليـه واعانه ماليا بمبالغ طائلـة •

وكان من نتيجة ذلك النشاط ان انتشرت تكايا النقشبندية في الاماكن

التي وصلتها دعاية تنظيمهم فكانت اولى تكاياهم التكية الخالدية ببغداد وهي في الاصل مدرسة دينية قديمة مهجورة قدمها والي بغداد سعيد باشا الى الشيخ خالد لتكون مقرا له ثم تلتها تكية في كرخ بغداد اسمها الشيخ موسى الجبوري خليفة الشيخ خالد (المتوفى سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣١م) وتكية في بلدة بامرني من اعمال العمادية في شمالي العراق اسسها الشيخ ظاهر بن الملاصافي من تلاميذ الشيخ خالد ايضا وتكية «بارزان» التي انشأها الشيخ عبدالله البارزاني خليفة الشيخ طه النهري من خلفاء الشيخ خالد سنة ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م .

وتتفق اكثر من رواية على ان عدد مريدى الشيخ خالد النقشبندي واتباعه بلغ في حياته زهاء مائة وعشرين الفاً فيمختلف الانحاء العربية والتركية حتى عد البعض من كراماته « اجتماع السلاطين والامراء على محبته ، واتباع اساطين العلماء لطريقته كشيخ الاسلام ومفتى الانام مكي زاده مصطفى عاصم افندى وغيره من علماء القسطنطينية والوزراء والحكام » .

ويمكن القول بان الانتشار الهائل الذي شهدته هذه الطريقة في العراق وفي الاقطار العربية بل وفي غيرها ايضا كان يمثل اخر ما قدمته البيئة العراقية من تجارب في مجال التنظيمات الاجتماعية المبنية على اسس روحية بعد ان كانت هذه البيئة قد قدمت من قبل اولى تلك التجارب الى العالم الاسلامي منذ اكثر من ستة قرون .

الاصناف

رغم التدهور الاقتصادي الشديد الذي لحق بفئات الحرفيين كنتيجة لتدهور الصناعة نفسها في القرون التالية لانهيار الدولة العباسية ، فان الاصناف ظلت تمثل الاطر الوحيدة تقريبا التي يمكن ان ينظم الحرفيون من خلالها علاقاتهم الاجتماعية وصلاتهم الاقتصادية بالتجار من جهة وبالسلطة

من جهة اخرى فضلا عن تحقيق نوع من الترابط والتنسيق بين فئات الحرفيين نفسها .

وكان من الطبيعي ان تضم هذه الاصناف اكثر الطبقات في المجتمع العراقي آنذاك نشاطا وانتاجا وان تؤدي دورها في تماسك المجتمع الى حد كبير ومن المهم ان نذكر ان علاقة هذه التنظيمات بالطرق الصوفية كانت علاقة وثيقة ومتداخلة تماما ولقد لاحظ بعض الباحثين مدى تأثير الطرق الصوفيه في نظام الاصناف الا انه من غير الواضح على وجه التحديد طبيعة العلاقة بين النظامين ابان العهد الذي ندرسه فبينما نجد ان الطرق تحث اتباعها على امتهان الحرف واتقان الصنائع وتجعل من العمل قيمة اساسية وتضفي عليه عمقا روحيا خاصا فاننا نجد ان الاصناف تتجه لان تكون طرقا بذاتها مستعيرة من الطرق الصوفية اغلب شعائرها وتقاليدها وروحانيتها بل حتى شعائرها وتقاليدها المميزة لها ، مثل المواكب الخاصة باتباعها ، ومواسمها في زيارة قبور مؤسسيها واوليائها وسلاسل مشايخها واجازاتهم المتوارثة فكان للاصناف بوصفها تنظيمات اجتماعية احتفالاتها ومواكبها ومواسمها الخاصة بكل منهما .

وتعد هذه الاحتفالات من اهم مظاهر الحياة الاجتماعية للصنف ودليلا على تضامن اعضائه وغالبا ما يكون الاحتفال عند وصول موكب ابناء الصنف الى مرقد الولي (البير) الذي ينسب الصنف اليه تأسيس حرفته ويعده حاميا له بل بلغ من التداخل بين النظامين ان طريقةصوفية عرفت ببغداد في القرن الثامن عشر كانت تشتق اسمها (وهو الشاكردية) من الاسم الخاص بالمبتدئين في الحرف (شاكرد) .

ومن المرجح ان يكون هذا التشابه بين النظامين الاجتماعيين راجعا الى تأثرهما كليهما بنظام الفتوة الذي عرف في بعض اقطار العالم الاسلامي وشهد تطورا ونضوجا واضحا في بغداد في نهاية العصر العباسي وكانت الفتوة هذه

تنظيمات اجتماعية شعبية ضمت اليها اهل الصنائع في المدن الاسلامية وتميزت بضوابط اخلاقية رفيعة مثل المروءة والكرم والايثار وكان منها ايضا من عرف بالشطار والعيارين وتتسم فتوتهم بسمة عملية عنيفة كان لهـا اثر اجتماعي ثوري ، وسياسي في بعض الاحيان .

لقد اخذت الطرق الصوفية من (الفتوة) معظم تقاليدها وانظمتها الداخلية ومظاهرها الاجتماعية وعليه فقد كان من المنتظر ان يكون لكل من الصنف والفتوة والطريقة تأثيرات متبادلة فتأخذ الاصناف الضوابط الاخلاقية الرفيعة من اهل الفتوة وتأخذ الطرق الصوفية اصطلاحاتها منهم ، من ذلـك ان شيوع استعمال لفظ (الشيخ) لرئيس الصنف قد اخذ عن حركة الفتوة وحل محل اسم «الرئيس» وظهور تقاليد معينة مثل (الشد) وهو الاحتفال بشد المئزر على الصانع كدليل على دخوله الصنف على نحو شبيه بشد (الخرقة) للصوفي كأشارة الى دخوله الطريقة ومثـل انتساب كل صنف الى احـد الصحابة او الاولياء (بير) باعتباره حامي الصناعة او الحرفة وشيخها الروحي الاول .

يتميز الصنف عن التنظيمات الاجتماعية الاخـرى بتكوينه الهرمـي المحكم الذي يراسه غالبا شيخ منتخب من الاساتذة « الاسطاوات » البارزين في الصنف ويجمع في منصبه اكثر من وظيفة مثل : امين صندوق ، وكاتب ، ولعل من اهم مميزات هذا التكوين ابان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في العراق تأثره الواضح بالنظام العائلي السائد في تلك الحقبة فكان ان تحولت مشيخة الصنف الى منصب وراثي محض تتولاه في كل حرفة اسرة معينـة مبرزة في صنفها .

على ان ذلك كان يستلزم موافقة اسـاتذة الصنف ممـا يبقى صفة الانتخاب ويظل الشيخ في منصبه مدى الحياة ما لم يصدر منه مـا يوجب ابداله بسواه ومن المحتمل ان يعرف هذا الشيخ ايضا باسم كهية او كتخدا

وهو لقب بقي معروفا في المدن العراقية حتى مطلع القرن العشرين ويتولى الشيخ او الكتخدا مسؤوليات عديدة فيما يتصل بأعضاء صنفه فهو يشرف على شؤونهم الادارية والمالية ويحل المنازعات بينهم ويرأس هيئة الادارة ويرعى المراسم والحفلات ويقوم بالاشراف الدائم على احوال الصنف وتمثيل مصالحه لدى السلطات •

ويشكل (الاساتذة) او (الاسطوات) القسم الرئيس من الصنف وهو ارباب الحرف واصحاب المشاغل اليدوية واصحاب العمل بالنسبة الى الفئات الاخرى من الصنف مثل الصناع والمبتدئين وقد ظلت تلك الفئة هي المسيطرة على احوال الحرفة حتى بعد انهيار نظام الاصناف في القرن العشرين •

ويلي الاستاذ ــ عادة ــ من يعرف باسم الخليفة او « الخلفه » وهو ينوب عن استاذه في العمل احيانا ويتبعه ويتعلم منه ثم الصانع واخيرا المبتدىء (الشاكرد) الذي يلتحق بالعمل طلبا لتعلمه فهو اشبه بالتلميذ لاستاذه ولقد ظل المصطلحان الاولان مستخدمين في الحياة الحرفية في العراق حتى عهد قريب بل الى الان احيانا اما مصطلح (الشاكرد) فقد لاحظنا انه اطلق في القرن الثامن عشر على طريقة صوفية لا على فئة معينة من اهل الحرف وفي الواقع فاننا ما زلنا في حاجة الى معلومات عن هذه الناحية •

ولقد كفلت قوانين العصر لاعضاء الاصناف مكانة خاصة تميزهم عن غيرهم من اهل المهن الاجراء وهما الاجير المشترك « وهو الذي يستحق الاجرة بالعمل لا بتسليم النفس » والاجير الخاص « وهو الذي يستحق الاجر بتسليم نفسه في المدة المتعاقد عليها » وان لم يعمل فالحداد والنساج والطبيب هم اجراء مشتركون لانهم يقومون باعمال خدمة لعدد مختلف من الناس في الوقت الواحد وهم لذلك يتمتعون بالحقوق العامة المكفولة لهذا

النوع من الاجراء واهمها توفر استقلال شخصياتهم عن عملائهم فهم بحسب هذه القاعدة ارباب عمل حقيقيون وليسوا اجراء عاديين .

ويقدم الفقيه البغدادي المذكور امثلة متنوعة على ما كان سائدا من حقوق حرفيي الاصناف في عهده فمثلاً لا يسأل الحارس المستأجر لحفظ الخان اذا ما سرق ولا يطالب بتعويض « لانه يحفظ الابواب » اما الاموال فهي بيد اربابها وصاحب الخان المستأجر لحفظ الامتعة غير مسؤول اذا ما سطا سارق على امتعته اثناء غيابه وكذلك لا يدفع الحرفي مثل النساج والحداد والقصار (المشتغل بقصر الوان الملابس) والدباغ تعويضا عن شيء فقد من محل حرفته او تلف بغير سبب منه حتى لو ترك محله ذاك في وقت كثر فيه اللصوص وجعل للحرفيين الذين لعملهم اثر كالصباغ « حق في الاحتفاظ بالسلعة عند مماطلته بالسعر وهو ليس مسؤولا عنها اذا ما تلفت او فقدت واعفى الاطباء والجراحون عموما من مغبة اعمالهم اذا ما هلك مرضاهم دون سبب منهم واضح كما اعفى الملاحون من المسؤولية اذا ما غرقت سفنهم المحملة ببضائع غيرهم حتى وان كان غرقها بسبب عطب فيها .

اما الاجير الخاص فهو على ما تدل الاحكام الخاصة به تابع للحرفي وهو في الغالب مستأجر لديه ولهذا فليست له شخصية خاصة به عن مخدومه وهو يستحق اجرته منه في كل الاحوال حتى في حالة تعطله عن العمل لانه محسوب عليه ولا مورد له من سواه ويبدو ان هذا الاجير لم يكن في معظم الاحيان الا تلميذ الحرفي او صبيه اذ يؤكد البغدادي على عدم قيام المعلم او الاستاذ بضرب صبيه أو تلميذه الا باذن ابيه او وليه .

واذا ما اذن للصبي بالترقي الى مرتبة « الصانع » اختلف وضعه القانوني فيحمل عند ذلك مسؤوليته كاملة تجاه رب عمله « الحرفي » فهو يعوض ما يفقد منه او يتلفه من سلع على عكس زميله غير المأذون الذي يتحمل عنه مخدومه مسؤولية اعماله كافة .

ويحدد مؤلف عراقي مجهول في مخطوطته عن تقاليد صنف الحلاقين كتبت في القرن الثامن عشر ما يجب ان يكون الحرفي الذي هو عنده «المزين» باثنى عشر شرطا هي :

١ ــ ان لا يخدم استاذا ما خدم استاذا ولا هو داخل في معرفة الاستاذين ٠

٢ ــ ان يخدم استاذا يكون عارفا باركان الصناعة وقواعدها وشروطها حتى يضع كل شيء في موضعه من الشروط والقواعد ولا ينكر على استاذه لئلا ينكر عليــه ٠

٣ ــ ان يكــون مع الناس حاضرا في خدمتهــم وناصحا لهــم ومحترمهم (كذا) ومعزا لهم وقايما بحقوقهم ٠

٤ ــ ان يأخذ العهد والبيعة من يد استاذه ويستأذنه ويطلب منه الرخصة في الصــنعة ٠

٥ ــ ان يعيش بالكد الحلال ويقنع به وان كان قليلا ٠

٦ ــ ان يكون مواضبا على الفروض الخمسة في الاوقات الخمسة ويكون صاحب عبادة وذكر لله تعالى على كل حال وان يكون حامــدا شاكرا ذاكرا لله تعالى قانعا بما قسم الله له ٠

٧ ــ ترك الهوى وحظوظ النفس والتكبر بل يكون متواضعا خاشعا خاضعا عفيفا لطيفا ٠

٨ ــ ان يكون اذا رأى رأس احد من المســلمين طويلا يزينه ولا يحمله في الثمن فانه ربما يكون لا يملك الثمن في وقته ذلك بل اذا اعطاه شيئا اخذه منــه بالقبول والبركة قليلا كــان او كثيرا وان لم يعطه شيئا لا يطالبه فربما يكون صفر اليد ٠

٩ ــ ان ينظر الى الغني والفقير « بعين واحدة ويكون في خدمتهم سواء »٠

١٠ـ ان يفرق « بين المؤمن والمنافق فاذا حضروه (كـذا) مؤمن ومنافق فيقدم المؤمن على المنافق .. واذا حضر شريف وعـامي فيقدم تزيين الشريف لشرفه » .

١١ـ ان يكون « اذا رأى في جسد انسان عيبا وخللا فلا يظهره على الناس بل يكتمه ويستره » .

١٢ـ ان يكون « عارفا بقواعد الصناعة عارفا بشرايطها واركانها وما يحتاج اليه في صنعته » .

ويحدد صاحب المخطوطة المذكورة طبيعة العلاقة بين الصانع الحرفي « المزين » واستاذه فيقول « يجب عليه ان يكون في خدمة استاذه كالميت بين يدي المغسل والصانع لا يكون صاحب حجة على استاذه ويجب على الاستاذ ان يمنع صانعه من اللعب والطرب واللهو ؛ ولا يغتاض (كـذا) على صانعه من غير ذنب ولا يضربه بغير سبب ولا يعمل في تعليمه له تقصير واذا كـان عند استاذه معرفة غريبة يعلمها لصانعه وكلما كان عنده من الصنائع يظهره عليه ولا يخرج الصانع من عند استاذه الا باذنه .

ويبدو ان الرقابة على الاصناف والحرف ازدادت ابان العصر العثماني فخضعت الاصناف الى اشراف موحد وذلك بان جعلت تحت « مشيخة » عامة واحدة وفرضت عليها الضرائب بالضمان او بالالتزام فكان للحـرف ضامن ملتزم امام حكومة الولاية بتحصيل الضرائب على اهل الاصناف وهو امر ادى الى ان يمسي شيخ الاصناف مسؤولا امام الضامن مباشرة وليس امام الحكومة ويفهم مما اورده المؤرخ الموصلي امين العمرى (توفي سـنة ١٢٠١ هـ/١٧١٦ م) انه كان على هذا الشيخ ان ينظم حساباته في « دفتر » خاص يبين قدر ما ينفقه وسبب انفاقه وانه كان عليه ان يقدم دفتره هـذا الى الضامن ليشرف بنفسه على سير الامور المالية للاصناف باسرها .

وكان لكل نوع من الاصناف قانون خاص يعـرف بـ « الدستور » تتعلق احكامه بالامور المالية للصنف وبخاصة ما يتصل بتحديد اجور الصناع وتقدير كمية الانتاج والضرائب المفروضة على الصنف وتكشف سـجلات ولاية البصرة العثمانية (القرن السادس عشـر) عن وجـود عدد كبير من (دساتير العمل) هذه فكان هناك دستور للقصابين وللدباغين وللخصافين وللعطارين ولدلالي الاقمشة والعقاقير وكان هناك ايضـا دستور لصباغي الغزول وغيرها يحدد اسعار الصبغ وآخر للملاحين ٠

وبقدر اهتمام واضعي « دساتير العمل » بالامور المالية للاصناف فانهم اغفلوا توضيح دورها الاجتماعي في المدينة ووضعها الاداري فيها ففي الوقت الذي كانت فيه اصناف معظم المدن العثمانية تخضع لاشراف موظف خاص يدعى المحتسب او (احتساب آغاسي) موكل من قبل قاضي المدينة بتدقيق الموازين ومراقبة السوق فان السجلات العراقية العثمانية تخلو من الاشارة الى هذا المنصب الهام وان تكن تشير الى وجود ضريبة باسم (الاحتساب) تؤخذ على اساس النسبة الشرعية ١/٤٠ ٠

وكان على الاصناف ان تؤدى متضامنة انواعا من الضرائب الحرفية الى الملتزمين (الضامنين) الذين يفوضون حق استيفائها بالمزايدة السنوية وتعرف هذه الضرائب بالتمغا او الطمغة وقد تدخل في هذه الطريقة من الالتزام دور الصناعة العامة التي يملكها الصنف برمته كأن تكون على المصابغ (بويه خانة) ودور النسيج (ابريسم خانة) ومواقد النـار لاذابـة القـار (القير خانة) والمطاعم (يمك كارخانة) والممالح وفرضت ايضا على الدكاكين والاسواق ٠

وكان لتزايد النشاط الاقتصادي في مدن العراق في اواخر القرن الثامن عشر اثره في زيادة اهمية ضمان الاسواق والمرافق الاقتصادية وما يدره ذلك من اموال « فسجل التزام » سوق الغزل ببغداد وهو السوق المختص ببيع

الغزول اللازمة للنسيج زيادة سنوية مستمرة خلال السنوات ١٢١٢–١٢١٦هـ/١٧٩٧–١٨٠١ م على النحو الآتي :

١٢١٢	٢٢٥٠
١٢١٣	٤٠٠٠
١٢١٤	٤٥٠٠
١٢١٥	٥٠٠٠
١٢١٦	٥٤٠٠

وبلغ من نفوذ السلطة السياسية على شؤون الاصناف ان تولى الوالي نفسه ادارة تلك الشؤون او الاشراف عليها من النواحي المالية ، وهو ما كان يحدث في الموصل ابان القرن التاسع عشر ، حيث كانت عملية البيع تجرى بين الاصناف بالدين ، بضمانة الوالي نفسه ، ويحتفظ الاخير بسندات الصفقة في خزينة الولاية . ويحدد صاحب تاريخ ماردين بدايات القرن الثامن عشر تاريخا لقيام السلطات المحلية بالاقتراض المنضم من الاصناف ومن ثم بداية جديدة لتدخلها في شؤونها المالية مباشرة ، فيقول في ترجمة « الخزينة كاتبي محمد افندى » متسلم ماردين ، وكانت يومذاك جزء من ولاية بغداد « ثم حكم الخزينة كاتبي محمد افندي سنة ١١٥٥ هـ (= ١٧٤٢ م) وحكمه اربع سنين وهو الذي ابدع الدين على اهل الحرفة وكان يعطيهم بذلك صكا مختوما فاذا اراد اداء دينه اعطى من الاموال ما اراد بمقدار ما يريد كما هو المعتاد في هذا الزمان » .

ويبدو ان للاسباب المالية والادارية دورها في ضم عدد من الاصناف المتشابهة حرفها ، ضمن صنف واحد اذ تشير نصوص تاريخية الى انه كان في الموصل سبعة اصناف يرأسها شيخ يعرف باسم «شيخ الاصناف السبعة» واغلب الظن ان تحديد عدد الاصناف بسبعة فقط لم يكن الا تحديدا رسميا،

هدفه توحيد ادارة كل مجموعة من الاصناف المتقاربة المهن ، في صنف واحد رئيسي تسهيلا للاشراف على الحرف العديدة التي كانت منتشرة في ولاية الموصل آنذاك ، وضم الجميع تحت « مشيخة » عامة واحدة .

وفي الواقع فانه ليست ثمة معلومات دقيقة عن عدد الاصناف في المدن العراقية ابان العصر العثماني فيها . ويقدم لنا مؤلف فقهي مهم كتب في القرن السابع عشر عرضا لاسماء الحرف الرئيسة القائمة في عهده والتي تبلغ الاربعين ويمكن القول استنادا الى ما يصفه المؤلف من الوضع القانوني الخاص بكل نوع من الحرف بأن هذه الحرف كانت تشكل «اصنافا» قانونية قائمة بذاتها واصحاب تلك الحرف :

القصابون ، الطباخون ، الطحانون ، الخبازون ، النساجون ، الحياك ، الخياطون ، القصارون ، الصباغون ، الصياغ ، الصيقليون (صاقلو السيوف) الفصادون ، الحجارون ، الختانون ، الكحالون (اطباء العيون) البياطرة ، الملاحون ، الوراقون ، الغلافون (صناع الاغلفة) الكتاب ، الاسكافيون ، الخفافون ، النجارون ، الدلالون ، السماسرة ، البياعون ، النخاسون ، دلالو الاراضي ، الحراس ، الخانيون ، (اصحاب خانات التجار) ، المكاريون والحمالون .

ومن الواضح ان هذه القائمة اغفلت اصنافا اخرى من الحرفيين مثل السقائين والنحاسين والاطباء والحدادين .. الخ ، وانها لم تذكر الا قسما يسيرا منهم فقط ويعقد الرحالة التركي اوليا جلبي ، في كتاب سياحته (وكان قد زار بغداد في مطلع القرن الحادي عشر الهجري (القرن السابع عشر الميلادي) فصلا خاصا بـ « الحرف والصناعات » ببغداد لكنه لا يشير الى اكثر من خمسة اصناف رئيسية ، هم صناع السروج ، والصاغة ، والخياطون ، والحدادون وصناع السيوف .

وتشير قائمة احياء بغداد وعقودها التي وضعها الكوماندز فيلكس

جونز في منتصف القرن الثالث عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي) الى نحو سبعين صنفا متميزا مستقلا وتشمل اغلب ما تحتاجه المدينة في ذلك العهد ، من منتوجات وخدمات مختلفة ، منها :

اهل الغـزل ، الحفرجيـة (الحفـارون) ، الشيشرجية ، السقاقي (السقاؤون) ، الفتانيل ، الحطابة (الحطابون) ، العطاطير (العطارون) النجاجير ، الصفارون ، البزارة (باعـة البذور) ، التبانة (التبانـون) الكجةجية (صانعو بسط الصوف اللباد) المجارية (المكارون) ، السراريج (السراجون)، الطوبجية (المدفعيون) البلنجية، الصابونجية (صناع الصابون)، الدنكجية (صناع الدنك : الاعمدة)،العينةجيه،التمارة (باعة التمور)،الدهانة (صناع الدهن) ، صبابيغ الآل ، الصندوقجية (صناع الصناديق) السبجية، البرغانجية ، الكورجية ، الخردة فروشية (باعة المنوعات من كل شـيء) الاكمجية ، التنكجية (صناع القلل) البصاصيم (البصامون وهـو طابعو الاقمشة) ، التوتونجية (باعة التبغ) ، الجبوغجية (صناع ادوات التدخين) الجوخجية (باعة الجوخ) ، السختيانجية (صناع الجلـود) ، اليمنجية (صناع اليمنيات وهي الخفاف)، الكبابجية (شواؤو الكباب) ، البزازون، التكجية (باعة التكك) ، الخياطون ، المعاملجية ، الاسكجية ، الكببجية ، (صناع الكبب) ، العبايجية (صـناع العبي ، جمـع عباءة) القصاصـير (القصارون) ، القوشجية (باعة الطيور) الشواكة (باعة الشوك) .

وزاد من اثر الاصناف في الادارة وفي توجيه الحكام انضمام معظـم الحرفيين الى اورطات (فرق) الجيش الانكشاري المرابطة في المدن العراقية واداؤهم من خلال تلك الاورطات ادواراً سياسية هامة . ففي عام ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م عرض « عامة البلد » في ماردين على السلطان عبدالحميد الاول ، اعادة تشكيل اوجاغ للانكشارية كانت الدولة قد استحدثته في البلدة في اول عهدها فيها ثم الغته « والتمسوا ان يخرطهم في سـلك طائفة الينكجاريـة

(الانكشارية) ويراعوا شروطها العرفية كما هو القانون والمعتاد ويكونوا من عسكر السلطان كسائر البلاد وغرضهم من ذلك ان يكونوا على الاتفاق لئلا يجور عليهم اهل البغي والنفاق ، مع ان التدابير لا تغلب التقادير . فأجابهم السلطان الى ما طلبوا وادخلهم في هذا الاوجاغ ثم انهم شرعوا بالزنا وشرب الخمور وتعاملوا بأنواع الفسق والفجور فمنهم من كان يمنع حقوق العوام وبطل بينهم الشرع وحكم الحكام وصاروا كأنهم من بني حـــام .. ثم انهم هجموا يوما على الويوده (متسلم وحاكم) عرب علي انما وقتلوه وقتلوا خزينه داره سليمان اغا . وفي عام ١٢٢٥ هـ/١٨١٠ م لبس أهل الاسواق ببغداد سلاحهم وعزموا على قتل قائممقام المدينة ، ولم يثنهم عن عزمهم سوى استعانة القائممقام المذكور بقوات القبائل المجاورة وكان شـيوخ الاصناف يلون من حيث الترتيب في المناسبات العامة الاعيان والامراء وربما زادوا من قوتهم بالتحالف مع قوى محلية اخرى معلنين تمردا عاما فيغلقون الاسواق ويتقلدون السلاح .

على انه تجدر الاشارة هنا الى ان الاصناف لم تستطع ان تبلغ في فعاليتها السياسية حدا يمكنها من السيطرة على السلطة السياسية في المدن . حقيقة انهم كانوا دوما عنصرا له اهميته من الناحية الاقتصادية الا انهم لم يتمتعوا بنفوذ سياسي مؤثر على نفس المستوى ولقد بقيت طبقة التجار بما لها من تحكم في تصدير السلع المنتجة وتوريد مواد التصنيع الخام تمارس سيطرتها على السوق المحلية ومن ثم على وضع الاصناف الاقتصادي نفسه . وبوصـول تلك الطبقة في بعض المدن العراقية الى السلطة السياسية وتمكنهم في البعض الآخر من التأثير على تلك السلطة فان سيطرة التجار على الاصناف اصبحت ذات مدلول سياسي ايضا ومن ثم يمكن القول بان طبقة التجار بقيت تشكل حائلا فعالا يقف بين الاصناف وبين السلطة السياسية ويمنعها من نيل امتيازات رئيسة كالتي نالتها مثيلاتها في اوربا وهو أمر كان من شأنه ان يجعل نظرة هذه الاصناف الى السلطة البلدية والمركزية مشوبة بكثير من الشك والريبة

وان تتضافر مع التنظيمات الاجتماعية الاخرى ، كالطرق الصوفية والتجمعات الشعبية التي تقودها نقابات الاشراف في الوقوف امام تلك السلطة . على ان هذا الموقف لم يكن يمنع ــ احيانا ــ من ان تتخذ الاصناف موقفا مؤيدا للسلطة المحلية المتمثلة بنظام المماليك وبخاصة عند تعرض هذا النظام لمحاولات السلطة المركزية العثمانية في التدخل في شؤون الولايات العراقية الداخلية . من ذلك ما حدث سنة ١١٩٢هـ / ١٧٧٨م حينما انضمت احياء هذه التنظيمات وهي باب الشيخ (مركز قيادة الطرق الصوفية ونقابة الاشراف) والشورجة (مركز تجمع التجار والحرفيين) ورأس القرية الى جانب القيادة المملوكية البغدادية مناوئين بذلك محاولة الدولة العثمانية فرض وال دخيل على الولاية .

وعلى الرغم من الطابع الديني الصوفي الذي كان يسود الاصناف ابان هذا العهد فقد ضمت الاصناف المذكورة مختلف الطوائف الدينية دونما تمييز اداري يذكر ، ذلك ان معظم تلك الاصناف كان منضما بحسب التخصصات المهنية المميزة للطوائف الدينية المختلفة فمهنة الصيدلة والصياغة الى جانب معظم التجارة في المواد الغذائية كانت حكرا على المسلمين في حين كانت الصيرفة والتجارة في الذهب والفضة من نصيب اصناف يغلب عليها الذميون وبلغ هذا التخصص في الاصناف حد ان كانت مهن معينة مثل صياغة الفضة والتطعيم بالمينا حكرا على طائفة الصائبة بينما بقيت صياغة الذهب بيد المسلمين وظل نحت الرخام مهنة خاصة بالنصارى في الموصل في حين اختص المسلمون بعملية البناء والعمارة .

ويبدو ان للعلاقات القبلية دورها ايضا في تنظيم التخصصات المختلفة للاصناف وهو امر اختصت به مدن العراق ابان العصر العثماني وبخاصة في القرن التاسع عشر حين اشتدت الهجرة القبلية والريفية الى المدن نسبيا ، وفيما يأتي نماذج لهذه الحالة الاجتماعية في مدينة بغداد .

الحمالون : عشيرة البو مفرج .

العلوجية : وهم اصحاب مذاخــر المنتوجات الزراعية ، او اســواق
الجملة) عشيرة الكروية .

الحماليون والحمالون : عشيرة البو عجيل .

الطباخون : عشيرة بني عز .

العكامون : (وهم خدم القوافل وحراسها) عشيرة البو صقر والجنابيون والسواكن .

صناع الحصر : عشيرة الجعيفر .

اهل الاطعمة (الاكمكجيون) : جماعة الفلاحات .

المكاريون : جماعة الوشاحات .

القصابون : عشيرة المهدية .

الفحامون : عشيرة جميلة .

بوابو (حراس) المخافر : عشيرة البو شبل .

ولم يقتصر هذا الوضع على بغداد فحسب بل تعداها الى مختلف المدن العراقية كالحلة ، وكركوك ، وغيرها .

ولم يقف نمو طبقة التجار وسيطرتها على السوق المحلية عند حد ممارسة نفوذها على الحياة السياسية فحسب بل تعداها في القرن الثالث عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي) وبخاصة في النصف الثاني منه الى ان يوسع اولئك التجار نشاطهم متعاونين مع الجاليات الاجنبية أو من يرتبط بمصالحها كالارمن واليهود وبعض الاسر النصرانية الحلبية فيفتحون بذلك السوق المحلية على مصراعيها امام البضائع الصناعية الاوربية الرخيصة وهكذا فقد احتلت تلك البضائع الاسواق منافسة الانتاج المحلي على نحو خطير وانخفض في الوقت نفسه استيراد الخامات نصف المصنوعة التي يحتاجها الحرفيون عادة في اعمالهم وخاصة منها الغزول والاصباغ (النيلة) مما ادى الى ركود مضطرد في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للاصناف عموما، فأنخفض ــ مثلا ــ عدد ورش النسيج في بغداد

من ١٢٫٠٠٠ معمل ، في منتصف القرن التاسع عشر الى بضع مئات في بداية القرن العشرين ومثل ذلك ما حدث في البصرة حيث اختفت تقريبا صناعة انواع من النسيج المحلي عرفت بها ، وفي الموصل ايضا التي طالما اشتهرت بقماشها (الموصلين) الثمين . وبازدياد استيراد الاواني المعدنية المطلية من اوربا فقد تناقصت صناعة النحاس المحلية الى حد كبير بعد ان وصفت في القرن الثامن عشر بانها تفوق المصنوعات الاوربية اتقانا وجودة وعجزت صناعة النفط المحلية والاسفلت في « مندلي » و « هيت » من منافسة نفط باكو والولايات المتحدة فاغلقت ١٣١٩هـ ــ ١٩٠١م العين النفطية في مندلي وهي التي كانت تبعث بمنتجاتها حتى ذلك الحين الى بغداد .

ولقد اضر هذا الوضع بمصالح طبقة الحرفيين بشكل عام واضعف من تنظيماتها اضعافا شديدا وشهدت أواخر القرن الثالث عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي) ضمورا بالغا في دور الاصناف وتقلص تأثيرها على الحياة الاجتماعية والاقتصادية العامة وفي أوائل القرن العشرين قامت بعض الاصناف باضرابات عامة مطالبة بزيادات في الاجور ولعل اول اضراب نسمع به في بغداد حدث في أواخر سنة ١٣٣١ هـ/١٩١٢ م حين اجتمع دباغو الاعظمية قرب بغداد في احد الردهات مطالبين فيما يبدو بزيادة في الاجور اذ ما ان زاد رئيسهم (الكتخدا) رواتبهم حتى « عدلوا عن غايتهم شاكرين له » ونلاحظ ان هذا الاضراب لم يكن ضد السلطة او من يمثلها وانما ضد رئيس الصنف مما دل على ان حالة من التفجر اخذت تعمل على تدمير ما تبقى من نظام الاصناف التقليدي تاركة المجال امام تنظيمات جديدة اكثر تمثيلا لظروف المرحلة التالية وحاجاتها لتحل محلها في قيادة حركة العمل في العراق الحديث .

المصـــادر

ابن بطوطة : تحفة النظار . جزءان القاهرة ١٩٤٣ .

احمد ، عزيز : التصوف الاسلامي في الهند . ترجمة علي حيدر يونس (مجلة الرسالة الاسلامية) . العددان ١٦٢ ـ١٦٣ (بغداد ١٩٨٣) .

الآلوسي ، محمود شكري : مساجد بغداد وآثارها . بتهذيب محمد بهجـة الاثري . بغداد ١٣٤٦ هـ .

اوليا چلبي سياحتنامه سي ، استانبول ١٣١٤ .

البغدادي ، غانم بن محمد : مجمع الضمانات (مخطوط في مكتبة الاوقاف ببغـداد) .

البندنيجي ، عيسى صفاء الديـن : جامع الانوار (مخطوط في مكتبة المتحف العراقي) .

التادفي ، ابن بحر : قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبدالقادر . القاهرة .

ترمنجهام ، سبنسر : الاسلام في شرق افريقيا . ترجمة محمد عاطف النواوي . القاهـرة .

جب وبوون : المجتمع الاسلامي والغرب . ترجمة احمد عبدالرحيم مصطفى . القاهرة جزءان ١٩٧١ .

الحنفي ، جلال : الصناعات والحرف البغدادية . بغداد ١٩٦٦ .

الحيدري ، ابراهيم فصيح : عنوان المجد في بيان احوال بغداد والبصرة ونجد . بغـداد بلا . ت .

الخاني ، عبدالمجيد : الحدائق الوردية في حقائق اجلاء النقشبندية . دمشق ١٣٠٨ هـ .

الدروبي ، ابراهيم عبدالغني : البغداديون اخبارهم ومجالسهم بغداد ١٩٥٨ .

الدروبي ، ابراهيم : الباز الاشهب . بغداد ١٩٥٥ .

الدوري ، عبدالعزيز : الاصناف والحرف الاسـلامية . مجلة القضاء ١٠ (بغداد ١٩٥٢) .

الدوري ، عبدالعزيز : نشوء الاصناف والحرف في الاسلام . مجلة كلية الاداب (بغداد ١٩٥٩) .

الدوري ، عبدالعزيز : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، بيروت ١٩٦٩ .
رايس تامارا : السلاجقة تاريخهم وحضارتهم . ترجمة لطفي الخوري وابراهيم الداقوقي بغداد .
زيادة ، نيقولا : الحسبة والمحتسب . بيروت ١٩٦٣ .
السهروردي ، محمد صالح : لب الالباب . جزءان . بغداد ١٣٥١ هـ .
الصيادي ، محمد ابو الهدى : الطريقة الرفاعية . بغداد ١٩٦٩ .
العزاوي ، عباس : تاريخ الضرائب العراقية . بغداد ١٩٥٩ .
العزاوي ، عباس : خلفاء مولانا خالد . مجلة المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٧٤ .
رؤوف ، عماد عبدالسلام : الموصل في العهد العثماني ، النجف ١٩٧٥ .
رؤوف ، عماد : الاثار الخطية في المكتبة القادرية الجـزء الاول بغداد ١٩٧٤
العمري : امين : منهل الاولياء ومشرب الاصفياء . تحقيق سعيد الديوهجي الموصل ١٩٦٧ – ١٩٦٨ .
كوبرلي ، محمد فؤاد : قيام الدولة العثمانية . ترجمة احمد السعيد سليمان ، القاهرة ١٩٦٧ .
الوردي ، حمودي : عالم التكايا ومجافل الذكر . بغداد ١٩٧٣ .
Lewis, B. : Islamic Guilds, Economic History Review Vol. VII.
Jones, F. : Selection from the Record of Bombay Government (Bombay 1954).

البحث الثالث

المدينة العراقية

د . عماد عبد السلام رؤوف

مركز احياء التراث العلمي العربي ـ بغداد

كان سقوط العراق في ايدي المغول في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) بداية التدهور العمراني المستمر الذي حل بالمدن العراقية ، ونهاية الحركة العمرانية التي شهدتها تلك المدن ابان العهود العباسية .

وكنتيجة لفقدان الأمن في البلاد ، وشيوع الاضطراب في النظم الادارية اخذت المدن المذكورة بالانكماش تدريجياً الى داخل اسوارها القديمة ، فهجرت بذلك الضواحي المحيطة بها واندثر كثير من معالمها الحضارية كالمساجد والاديرة والاسواق والبيمارستانات .

وكان من ابرز النكبات تأثيراً على الحياة المدنية في العراق تلك الحروب الوحشية المريعة التي شهدتها مدن العراق وقراه على ايدي جيوش تيمور لنك في اواخر القرن الثامن للهجرة (القرن الرابع عشر للميلاد) وانفتاح العراق امام غزوات الدول القبلية المختلفة مثل دولتي التركمان القره قوينلو والاق قوينلو ، وحكومة موصلو الكلهرية الكردية .

وما ان حل القرن السادس عشر ، حتى كانت البلاد قد انتهت لتكون ساحة حرب بين دولتين قويتين مختلفتين . هما الدولة العثمانية ، والدولة الصفوية الفارسية ، وهي حرب شغلت معظم القرن السادس عشر .

ولعل اهم ما نتج عن هذه الفوضى السياسية والعسكرية ، وهو الضعف الشديد في سلطة المراكز المدنية في البلاد . التي كانت تفرضها على الريف ، وهو الذي يمثل في الوقت نفسه المجال الحيوى لتلك المراكز ذاتها .

وكان اضطرار المراكز المدنية في العراق الى الكف عن ممارسة دورها الاداري والحضاري على الريف ، قد ادى الى قيام القوى الريفية نفسها بملء الفراغ الناجم عن ذلك الانحسار . ولظروف العراق التاريخيه والجغرافية ، كانت القوة الاجتماعية الوحيدة المؤهلة لاداء ذلك الدور هي القبيلة ، باعتبار ان القبائل تلى بقوتها العسكرية قوة المدن مباشرة ، فضلا عن ان العصبية الاجتماعية في المجتمع القبلي اقوى مما هي عليه في المجتمعات الحضرية المتمدينة، ذلك ان العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين اعضاء المجتمع القبلي الواحد كانت — على الدوام — ابسط واكثر ترابطاً منها في مجتمع المدينة القائم على تعدد الفئات والطبقات . وعلى هذا ، فان ازدياد اهمية القبيلة على حساب المدينة ، كان في حقيقته غلبة المجتمعات البسيطة على المجتمعات المعقدة المتعددة الطبقات والمسؤوليات، وكان تغير البنية الاجتماعية هذا قد افسح المجال امام القبائل للظهور على المسرح السياسي العراقي ، لتلعب ، دورها في مقدرات المدن العراقية ذاتها . وكان هذا — في الواقع — عودة الى مرحلة متخلفة سابقة ، حين كانت القبائل تشكل القوة الاجتماعية الرئيسية قبل قيام المدن ونموها .

ومع هذا الوضع الاجتماعي ، كان على العثمانيين ان يتعاملوا ، وان يقيموا سلطتهم السياسية في البلاد المحتلة . ولم يكن للحكام الجدد من الرصيد الحضاري ما يمكن ان يقدموه للحياة المدنية في العراق ، حيث الحكم العثماني

يقوم على قاعدة ابقاء الاوضاع بصفة عامة على ما كانت عليه قبل السيطرة العثمانية ، دون تغيير حقيقي في جوهر العلاقات الاجتماعية والاقتصادية القائمة .

وتكشف لنا اعمال السلاطين العثمانيين الاوائل في العراق عن طبيعة نظرتهم الى المدينة العراقية ، وهي نظرة ترتكز على تصور ان المدينة ليست الا حصنا او قلعة مهمتها الرئيسية حفظ الاراضي التابعة للسلطان ، ومركزا لجمع الضرائب من تلك الاراضي وارسالها الى السلطة المركزية في القسطنطينية . وطبيعي ان هذا التصور لمهمة المدينة كان يستلزم — نظرا لامكانيات الدولة العثمانية ومركزها ازاء القوى السياسية المتاخمة للعراق — ان تمضى في سياسة اقرار الاوضاع القائمة فعلا مع محاولة الاستفادة من هذا الواقع الى اقصى حد ممكن . وعلى هذا ، فقد ترك السلطان سليم الاول مدن شمالي العراق ، شهرزور والعمادية واربيل وراوندوز وغيرها بيد الامير والسلالات القبلية الموجودة في عهده ، فاستمرت هذه القوى — واغلبها قبلي تماما — في السيطرة على مقدرات تلك المدن عدة قرون من بعده . ولم يغير السلطان سليمان القانونى عندما غزا العراق في الثلث الاول من القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي) شيئا من هذه القاعدة ، فظلت مدن الشمال على وضعها السابق ، واستمر شيوخ قبائل آخرون وزعماء عشائريون ريفيون يسيطرون على المدن العراقية الواقعة في منطقة نفوذهم ، فعندما عرض زعيم قبيلة المنتفق القوية المسيطرة على البصرة ولاءه للسلطان العثماني سنة ٩٤٥ هـ/١٥٥٣ م اقره في حكمه ، على الرغم من اهمية البصرة كمدينة ذات موقع عسكري واقتصادي هام . وتركت مدن كثيرة ومراكز تجمعات سكانية مختلفة في جنوبى العراق ووسطه تحت سيطرة القبائل المجاورة ، التي اكتفت باعلان الولاء الشكلي للسلطة الجديدة .

وبلغ من خضوع المدن العراقية الى قوى القبائل والريف ان اميرا قبلياً واحدا هو المعروف بابي ريشة ، كان يحكم مدينة هيت على الفرات ويمد سلطانه حتى مدينة بيره جك في اعالي هذا النهر ، ويفرض ظله على سياسات مدن مهمة مثل بغداد وحلب وديار بكر وامتد نفوذ اولاده من بعده جنوبا حتى اطراف مدينة الحلة . وعندما كتب السلطان مراد الرابع ـ بعد احتلاله بغداد سنة ١٠٤٨ هـ /١٦٣٨ م مجدداً الامان لسكان مدينة النجف كان ذلك باشارة من الشيخ مدلج بن ابي ريشة (ملك العرب) ، وذلك ان كلا من النجف وكربلاء . كان يعد جزءاً من ديرته القبلية الواسعة .

ورغم ان العثمانيين استطاعوا في سنة ٩٥٣ هـ /١٥٤٦ م ، فك البصرة من يد المنتفق الا ان المدينة بقيت ، عمليا ، خاضعة الى نفوذ هذه القبيلة القوية . وكان امر رجوع المدينة الى قبضة المنتفقيين يعد احتمالا قائما في كل وقت ، وقد سقطت البصرة فعلا بيد الشيخ مانع امير المنتفق عام ١١٠٢ هـ/١٦٩٠ م واسس فيها حكومة واستولى على المدن المجاورة من القرنة (على ملتقى دجلة والفرات) .

ويمكن القول بان خضوع المدينة العراقية للقبائل البدوية والريفية ، كان ـ رغم بعض النواحي الايجابية القليلة ـ يعد تدهورا خطيرا لتلك المدينة، وترديا واضحا في انشطتها الحضرية واذا ما استثنينا الحكومات المؤقتة التي اقامها المنتفقيون في البصرة، والتي حظيت ببعض التأييد والاحترام من قبل تجار المدينة وسكانها، فان اغلب المدن كانت تعاني من ضغط القبائل عليها، او فقدانها الامن اللازم لاستمرار نشاطها الحضاري . وكان الاختلاف القائم بين قيم القبيلة ومثلها وما تمثله من روح عسكرية متنقلة لا تعرف الاستقرار، وبين قيم المدينة المرتكزة على نشاطاتها التجارية والانتاجية المستقرة ، يمثل هوة اجتماعية كبيرة يصعب تجاوزها الا على حساب المدينة ذاتها . وبقيت المدن في

نظر القبائل تعد عالما غريبا غير مالوف بالنسبة لها ، ولم تجد اغلب القـوى القبلية انذاك حرجاً في استغلال الفرص السانحة التي تمكنها من الاستيلاء على المدن المجاورة ، ففي اثناء حركة حسين باشا والى البصرة ضد والـي بغداد سنة ١٠٧٦ هـ / ١٦٦٥ م انتهز اعراب شط العرب الفرصة فاستولوا على اجزاء من المدينة • وعندما داهم الطاعون بغداد سنة ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ مدخل بعض اعراب البادية الى المدينة واستولوا على بعض مرافقها الاقتصاديـة ، وحينما طغى نهر دجلة واحاطت مياهه ببغداد اغتنمت القبائل الفرصة فأستولت على مدن : العرجة والسماوة وبنى مالك والرماحية والجوازر ، وزادت نشاطها فسيطرت على الحسكة ومدينة النجف ذات الاهمية الدينية الكبيرة •

وكنتيجة لتدهـور سيادة المدينة وضـعفها ، اهملت الاراضي الريفية الواقعة حولها ، وسرى الاهمال الى شبكة الانهار والمصارف اللازمة للري والزراعة ، وكان هـذا بدوره سببا في تعاظم اخطـار فيضانات الانهـار ، وحدوث المجاعات التي انتهت بعزل المدن عن بعضها البعض وعـن القرى وتدميرها ، او هجرة سكانها منها تدريجيا •

ومن اهم المدن العراقية التي اندثرت في اوائل العصر العثماني ، مدينة واسط الشهيرة ، ذات التراث الزاهر في القرون الوسطى ، وذلك حين ادى اهمال شؤون الري الى ابتعاد مجرى دجلة عن المدينة ، وتحوله الى مجراه الشرقي المنحدر الى بلدة القرنة فعم الخراب سائر المدينة • وما ان حل القرن السابع عشر حتى كانت هذه المدينة تقوم وحدها وسط البرية ، وكان النهر الذي طالما اشتهر بقصبه الذي تتخذ منه الاقـلام قد جف • ولم تمض الا سنوات حتى هجرت المدينة برمتها ، وسجل اديب واسطي ـ هو السيد نعمة

الله الجزائري ــ تاريخ نزوحه منها في عام ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م وذلك لفقد اهلها وعامريها .

وللسبب نفسه ، اضطر اغلب سكان مدينة النجف ، على حافة الصحراء الى الجلاء عن مدينتهم ، حتى لم يبق من دور المدينة ــ في القرن السادس عشر ــ الا عشر ماكانت عليه من قبل، ولم يبق من سكانها الا الخطيب والامام والموظفون وقليل غيرهم بينما تركها الاخرون . وكانت اسعار مياه الشرب باهظة الثمن، حيث يضطر سكان البلدة الى نقل تلك المياه من نهر الفرات عند بلدة الكوفة .

ومثل ذلك ، ماحدث لمدينة الرماحية القريبة من النجف وهي من المدن القديمة التي يرتقى تاريخ انشائها الى القرن الرابع عشر . فقد ادى اهمال العناية بمجرى الفرات ، الى تشعب نهر جديد منه في سنة ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ م عرف بنهر ذياب ، واخذ يخترق تلك الانحاء متوسعا شيئا فشيئا ، ولما لم تكن ثمة سدود تمنع ذلك التوسع فقد ادى الى تحول مجرى الفرات نفسه وابتعاده عن نهر الرماحية الذي كان يأخذ مياهه منه . فأجدبت تلك الانحاء واضطر سكان الرماحية الى هجر مدينتهم ولجأوا الى الجزر التي نشأت في المناطق الغارقة ومنذ ذلك الحين خمل ذكر الرماحية وقل شأنها ، حتى زالت من الوجود تماما وفي اواخر القرن الحادي عشر الهجري (القرن السابع عشر الميلادي) قلت المياه في نهر ذياب فاضطر اهل القرى التي على مياهه الى ترك قراهم والهجرة الى مناطق اخرى . وكان من بين ماهجروه مدينة الحسكة التي طالما اشتهرت بخصب اراضيها ووفرة انتاجها حتى وصفت انها أحسن ضياع العراق وانفع القرى على الاتفاق فغدت

بعد انخفاض مستوى الماء في نهر ذياب، الذي تقع عليه وتحول مجرى الفرات ارضا قاحلة مجدبة ، تخضع لسلطة القبائل المجاورة •

ومثلما ادى التحول المستمر في مجارى الانهار في جنوبي العراق الى اندثار مئات المدن والقرى مما حفلت بذكر اوصافها كتب الجغرافيا العربية في القرون الوسطى فقد ادت عوامل اخرى الى الاضطراب السياسي الذي شهدته المنطقة باعتبارها ساحة للصدام المباشر بين العثمانيين والصفويين وظهور عدد من القوى القبلية والامارات العشائرية ، وسقوط البلاد فريسة تطاحن مرير بين تلك القوى غير الحضرية •

ومن ابرز الامثلة على ذلك ، اندثار مدينة شهرزور ذات الماضي الزاهر في القرن السابع عشر • فقد نجم عن الحروب المستمرة بين العثمانيين والفرس وسيطرة امارة اردلان القبلية تدهور المدينة ثم اندثارها ، حتى لم يعد من الممكن تعيين موقعها الآن • ولم يتبق منها سوى اسمها الذي اخذ يطلق على الاقليم فحسب •

وادت النزاعات العشائرية الدموية بين القبائل القاطنة في سهل شهرزور والجبال المحيطة بها وتعرض المنطقة الى غزوات المحتلين المستمرة الى انحطاط مدن اخرى كان لها شأن في العصور الوسطى من اهمها مدينة اربيل ذات الماضي الزاهر وقد بلغ من تدهور احوال هذه المدينة انها امست في القرن العاشر بليدة صغيرة يتنازع عليها حكام الامارات العشائرية الكردية القاطنة في المنطقة ثم استقرت لتكون احدى توابع امارة سوران الامارة الصغيرة التي كانت تنافس امارة اردلان سيادتها على اقليم شهرزور القديم •

ولحق التدمير مدن التخوم العراقية القريبة من ايران فاندثرت مدينة حلوان الشهيرة وتضاءل شأن البندنيجين (مندلي) ومدن منطقة «النهروان» التي طالما اشتهرت بالخصب والثروة الزراعية مثل بادرايا وباكسايا وغيرها •

وامتد الخراب والاهمال ليشمل مـدن العراق الرئيسية نفسها فبقيت اسوار المدن الفخمة شاهدة على ازدهارها في العصور السابقة بينما انكمشت مساحة الرقعة المسكونة داخلها الى حد ان نصف الموصل كان حتى اوئل العصر العثماني خرائب خالية من السكان . ووصفها بعض الرحالين في النصف الاول من القرن السابع عشر بانها تبدو للمرء من خارجها فخمة باسـوارها الحجرية بينما هي في داخلها تكاد تكون برمتها خالية الا من مقر الوالي وخانين حقيرين وهي لاتحتوي ـ بوجه عام ـ على مايستحق المشاهدة والالتفات .

اما بغداد ذاتها فقد ادى تكالب الدول الغازية عليها الى ان تفقد مجدها العباسي القديم كعاصمة لاهم اقليم من اقاليم الخلافة الاسلامية، لتصبح منذ اواخر القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) بلدة مدمرة ، عاثت بها الاقوام الغازية خرابا وتدميرا ، وكان غزو تيمورلنك لها سنة ٧٩٥ هـ/١١٣٣ م بمثابة قتل حقيقي لها ، على حد تعبير معاصريه . واستمرت النكبات على بغداد طيلة القرون التاليـة .

وفي خلال القرن العاشر الهجري (القـرن السادس عشر الميـلادي) كانت بغداد مسرحا للصراع الدامـي بـين الصـفويين والعثمانيـين ، وهـو صـراع أودى بكثـير ممـا تبقـى للمدينـة مـن اثـار ومساجد ومعالم ، وعندما استولى الفرس على بغداد اثناء فتنة بكر صوباشي الشهيرة عام ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢ م ، كانت المدينة قد هوت الى الحضيض فقد اصاب الحصار كثيرا من المبانى الكبرى فيها ، ولم يصلح من شأنها الا القليل وزال بعض ما ابقى عليه الدهر من منشآت عهد الخلفاء من قصور ومدارس وتقلصت حدود الاماكن الآهلة بالسكان ، وهجر الناس المحلات الواقعة في الجانب الشرقي من المدينة وتركوها خرابا وركاما .

وكان الرحالة راوولف قد لاحظ بان المدينة غدت في عهـده اواخـر القـرن العاشـر الهجـري / السادس عشر الميـلادي مجموعـة مـن

الازقة الضيقة والبيوت المتهدمة والعديد من الجوامع الخربة التي استحال لونها الى السواد .

ولبثت بغداد على هذا الوضع طيلة القرن السابع عشر يجللها الركود والخمول والانزواء ، وقد وصفها الرحالة الفرنسي تيفنو وصفا مؤلما عند مروره بها عام ١٠٧٦ هـ / ١٦٦٥م ، اذ ذكر بأنها اصبحت قليلة السكان بالنسبة الى تتخللها مساحات واسعة تخلو من السكان ، وفيما عدا السوق ، فان ما بقى من المدينة لا يعدو ان يكون شبيهاً بالصحراء .

وفي البصرة أدت أعمال العنف والتدمير التي تعرضت لها المدينة ابان القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، واهمال العناية بأنهارها العديدة الى شح المياه في تلك الانهار . ومن ناحية أخرى ، فقد ادى انكسار سد الجزائر (في منطقة البطائح الاهوار ـ شمال البصرة) الى احاطة مياه المستنقعات بها ، وانتشار الامراض فيها وخاصة وباء الطاعون . فأخذ أهلها يهاجرون تدريجيا ميممين وجههم شطر أرض البصرة الجديدة ، في ناحية العشار (الأبلة القديمة) ، وكان ذلك في حدود القرن التاسع الهجري (القرن الخامس عشر الميلادي) فبنيت هناك ، على بعد سبعة أميال من البصرة القديمة ، البيوت والمساجد والمدارس .

وعلى الرغم من ان القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي كان بالنسبة الى ماسبقه من قرون ، يعد فترة استقرار نسبي وثبات في نظم الحكم لم نشهده البلاد ، من قبل ، الا أن الضعف الشديد الذي كانت تعانيه السلطة المركزية العثمانية في العراق ، وغياب حكومات محلية قوية في مدنه الرئيسية ، لم يغير من أوضاع المدينة العراقية كثيرا . بل يمكن القول ان هذا القرن كان استمرارا للفترات السابقة فيما يتعلق بعمارة مدن العراق ونموها ماعدا ان العثمانيين اهتموا في هذا القرن بتحصين المدن والعناية بمرافقها العسكرية من أبراج وخنادق تحسبا

من غزو ايراني مرتقب في كل حين . فكان ذلك المظهر العمراني الوحيد الذي شهدته مدن العراق منذ اول العصر العثماني ، وحتى قيام نظام المماليك في العراق ، ونهوض الأسر المحلية فيه .

عوامل نمو المدينة العراقية

تكتنف دراسة مدن العراق في العصر العثماني ، صعوبات جمة ، لاسيما تلك التي تتعلق بتقديم احصاءات أو تقديرات علمية ، لعدد المدن العراقية ابان ذلك العهد ، وعدد سكانها ولو على سبيل التقريب . وبهذا فان اجراء اية مقارنة احصائية عن نمو المدن في العهد الذي ندرسه تعد محاولة يجانبها كثير من التوفيق ، وترجع اسباب هذه الصعوبات الى ان فترات التدهور الحضاري التي تلت العصر العباسي لم تترك مجالاً لقيام الاحصاءات المهمة وان افترضنا اجراء احصاءات من هذا النوع ، فان الظروف التي مرت على البلاد حالت دون وصول الوثائق المذكورة الينا .

وتعد السجلات التي وضعت في عهد السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر والخاصة بالتنظيمات العثمانية للولايات العراقية الثلاث : الموصل وبغداد والبصرة اول محاولة رسمية لتسجيل الملكيات الزراعية والعقارات المختلفة ، الا ان اهتمام واضعي السجلات المذكورة بالنواحي المالية دون غيرها ، جعل تلك السجلات غير مفيدة لمعرفة عدد المدن والقرى اذ لم يميز بينها وبين المقاطعات الزراعية على نحو واضح ، كما ان السجلات العثمانية التالية لم تخرج عن هذا الاتجاه .

وكان افتقار العراق الى ادارة مركزية موحدة تضم اجزاءه قد ادى الى ان تجيء محاولات المؤرخين المحليين مبتورة فبينما نجد مؤرخا موصليا مثل ياسين العمري يقدم قائمة بالمدن والقرى التابعة لمدينته في اوائل القرن التاسع عشر فان احدا في الولايات العراقية الاخرى لم يقدم لنا مايمكن اعتباره مكملا للقائمة المذكورة هذا فضلا عن ان ياسين العمري نفسه لم يكن يعنى

بالتمييز بين المدن والقرى القائمة في عهده ، وبين تلك التي اندثرت منذ عهد بعيد .

ومن ناحية اخرى فان عدم توفر احصاءات عن سكان كل بلدة جعل من العسير التمييز بين المدينة والقرية على اساس عدد السكان ، وهو مادعا بعض الباحثين الى اتخاذ نوع الانتاج الاقتصادي الذي تقوم بـه البلدة اساسا لتصنيفها فكلما طغت الاعمال الزراعية في نشاطها كانت اميل لان تكون قرية وهي مدينة طالما كانت مجالا للتبادل واعمال التجارة على اننا لا نملك ايضا مـن المعلومات مايغطي انتاج جميع بلدان العراق في ذلك العهد كما ان كثيرا من القرى والتجمعات البشرية على الطرق التجارية كانت تمتهن تجارة القوافل الا ان وصف الرحالين لها لم يكن يخرجها من طور «القرى» او « القلاع » لااكثر .

وفي تقديرنا ان عدد المدن العراقية مما تتوفر فيه صفة «المدينة» من اسوار وحصون واسواق واحياء اضافة الى تنوع نشاطها الحضري كان يبلغ نحو ثلاثين مدينة وهذا تقدير أقرب الى ماذكره ياسين العمري حين عد من مضافات بغداد (وتشمل العراق برمته فيما عدا مدينة الموصل). اربعا وعشرين بلدة كل منها يشبه ان يكون مدينة عامرة . وقريب مما احصاه نيبور سنة ١١٨٠هـ ١٧٦٦ م من المدن المهمة في باشوية بغداد (اي العراق ما عدا الموصل) ويبلغ نحو خمس وثلاثين مدينة مع ملاحظة ان عددا غير قليل منها كان لا يحقق صفة المدينة بأية حال .

وتتفاوت اعداد السكان بين هذه المدن على نحو كبير فقد تراوح عدد سكان بغداد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين (الثامـن عشـر والتاسع عشر الميلاديين) بين ٥٠٫٠٠٠ و ١٠٠٫٠٠٠ نسـمة وبلـغ عـدد سـكان الموصـل في الفتـرة نفسـها مـا بـين ٤٠٫٠٠٠ و ٥٠٫٠٠٠ نسمة وقدر عدد سكان مدينة البصرة بين ٤٠٫٠٠٠ و ١٠٠٫٠٠٠ نسمة وسكان الحلـة نحو ٥٠٫٠٠٠ نسمة . وفيمـا عدا المـدن الاربع المذكورة ، فان

سكان اية مدينة من المدن الاخرى لم يكونوا يتجاوزون بضعة الاف فكان سكان السليمانية في مطلع القرن التاسع عشر زهاء ٥٠٠٠ نسمة . وبلغ عدد سكان خانقين ١٠٠٠٠ر١٠ نسمة وسكان كركوك نحو هذا العدد ولقد ادى قيام قوى البلاد المحلية ابان عهد المماليك بتأسيس سلالات حاكمة في المدن المختلفة الى تشكيل نوع من حكومات المدن تتمتع كل منها باستقلال شبه ذاتي في اغلب امورها الخاصة . فدفع ذلك الوضع — من ثم — الى حيوية عمرانية جديدة ونشاط مدني متميز بدت آثاره على مدن العراق وقراه منذ اوائل القرن الثاني عشر الهجري (القرن الثامن عشر الميلادي) .

ولعبت عوامل عديدة اجتماعية واقتصادية وعسكرية دورا في نمو مدن العراق وتطورها في هذا العهد، فكان منها مايتعلق بتشجيع الحكام، ومنها ماجاء نتيجة لحوافز خارج سيطرة السلطة الحاكمة. وربما اجتمع اكثر من سبب في نشوء المدينة العراقية ونموها وهو ما حدث بوجه خاص لمدينة بغداد والموصل والبصرة ومدن اخرى اقل اهمية مثل السليمانية والعمادية وراوندوز في شمالي العراق والحلة والنجف والديوانية على شاطىء الفرات الاوسط .

ويمكن القول بان عهد المماليك كان في احد جوانبه الرئيسية عهد نمو وتطور للمدينة في العراق . وشملت هذه الظاهرة مختلف انحاء البلاد تقريبا في المناطق الجبلية وعلى حافة الصحراء على حد سواء ويمكن تحديد عوامل هذا التطور الجديد بما يلي :

أ — العامل الاداري :

ان ازدياد اهمية الحكومات المحلية ومحاولاتها الدائبة لفرض سيادتها الادارية على الريف اظهرت لدى سكان في هذا العهد ميولا واضحة للتجمع حول المراكز الحكومية لما تتمتع به تلك المراكز من نفوذ متزايد على مجريات الاحداث حولها .

فبالنسبة لبغداد مثلا ، ترتب على تأسيس حسن باشا وابنه احمد باشا

لنظام المماليك فيها خلال النصف الاول من القرن الثاني عشر الهجري (القرن الثامن عشر الميلادي) وقيام اول حكومة مركزية عراقية تأخذ على عاتقها توحيد العراق في العصر الحديث ازدياد اهمية بغداد وتعاظم حيويتها الحضرية ، باعتبارها مركزا اداريا رئيسا ، ومقراً لاكبر سلطة سياسية في المنطقة ، وما يستتبع ذلك من وجود مؤسسات حكومية ودوائر رسمية عامة ترتبط بها مصالح عدد كبير من السكان .

وينطبق هذا القول على كثير من المدن العراقية القديمة التي اخذت تستعيد اهميتها الادارية السابقة .

ومن ابرز الامثلة على اهمية العوامل الادارية في نشأة المدن في هذا العهد تأسيس مدينة السليمانية في منطقة سهل شهرزور شمال العراق ، حين اقام البابانيون سرايا للادارة والحكم سنة ١١٩٦ هـ / ١٧٨٢م ، سرعان مانمت حوله المرافق الحضارية الاخرى من دور واسواق وخانات ومدارس علمية ، فتكونت بذلك مدينة السليمانية الحديثة ، واتتقل اليها الناس تدريجيا حتى صارت من اهم المدن العراقية في شمالي البلاد .

وتعتبر مدينة « الديوانية » على الفرات ، من المدن التي نشأت — في هذه الفترة — بدافع اداري حكومي . حقيقة انها قامت اول الامر كدار ضيافة (ديوان) لرؤساء الخزاعل وليقيم بها وكيلهم لجباية الضرائب ، الا ان حكومة المماليك في بغداد اتخذتها مركزا اداريا لها ، يقيم فيه نائب للوالي ويشرف على جمع الضرائب في منطقة واسعة تمتد من الحلة حتى البصرة ، وليكون رقيبا قويا ازاء مشيخة الخزاعل القائمة هناك . ولقد تحول هذا المركز الاداري المحض ليكون مدينة وعاصمة لحكومة الحسكة .

ولنفس الاسباب المتقدمة ، نشأت مدينة « كوي سنجق » التي يفصح اسمها عن طبيعة مهمتها ، فهى « قرية امير السنجق » الذي يحكم الاراضى

الزراعية جنوب مدينة اربيل ، ويتبع اداريا والي بغداد ، وقد اسست لتكون مركزا مشرفا على منطقة سهل شهرزور المهمة •

ب ــ عامل التجمع القبلي :

ومثلما كانت المدينة تمثل في حقيقة وجودها مظهر سيادة الدولة ، فأن القلاع الكثيرة المنتشرة في طول البلاد وعرضها ، كانت تمثل ــ في واقع الأمر ــ مظهر سيادة القبيلة على الريف ، ذلك ان القبيلة بتكوينها مجتمعا مستقلا يمارس سلطات متنوعة عسكرية واقتصادية ، كانت تحتاج الى شيء من مظاهر تلك السلطات ، فكان للقبيلة قلعة او قلاع يتحصن فيها شيخها واتباعه عند الملمات ودار ضيافة يستقبل فيها ضيوفه وضيوف قبيلته وفيها تنعقد المحالفات وتدبر الامور ، وسجن يلقى فيه بخصومه او اسراه من القبائل الاخرى • ومن هنا فقد ظهرت « القلعة » كضرورة ملازمة لوجود القبيلة ذاتها ، وهي تكشف في الوقت نفسه عن جوهر التركيب القبلي للريف حيث كانت القبيلة الواحدة تشكل مايكاد يكون شبيها بوضع الطبقة الاجتماعية في المدينة ، ولذلك فانها كانت تحتاج الى ما يستلزمه هذا الوضع من ادوات حكم ومظاهر سلطة •

وليست ثمة معلومات دقيقة عن مباني تلك القلاع ، وان كنا نعلم ان بعضها كان يشيد بالطين ، او بالآجر ، وان قسما منها كان يحصن بالمدافع • وكانت مواقعها تتسم دائما بالمناعة الطبيعية ، كأن تبنى بين فروع الانهار ، او على التلال والروابي المرتفعة ، او عند ضفاف المستنقعات • فمن تلك القلاع المشهورة ، يمكن ان نذكر قلعة « لملوم » على الفرات ، بالقرب من منطقة المستنقعات (البطائح) ، وكان شيخ الخزاعل قد بناها في القرن الثامن عشر لتكون عاصمة له • وقد وصفها نيبور عام ١١٨٠ هـ / ١٧٦٦ م بأنها قرية كبيرة ، وان بيوتها ليست الا اكواخا من الطين والقصب •

وفي حوالي سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٦ م اسست مدينة الحي الحالية ـ بالقرب من اثار واسط القديمة ـ على ايدى آل على خان ، احد زعمائها ، واهل النفوذ فيها وفي عام ١٢٦٥هـ / ١٨٤٨م شيد الشيخ مجيد الخليفة قلعته التي عرفت فيما بعد « ببلدة سيعيده » .

وتعد « مدينة الكوت » نموذجا للقلاع القبلية ، فقد اسسها بنو لام في النصف الثاني من القرن الثامن عشر لتكون عاصمة لحكمهم ، وكان موقعها على شاطيء دجلة حصينا الى درجة كافية للسيطرة على الطرق النهرية في دجلة .

ولقد ترك لنا الرحالة الانجليزي كيبل Keppel في كتاب رحلته سنة ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤ م وصفا لهذه البلدة حين قال «الكوت قرية صغيرة مبنية من الطين يحميها سور ارتفاعه لا يتجاوز ستة اقدام وهي الموقع الوحيد الثابت الذي رأيناه بعد القرنة وفيها يقيم شيخ بنى لام القوى الذي يمتد نفوذه من القرنة الى بغداد وقد ازدادت اهمية هذا الموقع خاصة بعد ان امر والي بغداد سليمان باشا الكبير بتحصينه في اواخر القرن الثامن عشر ، وظلت الكوت مركزا قبليا مهما حتى بعد نزوح بنى لام عن المنطقة ، اذ اتخذتها قبائل ربيعة عاصمة لامرائها ، وعرفت بكوت الامارة نسبة لامارتهم ، التي كانت تسبط نفوذها على الاراضي الواقعة بين جهة الكوت الشمالية وحتى نهر الغراف جنوبا » .

وشبيه بما تقدم، كان وضع قرية السماوة «على الفرات» حيث كان شيوخ الخزاعل يجبون فيها الضرائب على السفن المارة ، وكانت بيوت هذه البلدة ـ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ـ مشيدة بالطين المجفف في الشمس وذات منظر مزرى للغاية . وهي محاطه بسور من الطين .

اما مدينة العمارة ، فكانت « قرية تسكنها الاعراب ، وفيها قلعة » ومثلها بلدة « البغيلة (وتعرف اليوم بالنعمانية) التي نشأت حول قلعة الاجر شيدها شفلح شيخ قبيلة زبيد ، وقد وصفها كيبل في سنة ١٢٤٠هـ بأنها قلعة مبنية بالآجر

فيها شيخ زبيد الزعيم العربي القوى الذي تمتد ديرته من الضفة اليمنى لشط الحى (الغراف) الى بغداد » .

وكانت للقبائل الكبرى قلاع عند حدود اراضيها تدافع منها عن ملكيتها وسيادتها ازاء غزوات القبائل الاخرى ، فعندما اعلن فيصل بن خليفة رئيس عشيرة البو محمد الثورة على بنى لام ، امر الحدادين فصنعوا له اثنى عشر مدفعا والف ومائتين قنبلة ووزع هذه المدافع على قلاع الحدود .

جـ ـ العامل التجاري :

ان استقرار الحياة الحضرية في المدينة العراقية منذ مطلع القرن الثامن عشر وتعاظم اهمية انشطتها الاقتصادية والاجتماعية ، قد زاد من حدة التباين والاختلاف بين الانتاج الريفى البسيط ، المرتكز على الزراعة وانتاج المدينة القائم على الصناعة والتجارة ، . وكلما ازداد هذا التباين ، ظهرت الحاجة الى اسواق تباع فيها منتجات الريف على حد سواء ، وتتوفر فيها ماتحتاجه القبائل الرعوية والمزارعة ، وما يحتاجه التجار والصناع في المدينة ذاتها .

ولقد ساعدت هذه الحاجة الاقتصادية الناشئة على تشييد مخازن الحبوب والاصواف والمقاهي ، والمنشآت الدينية كالمساجد ، فأدى ذلك الى ظهور بعض المدن داخل المناطق الزراعية وعلى الحدود بينها وبين البادية . وشجع استقرار بعض القبائل التدريجي على نمو هذه الاسواق وازدهار الحركة التجارة فيها . ومن الامثلة على المدن التي نشأت بهذه الطريقة ، مدينة « سوق الشيوخ » التي مازال اسمها يدل على الوظيفة التي كانت اساس وجودها . وقد عرفت هذه المدينة اول الامر بسوق النواشى ، حيث كان افراد قبيلة « النواشي » وبعض القبائل الرعوية الاخرى يحصلون على مايحتاجون من الطعام والبضائع من هذه السوق قبل رحيلهم الى البادية .

ويبدو ان هذه السوق كانت موسمية ، فقد خلت كتابات الرحالين من اي ذكر لها وعندما استقر آل سعدون ، وهم شيوخ المنتفق في المنطقة، واخذوا يترددون عليها اشتهرت هذه السوق باسم « سوق الشيوخ » نسبة اليهم .

وقد اتخذها هؤلاء على عهد الشيخ ثويني في اواخر القرن الثامن عشر مركزا ثابتا لهم، ومخزنا لذخيرتهم ومكانا لتجمعهم،حتى قيل ان ثويني كان يقرض تجار مدينته مبالغ كبيرة لغرض تشجيع تجارتهم وانمائها. وآتت هذه السياسة اكلها ، حين بلغ عدد بيوت المدينة المذكورة زهاء ٢٠٠٠٠ بيت ، منتشرة على جانبي نهر الفرات ، ثم سرعان مانمت واتسعت حتى غدت مركز المنتفقيين الرئيسي قبل انشاء مدينة الناصرية .

وبالاضافة الى نمو الاسواق باعتبارها مراكز تبادل تجاري بين الريف والمدينة فان حركة التجارة هذه ، قد ادت ايضا الى احياء الطرق التجارية القديمة وتأمينها ضد اللصوص المعتدين ، وتوفير الخانات اللازمة لنزول التجار ، وخزن بضائعهم . وكانت حركة القوافل الدائبة تقتضي توفير اعداد من الأدلاء والحراس والدواب لعدد كبير من التجار والمسافرين ، كما تتطلب توفير وسائل الراحة من ماء وطعام ، فكان طبيعيا ان تنشأ بعض القرى والمدن حول عدد من خانات الطرق ، في اماكن مناسبة لتستطيع تقديم مثل هذه الخدمات الضرورية .

ويمكن القول بان عهد المماليك في العراق كان فترة ازدهار ورعاية لهذا النوع من الخدمات ، فانتشرت الخانات والمحطات على مختلف الطرق ، وبخاصة في الاماكن التي تتباعد فيها المدن والقرى ، فكانت على طريق النجف ـ وهو طريق الحجاج ايضاً ـ مجموعة متصلة من الخانات الكبيرة ، مثل خان الكهيا في الجنوب من بغداد ، وخان ازاد ، الذي انشىء ليتسع لنحو خمسمائة شخص . وقد احاطت بالخان الاخير قرية صغيرة سكنها الاعراب من اهل الناحية ، وما تزال هذه القرية عامرة .. ومن تلك الخانات المهمة ايضا ، خان الاسكندرية المشيد في حدود سنة ١٢١٥ هـ/ ١٨٠٠م ، وهو يتسع لالف شخص مرة واحدة ، وتتوفر فيه كل وسائل الراحة في ذلك العهد ، من حظائر فخمة للماشية ، وغرف للمسافرين ، ومسقفات مرتفعة واسطبلات للخيول ،

واماكن للطبخ ، وبئر . اما خان المحمودية ، فيرتقي الى القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) ويماثل خان الاسكندرية من حيث الفخامة والاتساع . ومثله خان المحاويل . وفي اوائل القرن التاسع عشر كانت هذه الخانات قد تحولت جميعها الى قرى تجارية مهمة يسكنها العرب ، ويديرون فيها امورهم دون تدخل يذكر من جانب الحكومة المركزية .

وعلى طريق بغداد ـ كرمنشاه التجاري ، شيدت مجموعة من الخانات والمحطات ، من اهمها خان بني سعد الذي انشأه والي بغداد عمر باشا سنة ١١٠٠ هـ/١٦٨٨ م ليتوسط المسافة بين مدينتي بغداد وبعقوبة ، وهو شبيه بالخانات السابقة . وقد احاطت به ، فيما بعد ، بلدة صغيرة يعمل اهلها على توفير الراحة للسافرين .

ومثلما ادى النشاط التجاري الى حركة ملموسة في مجال انشاء المحطات والقرى والمدن على طول طرق القوافل البرية ، فأنه ادى في الوقت نفسه الى قيام عدد كبير من التجمعات البشرية على ضفاف الانهار ، حيث كانت المواصلات النهرية تمثل ركنا اساسيا في النشاط التجاري انذاك . وكانت هذه المحطات تقدم للسفن التجارية ما تحتاجه من خدمات ، كما تقوم بدور السوق المحلي الذي يتم فيه تبادل ماتحمله السفن بمنتجات الريف . ومن الملاحظ ان اغلب مدن وسط العراق وجنوبه يقع على ضفاف الانهار .

امتازت المدن العراقية في العصور المتأخرة بعدة ميزات واضحة اقتضتها طبيعة الظروف العسكرية والاجتماعية والاقتصادية للعهد المذكور كما اقتضتها ايضا النظرة العثمانية لتخطيط المدن المرتكزة اساسا على الجانب العسكري الدفاعي فيها . ولقد انعكست هذه المؤثرات على تخطيط المدينة العراقية فشملت بذلك إهم مرافقها الرئيسية ، كالقلاع والاسوار وسراى الحكم والاسواق والدور والميادين العامة .

وسنحاول فيما يلي ان نستعرض اهم سمات هذا العهد بالنسبة لمرافق المدينة العراقية ، محاولين بذلك استخلاص الامور المشتركة لأساليب تخطيط المدن انذاك :

١ ـ القــلاع :

وتعتبر القلاع في المدن العراقية من اهم المرافق واكثرها حيوية ، ولقـد تميزت في العصر العثماني بأنها انشئت على ضفاف الأنهار التي تقع عليها مدنها ، وذلك لتسهيل اتصالها بالمدن الاخرى ، ولتيسير خطوط دفاعها في حالات الحصار والحروب او انها كانت تنشأ في اكثر اركان المدينة منعة وحصانة • ففي بغداد مثلا كانت القلعة تشغل مربعا كبيرا في ركن المدينة الشـمالي ، يحدها سور المدينة من اعلاها ونهر دجلة من غربها واما الضلعان الاخران فيحصنان بسور خاص معزز بعدد من الابراج ، يفصلها عـن احياء المدينة نفسها ، ويمتد فيحيط بالقلعة من ناحية النهر ايضا •

ومن المفترض ان تكون القلعة اكثر الأماكن فيالمدينة تحصينا ومنعة ، الا ان تدهور الاوضاع العسكرية العامـة في الدولة العثمانية وتفسخ نظـام الانكشارية ، اديا الى تدهور احوال تلك القلاع وفقدانها مكانتها الكبيرة في المدن العثمانية انذاك • ويصف اوليا جلبي قلعة بغداد ، بأنها جميلة مربعة الشكل ، مشيدة بالحجر والآجر وحولها خندق ولها باب في جانب القبلة يواجه داخل المدينة ، وباب اخر مقفل ، كان قد تسلل منه جنود بكر صوباشي فيفتنة سـنة ١٠٣١ هـ / ١٦٢١ م ، فاغلـق بعـد ذلـك ، وفـي القلعـة مخـازن الاسلحـة والبـارود وارزاق الجنود ، وتوجد فيها بيوت مكشوفة يبادرون الـى تغطيتها بالتراب اثناء حوادث الحصار •

وكان في القلعة مسجد قديم عرف بجامع القلعة ، وحمام عمومي ، ومجار لتصريف المياه •

ويذكر نيبور الذي زار بغداد سنة ١١٨٠هـ/١٧٦٦م ان مهمة القلعة الفعلية اقتصرت ــ على ايامه ــ على ان تكون دارا للصناعة ومخزنا للبارود ، ولسم يكن يقيم فيها الا حرس من الانكشارية . وكان من الممكن ان يدخلها اي شخص دون صعوبة تذكر . ولاحظ ايفرز ، الذي زار بغداد بعد ذلك ، ان ابراج القلعة مزودة بمدافع طويلة جدا ومزاغل لاطلاق الرصاص . وان اتصالها بدور بغداد يجعل من السهل الاستيلاء عليها عند الاستيلاء على المدينة .

وتختلف مهمة القلعة في الموصل عن مثيلتهـا في بغداد ، فقد انشأهما العثمانيون في وقت واحد تقريباً . وكانت قلعة الموصل ــ كالتي ببغداد ــ تقع على ساحل دجلة وتحميها اسوار عالية من اطرافها الاربعة ، وخاصة من ناحية النهر . ويحيط بها من الغرب والجنوب خندق يأخذ مياهه من دجلة عند باب شط القلعة ، ثم يصب في دجلة ثانيا شرقي جامع الاغوات ، فيفصل الخندق بذلك القلعة عن مدينة الموصل ، على خلاف الأمر بالنسبة الى قلعة بغداد . وتضم القلعة ، كسابقتها ، مخزنا للذخيرة وثكنات للمدفعية ، ومسجدا كبيرا ومرافق اخرى مهمة .

ولقد كان الغرض من انشاء هذه القلعة ، كما هو الحال في بغداد ، ان تكون مقرا لحامية المدينة ، وللوالي نفسه . وقد اقام فيها الولاة فعلا ابـان القرن السابع عشر على ما يؤكد تافرنييه . ورغم كثرة التعميرات التي شهدتها هذه القلعة في عهد حسين باشا الجليلي سنة ١١٥٧ هـ/١٧٤٤ م وعهد احمد باشا الجليلي سنة ١٢٣٧ هـ/١٨٢١ م . الا انها فقدت مهمتها الاساسية ، فقد فضل الولاة الجليليون الاقامة في « السراى » التي اقاموها ، في نفس الوقت الذي ترك فيه ولاة بغداد من المماليك الاقامة في قلعة مدينتهم ، مفضلين الاقامة في قصورهم الفارهة خارجها ، وكان هذا يعني ان عهد المماليك في العراق كان يمثل في احد جوانبه فقدان السلطة الحاكمة لصـفتها العسكريـة البحتـة والانتقال الى الصفة المدنية العادية . ومن الملاحظ ان هذه القلاع بقيت حتى

قيام الحكم العثماني المباشر بانتهاء عهد المماليك والاسر الحاكمة ، رمزا لهيبة للجيش الانكشاري العثماني السابقة ، وان كان تأسيس جيش المماليك ببغداد، وتحول اوبرطات الينكجرية في الموصل الى فرق محلية موصلية ، قد حولا الثقل العسكري الى مؤسسات السراى ومرافقه خارج اسوار القلاع التقليدية •

٢ ـ السـراى :

لقـد تميـزت مـدن العـراق في القـرن الثـاني عشـر الهجـري (الثامـن عشـر الميلادي) ـ بصفـة خاصـة ـ بازدياد اهمية « السرايات » الرسمية حتى غدت اهم مؤسسات المدينة على الاطلاق • ويلاحظ في هـذا الصدد ان انشاء سرايات الحكم كان قريبـا من القلاع الداخلية ، كما هـو الحال في بغداد والموصل • فسراى بغداد مثلا ، الذي انشىء في النصف الاول من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) كان جنوب القلعة على شاطىء دجلة ، واصبح مقرا عاما للوالي واتباعه تتجمع فيه دور الحكم ، ودوائر الدولة ، وكان متسع الارجاء ويضم مرافق كثيرة •

ويذكر اوليا جلبى ان سراى الباشا كان اشهر قصـور وجهاء المدينـة واعيانها ، ففيه نحو مائتى غرفة ، وحمام ، وحديقة تتخللها اشجار الصنوبر • ووصف روسو سراى بغداد في حدود سنة ١٢٢٤ هـ/١٨٠٩ م بأنه فسيح ، يحتوي في داخله على منازل جميلة والبذخ الظاهر في تأثيثها لا يكذب مـا يعتقده الاوربيون عن الابهة الآسيوية •

وكانت قصور السلاطين العثمانيين في القسطنطينية تمثل دائما نموذجا جديرا بالاحتذاء عند كل محاولة للعناية بفخامة سراى بغداد ، وهو امر انعكس في كتابات الرحالين المعاصرين •

ويمكن ان نتصور سراى مماليك بغداد على النحو الآتي :

مجموعة مـن القصور الفخمة المشيدة في فترات مختلفة دونما تخطيط

مسبق ، ويشغل بعض هذه القصور اسر المماليك من الولاة السابقين ، في حين تشغل القصور الاخرى دوائر الحكومة نفسها ، وتتخلل هـذه المؤسسات حدائق جميلة ترويها قنوات خاصة تأخذ مياهها من نهر دجلة .

ويعد سليمان باشا الكبير (١١٩٥ ــ ١٢١٧ هـ/١٧٨٠ ــ ١٨٠٢ م) من المماليك الذين اولوا السراى اهتمامهم ، اثرعته انه « هدم دار الامـارة ، وعمرها تعميرا لائقا بالوزارة » .

وفي سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م اصلح والي بغداد داود باشا بناية السراي ، مراعيا فيها النقوش والتزيينات . وافتتح السراى بأبهة كبيرة وسط احتفال حضره الوالي نفسه .

ومثلما اهتم مماليك بغداد بالسراى باعتباره المركز المدني الجديد فقد اهتم الجليليون في الموصل بسرايهم ، وكانوا قد شيدوه في جنوب المدينة ، قـرب السور الأسفل . ولقـد اثبـت نيبور في مخططـه للموصـل عـام ١١٨٠ هـ / ١٧٦٦ م موقع هـذه السراى بالقـرب من باب لجش ، ووصفه سيستيني عام ١١٦٩ هـ / ١٧٨١ م بأنه مكون من عشريـن حجـرة مستطيلة الشكل ، عرض كل منها ثمانية أمتار .

وذكر الرحالة الفرنسي دوبريه Dupré الـذي زار الموصل آنذاك انه كان يبدو آية في الجمال .

اما في البصرة ، حيث لم تكن ثمة قلعة داخلية ، كما هو الحال في بغداد والموصل فقد شيد العثمانيون فيها بعد فتحها سنة ٩٥٣هـ/١٥٤٦م سرايـا خاصا اختير موقعه على الضفة الجنوبية من نهر العشار داخل مدينة البصرة ، وقد عرف فيما بعد بـ (حوش الباشا) . وكانت تحيط بهذا السراى بعض بيوتات الجاليات الاجنبية بينها دار القنصل الانجليزي ودار القنصل الفرنسي،

وتحيط به من جهته الجنوبية ثكنات عساكر المدفعية ، ومن جهته الشمالية دائرة جمرك البصرة .

وتبرز اهمية مؤسسة (السراى) في السليمانية ، المدينة التي اتخذها البابانيون عاصمة لامارتهم سنة ١١٩٩ — ١٢٠٠ هـ/١٧٨٤ — ١٧٨٥ م ، حيث سبق انشاء السراى ، المدينة ذاتها . وكان محمود باشا الباباني قد شيد سرايا سنة ١١٩٦ هـ/١٧٨١ م على حدود قرية ملكندى القديمة ، ثم سرعان ما اصبح هذا البناء نواة لمدينة السليمانية ، فقد قام قريبه ابراهيم باشا الباباني امير الامارة البابانية ببناء بعض الدور حوالي السراى المذكور ، وجامع وحمام ، وسوق ، ونزل . وانتقل اليها من (قلعة جوالان) العاصمة القديمة التي لم تزد على كونها موقعا عسكريا فحسب .

٣ — السوق :

وكان من مظاهر الحيوية التي اتسمت بها مدن العراق في عهد المماليك ذلك النشاط المتزايد للسوق ، الذي كان غالبا مايكون قريبا من منطقة سراى الحكم ، وتتفرع من السوق — عادة — مجموعة من الاسواق المتخصصة في ضروب التجارة المختلفة ، وتؤلف بمجموعها حيا تجاريا كبيرا ، فكان في بغداد مثلا اسواق عديدة يختص كل منها بتجارة نوع او انواع معينة من البضائع وهي تحمل اسماء كثيرة ، مثل سوق الجبوقجية ، وسوق التوتونجية ، (باعة التبغ) ، وسوق التحميس ، وسوق الطول ، وسوق الجوخجية وسوق الكبابجية وسوق الجايف وسوق القز ، وسوق البزازين ، وسوق الخياطين ، وسوق السروجية (باعة الأسرة) ، وكلها موزعة حوالي الميدان والسراى وتمتد جنوبا حتى وسط المدينة . وتكتظ هذه المناطق عادة بخانات التجار ، والمقاهى ، والجوامع ، والمدارس الدينية ، وباعة الكتب والوراقين .

ويمكننا ان نلاحظ ان اغلب تجمع السكان في المدينة العراقية ــ كبغداد مثلا ــ كان في منطقة الأسواق وحواليها ، وان كثافة السكان تقل تدريجيا كلما ابتعدنا عنها ، باستثناء مناطق المزارات الدينية الكبرى وهي قليلة • ويعزز هذا الرأي ان جميع اسواق الموصل كانت ، ابان عهد الجليليين، محصورة بين ميدان القلعة شرقا ، وسراى الحكم جنوبا والجامع النورى (الكبير) شمالا اي في الركن الجنوبي الأيمن من المدينة ، حيث تتجمع المراكز العسكرية والادارية والتجارية والدينية سوياً وتكتظ اكتظاظاً شديدا ، فكان سوق السراى ، وهو من اكبر اسواق المدينة ، واقعاً امام سراى الحكومة ومنه اشتق اسمه، وكانت هناك اسواق اخرى لسائر اصناف التجار والحرفيين مثل سوق السراجين،ويقع ضمن السوق الاول، وسوق اليمنجية (صانعو الاحذية)، وسوق العطارين، وسوق باب الجسر وسوق الصفارين وسوق الملاحين (قرب باب الطوب)، وسوق العلوة (قرب الجامع المنسوب اليه) ، كما كان هناك سوق عند ميدان القلعة الداخلية ــ كما هو الحال في بغداد ــ يعرف بسوق الميدان ، وغير ذلك •

اما في البصرة ، فتتجمع الاسواق والخانات في المنطقة المحصورة بين السراى من جهة ، ودار الجمرك من جهة اخرى ، وتعتبر اماكن تفريغ السفن من المواقع ذات الاهمية التجارية في المدينة ، فمنطقة (السراجى) التجارية المهمة لم تكن الا محلا لرسو السفن القادمة الى البصرة وتفريغ شحناتها ، وتحميل البضائع الى خارج العراق ، وكان العثمانيون قد بنوا بقربها قلعة كبيرة مزودة بالمدفعية للدفاع عن المنطقة ، وكان كل من سوق السيمر ، وسوق كاظم اغا ، مملوءاً بالبضائع الافريقية ، وكان السوق الاخير من احسن الاسواق واكثرها تنظيماً وفي وسطه يقع احد جوامع البصرة الكبيرة •

وفي المدن الدينية ، كالنجف وكربلاء ، حيث تكون المراقد المقدسة مبعث تجمع السكان ومحور حياتهم ، تحيط الاسواق بالمنشآت الدينية التابعة لتلك

المراقد ، وتمتد امام مداخلها ، بحيث لايمكن للزائر الا ان يمر من خلالها •
وكان لمبنى مرقد الامام علي بالنجف أيام المماليك اربعة أبواب ، اكبرها الذي من جهة الشرق ، وينتهي الخارج منه بخط مستقيم الى خارج البلد ، وتحيط بهذا الطريق الدكاكين والاسواق وتكتظ عنده ، وبذلك تتجمع المؤسسات التجارية والدينية معا ، واذا ما لاحظنا ان السلطة الادارية للمدينة هي نفسها السلطة الدينية ، لاحت لنا الطبيعة الاقتصادية التي كان يقوم عليها مجتمع المدينة العراقية في تلك العهود •

٥ ـ الشوارع العامة والازقة :

وقد ادى العمران المتزايد ، في مدن العراق اثناء هذا العهد ، مع عدم نشوء وعي مدني يعنى بشؤون المدن وتنظيمها تنظيما يتفق وتلك الزيادة ، الى تكدس واضح في المؤسسات الدينية والرسمية واكتظاظ التجمعات السكنية وازدحامها في بقع معينة داخل المدن ، دون ان يكون ثمة اتجاه نحو توسيع الرقعة المسكونة الا قليلا • وتثبت مقارنة خرائط الرحالين للمدن العراقية قبل هذا العهد وبعده ان حدود المدن نادرا ماتغيرت ، وان مابقي غير مأهول في القرن الثامن عشر ـ على مارسمه نيبور ـ ظل كذلك حتى القرن التاسع عشر ، كما يظهر ذلك من خرائط جونس ورشيد الخوجه وغيرهما من اهـل هذا القرن •

وكان ازدياد كثافة المناطق المأهولة بالسكان قد ادى بطبيعة الحال الى تلاصق دورها وحاراتها ، كما ادى ببعض الناس الـى اقتطاع اجـزاء مـن الطرقات العامـة والبناء فيها ، او توسيع دورهم على حساب الميادين والساحات ، حتى لم يبق في بغداد شارع مستقيم تقريبا •

ويفسر الامام الالوسي هـذه الظاهرة بانها نتيجة لشروع النـاس باختطاط مساكنهم على حسب مايشتهون دون ان تتمكن الحكومة من تدارك

الخلل . وفي الواقع يمكننا ان نضيف الى ذلك سببا اخر هو ان ضيق الطرق والتواءها له صفة دفاعية حيث يعطي المدينة شكلا محتشداً يساعد على صد الغارات وحصر الاعداء في اوقات الازمات كما ان من شأن الطرق الضيقة ان تحمي السكان من اشعة الشمس المحرقة التي يتصف بها المناخ الصحراوي في العراق خلال اشهر الصيف . اما صفة الازقة غير السالكة او المغلقة فيمكن ان تعزى الى سهولة حصر الغزاة والسيطرة عليهم اذ ما تعرضت المدينة الى هجمات خارجية او تمرد داخل .

وكانت شوارع بغداد ، كغيرها من المدن الشرقية الاخرى ، ابان القرن التاسع عشر ، ضيقة غير مبلطة ، تقوم على جانبيها بوجه عام جدران صماء تخلو غالبا من اية نوافذ مطلة على الطرق بينما تكون ابواب الدخول المؤدية الى المساكن صغيرة حقيرة . وفيما عدا بعض الاسواق وخطوطها غير المنتظمة ، وبعض الفسحات المكشوفة ، فان داخلية المدينة عبارة عن متاهة من الازقة والممرات .

٦ ـ المحلـــة :

تعتبر المحلة الوحدة الاساسية المكونة للمدينة العراقية ، فيها تظهر ملامح التضامن الاجتماعي ، وتتجلى العصبية المدينية . وتتكون كل مدينة ـ عادة ـ من عدد من المحلات ، وتتألف المحلة الواحدة من شارع عريض نسبيا وازقة ضيقة تابعة له ومتصلة به تعرف بالعقود ودور تتجه مداخلها الى هذه العقود او الى الشارع الرئيسي نفسه ، وفي نهاية هذا الشارع بوابة قوية تغلق كل ليلة .

وعلى هذا النحو لعبت المحلة دور قلعة داخل قلعة وكانت لكل منها مهامها الدفاعية في الحالات الطوارىء وخاصة في حالات الصدامات الناشبة بينها .

وعلى الرغم من ان كثيراً من تلك المحلات احتفظ ، لفترة طويلة ، بملامح

التجمعات الحرفية القائمة فيها ، وان تقاليد العون والمساعدة المتبادلة كانت تنتقل في المحلة من جيل لاخر ، فان نظام المحلات هذا لم يكن منطبقا على نظام الاصناف الا نادراً ، بمعنى ان اهل المحلة الواحدة لم يكونوا يختصون بحرفة معينة ، ولايجمعهم صنف بذاته ، وانما كانت المحلة تشكل وحـدة اجتماعية اهم من الصنف وأشمل منه • ويمكن القول بأنه اذا كانت المحلة تشكل الوحـدة الاجتماعية في المدينة ، فان الصنف كان يمثل الوحـدة الاقتصادية فيها ، وان المحلة تشمل عدة اصناف ، بحسب ضخامتها وكثافـة سكانها •

ويختص الصنف ــ عادة ــ « بعقد » معين في المحلة ، التي تتكون من مجموعة من « العقود » ، فتضم كل محلة بذلك عدداً من الاصناف داخلها ، وهو ما يعكس الطبيعة المستقلة للمدينة في العراق ، واكتفاءها النسبي بذاتها في كثير من الامور • ويمكننا ــ في هذا الصدد ــ ان نلاحظ كثرة عدد العقود المنسوبة الى مهن معينة مثل ، عقد السافي (جمع سقاء) ، وعقد العلاوى (جمع علوة ، وهي مكان عرض المحاصيل الزراعية بالجملة) ، وعقد التبانة (المشتغلين بالتبن) ، وعقد المجارية (المكارين) وعقد الصابونجية (صانعى الصناديق) ، وعقد الحياج (الحاكة) • وعقد الاكمجية (باعة الطعام) ، الصناديق) ، وعقد الحياج (الحاكه) • وعقد الأكمجية (باعة الطعام) ، وعقد التنكه جيه (صانعى القلل) ، وعقـد العبايجية (صانعى العباءات) ••• الخ •

وكان في كـل محلة ، او عقد ، مسجد ، ومقهى خاص بأهل الحرفـة المجاورة ، تتم فيها الصفقات التجارية ، وتتوثق العلاقات الحرفية • كما كانت توجد في اغلب المحلات سقايات (سبيل خانات) عامة تأخذ مياهها ــ كما في بعض احياء بغداد ــ من قنوات في قناطر تجرى فوق العقود ، ويرفع اليها الماء بدواليب خاصة من شاطىء النهر • وفي السقايات الاخرى ، البعيدة عن

تلك القناطر ، كان يكتفى بتخصيص سقاء معين يقوم بملء حوض السقاية يوميا .

وكان من المحتمل ان تنسب « المحلة » برمتها الى مهنة معينة غالبة على نشاطها الاقتصادي ، فكان ببغداد ، كمثلا ، محلات منسوبة الى الطوبجية (القائمين على المدافع) ، والدنكه جيه ، والصفافير (صانعى الأواني) ، والشواكة (باعة الأشواك المستعملة في الوقود) . وفي البصرة ، كانت هناك محلات ، مثل محلة الحدادة (المشتغلين باعمال الحديد) ، ومحلة الحكاكة (المشتغلين بصقل المعادن) ، وقد نشأت هاتان المحلتان ، وهما من اكبر محلات البصرة في القرن الثامن عشر .

ومن المحتمل ان تنسب المحلة او العقد ، الى العشيرة او الجماعة التي سكنتها وقد قسم العثمانيون بغداد منذ اول فتحهم لها في منتصف القرن السادس عشر على هذه القاعدة ويكشف هذا التقسيم عن تأثير النظام القبلي على تركيب الاحياء السكنية حيث ان كل عشيرة او قبيلة تحتل محلة خاصة بها من المدينة ، وبهذه الطريقة تصبح كل محلة وحدة ادارية ذات سمات مدنية ـ قبلية في الوقت نفسه . وكان الهدف من اقرار هذا الموقع هو بالدرجة الاولى الرغبة في تسهيل الادارة وجمع الضرائب من السكان اذ كان من المعتاد ان تصبح كل جماعة مسئولة بالاجماع عن منطقتها برعاية احد الاشخاص البارزين ويلاحظ في هذا الصدد ان النظام المذكور هو نفسه النظام المطبق في الريف حيث يتولى رئيس كل عشيرة ادارة عشيرته المتضيامنة في زراعة الارض او الرعي فيها كما انه ينسجم الى حد كبير مع نظام الملل العثماني الذي يجعل للرئيس الديني حق الاشراف والادارة لطائفته من الناحية الاجتماعية البحتة ايضا . كانت كل محلة يرأسها شخص يتمتع بلقب «كتخدا» واذا ما زاد عدد ابناء العشيرة على ان تضمهم محلة واحدة قسمت الى اكثر من قسم ومنح لكل رئيس منها اللقب نفسه فجماعة شهرلوشاه مثلا كانت

تنقسم الى ثلاث محلات يرأس كل محلة منها كتخذا . وغالبا مانسبت المحلة الى اسم رئيسها فمحلة عبدالرحمان بن سلمان كان يرأسها كتخدا يحمل الاسم نفسه ومثلها محلة يوسف بن بدرالدين ومحلة زين‌الدين كوردكجي ومحلة سعدي قباط ومحلة ناصر حسام ، ومحلة غولو ، ومحلة سالم بن جمعة ... الخ .

وواضح ان هذه الاسماء لم تبق معروفة في العهود التالية ، والظاهر ان تسمية المحلات باسماء رؤساء الجماعات والعشائر كان للاغراض الرسمية والمالية التي ذكرناها . وانها لم تستعمل على نطاق عام . وعلى اية حال فان بعض المحلات والعقود ظلت ـ حتى القرن التاسع عشر ومابعده ـ محتفظة بأسماء الاقوام التي سكنتها مثل عقد الدجيلاويين ببغداد (نسبة الى دجيل بالقرب من سامراء) . وعقد الجنابيين (عشيرة عربية) وعقد العجيليين وعقد المهدية (عشيرة عربية كانت تمتهن جزارة اللحوم) . وعقد الدوريين (نسبة الى الدور ، بلدة بين بغداد وسامراء) وعقد الكرد ، ومحلة الهيتاويين (نسبة الى هيت بلدة على الفرات) ، ومحلة الجعيفر (نسبة الى عشيرة الجعافر العربية).

وكانت الموصل ، نموذجا واضحا لهذه الظاهرة الاجتماعية ، فلقد عرفت فيها ـ منذ اول العصر العثماني ـ هذه التسميات ، فكانت هناك محلة آل طارق ومحلة ال يتيم ومحلة متفرقة (اسم لفرقة عسكرية عثمانية) كما حافظت على التسميات القديمة مثل محلة الحديثيين (نسبة الى حديثة على الفرات) ومحلة التكارتة (نسبة الى تكريت شمال بغداد على دجلة) . ومن المحتمل ان تنسب المحلة او العقد الى اي شيء بارز فيها كقبر احد الاولياء او مسجد مهم او دار كبيرة معروفة او سوق وفي المدن العراقية اسماء كثيرة تدل على هذه الظاهرة .

ولم تكن ثمة قاعدة محددة تنقسم المدن على اساسها الى محلات ، فبغداد كان فيها في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) على ما لاحظ بيترمان ، ثماني عشرة محلة لكنها غير متساوية في السعة فمنها ما يتألف من الفي دار ومنها مالا يزيد عدد دوره عن خمسين فقط . وفي الوقت نفسه نجد ان جونز يجعل عدد محلات بغداد نحو ستين محلة . ربعها في الجانب الغربي والباقي في الجانب الشرقي منها .

اما البصرة فكانت فيها كما راى نيبور في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) زهاء سبعين محلة يتراوح عدد بيوت كل منها بين ٢٠و٤٠٠ بيت . ومن الواضح ان عدد هذه المحلات كان يزيد او ينقص بحسب تغير الظروف .

٧ ــ الميادين العامة :

ومن المظاهر العمرانية التي اتسمت بها مدن العراق وجود فسحات مكشوفة داخل اسوار المدن ذاتها وقد عرفها العراقيون باسم الفضوات وكانت هذه الفسحات تمثل مجالا رحبا لمختلف النشاطات الاجتماعية فكانت تباع فيها بعض انواع السلع ، حتى عدت ــ احياناً ــ اسواقا بذاتها مثل سوق الموسلين وسوق الحنطة وكلاهما ببغداد وغير ذلك وهذه الفسحات تمثل ــ فضلا عن اهميتها التجارية ــ مجمعا لأهالي الاحياء المجاورة ومتنفسا لهم ففيها تجتمع النساء ويلعب الاطفال وتنصب ادوات التسلية في ايام الاعياد .

ومن «الفضوات» الشهيرة ببغداد آنذاك فضوة «الصدرية» القريبة من جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني وفضوة عرب القريبة منه ايضا . واكبر تلك الفضوات مساحة واهمية ميدان القلعة وهو ميدان المدينة الكبير حيث تعرض فيه الخيول للبيع ، ويجلس الناس على اختلافهم للاستمتاع بشرب القهوة والتدخين في المقاهي المحيطة به وهو في الوقت نفسه الميدان العام

لاستعراض الجيش وتنفيذ عقوبات الاعدام ولكل شيء تقريبا ويشغل اكثر من ٦٠٠٠ متر مربع •

ويطل على الميدان جامع فخم شيده احمد باشا الكتخدا سنة ١٢١٠هـ/١٧٩٥م وكان امامه فسحة متسعة مرافقة تحتوي على سقاية وحوض كبير الا ان الاهمال سرعان ماخرب هذه المرافق فبقيت الساحة ــ على مايذكر الالوسي ــ «خالية من البناء فلم تزل كذلك الى انْ احدث عليها بعض الناس اكواخا ونحو ذلك وشرعت الباعة تجلس فيها حتى صارت مجمعا للاقذار والانذال •• وقد جلس السوقة والباعة » •

٨ ــ الـدور :

تتميز الدور العراقية بوجه عام بخصائص انشائية وتخطيطية ذات طابع واحد يتمثل في توزيع المستقفات السكنية حول الساحة الوسطية المكشوفة التي يطلق عليها اسم الحوش وهو الفناء المكشوف او الرحبة الداخلية للدار وتتألف المستقفات ــ عادة ــ من طابقين في كل منهما صف من الغرف التي تطل على الباحة المذكورة • وفي وسط هذه الباحة حديقة مظللة باشجار الليمون والبرتقال او بأشجار النخيل وتحت حجرات الطابق الاسفل توجد حجرات واسعة تحت مستوى الارض تعرف بالسراديب وتستخدم صيفا للوقاية من الحر في حين تستعمل سطوح الدور لتناول العشاء مساء وللنوم عليها ليلا • ويلاحظ ان التخطيط الاساسي للبيت في بغداد والمدن العراقية الاخرى لم ينله التغيير خلال العهود المتعاقبة بل ظل محافظا على سماته الاصيلة •

وتميزت دور الموصل في عهد الجليليين ، بانها كانت ذات طراز واحد تقريبا وان بعض دور سراتها كان على النسق الذي عرف في ديار بكر • وكانت المادة التي تستعمل في بناء المنشآت المدنية تتكون عادة من الصخر والطابوق

(الاجر) والجص وقد استخدم الرخام في الموصل بكثرة نظرا لقرب محاجره منها ، وكان يتخذ في تزيين الداخل وفي صناعة الاعمدة الرخامية داخل الدور، وفي رصف الحجرات، وصنع المحاريب ، اما الجدران الخارجية فكانت تبنى بالآجر الأحمر .

ومن الملاحظ ان معظم مدن العراق الاخرى ، وخاصة تلك التي تقع في وسطه وجنوبه ، كان مشيدا بمواد اقل جودة وأردأ حالا ، فكانت السماوة مثلا مبنية باللبن غير المحروق ، ومثلها الرماحية والديوانية والعرجة ، وسوق الشيوخ ، بل ان عامة دور البصرة نفسها كانت مبنيـــة باللبن ، وبجذوع النخيل ، مما يجعلها أشبه بالاكواخ .

وبينما تتصل منشآت المدن العراقية بناحية من سورها الخارجي ، تبتعد عنه من نواح اخرى ، نتيجة لانكماشها عن تلك المناطق ، وظهور مناطـــق فضاء بين مراكز التجمع السكنى وبين الأسوار . ففي بغداد تتجمع الدور والمنشآت في المنطقة المجاورة لسور المدينة الشمالي ، وسبب ذلك يرجع الى وجود القلعة الداخلية هناك ومايليها من منشآت الحكومة كالسراى ودور الموظفين . اما في الموصل فقد كان مسار الحركة العمرانية ــ خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ــ يتجه جنوبا . ففي الوقت الذي اغلق فيه الحاج حسين باشا الجليلي الباب العمادي في اعلى البلدة سنة ١١٥٦ هـ/١٧٣٤ م ، كانت المساعي مبذولة لفتح ابواب جديدة في الاجزاء الجنوبية من المدينة ، كما انشئت المباني الحكومية ، وكثير من القصور والمساجد في تلك النواحي، في حين بقيت الاقسام العليا مهجورة . وكانت الدور تزدحم عند اسور المدينة الجنوبية حتى اصبحت تشكل قسما من السور نفسه .

اما في البصرة ، فقد كان اتجاه العمارة يسير نحو النهر ــ في هـــذا العهد ــ على نحو ملحوظ ، ذلك ان البصرة التي انشئت اول مرة في منطقـــة بعيدة عن النهر قريبة من البادية ، وازدهرت هناك طيلة العصور الوسطى ،

بدأت بالاضحلال التدريجي واخذ الخراب يزحف اليها سريعا حتى لم يبق منها سوى آثار جامعها الشهير ، وقبر الزبير بن العوام وسط الصحراء (حيث ستقوم بلدة الزبير فيما بعد) ، وهاجر من بقى من اهل البصرة القديمة تدريجيا نحو منطقة تبعد عن مدينتهم نحو سبعة اميال • وفي حدود القرن الخامس عشر كانت البصرة الجديدة قد برزت الى الوجود ، فبنيت فيها البيوت والمساجد والمدارس • وفي القرن السابع عشر ، شيد الافراسيابيون سور البصرة الحديث موصلين اياه الى النهر ، فدخلت ضمن الأسوار كل الحدائق والحقول التي كانت خارجة عنها قبلا •

ومالبثت المدينة الجديدة ان ضمت اليها قرية « المناوى » الصغيرة الواقعة على ضفة شط العرب مباشرة • فتشكل من ذلك تجمع سكنى امتد على ضفتى قناة البصرة المتفرعة من شط العرب ، بغير كثافة كبيرة • وكان مركز ذلك التجمع يبعد عن الشط زهاء ميل تقريبا • حيث تحتشد الدور في القسم الجنوبي من القناة •

٩ ـ اسوار المدن :

وكانت مدن العراق في هذا العهد كغيرها من مدن الشرق محاطة باسوار تحميها من الغزوات المتكررة وتطيل فترة صمودها في اثناء الحصارات المتعاقبة •

ولقد اهتم العثمانيون منذ اول عهدهم بالبلاد في القرن السادس عشر بتعزيز تحصينات مدن العراق وأسوارها فكانت بغداد ، على ما رآه الرحالة التركي محمد ظلى المعروف بأولياجلبي : قلعة تدخل الرعب والهيبة في نفس كل من نظر اليها من جوانبها الاربعة ، وان اسوارها تشمخ بالمتانة وقوة البنيان تدعمها من الداخل دعائم قوية ، ويبلغ ارتفاع الأسوار ستين ذراعا

وعرضها من اعلى عشرة اذرع الى خمسة عشر ذراعاً ويحيط بالمدينة من جهة النهر سور ايضا معزز بالدعائم •

ويلتف حول اسوار المدينة من جهاتها الثلاث عدا جهة النهر خندق عميق يبلغ عرضه ستين ذراعاً تقريبا ويأخذ مياهه من نهر دجلة •

وللمدينة اربعة ابواب الاول في الشمال الغربي يدعى باب المعظم مفض الى الطريق المؤدي الى ضريح الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان ، والثاني في اعلى السور الشرقي هو الباب الاوسط والثالث في الجنوب منه يعرف بباب الطلسم وقد اغلق بعد فتح مراد الرابع لبغداد في اواسط القرن الحادي عشر الهجري (القرن السابع عشر الميلادي) ثم باب في الجنوب الشرقي يعرف بالباب الشرقي • وبين كل باب واخرى يوجد عدد كبير من الأبراج والاستحكامات اختلف الرحالون في تقدير عددها •

ولقد شهد عهد المماليك اهتماما خاصا باحكام اسوار بغداد والمدن العراقية الاخرى • ففي عهد والي بغداد سليمان باشا الكبير (١١٩٥ ـ ١٢١٧ هـ / ١٧٨٠ ـ ١٨٠٢ م) تم تعمير سور بغداد وترميم ما تهدم منه كما استحدث لضاحية الكرخ في الجانب الغربي من دجلة سور من الآجر واللبن عرضه نحو خمسة اذرع •

وشملت حركة التسوير مدنا عراقية اخرى ، كانت قد تعرضت لغزوات الايرانيين وغيرهم ، فبنى سور لمدينة مندلي (بندنيجين) القديمة ، الواقعة قرب الحدود الايرانية ، وعمر سور مدينة الحلة على الفرات ، وجدد بناء سور ماردين ، وكان قد تخرب منذ غزوات تيمورلنك ، واستحدث سور قوى لمدينة الزبير الواقعة جنوب البصرة على حافة البادية •

وكان للبصرة سور من اللبن يحيط بها من جميع جهاتها ، شيده حكام البصرة من آل افراسياب في القرن السادس عشر ، ثم اصلح وجدد في عهد

سليمان باشا الكبير وكان فيه خمسة ابواب اهمها باب بغداد الذي يـؤدي الى وسط المدينة والى اعظم قسم مأهول فيها .

اما الموصل فقد تولى الولاة الجليليون العناية بتعمير سورها وصيانته ففي عام ١١٥٧ هـ/١٧٤٤ م شرع الوزير حسين باشا الجليلي ببناء سور جديد للموصل مكين البناء وشهد هذا السور عنايـة كبيرة في الحقبـة التاليـة وخاصـة في عهـد محمـد باشـا الجليلـي سـنة ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ م وعهد احمد باشا الجليلي سنة ١٢٣٧ هـ/١٨٢١ م . وكان للسور عدد كبير من الابواب الجنوبية ، حيث تزداد كثافة السكان ، والمؤسسات الحكومية في القسم الجنوبي من البلدة .

المصادر

١ ــ ابو طالب خان : رحلة ابي طالب خان الى العراق واوربة سنة ١٢١٣ هـ /١٧٩٩ م . ترجمة الدكتور مصطفى جواد . بغداد ١٩٦٩ .

٢ ــ الاعظمي ، علي ظريف : مختصر تاريخ البصرة .

٣ ــ الانصاري ، احمد نوري : النصرة في اخبار البصرة . تحقيق يوسف عزالدين بغداد ١٩٦٩ .

٤ ــ اولياچلبي ، محمد ظلي : اولياجلبي سيا حتنامه سي . استانبول ١٣١٤ .

٥ ــ البازي ، حامد : البصرة في الفترة المظلمة . بغداد ١٩٦٩ .

٦ ــ باش اعيان ، عبدالقادر : البصرة في ادوارها التاريخية . بغداد .

٧ ــ البدليسي ، شرفخان : شرفنامه . ترجمة محمد علي عوني . القاهرة ١٩٥٨ .

٨ ــ تافرنييه، جان بابتست : العراق في القرن السابع عشر. ترجمة كوركيس عواد وبشير فرنسيس . بغداد ١٩٤٤ .

٩ ــ جب ، هاملتون ، وبوون ، هارولد : المجتمع الاسلامي والغرب . ترجمة احمد عبدالرحيم مصطفى القاهرة ١٩٧١ .

١٠ــ جلبي زاده ، اسماعيل عاصم : تاريخ جلبي زاده . استانبول ١٢٥٣ هـ .

١١ــ جواد، مصطفى ، وسوسة ، احمد : دليل خارطة بغداد المفصل. بغداد ١٩٥٨ .

١٢ــ جواد ، مصطفى وآخرون : بغداد ، اصدرته جمعية المهندسين العراقيين بغداد ١٩٦٩ .

١٣ــ جودت ، احمد : تاريخ جودت . استانبول (١٢جـ) ١٢٠٢هـ .

١٤ــ الحسني ، عبدالرزاق : العراق قديما وحديثا . صيدا ١٩٥٨ .

١٥ــ الحيدري ، ابراهيم فصيح : عنوان المجد في بيان احوال بغداد والبصرة ونجد ، بغداد بلات .

١٦ــ الديوه جي سعيد : سور الموصل . مجلة سومر السنة ٣ (١٩٤٧) .

١٧ـ الديوه‌جي : قلعة الموصل . مجلة سومر السنة ١٢ (١٩٥٦) .
١٨ـ رؤوف ، عماد عبدالسلام : الموصل في العهد العثماني . النجف ١٩٧٥ .
١٩ـ رؤوف : تاريخ مشاريع مياه الشرب في بغداد . مجلة المورد ١٩٧٩ (ع ٤ مجلد ٨) .
٢٠ـ زكي ، محمد امين : تاريخ السليمانية . ترجمة محمد علي عوني . القاهرة ١٩٦١ .
٢١ـ سركيس ، يعقوب : مباحث عراقية . جزآن بغداد ١٩٤٨ ، ١٩٥٣ .
٢٢ـ سوسه ، احمد : اطلس بغداد ١٩٥٢ .
٢٣ـ الصائغ، سليمان، تاريخ الموصل الجزآن، ١ و ٢، القاهرة ١٩٢٨ وبيروت ١٩٤٠ .
٢٤ـ العزاوي ، عباس : تاريخ العراق بين احتلالين الاجزاء ٤ـ٨ بغداد ١٩٥٣ ـ ١٩٥٦ .
٢٥ـ العطية ، وداي : تاريخ الديوانية قديما وحديثا . النجف ١٩٥٤ .
٢٦ـ العمري ، سعاد هادي ، بغداد كما وصفها السواح الاجانب . بغداد ١٩٥٢ .
٢٧ـ العمري ، ياسين : غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام . بغداد ١٩٦٨ .
٢٨ـ العمري ، ياسين : منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء . الموصل ١٩٥٤ .
٢٩ـ الكليدار ، عبدالجواد : تاريخ كربلاء وحائر الحسين . النجف ١٩٦٧ .
٣٠ـ الكليدار ، عبدالحسين : بغية النبلاء في تاريخ كربلاء . بغداد ١٩٦٦ .
٣١ـ لانزا ، دومنيكو : الموصل في الجيل الثامن عشر . ترجمة روفائيل بيداويد . الموصل ١٩٥٣ .
٣٢ـ ليسترنج ، غي : بلدان الخلافة الشرقية . ترجمة بشير فرنسيس وكوركس عواد . بغداد ١٩٥٤ .
٣٣ـ المنشي ، محمد بن احمد: رحلة المنشي البغدادي. ترجمة عباس العزاوي . بغداد ١٩٤٨ .
٣٤ـ النديواني ، عبدالكريم : تاريخ العمارة وعشائرها . بغداد ١٩٦٦ .

٣٥ـ نظمي زاده ، مرتضى : كلشن خلفا ، ترجمة موسى كاظم نورس ، النجف ١٩٧١ .

٣٦ـ الهاشمي ، طه : مفصل جغرافية العراق . بغداد ١٩٢٠ .

37- Chiha, H. : Provence de Baghdad. Le Caire, 1908.

38- Fiey, J. : Mossoul Chretinne. Beyroth, 1960.

39- Hourani, A.H. & Stern, S.M. (eds.) : The Islamic City. Oxford, 1970.

40- Encyclopeadia of Islam. „

41- Islam Ansiklopedisi - Istanbul 1945.

المبحث الرابع

مظاهر الحياة الاجتماعية

(١)

حقبة الغــزو المغولـــي

د . نوري عبد الحميد خليل

كلية التربية ـ جامعة بغداد

ترك سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م اثره على مجمل الحياة في العراق لكنه لم يحدث تغييرا جوهريا في مظاهر الحياة الاجتماعية وذلـك لاســباب عديدة منها :ــ

١) ان الاقوام التي حكمت العراق بعد سقوط بغداد من مغول وجلائريين وتركمان وصفويين كانت قبائل متخلفة ليس لها تنظيمات اجتماعيــة متقدمة ولا قيم حضارية موروثة لذا فان احتكاكهم بالمجتمع العراقي ذي القيم والتقاليد العريقة جعلهم يتأثرون به ويقلدونه لا ان يؤثروا فيه.

٢) كان عدد من استقر منهم في العراق قليلا جدا ولم يكونوا طبقة اجتماعية متميزة بحيث يتمكنون من تغيير المظاهر الاجتماعية ويتركون بصمات واضحة في المجتمع العراقي .

٣) ان ما يملكه المجتمع العراقي من حصانة ذاتية متمثلة بالقيم والمظاهر الاجتماعية التي تراكمت عبر العصور والتي تستند في جوهرها الى تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية مكنتهم من احتواء الغزاة وذلك من خلال اعتناقهم الاسلام ٠ فاخذوا يكيفون انفسهم للبيئة الجديدة ويندمجون بالمجتمع العراقي تدريجيا ويتقبلون عادات العراقيين وتقاليدهم وثقافتهم العربية الاسلامية واصبح من الواجب على اجهزة الدولة المختلفة التي اتخذت الاسلام دينا رسميا ان تعمل وفقا لتعاليم الاسلام فيما يتعلق بالعبادة والاعياد والمناسبات الدينية وشؤون الاسرة بل انهم صاروا يقلدون الخلفاء المسلمين في ملابسهم فصارت العمامة لباس الرأس الرسمي للحكام واتخذوا راية سوداء اقتداء بالخلفاء المسلمين ٠

وهكذا ظلت مظاهر الحياة الاجتماعية بعد الغزو المغولي استمرارا لما كان سائدا في اواخر العهد العباسي ، لكنها كانت اقل ابداعا وتطورا ويبدو عليها الرتابة بسبب ما تعرض له المجتمع العراقي من القتل والتشريد وهجرة السكان الى الاقطار العربية ٠ واستنادا الى النصوص القليلة التي وصلتنا من تلك الفترة سنتحدث فيما يلي عن بعض تلك المظاهر :

ا ــ المجالس الادبية

كان الضرر الذي احدثه الغزو المغولي بالحياة الادبية كبيرا جدا فتعرضت للركود وقلة الابداع فالحكام غرباء لم يجلبوا معهم سوى اللغات الفارسية والتركية التي اصبحت لغة البلاط والدواوين ٠ وحتى ثقافتهم الاسلامية كانت سطحية ولم يعودوا يتلذذون بسماع الشعر وينظمونه او يحيطون انفسهم بالعلماء والشعراء كما كان يفعل الخلفاء في عهد الازدهار فابتعد الادباء عنهم ، وقلما نجد شاعرا عراقيا يمدحهم او يهدي نتاجه الادبي اليهم كما كانوا يفعلون في السابق ٠ ويؤكد ذلك ابن الطقطقى وهو مؤرخ عاصر المغول في معرض

كلامه عن علوم اللغة والادب بقوله (واما في الدولة المغولية فكسدت تلك العلوم كلها ونفقت فيها علوم اخر وهي علم السياقة والحساب لضبط المملكة وحصر الدخل والخرج والطب لحفظ الابدان والامزجة والنجوم لاختيار الاوقات وما عدا ذلك من العلوم فكاسد عندهم) •

وعلى الرغم من ذلك ظلت اللغة العربية لغة الجماهير في العراق وظلت المدارس والمكتبات وكذلك المساجد والزوايا والربط مراكز ثقافية وعلمية يلتقي فيها العراقيون ومجمعا للطلبة والفقهاء وقد اضطر بعض الحكام الى تعلم اللغة العربية والميل الى الادب العربي تقربا للمجتمع العراقي وبحكم دخولهم في الاسلام فاصبحوا يقرضون الشعر فيها كما فعل السلطان أحمد الجلائري (٧٨٤ ــ ٨١٣ هـ / ١٣٨٢ ــ ١٤١٠ م) الذي وضع ديوان ضمنه عددا من القصائد باللغة العربية • وتظاهروا برعاية الادب وسعوا لاستقطاب الادباء فكانوا يعقدون المجالس في بعض ليالي الاسبوع ، للعلماء والادباء وبخاصة ليلة الجمعة وخصصوا المكافآت والجوائز الثمينة لهم •

وكانت بعض المناسبات العامة مجالا تعقد فيها الاجتماعات في المدارس ، والمساجد والزوايا والمراقد او المحلات العامة تلقى فيها الخطب والقصائد عند وفاة شخصية كبيرة او تعيين قاض او مدرس او عند افتتاح مسجد او مدرسة وظلت مجالس الوعظ تلعب دورها في حفظ التراث فكانت بمثابة مدارس شعبية تعمل على تثقيف الناس وتلقى فيها الخطب وكان مسموحا لاي فرد ان يحضرها وقد يقوم بعض الخطباء بجمع خطبهم في كتاب كما فعل عبدالصمد ابن احمد البغدادي (ت ٦٧٦ هـ/١٢٧٧ م) الذي كان يتولى الخطابة بجامع الخليفة ببغداد في العهد المغولي سماه (صنوف الضيوف في الخطب المرتبة على الحروف) وهو مجموعة خطب من انشائه •

وقد حظت تلك الفترة بجمهرة من الادباء الكتاب المبرزين وضعوا كتبا عديدة ذات مستوى فني يدل على مكانتهم الادبية وعانى عدد منهم كتابة

المقامات الادبية التي كانت تقرأ امام حشد كبير من الناس في المستنصرية وغيرها منهم معد بن نصرالله البغدادي المتوفى سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م شيخ الادب ومصنف (المقامات الخمسين الزينبية) قرأها برواق المستنصرية سنة ٦٧٦هـ ـ ١٢٧٧م بحضور جمع غزير من العلماء وجمع غفير من الفضلاء، هذا اضافة الى المجالس التي كان الادباء يعقدونها في بيوتهم يتبارون فيها في الشعر والخطابة وكانت دور بعض الاعيان مجمعا للافاضل والائمة والاشراف والكتاب والشعراء وكانوا يدعون فيها الى محاربة الزندقة والكفر .

ومع ان تلك الفترة لم تشهد شعراء مجلين اشتهروا كشهرة ابي العتاهية وابي تمام والبحتري والمتنبي لكنها انجبت عددا كبيرا من الشعراء دعا بعضهم لان يفرد كتبا خاصة باسمائهم مثل كتاب (لطائف المعاني في ذكر شعراء زماني) لابن الساعي المتوفى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م وكتاب (نظم الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة) لابن الفوطي المتوفى سنة ٧٢٣هـ ـ ١٣٢٣م وكتاب (شفاء الغلة من شعراء الحلة) لمحمود بن يحيى الشيباني المتوفى بعد ٦٨١هـ ـ ١٢٨٢م. ومما يؤسف له ضياع اغلب هذه الكتب وفي كتب التراجم التي تناولت تلك الفترة اسماء العديد من الادباء واسماء دواوينهم من اشهرهم الشاعر صفي الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠هـ ـ ١٣٤٩م .

ومع ان شعر تلك الفترة لم يظهر عليه التجدد والابتكار والثورة على المفاهيم كما شهد العصر العباسي بل ظل يجتر افكار الماضي من مديح وهجاء ورثاء ووصف وغزل وفخر وحماسة وغيرها لكن حادثة سقوط بغداد وما حل بالاسرة العباسية قد الهب شعور الشعراء الذين اعربوا عن نفثات صدورهم فيما نظموا من قصائد والقوها في مجالسهم الادبية ولعل اشهر ما قيل في ذلك قصيدة الشاعر محمد بن عبيدالله الكوفي المتوفى سنة ٦٧٥ هـ ـ ١٢٧٦ م ومنها :

يا نكبة ما نجا من صرفها احد — من الورى فاستوى المملوك والملك

تمكنت بعد عز في احبتنا — ايدى الاعادي فما ابقوا ولا تركوا

لو ان ما نالهم يفدى فديتهم — بمهجتي وبما اصبحت امتلك

وقفت من بعدهم في الدار أسألها — عنهم وعما حووا منها وما ملكوا

اجابني الطلل البالي وربعهم الـ — خالي نعم ها هنا كانوا وقد هلكوا

وقد اخذ شعر المراثي الذي يعبر عن الحزن العميق الذي عم العراق حيزا كبيرا في دواوين شعراء تلك الفترة وكان اغلبها ينشد في الندوات والمجالس الادبية التي كانت تعقد في المدرسة المستنصرية •

ومن الاغراض الاخرى التي تناولها الادباء في مجالسهم مدح الرسول (ص) وآل البيت وهو ما يسمى بشعر البديع او البديعيات وكذلك شعر الزهد والتصوف الذي ازدهر بسبب ماساور النفوس من الالام بعد تفشي الظلم فانطوت على الحسرة والالم ، فاتجهوا الى العالم الروحي والرغبة في الحياة المعنوية والتأملات الباطنية والرياضة الصوفية • ومن ذلك الكافية البديعية في المدائح النبوية) للشاعر صفي الدين الحلي والتي تبلغ مئة وخمسة واربعين بيتا كذلك انتشرت المقامات وهي قصص خيالية ، والمفاخرات مابين السيف والقلم وبين السيف والرمح او بين المدن المختلفة وغير ذلك •

ب ـ الالعاب

كانت الالعاب واسباب اللهو في اواخر العهد العباسي كثيرة ومتنوعة كالفتوة والفروسية ولعب النرد والشطرنج وتربية الحمام • وكان الصيد والسعي على الاقدام من الالعاب المحببة ايضا • وقد وردنا عن الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠ـ ٦٥٦هـ / ١٢٤٢ ـ ١٢٥٨م) اخبار صيود كان يخرج اليها في ابهة كبيرة تتقدمه السرادقات والخيم والدواب ، والمرافقين وكان صيد الاسود رياضة شعبية يقوم بها شباب المحلات في

بغداد تتقدمهم اللعابة بالدفوف والزمور والمغاني والملاهي ويسيرون في وسط المدينة عند الخروج للصيد •

وقد استمرت هذه الالعاب بعد سقوط بغداد وظلت الفتوة والفروسية وركوب الخيل من وسائل اللهو المحببة الى الشباب الذين يجدون فيها وسيلة للتعبير عن حيويتهم ونشاطهم وقتل فراغهم ، يحضرها الجمهور للمشاهدة وقد وصف لنا شعراء تلك الفترة هذا النوع من اللعب وانواع الخيل وبراعة الفرسان في استخدام السلاح •

وظل الصيد من الالعاب المحببة الى النفوس ايضا للمتعة التي توفرها حفلات الصيد ، ولكونها ضرورة يتدرب فيها الشباب على الحرب والضرب بالسلاح فعنوا بتوفير لوازمها من اسلحة وحيوانات من كلاب وفهود وصقور وتوفير الاطعمة اللازمة لها ، وتدريبها والعناية بها اضافة لتوفر مرابع الصيد في العراق وبخاصة حول بغداد التي وصفت بكثرة السباع في حربى وديار بكر والحلة ومنطقة الاهوار وفي البادية حيث توجد عدة مناطق تكثر فيها السباع منها وادي السباع قرب الكوفة ووادي السباع قرب البصرة •

وقد ظلت حفلات الصيد تقام في العراق بعد سقوط بغداد من قبل الحكام وقد تستمر عدة ايام ، اما على الصعيد الشعبي فقد اعتاد سكان بغداد الخروج لقضاء الوقت بقتل السباع فيخرج شباب كل محلة يتبارون ويتنافسون في صيدها وقد يؤدي ذلك الى نشوب الفتن وكثيرا ما كان الديوان يتدخل لمنع ذلك ، لكن شدة ولع الناس بها يدفعهم لمخالفة الاوامر والعودة لمزاولتها وقد اضطر الديوان في احد المرات أن يصدر امره بحرق السباع لاطفاء الفتنة ومنع سكان بغداد من الخروج لصيدها •

اما أسلحة الصيد وملابس الصيادين فكانت تتنوع بتنوع الحيوانات ومناطق الصيد فصيد الاسود يجري بواسطة النبال (النشاب) اما صيد

الطيور فيجري بواسطة قسي البندق (والبندق الذي يرمى عن القوس كرات صغيرة من الطين المدملق « المدور ») • وقد وصف لنا الشاعر صفي الدين الحلي الصفات الواجب توفرها في الصيادين وما يجب ان يتمتعوا به من اخلاق ودراية في احوال الحيوان وان يكونوا نشطين حاذقين لا يشوبهم تردد او فتور ووصف ملابسهم وحيوانات صدهم من باز وصقر وقدم لنا صورة جميلة للفهد وكلاب الصيد ورشاقتها وكيف يمرق البندق في الفضاء بسرعة فائقة ومن ذلك :

اما ترى الرماة قد ترسموا ولارتقاب الطير قد تقسموا

بالجفت قد تدرعوا وعمموا لما على سفك دماها صمموا

جاءوا اليها في ثياب حمر

وبندق معتدل المقدار كأنما قسم بالعيار

قد حمل الحقد على الاطيار فهو اذا انقض من الاوتار

يرى فناء الطير فرضا واجبا

ومن شدة ولعهم بهذا النوع من اللهو فقد الفوا كتبا في البيطرة والصيد والقنص ومن هؤلاء فخر الدين البغدادي المتوفى سنة ٦٨٤هـ ــ ١٢٨٥ م وصفي الدين الحلي الذي وضع رسالة في الصيد بالبندق •

ومن الالعاب الاخرى التي كانت مألوفة منذ اواخر العهد العباسي تربية الحمام وكانوا يبذلون الاموال الطائلة في تربيتها وتدريبها ويقال أن الخليفة المستعصم قد شغف بلعب الطيور • وقد استمرت هذه الهواية طيلة العهود التالية فأهتموا بتربية الانواع الجيدة منها واتخذوا لها ابراجا او محطات خاصة لاستعمالها في نقل البريد والاخبار بين المدن بسبب ازدياد مخاطر الطريق •

وشاعت في تلك العهود العاب المصارعة والملاكمة وملاعبة القرود والدببة ، ومهارشة الديوك والكباش ومن الالعاب المسلية الاخرى لعب النرد والشطرنج • وكان وجود الانهار وتوفر المياه عاملا في تشجيع السباحة اثناء الصيف وركوب السفن في نهر دجلة وبخاصة اثناء الليل وفي الاعياد حيث يكون عليها المصابيح والات الطرب والغناء •

ج ـ الازياء والملابس

اطرى الرحالة الذين مروا بالعراق في اواخر العهد العباسي على جودة ملابسه ودقة صنعها والوانها الزاهية وبعد سقوط بغداد استمرت صناعة الملابس في أنحاء مختلفة من القطر فكانت الثياب القطنية الغليظة تنسج في حربى والنصافي الحزية في بليدة حزة قرب أربيل والثياب القطنية (الكرباس) تنسج في الحظيرة ، قرب حربى والثياب الابريسمية (الحرير) تنسج في واشتهرت الموصل بالثياب الموشاة بالذهب وبالقديفة المطرزة بصور الكرخ قرب بغداد •

وكان العراق يصنع الثياب الفاخرة من النخ والكمخا وهي ثياب من الحرير المذهب وكذلك المخمل والعتابي وهي ثياب حرير مختلفة الالوان والنصافي وهي ثياب من الحرير والكتان او من القطن وحده • واشتهرت بغداد بالسقلاطون وهو نوع من الحرير المزركش بالذهب كثير الجودة وكذلك نوع اخر من الثياب تسمى الابياري وهي من الحرير المخطط • الحيوانات والاقمشة الحريرية المذهبة وتسمى (موسلين) والنصافي الموصلية (الشاش) ويستشف مما ورد في الكتابة الموجودة على مدخل باب خان مرجان ان الملابس الحريرية ظلت تصنع في بغداد حتى اواخر الاحتلال الصفوي •

كانت الملابس العراقية من افضل الهدايا التي يقدمها حكام العـراق لحكام الاقطار الاخرى فأهتموا بهذه الصناعة واسسوا دورا خاصـة تشبه دور الطراز عند العباسيين لسد حاجتهم وحاجة الحاشية من الملابس وليقدموا منها الخلع لرجال الدولة وللضيوف •

اما أصناف الملابس والوانها فكانت تختلف باختلاف لابسيها وطوائفهم والمناسبات او الاوقات التي تلبس فيها فللحكام ملابسـهم الخاصـة كذلك للوزراء واركان الدولة وبقية الموظفين من القضـاة والعلماء والاسـاتذة وخطباء المساجد والكتاب والجند والصوفيـة وكذلك لكل مـن الاغنياء والفقراء ملابسهم الخاصة التي تميزهم عن بعضهم •

ان دخول حكام العراق في الاسلام جعلهم يقلدون الخلفاء المسلمين في ملابسهم لكنهم بالغوا في لبس الثياب الثمينـة وكانت اغلبهـا من الكمخا الملكي والملابس المزركشة بالذهب ذات الالوان الزاهية وكذلك ملابس الحاشية والمحيطين بالسلطان بل ان بعضهم بالـغ في الظهور بمظهر الابهة والجلال حتى لبسوا (الكسوة الذهبية) وكان القضـاة يتدخلون لمنعهم من ذلك باعتبار أنها محرمة شرعا على الرجال • اما الوزراء فكان بعضـهم يظهر التواضع فيلبس الملابس المصنوعة من الكرباس وهي ثياب من القطن الجيـد •

كانت خلعة نقيب الاشراف تتكون من قميص اسـود اطلس بطراز ذهب عريض سعة كمه ثلاثة اشبار واربع اصابع مع عمامة وثوب مطرز بالذهب وطيلسان وهو ثوب خال من التفصيل يجعل على الرأس فوق العمامة ويغطى به اكثر الوجه • ويلبس القضاة والمدرسون في المناسبات الرسمية الطرحات وهي خمار مقور من الشاش الموصلي ، ويلبـس علماء الشـريعة الطيالس وارباب الدولة كل واحد منهم قميصا ابيض وبقيارا ابيض وهو نوع من اغطية البدن يلبسه القضاة على وجه الخصوص •

وتختلف خلع العلماء باختلاف منزلتهم فبعضها يكون من القباء الاسود والعمامة الكحلية والمذهبة وبعضها يكون من جوخة (وهي ثياب من الجوخ) ، سقرلاط وقد حرص اساتذة تلك الفترة على الظهور بالمظهر اللائق فأولوا ملابسهم عناية خاصة بشكل يضفي عليهم طابع الهيبة والوقار فكانوا يلبسون اثناء التدريس الثياب السود ويضعون العمائم على رؤوسهم ٠

ومع ان خلع الدراويش والصالحين وشيوخ الربط كانت نفيسة في بعض الاحيان الا ان المتصوفة عموما وبخاصة القلندرية منهم تميزوا بملابسهم البسيطة الرخيصة الثمن وهي تتكون في الغالب من جبة بيضاء مبطنة مصنوعة من القطن تعرف بالقفطان مفتوح من الامام وله اكمام واسعة بافراط ويضعون على راسهم طاقية او ما يسمى اليوم (العرقجين) وكان بعضهم يميل الى الزهد فيلبس الصوف على جسمه وبعضهم يلبس العباءة ٠ وشاع في تلك الفترة ان السلطان او الامير اذا خلع على احد الصالحين كانت له شرفا يتوارثه ابناؤه من بعده مادامت تلك الثياب او شيء منها واعظمها في ذلك السراويلات ٠

وكان خطباء المساجد يلبسون الملابس السود ويعتمون بعمامة سوداء وعليهم طيلسان أسود ايضا ٠ اما ملابس اهل الطرب في اثناء الاحتفالات فكانت تتميز بجمالها والوانها الزاهية ٠

واذا تركنا الملابس الرسمية جانبا فان ملابس السكان كانت مختلفة ايضا ٠ فكان الموسرون يظهرون التجمل الزائد ويختارون الملابس المصنوعة من الابريسم (الحرير) والكتان والقطن وهي غالية الثمن بل ان بعضهم كان ينوع ملابسه بتنوع المناسبات واوقات النهار فكانوا يلبسون الثقيل منها في أول النهار والخفيف منها في آخره ويبدو من قول احد شعراء تلك الفترة :

تعتليه الكسا ثقالا فيلقيـ ـها خفافا في اخريات النهار
ويرى لابسا صنوف ثياب وهو ذو فاقة حليف افتقار

اما ملابس الفقراء عموما فكانت (خشنة) تتميز ببساطتها ورخص ثمنها وكانوا يتخذونها من الصوف او القطن الرخيص ومن الجلد احيانا وكان الفلاحون والرعاة منهم يلبسون (الكبنك) وهي عباءة من الصوف تغطي الكتفين والجسم . وفي الحمام يعطى الداخل اليه ثلاث فوط على ما يذكر ابن بطوطة احداها يتزر بها عند دخوله والاخرى يتزر بها عند خروجه والثالثة ينشف بها الماء عن جسده .

وكانت ملابس الرجال الداخلية تتكون على العموم من القميص والسروال ويتميزون على النساء بلبس العمامة وقد تضطر المرأة في بعض الاحيان الى لبس العمامة وخاصة في اثناء الحرب لايهام الاعداء بكثرة عدد المقاتلين .

وملابس النساء تمتاز بالبساطة والحشمة والالوان الزاهية وتتكون من قميص طويل وسروال طويل ايضا ويشد بعضهن قطعة من الحرير في الوسط وعند خروجهن الى الاسواق والمحلات العامة يخرجن ملتحفات متبرقعات او يضعن الخمار على وجههن وفي اثناء المناسبات او الاحتفالات والاعراس يضعن القناع وهو غطاء من القماش يغطي الرأس والوجه معا فلا يظهر منهن شيء لكن نساء المغول والاتراك لم يكن يغطين وجوههن.

ويقدم لنا الراهب الايطالي اودوريك Odoric الذي مر بالعراق بين ٧١٦ ــ ٧١٨هـ / ١٣١٦ ــ ١٣١٨م وصفا ممتعا لملابس السكان في بغداد وقد لاحظ ان الرجال يلبسون ثيابا فخمة في حين تلبس النساء ثيابا طويلة تصل الى الركبتين واردانها طويلة فضفاضة تكاد تكنس الارض كنسا وعليهن سراويل تصل الى الاقدام .

اما لباس الارجل فهي الجواريب والاحذية ويطلقون عليها الخفاف او النعال .

د ـ الاعياد والمناسبات

كان أول رمضان مناسبة تتجدد في كل سنة تعرض فيها التهاني للخليفة في اواخر العهد العباسي باعتباره رئيسا للدولة ورمزا لمؤسسات البلاد الدينية وتفتتح دور الضيافة في بغداد بهذه المناسبة ليوزع فيها الخبز واللحم على الفقراء ، وفي اليوم الاول من عيدي الفطر والاضحى تقام الاحتفالات ويجري استعراض الجيش . وبحلول الحكم المغولي الوثني لم نعد نسمع عن تهان تقدم لرئيس الدولة بمناسبة شهر رمضان ولا دور ضيافة تفتتح ولا بالجيش يستعرض ايام الاعياد رغم ان الحكومة الجديدة احترمت الاسلام كدين لغالبية السكان .

وفي ظروف القهر والتسلط كان لابد للفرد العراقي ان يجد متنفسا لهموم الحياة ومشاكلاتها اليومية فأولوا الاعياد والمناسبات الدينية اهتماما زائدا باعتبارها وسيلة ترفيهية تدخل البهجة والسرور الى النفوس وتعبر عن وحدة المجتمع وتماسك افراده وتمسكهم بالقيم والعادات الموروثة فكانت أيام رمضان مناسبة يهنيء المسلمون فيها بعضهم بعضا ويقيمون ولائم الافطار التي كانت مجالا لاجتماعهم والتباحث في شؤون الدولة وتوزيع الصدقات والطعام على الفقراء ويقدم الشعراء التهاني للاعيان كما يفهم مما ورد في ديوان صفي الدين الحلي .

وفي عيد الفطر المبارك الذي يبدأ في الاول من شوال حتى اليوم الثالث منه يخرج الناس مبكرين بملابسهم الجديدة لاداء فريضة صلاة العيد واعطاء الفطرة للفقراء ، ويتبادل الناس الزيارات والتهاني بهذه المناسبة .

وفي شهر ذي القعدة تبدأ الاحتفالات بحلــول موســم الحج حيث يستعد الحجاج للسفر مع المحمل الشريف يقودهم امير الحاج ويجتمع الناس لتوديعهم وقد ظلت هذه المناسبة تتجدد طيلة الفترة التالية لسقوط بغــداد بأستثناء فترات قصيرة لم يحج فيها العراقيون بسبب تردي العلاقات بــين المغول والحكومة المصريــة التي كانت تسيطر على الحجاز ايضــا وبسبب انقطاع طرق المواصلات وبخاصة أثناء حملات تيمورلنك (٧٣٦ ــ ٨٠٧هـ / ١٣٣٥ــ١٤٠٤ م) على العراق والشام وفي فترة التركمان •وعند عودة الحجاج من مكة يخرج الناس لاستقبالهم على الطريق الرئيسي ويحملون معهم الدقيق والخبز والتمر والفواكه لتوزيعها وتهنئة الحجاج بسلامة الوصول •

وحين يحل ذو الحجة يحتفل الناس في العاشر منه بعيد الاضحى (عيد النحر) ويلبسون ملابسهم الجديدة ويخرجون الى المساجد لاداء صــلاة العيد ثم يقومون بنحر الاضاحي وتوزيع لحومها على الفقراء ويتبادلــون الزيارات والتهاني فيمــا بينهم • وظل عيــد المولــد النبوي الشــريف من المناسبات التي يحتفل بها المسلمون ايضا هذا اضافة الى الاعياد الخاصــة بالطوائف الاخرى اذ ظل المسيحيون يحتفلون باعيادهم في المدن الرئيســة وخاصة بغداد واربيل والموصل وكان المسلمون يشاركونهم افراحهــم بهذه المناسبات •

واذا كان العراقيون يحتفلون بهذه الاعياد بعيدا عن مشاركة السلطة فأن جور الاقوام التي حكمت العراق كثيرا ما يؤدي الى مضايقة الناس في اثنائها فكان الرعاع منهم يذهبون الى بيوت الاغنياء ويطلبون منهم مايريدون وقد يتعرضون لهم بالاهانة • اما اذا لم يجدوهم في بيوتهم فأنهم يأخذون من تلك البيوت ما يشاءون •

والى جانب هذه الاعياد كان للعراقيين مناسبات عامة يظهرون فيها ابتهاجهم ، في حفل افتتاح مدرسة مثلا حيث تقام الولائم ومعالم الزينة وتنثر الدراهم ويتبارى الشعراء بالقاء قصائدهم او عندما يقوم احد الاعيان بزيارة احد المشاهد او المراقد حيث يجري توزيع الاموال والطعام على الفقراء وكذلك في احتفالات ختن الاولاد او الزواج حيث تقام الاعراس وتزين المحلات وتضرب الطبول والدفوف وتقام الولائم .

(٢)

العصر العثماني

د. طارق نافع الحمداني

كلية التربية ـ جامعة بغداد

المتتبع لمظاهر الحياة الاجتماعية في العراق خلال العهد العثماني يجد أن اكثرها كان امتدادا لما عرفه العراقيون والفوه في الحقب التي سبقت سقوط بغداد عام ٦٥٦/١٢٥٨ ، وما بعد ذلك، فمجموعة العادات والتقاليد والمجالس الادبية والالعاب والازياء والملابس والاحتفالات التي الفها الناس في القرون الماضية لم تتغير كثيرا ، وربما ظل معظمها محتفظا بصورته الاصلية ، وذلك كدليل على مدى محافظة الشعب العراقي على اصالته وتراثه من ناحية ، وصموده بوجه التيارات الاجنبية من ناحية اخرى .

على ان دراسة هذه المظاهر ابان العهد العثماني ليست امرا سهلا لان اكثر المؤرخين الذين تناولوا دراسة العراق لم يمسوا النواحي الاجتماعية الا عرضا ، وذلك من خلال اشارتهم للحوادث السياسية ، ولهذا فقد كان الاعتماد منصبا بالدرجة الاولى على ما كتبه الرحالة الاجانب الذين زاروا العراق في الفترة العثمانية . ومع ان هؤلاء لم يتغلغلوا في معرفة الظواهر الاجتماعية في العراق ولم يدرسوها دراسة عميقة او يطلعوا على تقاليد المجتمع العراقي اطلاعا دقيقا ، الا ان ما كتبوه يمثل في الواقع المفتاح لمثل هذه الدراسات .

المجالس الادبية

في الوقت الذي قلت فيه وسائل العلم والمعرفة الحديثة كالمدارس والمعاهد والجامعات ، وانعدمت فيه وسائل الاعلام كالاذاعة والتلفزيون والصحف والكتب والمجلات ، لم يكن امام الناس وسيلة لزيادة معرفتهم وثقافتهم سوى الحضور الى المجالس والندوات الادبية والعلمية التي كانت تعقد في المساجد في احدى حلقات رجال العلم البارزين ، كما هو الشأن بالنسبة لمجلس السيد علي الكيلاني، نقيب الاشراف في بغداد الذي كان ينعقد في ديوان الحضرة الكيلانية ، او في بيوت الفئات المثقفة في المجتمع ، التي تولي العلم واهله رعاية خاصة . وكانت هذه المجالس تضم اليها الناس من مختلف فئات المجتمع ، لا يجمع بينها الا حب العلم والادب ، وكثيرا ما تحولت هذه المجالس الى ندوات فكرية ، كتلك التي كانت تجرى في مجلس العلامة ابي الثناء شهاب الدين محمود الالوسي مفتي بغداد في النصف الاول من القرن التاسع عشر . اذ كان يختلف الى هذا المجلس رواد العلم والشعر والادب ، وقد لازمه الشاعران عبدالباقي العمري وعبدالغفار الاخرس اللذان صار لهما مجالس مماثلة فيما بعد ، مما كان له اعظم الاثر في انعاش الحركة الادبية والعلمية في العراق .

وظلت هذه المجالس تعقد ويفد اليها العلماء حتى اوائل القرن العشرين، بحيث صارت تقليدا يمارسه كثير من ادباء العراق المعروفين مثل معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي ويقول الدروبي متحدثا عن مجلس الرصافي :

(وعرف له البغداديون في عهد شبابه مجلسا حافلا عامرا في مجال الادب والفضل والشعر والقريض في مقهى الشط (المصبغة) يتردد عليه فيه رجال العلم وامراء البيان وفضلاء الادباء فكان مجمعهم اشبه بمنتدى للفكر والادب يتبارى فيه الشعراء ويتجاوب فيه الخطباء والبلغاء وتدور اسئلة

الادب والشعر ، وللاستاذ الرصافي القول الفصل والكلمة الحقة في ذلك وهو بطل حربها وسيد جمعها) •

ومع ان المجالس الادبية كانت في الغالب مجالس علمية وادبية بحتـة ولكنها كانت تخضع لرقابة شديدة من قبل السلطات العثمانية ، التي كانـت تخشى ان تتحول هذه المجالس الى اماكن مفتوحة لانتقادها ، الا اننا نجد ان قسما منها لم تتردد في بحث بعض المشـكلات الاجتماعية وايجاد الحلـول الناجعة لهـا •

وعرفت مدن العراق الاخـرى ، ولا سـيما الحلة والنجف الاشرف والموصل والبصرة ، مثل هذه المجالس الادبية والعلمية ، التي هيأت حيـاة جديدة للناس لم يألفها اولئك الذين عاشوا في القرون السابقة التي خيـم عليها ظلام الجهل في عهود السيطرة الاجنبية بعد سقوط بغداد حتى انهـا شبهت باسواق العرب المعروفة في عصر الاسلام وما قبله •

الالعـــاب

مارس العراقيون كثيرا من الالعاب المعروفة ، وكان ابرزها الفروسية التي اشتهر بها العرب في الماضي والحاضر • وخصصت لهذا الغرض اماكن معينة في المدن العراقية الكبرى ففي بغداد، عرفت الارض الفضاء الواقعة خارج باب المعظم وهو باب المدينة الاعلى ، بميدان العبد وكانت تجري فيه عروض الفروسية المتنوعة • في البصرة ، كان هناك سهل فسيح في جنوب البلدة ، يجتمع فيه البصريون ايام الجمع لممارسة العاب الفروسية وركوب الخيل ، ويمكن ان يقال الامر نفسه بالنسبة لمعظم المدن العراقية •

ومما يرتبط بالفروسية ايضا لعبة الجريد ، التي لقيت انتشارا واسعا في العراق ، لكونها لعبة عسكرية الطابع ، من شأنها تدريب لاعبيها على فـن الضرب والمبارزة • ولعبة الجريد هذه هي نوع مـن انواع السـباق بين

الفرسان الذين كانوا يجتمعون في مكان معين ، وعندها يتقدمون مزدوجين على ظهور الخيل نحو العدو لطعنه ويبحثون عن فرصة معينة لتسديد الضربة بخفة وقوة عظيمة . وكان هناك العديد من الميادين التي اعدت لهذه اللعبة ، بخاصة في بغداد ، التي عرفت الميدان الواقع خارج اسوار المدينة في اعلى بابها الشمالي كمكان للعبة الجريد .

ومن الالعاب المشهورة سباقات الرماية ، سواء بالقوس والسهام او بالاسلحة النارية . ففي بغداد كان هناك مكان واسع عند مقبرة الشيخ معروف الكرخي حيث يجتمع فيه الناس مرة في الاسبوع للهو وممارسة الرماية بالقوس والسهام . وقد اشاد الرحالة الاوربيون بالمهارة التي كان يتمتع بها العراقيون في استخدامهم للاسلحة النارية ، حيث كانوا يمتازون ببراعتهم في استعمال تلك الاسلحة حتى وهم على ظهور الخيل .

وعرف العراقيون ايضا العاب الكمال الجسماني والمصارعة اذ يجتهد الرجال والفتيان في تقوية اجسامهم بحمل الاثقال الخشبية الشكل بايديهم وبعضهم بالمصارعة ويرتدون في هذه الاثناء سراويل تمتد الى ابعد من ركبهم وهي مصنوعة من الجلد ، وهناك من يشرف على هذه الالعاب ويسمى بـ (الاستاذ) . وقد شاهد كلوديوس ريج القنصل الانكليزي في بغداد ، أثناء رحلته في شمال العراق ١٢٣٦هـ ــ ١٨٢٠م احدى مباريات المصارعة التي اقيمت هناك حيث اكتظت الساحة بالجمهور لمشاهدة المباراة، الا ان المتصارعين على ما يبدو لم يكونوا على المام كبير باصول المصارعة ، لكن الامر بمجموعه يظهر اهتمام العراقيين بالرياضة التي كانت هواية الشعب المستحبة .

وهناك كثير من الالعاب المنتشرة بين مختلف مستويات السكان ومنها لعبة الشطرنج والنرد ، التي عرفتها معظم المدن العراقية وكانت بغداد مركزا عظيما لها ، حيث تلعب في المقاهي وفي الاماكن العامة . وعلى المستوى نفسه هناك العاب شعبية عامة تقام في الساحات المكشوفة المحيطة بالاسواق مثل قتال الكلاب ومهارشة الديوك وغيرهـا .

الازياء والملابس

اذا القينا نظرة سريعة على ازياء السكان في العراق ابان العهد العثماني وحتى الوقت الحاضر نجدها تمتاز بالتنوع الشديد في اشكالها والوانها واثمانها ، وذلك كانعكاس طبيعي لكثرة الشرائح الاجتماعية والقومية الموجودة فيه وحريتها في ارتداء الازياء التي تنسجم مع اوضاعها الاجتماعية .

فملابس الاغنياء كانت تختلف عن ملابس الطبقات الوسطى والفقيرة ، واردية اهل المدن عموما لا تشبه تلك التي يرتديها ابناء الريف والبادية ، فضلا عن انه كان لكل طائفة ازياؤها التي تتميز بها عن غيرها من الطوائف الاخرى . وترك التفاوت الشديد في درجات الحرارة بين صيف البلاد وشتائها اثره في تنوع ملابس السكان ، حيث مالوا لارتداء الازياء التي تناسب كل فصل . وقد لفت هذا التنوع انظار معظم الرحالة الاجانب الذين زاروا العراق في الفترة موضوعة البحث ، فاولوه عناية كبيرة في ادبياتهم .

كان لباس البغداديين بصورة عامة يتألف من الملابس الفضفاضة وهو اكثر بساطة اذا ما قورن مع لباس غيرهم من شعوب الشرق ؛ ولكن من الملاحظ ان نوعية اللباس ، كانت تختلف تبعا لاختلاف فئات السكان . فلباس الاعيان والاغنياء والتجار كان يصنع في الغالب من المنسوجات الهندية كما يظهر ذلك في القفطان والسراويل والاردية الخارجية بينما يصنع لباس الصدر والرأس من الحرير . وكلهم يضع على كتفيه عباءة من شكل خاص، فتكون عريضة من دون اردان لكنها مزودة بفتحتين تمد منها اليدان عند الحاجة ، وتصنع من الصوف المحبوك في حياكته وتكون بيضاء او سوداء اللون ، وتمثل اللباس القومي الخاص . ولا يقل عنه استعمالا وتخصصا لبس العمائم البيضاء التي كانوا يضعونها على رؤوسهم بطريقة جميلة تدل على الفخفخة والاعتزاز .

اما عامة الشعب ، كما يشير فوصيل ، فقد كان يعلوها الرث من الثياب الوسخة والاسمال البالية ولكل من افرادها حزام جلدي يمسك بهذه الحزمة اللاصقة على اطرافه . وهو امر يـدل على التفـاوت في مستوى المعيشة آنذاك .

وكما هو الشأن بالنسبة للرجال الاغنياء في بغداد ، فان لباس نسائهم كان مؤلفا من الانسجة الثمينة المطرزة . فالسراويل كانت عريضة والقمصان التي تعلوها من الموزلين ، مطرزة بخيوط حريرية ذهبية اللون ، ومفتوحة من الامام . وفوق ذلك كان هناك رداء ضيق يغطي الظهر فقط، لا ينزل حتى الاسفل . ويستعملن بمناسبات زينتهن الكبرى قبعة كبيرة للشعر عاليــة ، مسطحة ودائرية من الامام ، ومائلة الى الوراء قليلا ، تعلوها مناديل موزلين منقوش ومطرز بالذهب او الفضة ، وقد تكون مزينة احيانا بالماس او باحجار ثمينة اخرى . اما في المناسبات البسيطة فلهن قبعة سـوداء كبيرة مخمليــة مائلة الى الخلف .

بينما ترتدي بقية نسوة بغداد في الغالب البسة بسيــطة اذ ليس لهن سوى قميص ازرق على الجسم ، ومنديل حول الرأس ويمشين دائما حافيات ويلبسن عباءة تسمى بـ (ازار) يغطي اجسامهن من قمة الرأس الى اخمص القدم ، بحيث لا يبدو منهن شيء . ويغطين وجوههن بقطعة من القمــاش الاسود (البرقع) المصنوع من شعر الخيل والمنسوج نسجا خفيفا يحجب الوجه عن اعين المارة حجبا تاما ولكن المرأة المحجبة بـه تستطيع في الوقت نفسه ان ترى جميع ما يمر امامها على الوجه الاكمل . وهذا الحجاب لاتلبسه نساء الطبقات الفقيرة من العرب وغالبا ما يعفين انفسهن من ذلك ، اذ كن يخرجن من دون حجاب ، وتبدو اذرعهن ووجوههن مليئة بالوشم الازرق ، الذي يدهن شفاههن باللون نفسه ايضا ، وقد يحلين مناخرهن بحلقات فضية او ذهبية .

وتعمد كل صنوف النساء وطبقاتهن الى صبغ شعورهن بالحناء ذات اللون الاحمر ، كما تخضب اصابع الكفين باللون نفسه ، في حين تبدو اظافرهن مصبوغة باللون الاسود ٠

ولا يختلف لباس اهل البصرة كثيرا عن لباس اهل بغداد ، اذ كانت الاردية والسراويل هي من لوازم البدلة الضرورية للفرد ٠ فلباس الرجال الموسرين منهم كان يتكون من السراويل الحريرية في الصيف ، بينما يلبسون الملابس الواسعة ذات الالوان الزاهية من الانسجة الهندية والكشميرية الغالية الثمن في فصل الشتاء ٠ كما يستعملون في فصل الشتاء عباءات سميكة سوداء اللون ، في حين تكون العباءة البغدادية الخفيفة المطرزة بخيوط بيضاء وحمراء غامقة هي ما يرتديه الجميع في فصل الصيف ٠

ويلبس الناس الاعتياديون ايضا السراويل الطويلة والقميص وفوق هذا رداء طويل ، اما على الرأس فيضعون الكوفية ، وهي قطعة مثلثة الشكل يعلوها (العقال) المصنوع من الصوف الاسود المبروم برما جزئيا مرتين او ثلاثا ٠ ويظهر بان هذا النوع من اللباس كان هو النوع الشائع بالنسبة للكثير من سكان مدينة البصرة ، وهو لا يختلف كثيرا عن مثيله من لباس سكان البادية ، باستثناء ان الاخيرين كانوا لا يلبسون السراويل لانها تعيق حركتهم ، واقدامهم عارية اذ انهم لا يلبسون النعال الا نادرا ٠

وترتدي المرأة البصرية في الغالب رداء واسعا يسمى (الهاشمي) على شكل مربع مفتوح مخطط او غير مخطط ٠ وتخفي المرأة وجهها بشبكة من القماش الاسود ، بخاصة نساء الطبقة الغنية ، في حين ان نساء الطبقات الاخرى لا يستعملن الحجاب ٠

ويتماثل لباس الرجال في الموصل مع اقرانهم في كل من بغداد والبصرة، حيث نجد ان السراويل كانت شائعة ايضا ، غير انها كانت مصنوعة في الاعم الاغلب من نسيج صوفي جميل عوضا عن الثياب القطنية المستخدمة في

المناطق الاخرى • اما النساء ، فقد لاحظ الاوربيون بانهن اقل تحفظا عن غيرهن من نساء المدن الاخرى فلم يكن يتقيدن بالحجاب ، كما هو الحال في بغداد • غير ان هذا لا يعني تماما بان النساء كن يخرجن بدون الرداء الازرق الواقي المتعدد الالوان او بدون النقاب الاسود المصنوع من نسيج شعر الخيل الذي يشد على الرأس ويغطي كل اجزاء الوجه •

اما بالنسبة للاكراد في شمال العراق فان البستهم تختلف اختلافا بينا بالنسبة لالبسة اشقائهم العرب • اذ ان ملابسهم بشكل عام اكثر شدا الى الجسم قياسا الى سعة وفضفضة سكان وسط العراق وجنوبه ، ويعود ذلك الى وعورة مناطق الاولين الجبلية وبرودتها • ويلعب السروال (الشروال) دورا رئيسيا في اللباس الكردي ثم يليه القميص القصير والحزام الملفوف على الوسط عدة مرات ولباس الرأس المتمثل بالعمامة الكردية الخاصة • ويظهر أيضا بين الاكراد استعمال الاحذية المحاكة من الصوف التي تنسجم مع طبيعة البلاد الجبلية ، وارتداء سترة قصيرة تسمى بالجاروقة (الجاروكة) ، التي لاغنى لكل رجل وامرأة كردية عنها ، لانها نوع من انواع المشالح او اردية التدفئة •

وبالنسبة للباس المرأة الكردية فانه يشتمل عادة على السراويل العريضة وعلى ثوب فضفاض يحزم بحزام ذي عروتين كبيرتين من الفضة او الذهب ، ويلبس فوق ذلك المشلح (من نوع الصدرية) ، الذى يزرر عند الرقبة ولكنه يترك غير مزرر من الرقبة حتى الاذيال ، ويخاط عادة من الحرير المخطط او المشجر او من النسيج الملون وذلك يختلف باختلاف الموسم او ثراء صاحبة اللباس وكما هو الحال بالنسبة لبقية النساء في العراق ، فان المرأة الكردية ترتدي ازاراً ازرق محققا ، ونقابا أسود من شعر الخيل •

اما لباس البدو والفلاحين ، فهو لباس بسيط جدا يتألف عادة من ثوب فضفاض طويل وتغطى الرؤوس بالكوفية يمسكها العقال ، وتوضع العباءة

فوق الاكتاف على ان لباس الرأس مفيد للبادية ، لانه يخفف من تأثير الحرارة والبرودة في فصلي الصيف والشتاء ، وبهذا ينتفع به للحماية في كلتا الحالتين .

وملابس البدويات ايضا تمتاز بالبساطة وتتلاءم ملاءمة تامة مع نمط حياتهن وهي تتألف من قمصان عريضة واسعة الاكمام وطويلة تصل حتى اخمص القدمين ، تلبس النساء فوقها العباءة كتلك التي يلبسها الرجال . اما الارجل فتبقى حافية في حين يغطى الراس بمنديل من القطن او الحرير من الوان مختلفة ، والبدويات شأنهن في ذلك شأن نساء الطبقات الاخرى كن يلبسن الاساور والخلاخيل الثقيلة ، وحلقات يعلقنها بانوفهن ، الا انها في الغالب لم تكن غالية الثمن .

ويشترك جميع العراقيين ، رجالا ونساء ، في تفضيلهم للالوان الزاهية والاقمشة الفاخرة في ملابسهم ، وظل هذا التفضيل قائما بصورته الحية حتى الوقت الحاضر رغم ما طرأت عليه من تغيرات ، وقد سدوا حاجتهم في هذا المجال مما كانت تستورده اسواق المدن العراقية من الهند والشام واوربا ، فضلا عما تقدمه الصناعة المحلية من منتوجات فاخرة .

الاعياد والمناسبات الاجتماعية

تعد الاعياد والمناسبات الاجتماعية الاخرى في العراق ابان العهد العثماني من اهم المظاهر التي تعبر عن وحدة المجتمع العراقي ، على الرغم من تعدد طوائفه ومكوناته ، حيث كان الجميع ومايزالون يشتركون في الاحتفال باعياد كل طائفة ، متجاوزين الفروق الدينية او القومية القائمة بينهم . كما كانت مثل هذه الاعياد والمناسبات وسيلة الفرد العراقي في الترفيه عن نفسه وسط ظروف الحياة الصعبة سعيا وراء الرزق ، ووسط حالة الصراعات المستمرة التي كان يحفل بها عصره بين الولاة ومنافسيهم او بين الولاة والشعب .

ويمكن التمييز بين نوعين من الاحتفالات العامة ، فالاولى هي الاحتفالات الرسمية التي كانت تقيمها الطبقة العثمانية الحاكمة في العراق ، دون ان يكون للشعب العراقي اي مساهمة فيها ، لانها تتعلق عادة بمناسبات لاتعنيه بشيء مثل عيد ميلاد السلطان العثماني ، او اعتلائه العرش ، او بمناسبة وصول ولاة جدد الى الولايات العراقية . ويبدو ان العثمانيين على حد قول احد الرحالة الاوربيين ، كانوا يبالغون كثيرا بالمظاهر الخارجية ، وفي اجراء المراسيم والاحتفالات الكبيرة لاجل ان يعطوا انطباعا عن قوة وعظمة مملكتهم فعند مجيء وال جديد مثلا كان يخرج لاستقباله عدد كبير من الجنود والموظفين الرسميين . وفي المواكب رايات كثيرة ، وطبول وابواق وازياء غريبة ، وغيرها من المراسيم الاخرى .

اما النوع الثاني من الاحتفالات العامة ، فهي المناسبات الشعبية التي يغلب عليها الطابع الديني مثل الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف وعيدي الفطر والاضحى ويشترك فيها جميع العراقيين في المدن وفي الارياف اعتزازا بهذه المناسبة الشريفة . ففي المولد النبوي كانت تقام المناقب النبوية في المساجد الرئيسية في بغداد والمدن الاخرى وتضاء المآذن بالمصابيح ، وتوقد القناديل الكثيرة في الدروب والاسواق وتتدفق الحشود المختلفة الى هذه المساجد تعبيرا عن فرحتها بالمناسبة .

اما بالنسبة للاحتفالات المقامة بمناسبة العيدين فهي اعم واشمل ، ذلك لانها تتخذ صورا مختلفة للاحتفال بها . فحالما يتم التثبت من رؤية شهر رمضان ، تبدأ زيارة الاضرحة المشهورة والصلاة في مساجدها ، ويجري تزيين المساجد والمآذن بالمصابيح ، وتوقد القناديل الكثيرة في الدورب والاسواق في المدن العراقية ، وتضاء شواطيء نهر دجلة حتى تبدو المباني القائمة على تلك

الشواطيء وكأنها شعلة من نور • وتتجمع الناس في الميادين العامة فتتعالى اصوات المرح ، وتوقد النيران والقناديل ، وتمارس عندها النشاطات الترويحية من غناء وموسيقى ورقص ، مما كان يثير اعجاب الرحالة الاجانب الذين كانوا يمرون بالمدن العراقية في تلك المناسبات •

وفي صباح اول يوم من ايام العيد تطلق المدافع ايذانا ببدء الاحتفالات ويتم التوجه الى المساجد لاداء صلاة العيد • ومن ثم يتوارد المهنئون لتقديم التهاني لبعضهم البعض ، وتقوم العوائل بزيارة اهليها واقاربها طوال المناسبة •

وفي الايام التي تعقب العيد ، وبخاصة في فصل الربيع ، يخرج سكان المدن في احتفالات شعبية اخرى ، لزيارة مقامات الاولياء والصالحين المتناثرة هنا وهناك ، وذلك كوسيلة للتعبير عن فرحهم واتخاذ مثل هذه المناسبات وسيلة للخروج على اسر القيود الاجتماعية المفروضة على كثير من العوائل •

وفي الارياف ، شأنها شأن المدن ، تجري الاحتفالات فيها بمناسبة العيدين • ويذكر لنا الرحالة الاوربيون وصفا ممتعا عن تلك الاحتفالات اذ اذ شاهد كل من فنشنسو وسبستياني الاحتفالات الجارية بعيد الاضحى في أحد قرى السماوة عند مرورهما بها عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م • اذ شاهدا الفتيات العربيات يرقصن اثنتين اثنتين ، ثم تصعد احداهن على كتف رفيقتها وهي تضرب الدف الذي تمسكه بيدها بينما ترقص الفتاة الاخرى وتقفز ببراعة ، وكانت الفتيات يرقصن كلهن على ايقاع واحد متناسق •

وهناك احتفالات سنوية تجري في مناسبات عامة منها (عيد الربيع) الذي يصادف في بداية فصل الربيع ، وللاكراد في هذه المناسبة تقاليد خاصة ؛

اذ تستمر الاحتفالات به لمدة ثلاثة ايام كاملة ، وفيها يخرج الناس الى الارض العراء لاقامة الحفلات واداء ضروب التسلية •

ولا تقل الاحتفالات المقامة بمناسبة سفر الحجاج وعودتهم بهجـة عن مثيلاتها من المناسبات الاجتماعية الاخـرى • اذ كانت جموع المودعـين والمستقبلين تفد باعداد كبيرة لهذه الغاية •

المصـــادر

١ ـ ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة (بيروت ١٩٦٤) .

٢ ـ ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية (بيروت ١٩٦٦) .

٣ ـ ابن الفوطي (منسوب له) ، الحوادث الجامعة ، تحقيق مصطفى جواد (بغداد ١٣٥١) .

٤ ـ ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ، تحقيق مصطفى جواد ، (دمشق ١٩٦٥) .

٥ ـ اداموف ، السكندر ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ترجمة الدكتور هاشم التكريتي (البصرة ١٩٨٢) .

٦ ـ أدموند ، سي ، جي ، كرد وترك وعرب ، ترجمة جرجيس فتح‌الله (بغداد ١٩٧١) .

٧ ـ آل ياسين ، محمد مفيد ، الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري (بغداد ١٩٧٩) .

٨ ـ اوليفيه ، الرحالة الفرنسي اوليفيه يصف بغداد عام ١٧٩١ ترجمة يوسف حبي مجلة المورد العدد ٤ (١٩٨٢) .

٩ ـ الايوبي ، ياسين ، صفي الدين الحلي ، (بيروت ١٩٧١) .

١٠ ـ بدر ، مصطفى طه ، مغول ايران بين المسيحية والاسلام (القاهرة د . ت) .

١١ ـ بكنغهام ، جميس ، رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦ ، ترجمة سليم طه التكريتي (بغداد ١٩٦٨) .

١٢- بيير دي فوصيل ، الحياة في العراق منذ قرن ١٨١٤ - ١٩١١ ترجمة اكرم فاضل (بغداد ١٩٦٨) .

١٣- الجادر ، وليد محمود ، الازياء الشعبية في العراق (بغداد ١٩٧٩) .

١٤- جاكسون ، مشاهدات بريطاني في العراق سنة ١٧٩٧ ، ترجمة سليم طه التكريتي (بغداد . د . ت) .

١٥- الحجية ، عزيز ، بغداديات (بغداد ١٩٦٨) .

١٦- حسن ، جاسم محمد ، وقائع احتفالات ولاية بغداد بالمناسبات الرسمية والدينية ، مجلة المورد العدد ٣ (١٩٨٢) .

١٧- الحلي ، صفي الدين ، ديوان صفي الدين الحلي (بيروت ١٩٦٢) .

١٨- خصباك ، جعفر ، العراق في عهد المغول الايلخانيين (بغداد ١٩٦٨) .

١٩- خليل ، نوري عبدالحميد ، العراق في العهد الجلائري ، رسالة ماجستير غير منشورة (بغداد ١٩٧٦) .

٢٠- خليل ، نوري عبدالحميد وحسن فاضل زعين ، الثقافة العربية في العراق في العهد الجلائري (مجلة دراسات للاجيال ١٩٨٤) .

٢١- خورشيد افندي ، ولاية البصرة في كتاب سياحة نامة حدود ترجمة نوري السامرائي (البصرة ١٩٨١) .

٢٢- الدروبي ، ابراهيم ، البغداديون ، اخبارهم ومجالسهم (بغداد ١٩٥٨) .

٢٣- رحلات سبستياني الى العراق في القرن السابع عشر ترجمة بطرس حداد ، مجلة المورد العدد ٣ (١٩٨٠) .

٢٤- رحلة تايلر الى العراق سنة ١٧٨٩ - ١٧٩٠ ترجمة بطرس حداد ، مجلة المورد العدد ١ ١٩٨٢ .

٢٥- رحلة الى ما بين النهرين في مطلع القرن التاسع عشر ، عن رحلة وليم هيود ، ترجمة البير ابونا ، مجلة ما بين النهرين العدد ٥ (١٩٧٤) .

٢٦- رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر ترجمة بطرس حداد ، مجلة المورد ، العدد ٣ (١٩٧٦) .

٢٧- رحلة مدام ديولافوا الى كلدة - العراق سنة ١٨٨١ ترجمة علي البصري (بغداد ١٩٥٨) .

٢٨- ريج ، كلوديوس ، رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠ ترجمة بهاء الدين نوري (بغداد ١٩٥١) .

٢٩- الصياد ، فؤاد عبدالمعطي ، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني (القاهرة ١٩٦٧) .

٣٠- العزاوي ، عباس ، تأريخ العراق بين إحتلالين (بغداد ١٩٣٦) .

٣١- العزاوي ، عباس ، تاريخ الادب العربي في العراق (بغداد ١٩٦١) .

٣٢- العطار ، عماد عبدالسلام رؤوف، الحياة الاجتماعية في العراق ابان عهد المماليك ١٧٤٩ - ١٨٣١ (القاهرة ١٩٧٦) .

٣٣- العلاف ، عبدالكريم ، بغداد القديمة (بغداد ١٩٦٠) .

٣٤- العمري ، سعاد هادي ، بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة (بغداد ١٩٥٤) .

٣٥- الغياثي البغدادي ، التأريخ الغياثي تحقيق طارق نافع الحمداني (بغداد ١٩٧٥) .

٣٦- فريزر ، جيمس بيلي ، رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ ترجمة جعفر الخياط (بغداد ١٩٦٤) .

٣٧- القزاز ، محمد صالح ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية (النجف ١٩٧٠) .

٣٨- القلقشندي ، صبح الاعشى ، (الطبعة الاميرية) .

٣٩- المازندراني ، عبدالله بن محمد ، رسالة فلكية (بادن ١٩٥٢) .

٤٠ـ مشاهدات تكسيرا في العراق سنة ١٦٠٤ تلخيص وترجمة جعفر الخياط، مجلة الاقلام الجزء ٤ (١٩٦٤) .

٤١ـ مطلوب ، احمد ، النقد الادبي الحديث في العراق (القاهرة ١٩٦٨) .

٤٢ـ نيبور ، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة محمود الامين (بغداد ١٩٦٥) .

البحث الخامس

المرأة وأثرها في المجتمع

(١)

حقبة الغزو المغولي

د . نوري عبد الحميد خليل
كلية التربية ـ جامعة بغداد

الحق الغزو المغولي ضررا بالغا بمكانة المرأة العراقيـــة وبالحرية التي كانت تتمتع بها في ظل الدولة العربية الاسلامية ، فقد قتل المغول عند دخولهم بغـداد أعدادا كبيرة منهن • وتذكر بعض المصادر ان احد المغول عثر في شارع جانبي على اربعين طفلا حديثي الولادة ، قد قتلت امهاتهم فأجهـز عليهم • كان مـن الطبيعي ان تتردى مكانة المرأة في ظل الحكم المغولي الوثني ، وقد عرف سلاطينهم بالاباحية وعدم تورعهم عن الاعتداء على نساء او بنات اقرب الناس اليهم • فكلما رأو فتاة من محارمهم واعجبوا بها تزوجوها ، واي امرأة سمعوا بجمالها اخذوها من زوجها طوعا او كرها • ولم يكن الجلائريون بأفضل مـن المغول في اضطهاد المرأة وملاحقتها فصار سلاطينهم يختطفوهن من الاعراس ، ثم جاء التركمان فشددوا في ذلك ، وقد وصفت المصادر المعاصرة حكامهـم بالفسـق والفجـور •

وفي مثل تلك الظروف برز دور النساء الفارسيات والتركيات بمخالطتهن الرجال واسهامهن في حبك المؤامرات والدسائس واعمال التجسس ، فزاد تأثيرهن في الحياة السياسية والاجتماعية ، وانتشر الجواري والخدم من الروم والترك والهنود والكرج وغيرهم .

وبرغم تلك الظروف القاسية فان المرأة العراقية لم تنزو او تتخل عن حريتها وممارسة دورها في الحياة بصورة كلية . فقد ظلت تساهم مع اخيها الرجل في مقاومة الغزاة تحثه على المقاومة وتشجعه على الصبر ومقاومة الاعداء والذود عن تراب الوطن . وظلت تناضل من اجل استعادة وضعها الطبيعي وخاصة بعد دخول المغول في الاسلام واضطرارهم الى التقيد بشعائره ومجاراة القيم والتقاليد العربية المتعلقة بالاسرة . غير ان دافع الشك والحذر ادى الى تشدد بعض الاسر العراقية في الشروط التي تطلبها عند زواج بناتها وتغالي في المهر الذي شهد ارتفاعا ملحوظا في تلك الفترة ، حتى بلغ عشرة الاف دينار في بعض الاحوال .

كذلك تشددوا في وضع الشروط التي تعطى للفتاة كلمة نافذة من ذلك رابعة بنت احمد بن المستعصم بالله العباسي التي تزوجها هارون ابن شمس الدين الجويني سنة ٦٧٠هـ ــ ١٢٧١م، فأشترطت والدتها قبل الزواج ان لا يشرب الخمر، وان ينص عقد الزواج على اعتبار ابيها وجدها شهيدين . فتم عقد الزواج بحضور قاضي قضاة بغداد وجماعة العدول والمشايخ بصداق مقداره مئة الف دينار ذهبا عينا ، وهو مبلغ لم يسمع به من قبل .

اما والدتها شمس الضحى بنت عبدالخالق الايوبية (ت ٦٧٨هـ ــ ١٢٧٩م) ارمله المستعصم بالله، فكانت قد تزوجت علاءالدين عطا الجويني صاحب ديوان العراق . فقامت بتأسيس المدرسة العصمتية في ظاهر بغداد وانشأت الى جانبها تربة ورباطا للمتصوفة ورتبت لها المدرسين . وكانت كثيرة الصدقات والاحسان والمبرات تحب اهل بغداد وترعى مصالحهم وتقضي حوائجهم

وتساعدهم مما يدل على ان المرأة العراقية اخذت تستعيد حريتها ودورها الانساني ، فمال قسم منهن الى الزهد والعبادة والصلاح واعمال الخير • وقد صادف ابن بطوطة الذي زار العراق سنة ٧٢٧هـ-١٣٢٦م وسنة ٧٤٨هـ-١٣٤٧م الكثير منهن واشاد بمركزهن الاجتماعي ، وقال ان الفقراء يقومون بخدمتهن ومصاحبتهن الى الحج • كذلك اسهمن في اعمال الخير كبناء العمارات والمدارس ودور الشفاء والربط والمشاهد وقمن بتعيين المدرسين والاطباء على نفقتهن الخاصة وخصصن الاوقاف الكثيرة لها ، وكانت بيوت بعضهن ملتقى العلماء والادباء واصحاب الحاجة من الفقراء وغيرهم •

وعلى الرغم من انخفاض المستوى الفكري للمرأة بحكم ظروف التسلط والاضطهاد فقد تميز عدد منهن بالذكاء والحافظة وسعة الفكر ، وفي كتب التراجم اسماء العديد ممن عشن في تلك الفترة وتولين مشيخة الربط وكان بينهن زاهدات وعابدات يذهبن الى الحج ويقمن الصلاة ويقرأن القرآن ويعلمن الناس التجويد ، ويحضرن مجالس الوعظ وبرز منهن محدثات بارعات ، وكاتبات بخطهن الحسن وفقيهات وعالمات يمنحن الاجازة لطلاب العلم •

ولم يكن دورهن محدودا في هذا المجال ولا في اعمال البيت ، بل كن يشاركن الرجال في اعمالهم اليومية ويتولين اعمال ازواجهن حين يتعرضون لمطاردة السلطات وملاحقتها ، ويدفعن الضرائب بدلا عنهم ، ويأخذن بثأرهم • ويمارسن البيع والشراء في السوق ، وكان اشد ماتخشاه المرأة العراقية هو ان تستدعى الى الديوان للتحقيق معها في احدى التهم فكانت تفضل الموت على ذلك •

وفيما يتعلق بالزواج وشؤون الاسرة ظلت تسير طبقا للشريعة الاسلامية والتقاليد العربية الموروثة • فكان الاكتفاء بزوجة واحدة هو الاكثر شيوعا ، ومن الصعوبة جمع زوجتين في بيت واحد • وكان العراقي يفضل الزواج من ابنة عمه او احدى قريباته ، فأن تزوج اخرى فعليه ان

يهيىء لها دارا خاصة ، وقد يتعرض لبطش عائلته واقاربه في بعض الاحيـــان .
وظلت الخلافات الزوجية تحال الى القاضي كما كانت في العهود السابقة .

ولم يكن الخروج على القيم الاجتماعية والتقاليد العربية يمر دون عقاب فكانت من تخطيء تتعرض للعقا بالصارم ، كأن تحصب مع الخاطىء او ترمى في جب لتهلك فيه، او تقتل قتلة شنيعة . وكان مجال الاختلاط بين المـــــرأة والرجل نادرا ، وبخاصـــــة اثناء الاحتفالات والاعراس حيث تجرى احتفالات النساء بمعزل عن الرجـــال . الا ان هناك بعض المجالات والمناسبات التي تزول فيهـــا تلك القيود، مثل مجالس الوعظ في المساجد وتكايا الصوفية ، وكذلـــك الاسواق العامة لكنها كانت تظهر هناك محجبـــــة .

(٢)

العصر العثماني

د . طارق نافع الحمداني

كلية التربية - جامعة بغداد

عانت المرأة العراقية كثيرا من ضروب الاضطهاد والاستغلال والاستعباد والتخلف الذي عاني منه شعبنا في الفترة التي خضع فيها للتسلط العثماني ما بين ٩٤١ الى ١٣٣٣هـ / ١٥٣٤ الى ١٩١٤م .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد استطاعت المرأة العراقية ان تسهم في بعض المجالات الى جانب الرجل في ميدان العمل والبناء وان تتجاوز حالة التخلف والقيود المفروضة عليها . ولذلك فان مسحة عامة لمثل تلك الظروف ومقدار مساهمات المرأة فيها هي التي ستكون موضوع اهتمامنا في هذا المجال .

ظلت المرأة العراقية طوال العهد العثماني اسيرة العادات والتقاليد البالية التي لا تعطي للمرأة قيمة بشرية اذ ينظر اليها في مستوى اقــل من مستوى الرجل ، ويتوجب عليها ان تعيش داخل جدران بيتها ، واذا ما خرجت منه عليها ان تلبس الحجاب الذي ترى من خلفه العالم ، وعلى الرجال ان يتجنبوا

ذكرها في المجالس العامة ، لان مجرد الحديث عن النساء يعد خروجا على الادب وولوجا في اسرار البيوت . ولهذا عوض بعض الشعراء والادباء هذا النقص باختراعهم شخصيات نسائية من بنات افكارهم ينسجون حولها القصص الادبية والاشعار استجابة منهم لضرورات عصرهم ، أو الكتابة عن شهيرات النساء في التاريخ ، دون التطرق الى ذكر اي من نساء عصرهم .

ولم تكن عزلة المرأة مقتصرة على الحجاب فقط ، بل انها تعيش في عزلة تامة عن الرجال ، حتى داخل بيتها . أذ تقيم النساء في اماكن خاصة من البيت ولايمكنها الالتقاء بالرجال ، وفي هذه الاماكن لا يفتح اي منفذ مطل على الطريق . وتجاه ذلك لم يبق للمرأة من سبيل للترويح عن نفسها سوى الزيارات الجماعية التي تقام بصورة دورية وعندما يأذن الزوج بذلك فقط . وقد يخرجن احيانا من الدار في غير هذه المناسبات وذلك للذهاب الى الحمامات العامة ، التي كانت متوفرة باعداد كبيرة في بغداد وفي المدن العراقية الاخرى ، ولكن في هذه الحالة عليهن بالتستر من اعلى الرأس حتى اخمص القدم حتى ليتعذر على ازواجهن انفسهم تميزهن اذا لاقوهن في الطريق .

وكان من الطبيعي ان ينعكس هذا النمط من الحياة على مستوى الوعي الاجتماعي لدى المرأة بشكل عام ، ذلك لان مجرد قضائها للوقت بالقيل والقال وتكرار الزيارات ، قد اثر على مستوى تفكيرها ، بحيث لم يعد بامكانها ان ترتفع الى اعلى من نطاق تعلمها المحدود ، او ان تتخذ القرار المناسب في مسألتين مهمتين من مسائل حياتها الا وهما الزواج والتعليم .

ففي مسألة الزواج حرمت المرأة حق اختيار زوجها في المدن وفي الارياف على حد سواء ، وانما كان وليها يفرض عليها زوجا ، غالبا ما يكون ابن عمها

او اقرب المقربين اليها، او شخصا لم تره ولم تعرف عن اخلاقه شيئا ، وقد تسبب هذا الامر بكثرة الطلاق ، وفي تربية الاطفال وتوجيههم • أذ تشير كثير من الحوادث الى ان جهل المرأة باساليب التربية الصحيحة يؤدي في الغالب الى وفاة عدد كبير من اولادها ، سواء بسبب اسرافها الشديد في اطعامهم ، او سوء التغذية ورداءة البيئة وعدم الوقاية من الامراض ، وكان معظم اهتمام الام منصبا على محاولة اطالة اعمار اطفالها بمختلف الوسائل البدائية ، بحيث يمكن القول دون مبالغة بانه لا يعيش منهم الا شديدو القوة الذين يستطيعون التكيف لظروف الحياة القاسية • ولكن يتوجب القول في هذا المجال بأن المرأة العراقية التي اخذت على عاتقها — في الماضي والحاضر — أمر العناية بالاولاد وتربيتهم قد اخلصت في ذلك كثيرا ، ولم تدخر في ذلك وسعا •

وفي مسألة التعليم لم يكن الامر اقل وطأة مما هو عليه في حالة الزواج • فقد كانت فرص التعليم للمرأة اقل من فرص الرجل ، لذلك فأن اكثر تلقينها كان منصبا على معرفة امور الخياطة والتطريز وما شابه تلك الاشياء التي تعد ضرورية اكثر من سواها للانـاث في مثل ظروفها • أما فرص التعليم الحقيقية فقد احيطت بتقاليد صارمة حرمت المرأة من تعلم القراءة والكتابة لانها تؤدي — حسب نظرة المجتمع السائدة في ذلك الوقت — الى افسادها • وقد كتب البعض في هذا الموضوع مشيرا الى خطورة تعليم النساء القراءة والكتابة ، وذهب الى ابعد من ذلك بقوله : (فاللبيب من الرجال هو من ترك زوجته في حالة من الجهل والعمى ، فهو اصلح لهن وانفع لان حصولهن على ملكة الكتابة هو من اعظم وسائل الشر والفساد) •

وهكذا ادى تزمت فئات مهمة من المجتمع العراقي في الحفاظ على بعض الاساليب والعادات البالية ، الى تأخر المرأة وحرمانها من حقها الطبيعي في

التعلم اسوة بشريكها الرجل ، وظلت المرأة العراقية على تلك الحالة حتى اواخر القرن التاسع عشر ، عندما كتب الحظ ان ينشيء لها مدرسة في بغداد. الا ان انشاء مثل هذه المدرسة لم يمر دون ان تصاحبه عقبا تعديدة ، من قبل الطبقات المحافظة على القديم ، التي كانت تتهم كل من يقوم بارسال طفلته الى المدرسة بشتى التهم الباطلة . ورغم ذلك كله فقد تم فتح هذه المدرسة، الا ان مجلس معارف ولاية بغداد بحث عندئذ الشروط التي يجب توفرها في تلك المدرسة فقرر حصرها في الشروط التالية : ـ

١ ـ ان لا تكون احدى الدور المجاورة لها متسلطة عليها .

٢ ـ ان لا تكون شبابيكها مطلة على الشارع .

٣ ـ ان لا يكون في الدور المجاورة اشجار عالية .

وكانت الدوافع لوضع هذه الشروط هو تجنب الانتقادات الموجهة الى مؤيدي فكرة وجوب تهذيب الفتاة وتثقيف عقلها ، الا ان الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي ، الذي كان احد اعضاء المجلس المذكور قد ظل صامتا اثناء مناقشة الاعضاء ـ وكان معظمهم من المحافظين ـ فلما سكتوا قال متهكما (ان هذه الشروط ياحضرات الاعضاء لا تنطبق الا على منارة سوق الغزل) .

وهكذا تكشف لنا هذه الرواية عن روح الجمود والتزمت التي كانت تحيط بمسألة تعليم المرأة ، بحيث ان الزهاوي نفسه لم يسلم من انتقادات المجتمع اللاذعة . ولما صادف ذلك وقت قيام الزهاوي بنشر احدى مقالاته في جريدة (المؤيد) المصرية ، وهي تدعو الى تحرير المرأة في العراق ، وفك اسرها ومساواتها بالرجل ، على طريقة المفكر المصري قاسم امين ازدادت حملة المعارضة الموجهة ضده بحيث اضطر الزهاوي على التراجع عن افكاره .

وبهذه النتيجة ظل وضع المرأة العراقية في العهد العثماني في غايـة التأخر ، مما منعها من ممارسة دورهـا الحقيقي في المجتمع كـأم ومربية ناجحة ومتعلمة .

وعلاوة على ذلك فأن العادات والتقاليد البالية تناهض وتحرم كل تدخل في شؤون المرأة . اذ عندما ارادت الادارة العثمانية في العراق عملية احصاء النفوس في عام ١٨٩٣ ، جوبهت بمقاومة عنيفة . أذ ان الناس اعتبروا بان مثل هذا العمل هو انتهاك للحرمات وبدعة تمس شرفهم وتحط من قدرهم وكرامتهم ، فخرجوا في الشوارع وتوجهوا الى حيث يقيم الوالي العثماني ، مطالبين بالغاء قرار الاحصاء المذكور ، ولم يتفرقوا الا بعد ان قرر الوالي تأجيل النظر فيه . ولم تكن هذه الحادثة مقتصرة على بغداد ، بل حدث ما يماثلها في الموصل ، أذ قاوم الموصليون عملية احصاء الذكور والاناث في الولاية ، مما اضطر الوالي العثماني على التنازل عن العملية نهائيا .

وبهذه الصورة فرض المجتمع كثيرا من القيود على المرأة في الوقت الذي اباح امورا اخرى كانت تحط من كرامتها وقدرها . فقد وضع القيود على حرية تعليم المرأة ، ومنع عملية احصاء الاناث بحجة ان ذلك يمثل امتهانا لكرامة الرجل ، والحقيقة انه امتهان لكرامة المرأة اكثرمن غيرها . كما شجع استمرار بعض العادات والتقاليد البالية التي تقلل من قيمة المرأة وتظهرها بمظهر الضعف والعجز ، مما ادى الى جعلها فريسة سهلة بيد المشعوذين والدجالين ومدعي الخوارق ، الذين وجدوا من جهل المرأة العراقية وقلة ثقافتها وسيلة لترويج خرافاتهم واقاويلهم .

ومع كل هذه الظروف الصعبة التي عاشتها المرأة العراقية ، الا انها لم تقف مكتوفة الايدي ازاء ما كان يجري في مجتمعها ، فهي في بعض الاحيان تقوم بكثير من الاعمال التي يقوم بها الرجل في الوقت الحاضر ، الا ان مساهمتها اختلفت باختلاف وضعها في المدينة والريف والبادية .

فنساء الطبقات العليا في المدن مثلا لم يكن مطالبات للقيام بنشاطات اقتصادية ، كتلك التي تمارسها النساء في الطبقات الوسطى والفقيرة ، ولهذا انصرفهن الى مزاولة شؤونهن النسوية الخاصة ، مثل الافراط في اقتناء الملابس المختلفة والمجوهرات وتناول القهوة والتدخين والقيام بزيارات جماعية لبعضهن البعض ، وقد يصحب تلك الزيارات استدعاء المغنيات لادخال البهجة الى نفوس الحاضرات . اما نساء الطبقة الدنيا ، والوسطى احيانا ، فانهن يمارسن بعض النشاطات ، بخاصة في صناعة الغزل المنزلي . بل كانت هناك في بعض مصانع النسيج نساء يعملن في هذه المهنة الشاقة ، وكن يعمدن ــ كما يقول تكسيرا ــ الى مشاركة الرجل في غزل الصوف بالمغازل ومن ثم غزله بالدواليب (الجومات) . وكانت هذه الصفة الاخيرة هي من مميزات المجتمع الموصلي ايضا ، الذي كان يعتمد في اقتصاده على صناعة الغزل ، بحيث كان يعتبر ان عدم معرفة المرأة بالغزل عيب لا يغتفر في تربيتها المنزلية .

وتتحمل المرأة الريفية قسط كبيرا من اعمال البيت في الداخل والخارج. ففي الداخل تقوم المرأة بتهبيش القمح (فصل الحبوب عن قشرتها) وطحنه بمطاحن تدور بالاذرع ، وتهيئة الخبز ، واستخلاص الزبد من الحليب ، والقيام باعمال الطبخ وجلب المياه من الابار والانهار او الينابيع الى غير ذلك .

وفي الخارج تقوم المرأة بمساعدة الرجل في اعمال الحراثة والزراعة والحصاد وجني المحاصيل الاخرى ، وفي رعي المواشي ورعاية الحيوانات . بل قد يقمن في بعض الاحيان ، بخاصة اولئك اللواتي يقمن بالقرب من مراكز المدن ، بحمل بعض مشتقات الحليب والدجاج والبيض لعرضها للبيع هناك . وقد ادت هذه الاعمال الشاقة الى ان تفقد المرأة القروية كثيرا من سمات الجمال والجاذبية . وكان هذا الامر مثار اعجاب كثير من الرحالة الاوربيين، الذين قالوا بان (مرد ذلك هو الاعمال الشاقة والمسؤوليات الضخمة التي

القيت على عواتق هذه النساء القرويات اللاتي يأخذن في العمل سحابة نهارهن وطرفا من الليل حتى اودى ذلك بصحتهن وامتص رونق الجمال من وجههن الاسمر) •

والمرأة البدوية لا تقل اعباؤها ثقلا عن اعباء جارتها في الريف • أذ انها تضطلع بجميع الاهتمامات المادية وتقوم باصعب واثقل الاعمال البيتية فهي تنصب الخيام وترفعها وتجلب المياه وتجمع الشوك الجاف للوقود وتحلب الماشية وتسوقها الى المراعي والمورد وتستخرج الزبدة وتطهي الطعام ، وباختصار ترتكز عليها بشكل كلي حياة العائلة باجمعها • وفي ظل هذه الحياة الحافلة بالعمل والنشاط لا يمكن اطلاقا للمرأة البدوية ان تكون بعيدة عن تلك الحياة كما هو الشأن بالنسبة لمثيلتها في المدن •

وتحتم ظروف حياة البداوة على المرأة البدوية ان تتمتع بحرية اوسع نسبيا بالمقارنة مع نساء المدن ، على أننا يجب ان لا نستنتج من ذلك بان حرية البدويات غير محدودةفعلى الرغم من انهن يتواجدن مع الرجال في نفس الخيمة ، الا انهن يعشن بصورة منفصلة تماما عنهم ولا يسمح لهن ان يخالطن او يلتقين الا باقاربهن المقربين •

وعلى الرغم من كل التقيدات التي احاطت بحياة المرأة العراقية فقد كان لها شأن في المعارك والحروب بخاصة في اثارة حمية المحاربين وحماسهم • اذ عندما تندلع الحروب تشهد النساء المعارك فينشدن الاهازيج بحق الرجال الشجعان لتشجيعهم على متابعة الحرب ويقذفن بالشتائم وجوه الخوارين والجبناء من الذكور • كما يمددن يد المعونة الى المصابين والجرحى ويقع على عاتقهن حراسة الاسرى والمغلوبين ، وهن على الدوام يفكرن في طريقة جديدة لزيادة دورهن في مثل هذه العمليات • واذا ما أستشهد احد الرجال المحاربين في احدى هذه الوقائع فانه سيكون موضوع اعتزاز وافتخار اسرته •

وليس ذلك فحسب بل ان المرأة العراقية قامت بدور السفيرات في الحروب في بعض الاحيان ، أذ عندما قامت حالة حرب بين احـد شـيوخ العشائر العراقيين والدولة العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر ، بعث ذلك الشيخ بزوجته لتفاوض قائد الحملة العثمانية ، فاستقبلها القائد استقبالا فيه كل مظاهر التقدير والاحترام وانزلها في ديوانه .

ويدل هذا الامر على مدى الثقة التي كانت تتمتع بها المرأة العراقية والادوار المهمة التي كانت تناط بها في بعض الاحيان .

ولايندر ان يقوم بين المجتمع البدوي نساء ذوات عقول راجحة وارادات قويـة فيبرزن ويلعبن ادوارا هامة في حياة القبيلة ، وبالـذات في الحياة السياسية . فهذه عمشة زوجة صفوق سلطان شيخ شمر الجرباء كانت موضع ثقة زوجها ، وترسخت الثقة في قلوب ابنائها لما تمتلكه من جانب الحنكة والدهاء في تسيير العلاقات العامة للقبيلة ، ولذلك فقد كانت هي التـي تجيب على الرسائل التي ترد الى ابنها ، واتخذت لها كاتبا امينا تملي عليه رسائلها ويقرأ عليها الرسائل الواردة . بحيث ان الرحالة الفرنسي (لجان) أظهر اعجابه من هذه الممارسات السياسية للمرأة البدوية . وهناك حالات مماثلة بين بعض النساء الكرديات اللواتي مارسـن امورا سياسية بارزة . وربما كان اشهرهن فاطمة (السيدة عادلة) في منطقة حلبجة والسيدة (فاطمة خانم) في منطقة راوندوز التي كانت تدير شؤون ثماني قرى ، وتقـوم بكل الاعمال التجارية والسياسية المعروفة .

المصــــادر

١ ــ ابن بطوطه ، رحلة ابن بطوطة (بيروت ١٩٦٤) .

٢ ــ ابن حجر العسقلاني ، انباء الغمر بابناء العمر (القاهرة ١٩٦٩) .

٣ ــ ابن الفوطي ، (منسوب له) الحوادث الجامعة (بغداد ١٣٥١) .

٤ ــ ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب (دمشق ١٩٦٥) .

٥ ــ آداموف ، الكنسندر ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ترجمة هاشم التكريتي (البصرة ١٩٨٢) .

٦ ــ ادموند ، سي ، جي ، كرد وترك وعرب ، ترجمة جرجيس فتح الله (بغداد ١٩٧١) .

٧ ــ الالوسي ، خير الدين نعمان ، الاصابة في منع النساء من الكتابة (بغداد ١٨٩٧) .

٨ ــ اوليفيه ، الرحالة الفرنسي يصف بغداد عام ١٧٩١ ترجمة يوسف حبي ، مجلة المورد العدد ٤ (١٩٨٢) .

٩ ــ بدر ، مصطفى طه ، مغول ايران بين المسيحية والاسلام (القاهرة د . ت) .

١٠ــ تافرنيه ، جان باتيست ، العراق في القرن السابع عشر ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بغداد ١٩٤٤) .

١١ــ التكريتي ، منير بكر ، الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والثقافية والاجتماعية من ١٨٦٩ ــ ١٩٢١ (بغداد) .

١٢ـ حسين ، جاسم مهاوي ، الغزو التيموري للعراق والشام ، رسالة ماجستير غير منشورة (بغداد ١٩٧٦) .
١٣ـ خصباك ، جعفر ، العراق في عهد المغول الايلخانيين (بغداد ١٩٦٨) .
١٤ـ رحلة (لجان) الى العراق ١٨٦٦ ، ترجمة بطرس حداد ، مجلة المورد العدد ٣ (١٩٨٣) .
١٥ـ رحلة مدام ديولافوا الى كلدة ـ العراق سنة ١٨٨٨ ترجمة علي البصري (بغداد ١٩٥٨) .
١٦ـ رؤوف ، عماد عبدالسلام ، الحياة الاجتماعية في العراق ابان عهد المماليك ١٧٤٩ ـ ١٨٣١ رسالة دكتوراه غير منشورة (القاهرة ١٩٧٦) .
١٧ـ رؤوف ، عماد عبدالسلام ، الموصل في العهد العثماني فترة الحكم المحلي (النجف ١٩٧٥) .
١٨ـ رنسيمان ، ستيفن ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العريني ، بيروت ١٩٦٩ .
١٩ـ العزاوي ، عباس ، تاريخ العراق بين احتلالين (بغداد ١٩٣٥) .
٢٠ـ الغياثي البغدادي ، التاريخ الغياثي ، تحقيق طارق نافع الحمداني (بغداد ١٩٧٥) .
٢١ـ فريزر ، جيمس بيلي ، رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ ترجمة جعفر الخياط (بغداد ١٩٦٤) .
٢٢ـ فوصيل ، بييردي ، الحياة في العراق منذ قرن ١٨١٤ ـ ١٩١٤ ترجمة اكرم فاضل (بغداد ١٩٦٨) .
٢٣ـ القزاز ، محمد صالح ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية (النجف ١٩٧٠) .
٢٤ـ كحالة ، عمر رضا ، اعلام النساء (دمشق ١٩٥٩) .
٢٥ـ المازندراني ، عبدالله بن محمد ، رسالة فلكية (بادن ١٩٥٢) .
٢٦ـ مشاهدات تكسيرا في العراق سنة ١٩٠٤ تلخيص وترجمة جعفر الخياط مجلة الاقلام الجزء الرابع (١٩٦٤) .
٢٧ـ الهلالي ، عبدالرزاق ، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني ١٦٣٨ ـ ١٩١٧ (بغداد ١٩٥٩) .
٢٨ـ ياسر ، عباس ، صفحات مطوية في تاريخ المرأة في العراق مجلة بين النهرين العدد ١٧ (١٩٧٧) .

الفصل الخامس

العمارة العراقية

د. طارق جواد الجنابي

المؤسسة العامة للآثار والتراث

مقدمــة

تتميز العمارة العراقيــة التي تعود الى هذه العصــور بأهمية خاصــة وبشــخصية متميزة في التاريخ الحضــاري لقطرنا وبالرغم من ان الامثلــة الشاخصة من العمارات تعكس انماطا تخطيطية وعمارية وزخرفية لفترات أسلامية سابقة فأنها بمجملها تكون أحدى قمم المجد الحضاري العراقي . أن العمارات العراقية الشاخصة والتي تعود لهذه العصور معظمها عمارات دينية بنيت من قبل الحكام والولاة ومن قبل شخصيات عراقية بارزة كعمل من أعمال التقرب الى الله عز وجل ، أن لوعية الابنيــة الفخمــة والزخارف والتحليات المترفة التي تتميز بها عمارات هذه العصور تعكس بلاشك المستوى الحضاري الراقي والذوق الرفيع للعراقيين بصورة عامة ومنهم كما هو معروف المهندس والمعمار والبناء والعامل والحداد والنجار والفنان والخطاط الذين

بمجهوداتهم كل في حقل اختصاصه شيدت الابنية الفخمة الخالدة كالجوامع والمدارس والاضرحة والمشـــاهـــد •

أما العمائر المدنية التي تعود الى هذه العصور كالقصـور والحمامات والاسواق والمستشفيات والخانات والقلاع فالذي بقي منها قليل نسبيا أذا ما قورنت بالعمارات الدينية وهذه القلة فيما تخلف منها تقابلـه شـحة في المعلومات التي تتعلق بها في المصـادر التاريخيـة والادبية التي تؤرخ لهذه العصور • وقبل ان تتناول بالبحث العمارات الدينية والمدنية المتخلفة مـن هذه العصور لابد لنا من استشـارة مراجعنا التأريخية للوقوف على مجمل النشاطات المعمارية في العراق خلال هذه العصـــور •

مسح تاريخي موجز لابرز النشاطات المعمارية خـلال العصـــور

بدأ الغزو المغولي للعالم الاسلامي في سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م) تحت زعامة جنكيز خان الذي نجح في توحيد القبائل المغولية والتركية التي كانت تقطن سهوب آسيا الوسطى الشرقية وبعد مرور اربعين سنة على بدايـة هـذا الغزو الكاسـح تمكن هولاكو بن قوبلاى (حفيد جنكيز خان) من أنهاء الخلافة العباسية واحتلال بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وذلك سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) • لقد اسهبت المصادر التأريخية في وصف سفك الدماء والتخريب الذي اجتاح بغداد في ذلك الوقت ونتيجة لهذه الاحداث المأساوية فقد العراق دوره القيادي واصبح كغيره من أقطار العالم الاسلامي الشرقية مجرد جزء من الامبراطورية الايلخانية الجديدة المترامية الاطراف • وقبل ان يغادر هولاكو بغداد عين ستة مسؤولين لتمشية امور العراق خمسة منهم كانوا في مناصب أدارية أيام الخليفة العباسي المستعصم بالله ومن أهم هذه المناصب منصب صاحب الديوان وقد عين هولاكو سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٩ م)

له علاءالدين عطا ملك الجويني الذي بقى فيه مدة ٢١ سنة ، أن المأساة وأعمال التدمير التي حلت بالعراق بصورة عامة وبغداد بصورة خاصة وكذلك بعدد من الاقاليم الاسلامية لم تقض على شعلة الحضارة العربية الاسلامية حيث وقف المغول مندهشين أمام منجزات هذه الحضارة فأعتنقوا الدين الاسلامي الذي صقل أخلاقهم وهذب نفوسهم وازال ما علق فيها من تأخر وهمجية ٠

لم يتخذ السلاطين المغول الايلخانيون بغداد عاصمة لملكهم واستعاضوا عنها بمدينتي تبريز وسلطانية ، لهذا السبب لم يخلفوا عمائر دينية كثيرة تنسب لهم في العراق ومن العمارات الدينية التي تنسب لبعض السلاطين المغول هي منارة جامع الخلفاء الذي أمر باعادة بناها آباقا بن هولاكو في سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) والمجمع الديني المعروف بذي الكفل والمتكون من ضريح ومسجد ومنارة وخان والذي أمر بتشييده السلطان اولجايتو محمد خدابنده وكمل في سنة ٧١٦هـ (١٣١٦م) الا أن هذا لا يعني بان حركة البناء والتعمير قد توقفت بل على العكس من ذلك فقد قام العراقيون الموسرون وبعض الولاة والحكام المحليين بتشييد الجوامع والمساجد والمدارس والاضرحة والمشاهد والربط والتكايا حبا لعمل الخير وطلبا لمرضاة الله عز وجل حيث لم تستطع الموجة المغولية العاتية على ما يبدو أن تمنع الناس من الاستمرار في تقاليدهم الحضارية في هذا المجال ، وتعود جملة من العمارات العراقية الشامخة في الوقت الحاضر الى عصر المغول الايلخانيين ومن أهمها حسب التسلسل الزمني ضريح الشيخ محمد السكران في قرية الجديدة ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) منارة جامع الخلفاء في بغداد ٦٧٨هـ (١٢٧٩) وضريح ومنارة ذي الكفل في محافظة بابل ٧١٦هـ (١٣١٦م) وقبة الشيخ عمر السهروردي في بغداد ٧٣٥هـ (١٣٣٤م) ٠

أما العمارات العراقية التي ذكرتها المصادر والتي تعود لهذه الفترة وقد عفى عليها الزمان فمعظمها مدارس قسم منها كان يحوى ضريحا للشخص الذي قام بتشييدها ومن أهمها المدرسة العصمتية التي بنيت حوالي سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) من قبل السيدة عصمت الدين في القسم الشرقي من بغداد وقد دفنت فيها بعد وفاتها • وفي حوالي سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) قام مجدالدين بن الاثير ببناء مدرسة في بغداد دفن فيها بعدما قتل في سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) ، كذلك بنيت بالقرب من ضفاف دجلة في محلة باب الازج (باب الشيخ حاليا) مدرسة من قبل بهاءالدين عبدالوهاب الذي توفى سنة ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) ودفن فيها ، وفي سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٣م) بنيت المدرسة العلائية من قبل علاء الدين علي بن عبدالمؤمن بن كردمير على ضفاف دجلة مقابل مدرسة أبي النجيب السهروردى بالقرب من الجسر العتيق في بغداد وقد وصفها المؤرخ البغدادي أبن الفوطي بأنها كانت جميلة البناء شاهقة الارجاء • ومن مدارس بغداد الاخرى في العصر الايلخاني المدرسة الغازانية نسبة الى السلطان غازان محمود الذي حكم من سنة ٦٩٥هـ الى سنة ٧٠٣هـ (١٢٩٥م ـ ١٣٠٣م) وقد بنيت من قبل الخواجة رشيدالدين بالقرب من باب الظفرية (أو الباب الوسطاني) • واخيرا المدرسة الامامية البكرية بدرب فراشة بناها أمامالدين يحيى البكري صاحب ديوان بغداد وقد توفى أمامالدين مؤسسها بالحلة سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) وحمل الى بغداد ودفن في الضريح الذي عمله في مدرسته المذكورة •

لم تهدأ الاحوال السياسية في العراق زمن الايلخانيين فكثرت الفتن والاضطرابات وقد مهدت هذه الاوضاع الطريق للشيخ حسن الجلائري للاستيلاء على بغداد سنة ٧٣٨هـ (١٣٣٧م) والقضاء على سلطة الايلخانيين فيها وبالرغم من قصر فترة السيادة الجلائرية فقد تميزت بالاستقرار النسبي الذي ساعد على قيام نهضة عمارية وعلمية وفنية في العراق حيث واصل

العراقيون تقاليدهم الحضارية السابقة في بناء المؤسسات والمعاهد الدينية والمدارس خلال هذه الفترة هذا من جهة ومن جهة ثانية يبرز الوالي أمين الدين مرجان حاكم بغداد فترة حكم السلطانين الشيخ حسن وأبنه أويس كواحد من أشد الولاة حبا للعمارة خلال القرن الثامن الهجري (١٤م) حيث قام بتشييد كل من المدرسة المرجانية وخان مرجان ودار الشفاء في بغداد . لم يقتصر النشاط المعماري خلال هذه الفترة على بغداد فقط بل تعداها الى كل من الكوفة وكربلاء والنجف حيث ينسب اليهم بناء بعض العتبات المقدسة وبناء منارة ومدخل مسجد الكوفة القديم الذي هدم سنة ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م وأعيد بناؤه مؤخرا مع مأذنة جديدة،ويرد في المصادر التي تؤرخ لهذه الفترة الكثير من الابنية والعمارات التي بنيت من قبل بعض الحكام المحليين ومعظم هذه الابنية قد عفى عليها الزمان ومنها المدرسة المسعودية وكانت للمذاهب الاربعة أمر بتشييدها خواجه مسعود بن منصور بن أبي هارون زمن السلطان أحمد بن أويس سنة ٧٨٥هـ (١٣٨٣م) كذلك تنسب الى السلطان أحمد بن أويس الذي حكم من سنة ٧٨٤ هـ الى سنة ٧٩٤ هـ (١٣٨٢ هـ ـ ١٣٩٢ م) قلعة في الجانب الغربي من بغداد تسمى عمارة قلعة الامير أحمد وقد قام كذلك بتشييد خان يعرف بالقلندر خانة او خان القلندرية بناه لمجموعة من المتصوفين الذين يعرفون بهذا الاسم برزت طريقتهم خلال القرن السابع الهجري (١٣م) .

ومن عمارات العصر الجلائري التي تذكرها المصادر التاريخية عمارة الايكجية التي ربما كانت المدرسة التي أمرت ببنائها مخدومة شاه داية السلطان وتلقب ايكجي وذلك في سنة ٧٦٣هـ (١٣٦١م) والمدرسة الاسماعيلية التي امر بانشائها وزير بغداد اسماعيل والمدرسة الوفائية التي بنيت من قبل وفاء خاتون حوالي سنة ٨٠٠هـ (١٤٠٠م) وترد في المصادر التي تسرد حوادث هذه الفترة اسماء عمارات وابنية لم تصل الينا اخبار بنائها ولا اماكن انشائها بصورة مضبوطة مثل الاربعيني ودار العبادة اللؤلؤية بالجانب

الشرقي من بغداد ومن جوامع هذه الفترة عرف جامع سراج الدين وجامع النعماني وجامع سيد سلطان علي ، ومع هذا النشاط المعماري الذي تم على يد العراقيين خلال العصر الجلائري ازدهرت فنون وتقنيات الزخرفة والتزويق والخط •

وفي سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٣) تعرض العراق الى موجة اخرى من المغول الغزاة حيث دخل تيمورلنك بغداد مما ادى الى تخريب ونهب وتدمير بغداد ومدن عراقية اخرى مثل الموصل وتكريت وهروب السلطان أحمد الجلائري الى الشام ولكن السلطان أحمد الجلائري تمكن من استرداد بغداد بعد سنتين فعاود تيمورلنك الكرة ودخل بغداد مرة اخرى سنة ٨٠٣هـ (١٤٠١م) ولم تستقر الاحوال حتى سنة ٨١٣هـ (١٤١٠م) حين قتل السلطان أحمد واستولى على بغداد الشاه محمد بن قرا يوسف مؤسس دولة الخروف الاسود التركمانية وقد تعرض العراق وبالاخص حركة البناء والتعمير الى ركود حضاري بسبب الحروب والتدمير والتخريب الذي اصابه من جراء دخول جيوش تيمورلنك واستيلاء التركمان عليه وقد دام حكم دولة الخروف الاسود حتى عام ٨٧٢هـ (١٤٦٧م) وكان امراؤها يتصفون بسوء السلوك والخشونة والابتعاد عن القيم الدينية والاخلاقية فتخربت البلاد وهدمت المساجد ، وتعتبر فترة حكم هذه الاسرة والاسرة التي تلتها من الفترات الحالكة الظلام والتي تميزت بالتخريب في تاريخ الحضارة الاسلامية في العراق •

حكمت العراق بعد هذه الاسرة اسرة تركمانية اخرى هي اسرة (آق قوينلو) دولة الخروف الابيض وذلك من سنة ٨٧٢هـ (١٤٦٨م) الى سنة ٩٠٨هـ (١٥٠٢م) وقد انتهى حكمها بدخول الجيوش الفارسية الصفوية الغازية الى بغداد • استمر حكم الفرس الصفويين للعراق بدورين خلال السنوات من سنة ٩٠٨هـ الى سنة ٩٤١هـ (١٥٠٨م - ١٥٣٤م) تداخلت

معها فترات حكم عثمانية وتشير المصادر الى ان الشاه اسماعيل الصفوي اتبع سياسة تفريق صفوف الامة الواحدة فتظاهر بالاهتمام ببعض المراقد الدينية المقدسة بينما كان في نفس الوقت يسلب القبائل العراقية اموالها ويضطهد قسما من السكان العراقيين ويتعمد تخريب مزاراتهم ويعلق المرحوم المؤرخ عباس العزاوي على ذلك بقوله « ان الداعي لهذه الاعمال لا يقصد به الا تفريق الامة العراقية واضعاف مقاومتها للاحتلال الاجنبي ولم يكن غرضه الحرمة الدينية والخير للامة » .

ومن اهم الجوامع التي بنيت في العراق من قبل العراقيين خلال هذه الفترات الاخيرة المظلمة جامع الكواز في البصرة الذي امر بتشييده الشيخ سرى بن الشيخ حسن العباسي سنة ٩٢٠هـ (١٥١٤م) وجدد بناؤه في سنة ٩٣٠هـ (١٥٢٣م) من قبل الشيخ عبدالقادر الكبير العباسي .

تظاهرت الدولة العثمانية المنافسة للصفويين بالغضب من جراء سياسة التفريق المذهبي التي اتبعها الصفويون وكانت للدولة العثمانية مصالح حيوية في القطر العراقي فأتخذت الذريعة المذهبية اساسا للسيطرة عليه . حكم العثمانيون العراق زهاء اربعة قرون وسلك البعض من سلاطينهم وولاتهم مسلكا يتسم بالحفاظ على وحدة القطر وتعمير المساجد والمباني العامة فقد انشأ الوالي اسكندر باشا جامعا في بغداد سنة ٩٧٤هـ (١٥٦٦م) كما بنى الوالي مراد باشا جامعا آخر سماه باسمه اكمل بناءه سنة ٩٧٨هـ (١٥٧٠م) ويقع هذا الجامع في محلة الميدان وفي سنة ٩٩١هـ (١٥٨٣م) عمر الوالي العثماني علي الوندزاده الذي حكم من سنة ٩٨٢ ـ ٩٩٩هـ (١٥٧٤ ـ ١٥٩٠م) ضريح الحسين (عليه السلام) وجامعه كما اهتم الوالي جغالة زادة سنان باشا الذي استمر حكمه ما بين سنة ٩٩٩هـ الى سنة ١٠٠٣هـ (١٥٩٠ ـ ١٥٩٤م) بتعمير الاضرحة والمساجد والمدارس وقام ببناء جامع الى جانب مرقد الشيخ عبدالقادر الكيلاني وتكية المولوية التي تعرف اليوم بجامع

الاصفية وكان بناؤها سنة ٩٩٩هـ (١٥٩٠م) وبنى الى جانبها خانا ومقهى وسوقا كما عمر هذا الوالي جامع الصاغة وجامع الخفافين ومدرسته • ومن الجوامع العثمانية الاخرى جامع الوزير ويقع على الضفة اليسرى من دجلة بالقرب من جسر الشهداء الحالي وقد سمي بهذا الاسم نسبة الى الوزير حسن باشا والي بغداد من سنة ١٠٠٦هـ الى سنة ١٠١٠هـ (١٥٩٧ ــ ١٦٠١م) ومنها ايضا الجامع السليماني ويسمى جامع السراي او جامع جديد حسن باشا وسميت المحلة التي يقع فيها الجامع بمحلة جديد حسن باشا وقد ذكر هذا الجامع الرحالة اوليا جلبي الذي زار بغداد في سنة ١٠٦٧هـ (١٦٥٦م) وقال عنه « وفي الجامع السليماني منارة ويقع بأزاء باب السراي » وقد جدد حسن باشا الملقب فاتح همذان هذا الجامع فعرف بأسمه فقيل جامع جديد حسن باشا للتفريق بينه وبين جامع الوزير حسن باشا الذي هو أقدم منه والمسمى بجامع الوزير •

توجه الولاة العثمانيون وبايعاز من السلطان مراد الرابع الى اصلاح القطر وتعمير جوامعه ومساجده ومدارسه ووضع حد للاضطرابات والفوضى التي كانت تسوده بسبب المنازعات بين الطامعين وأصحاب المصالح وقد أشتهر من هؤلاء الولاة حسن باشا وابنه أحمد باشا اللذان بذلا جهودهما لتوطيد الامن وبناء المساجد والمدارس • وفي عام ١٠٦٩هـ (١٦٥٨م) قام الوالي محمد باشا الخاصكي ببناء جامع في بغداد عرف بأسمه وتم كذلك خلال فترة حكمه بناء مسجد الامام علي بن ابي طالب (رض) في النجف وفي فترة الوالي الوزير عمر باشا ١٠٩٠هـ (١٦٧٩م) تم تعمير جامع وقبة ضريح الامام الاعظم ابي حنيفة كما أنه امر بتعمير مرقد الامام ابي يوسف وجعل له قبة ورواقا وبنى مدرسة بالقرب من جامع قمرية في جانب الكرخ وقام كذلك بتعمير خان ازاد على طريق بغداد المحمودية كما جدد هذا الوالي جامع السراي (جامع جديد حسن باشا) وذلك سنة ١٠٩٤هـ (١٦٨٢م)

وقام الوالي أحمد أغا كتخدا سنة ١٠٩٨ هـ (١٦٨٦ م) بتعمير الجانب الغربي من جامع حسن باشا الجلبي وشيد له قبة عالية وهذا الجامع هو الذي يعرف اليوم بجامع الوزير ومن اعمال احمد أغا كتخدا الاخرى هو بناؤه لجامع الحمام المالح في بغداد وذلك في سنة ١٠٩٩ هـ (١٦٨٧ م) الاحمدي المشهور في بغداد وبعد ان قتل قام اخوه باكماله وفي سنة ١١٠٠ هـ (١٦٨٨ م) تم بناء خان بني سعد وهو على الطريق بين بغداد وبعقوبة • ومن جوامع بغداد المهمة في العصر العثماني جامع العادلية الكبير وهو مقابل المحكمة الشرعية الحالية في شارع المستنصر وهو جامع كبير فيه مصلى واسع ومنارة شامخة ومدرسة وقد جدد كثير منه في الفترات المتأخرة انشأته السيدة عادلة خاتون بنت أحمد باشا الذي حكم بغداد من سنة ١١٤٩هـ الى سنة ١١٦١هـ (١٧٣٦ - ١٧٤٨م) وكان زوجها سليمان باشا أحد مماليك أبيها وكانت محبة لاهل العلم كثيرة المبرات والصدقات وكان الفراغ من عمارة هذا المسجد ومدرسته سنة ١١٦٨هـ (١٧٥٤م) •

أصبح العراق أيام حكم المماليك الذي بدأ من سنة ١١٦٢هـ الى سنة ١٢٤٧هـ (١٧٤٨ - ١٨٣١م) دولة شبه مستقلة عن الامبراطورية العثمانية وأصبحت بغداد عاصمة القطر كله وتعتبر فترة المماليك بصورة عامة فترة استقرار نسبي أستطاع خلالها الحكام الاهتمام بتعمير وبناء المساجد والجوامع والمدارس وكذلك تنشيط الثقافة والعلوم والمحافظة على الامن •

ويعتبر سليمان باشا الكبير من المماليك النشيطين في مضمار البناء والتعمير ففي عام ١٢٠٠هـ (١٧٨٥م) قام بترميم المدرسة المرجانية وقد خلد اعماله في هذه المدرسة في أبيات من الشعر مكتوبة في لوحة قاشانية مثبتة على المدخل الرئيسي لمصلى المدرسة كذلك قام بتعمير سور بغداد الشرقية وجعل للجانب الغربي من بغداد سورا وخندقا وبنى السراي من جديد وانشأ مدرسة سميت

بالسليمانية نسبة اليه زودها بنفائس الكتب كما أمر بصيانة جامع القبلانية وجامع محمد الفضل وبنى في كل منهما مدرسة وجدد جامع الخلفاء وهو الذي بنى قناطر دلي عباس وأمر كذلك ببناء قلعة في كوت العمارة كما بنى سور مندلي وشيد قلعة قرب الموصل .

ومن مشاهير المماليك ايضا داود باشا الذي قامت الدولة العثمانية بفرض سيطرتها على العراق بعده مجددا وذلك في سنة ١٢٤٧هـ (١٨٣١م) حيث تمكن القائد علي رضا باشا اللاز من غزو بغداد وأنهاء سلطة المماليك وقد تم القضاء على بعض الامارات التي ازدهرت ايام المماليك في شمالي القطر ومنها امارة الجليليين في الموصل التي ينسب لها الكثير من الاعمال العمرانية الدينية كالجوامع والمساجد والمدارس .

ومن اشهر العمارات العراقية في هذه الفترة هي جامع نازندة خاتون وهو قريب من الشارع العام بين محلتي الحيدرخانة والميدان متقن البناء وفيه مدرسة بنته نازنده زوجة علي باشا في سنة ١٢٦٣هـ (١٨٤٦م) وعلى باب المسجد ابيات تشير الى اسمها وفي سنة ١٢٦٧هـ (١٨٥٠م) كمل بناء القلعة وهي وزارة الدفاع الحالية وسبب بنائها يعود الى عدم اطمئنان الولاة الى الشعب فأخذو يحصنون ابنيتهم . وفي تربة السهروردي قام اسماعيل باشا ببناء بعض العمارات وذلك في سنة ١٢٧٣هـ (١٨٦١ م) بدىء بتجديد الثكنة العسكرية التي تعرف بالقشلة في بغداد وذلك في عهد ولاية محمد نامق شاه ولم تكمل في عهده فقام الوالي المشهور مدحت باشا باكمالها .

حكم مدحت باشا من سنة ١٢٨٦هـ الى سنة ١٢٨٩هـ (١٨٦٩ ـ ١٨٧٢م) وقد قام بالكثير من الاصلاحات الادارية العامة وشيد الكثير من العمارات الدينية والمدنية والمعاهد العلمية والتي منها المكتب الرشدي العسكري والمكتب الرشدي الملكي ومكتب الحميدية عدا المدارس الابتدائية وأسس مدرسة للصنائع على دجلة في الجانب الشرقي في محلة الميدان وارصد لها النفقات واستقدم لها الاساتذة والادوات وجمع فيها الايتام واكمل بناء القشلة وانشأ معملا لنسج ثياب الجنود وهو الذي يعرف اليوم بالعبخانة .

تميز القرنان الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (١٧ ـ ١٨ الميلادي) ببناء سلسلة من الخانات الكبيرة المحصنة في اماكن مختلفة من القطر منها خان بني سعد شرق بغداد والخانات المقامة بين النجف وكربلاء مثل خان الربع وخان النص وخان النخيلة وكذلك خان الهنود الذي كان مقاما لصق الجدار الشرقي لمسجد الكوفة والذي هدم مؤخرا بغية فتح شوارع جديدة في مدينة الكوفة ومنها كذلك خانات اليوسفية والمحمودية والاسكندرية وشهدت العصور العثمانية المتأخرة كذلك بناء المزيد من الخانات في العراق منها خان ضاري في بغداد وخان السيف وخان قريش في الكفل وغيرها كثير .

ومن الجدير بالذكر ان حركة بناء الجوامع والمدارس كانت مزدهرة جدا في مدينة الموصل خلال العصور العثمانية حيث أقيمت فيها حوالي عشرين مدرسة منها مدرسة طه افندي محضر باشي بناها طه افندي بن يونس افندي آل محضر باشيء المتوفى سنة ١٠٣٩هـ (١٦٢٩م) وبنى فيها مصلى وغرفا للطلاب والمدرسة الخزامية في جامع خزام بناها حسن باشا والى الموصل في سنة ١١٠٧هـ (١٦٩٥م) وقد جدد عمارة الجامع وبنى فيه منارة منقوشة بالآجر اللازوردي والمدرسة العبدالية بناها الحاج عبدال بن مصطفى سنة

١٠٨٠ هـ (١٦٦٩ م) ومن المدارس التي انشئت في الموصل خلال حكم الجليليين الذي استمر من سنة ١١٣٩هـ الى سنة ١٢٥٠هـ (١٧٢٦ - ١٣٨٤م) المدرسة الخليلية التي بنيت في جامع الاغوات من قبل خليل أغا بن عبدالجليل والمدرسة الجرجيسية والمدرسة العثمانية والمدرسة الامينية وغيرها .

ولقد حاول بعض الولاة الذين حكموا بعد مدحت باشا القيام ببعض الاصلاحات وبناء بعض العمارات الدينية ففي سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٢٧ م) بني جامع في الرمادي وفي سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م) بديء بانشاء بناية القشلة في كركوك وكذلك انشىء الجسر المسمى بالجاي في كركوك سنة ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م) وفي سنة ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) تم بناء قلعة عسكرية في قضاء الحي وبنيت كذلك جسور وقناطر على الانهار للوصول الى المدن الرئيسية وفي سنة ١٣٠٤هـ (١٨٨٦م) تم تعمير مراقد الزبير وطلحة وأنس بن مالك في محافظة البصرة وكذلك مرقد الشيخ السيد أحمد الرفاعي وتم تجديد مساجد ومدارس اخرى في باقي مدن القطر مثل تجديد تربة السيد سلطان علي وهي من الترب البغدادية القديمة الواقعة على دجلة قرب محلة المربعة وقد انشئت فيها مدرستان وزاوية وانجز كل ذلك في سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٢م) وفي سنة ١٣٢٠هـ (١٩٠٢) قام العثمانيون باعادة تشييد عمارة مدخل مرقد الشيخ عمر السهروردي واقيمت بجنبه منارة شاهقة تزينها قطع القاشاني الملون .

انتهى الحكم العثماني في العراق باجتياح بغداد من قبل الانكليز سنة ١٩١٧ واستمر الوضع كذلك حتى قيام الثورة العراقية الكبرى في سنة ١٩٢٠ حيث اعلن حكم وطني شكلي في العـــراق .

الجوامع والمساجد

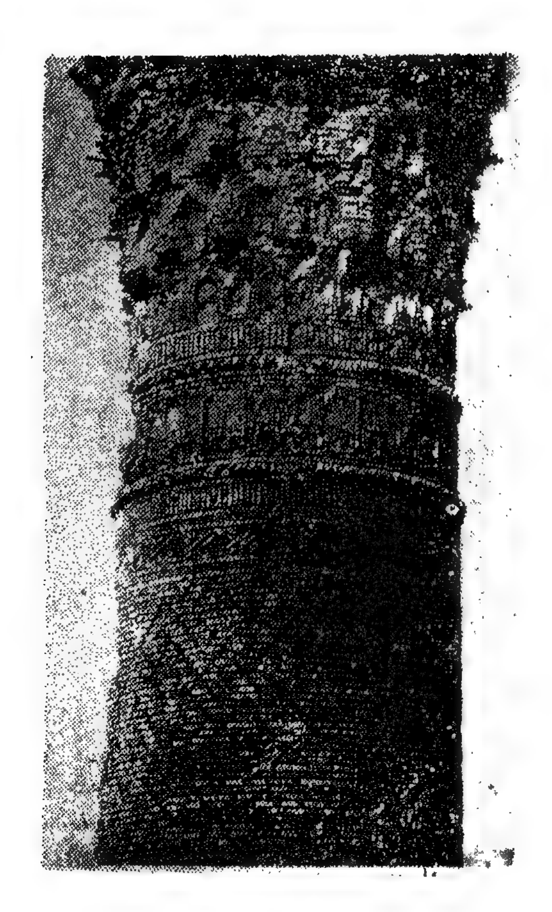
بعد اتساع حجم المدن الاسلامية نتيجة الكثافة السكانية والرخاء الاقتصادي لم يعد الجامع المركزي الواحد يفي بالغرض ويسد الحاجة لذا فقد اقيم خلال هذه العصور العديد من الجوامع والمساجد في المدينة الاسلامية الواحدة واصبح حجم الجامع تبعا لذلك اصغر حجما مما اقتضى ابتكار اساليب جديدة ومتطورة في نظام تخطيطه وعمارته وتسقيفه وتحليتـه ، وقد بقي الجامع بالرغم من صغر حجمه (بالمقارنة مع الجوامع والمساجد الجامعة الاولى والتي انشئت خلال القرون الاسلامية الثلاثة الاولى) محافظا على مقوماته الاساسية في التخطيط والتأثيث واهم هذه المقومات هي المأذنة وبيت الصلاة الشتوي المسقوف وجدار القبلة فيه يتوسطه المحراب وبجنبه المنبر لاداء خطبة الجمعة والمصلى الصيفي والصحن المكشوف الذي يتوقف حجمه على حجم قطعة الارض التي اقيم عليها الجامع ومثل هذه الجوامع تسمى الجوامع الجامعة او جوامع الجمعة وهي صالحة لاداء صلاة الجمعة والاعياد أما المساجد التي بنيت في هذه العصور فتطلق اصطلاحا على أي مكان نظيف صالح للصلاة ولا يشترط فيها أن تحتوي على مأذنة او منبر وهي لا تصلح لصلاة الجمعة والاعياد وتبنى عادة في الازقة والمحلات الصغيرة والمدارس مثل مسجد المدرسة المستنصرية ومسجد المدرسة المرجانية ولقد جرت العادة في العصور المتأخرة ان يطلق اسم المسجد ويقصد به الجامع ويطلق اسم الجامع ويقصد به المسجد .

لقد عرفنا فيما سبق ومن خلال المصادر التأريخية ان العراقيين اقاموا الكثير من الجوامع والمساجد خلال الفترة من الغزو المغولي وحتى نهاية العصر العثماني ولكن معظم الذي بقي منها شاخصا حتى الآن يعود الى العصور العثمانية اما تلك التي تعود الى عصري المغول الايلخانيين والجلائريين فقد

عفى عليها الزمان ولم يبق من بعضها سوى اجزاء قليلة كالمآذن مثلا وهي بحد ذاتها تعطي فكرة عن عظمه وضخامة هذه الجوامع التي بنيت او التي اعيد بناؤها زمن المغول الايلخانيين ومنها :

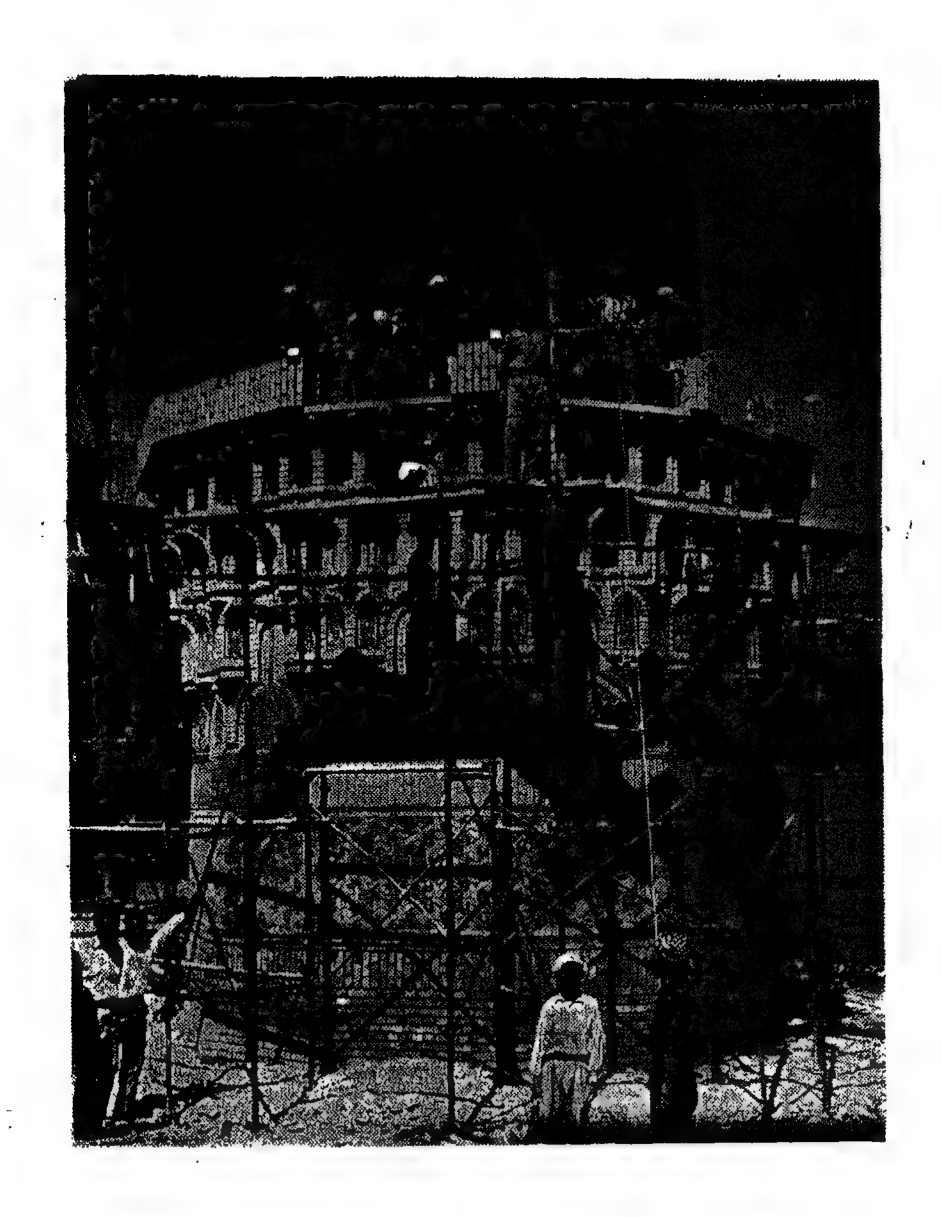
١ ـ ماذنة جامع الخلفاء

في الاصل تعود الى جامع الخلفاء الذي انشأه الخليفة علي المكتفي بالله خلال سنوات حكمه من سنة ٢٨٩هـ الى سنة ٢٩٥هـ (٩٠٢م ـ ٩٠٨م) لصلاة الجمعة في شرقي القصر الحسني وكان يعرف بجامع القصر ثم اطلق عليه اسم جامع الخليفة ثم جامع الخلفاء في الايام الاخيرة وكان هذا الجامع أحد الجوامع الثلاثة الكبيرة في بغداد حيث كان قبله جامع المنصور وجامع الرصافة ، وكانت تقام فيه صلاة الجمعة والاعياد وكان بمثابة الجامع الرسمي للدولة العباسية ففيه تقرأ عهود القضاة ويصلى عليّ جنائز الاعيان والعلماء وتعقد فيه حلقات الفقهاء والمناظرين والمحدثين وفي رحبته كانت تبدو مظاهر الحياة الاجتماعية والتجارية لاهل بغداد وتذكر المراجع التاريخية بان هذا الجامع قد هدم وأعيد بناؤه من قبل والي بغداد عطا ملك الجويني بامر من السلطان اباقابن هولاكو وذلك في سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) ولا تزال المأذنة قائمة الى يومنا هذا وتعرف محليا بأسم منارة سوق الغزل لان الجامع قد خطعت ارضه وانشيء في احدى القطع الشرقية منه سوق لبيع الغزل • وفي العصر العثماني شيد سليمان باشا الكبير والي بغداد من سنة ١١٩٣هـ الى سنة ١٢١٧هـ (١٧٧٩م ـ ١٨٠٢م) جامعا صغيرا في غرب المنارة بقي قائما الى سنة ١٩٥٧ ويعرف بجامع سوق الغزل وقد هدم بعد فتح شارع الجمهورية واستعيض عنه مؤخرا بجامع مناسب يعيد ذكرى الجامع الاول بالقرب من

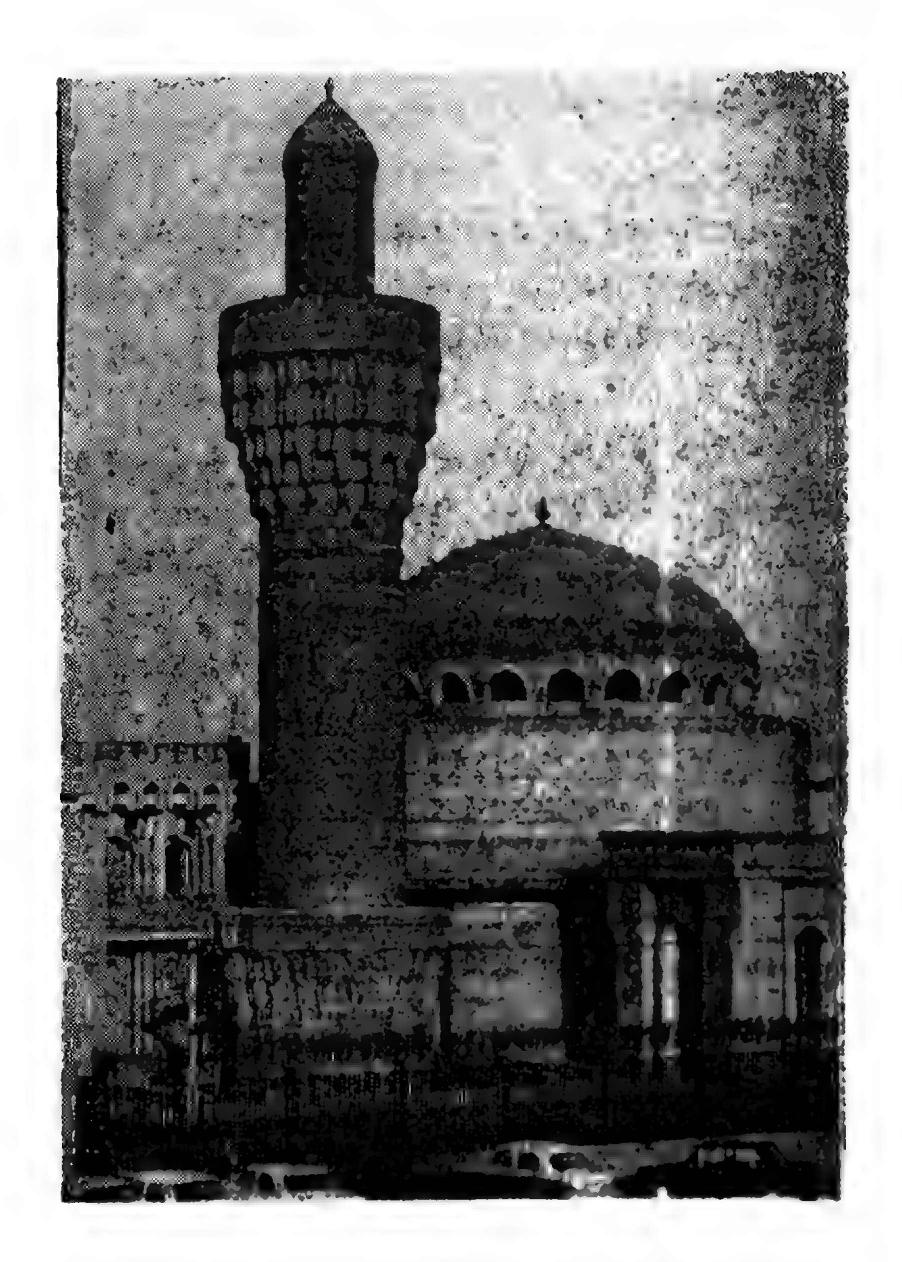


صورة ــ ١
القسم العلوي لبدن ماذنة جامع الخلفاء قبل الصيانة

المنارة سـمي بجامع الخلفاء (أنظر الصـور ١ ــ ٣) • تتيجـة الاهمال والعوارض الطبيعية تعرضت المنارة الى التلف والتشويه الذي اثر على كسوتها الزخرفية الآجرية الجميلة واصبحت عبارة عن برج ضخم من الآجر وتشير مصادرنا الى ان الانكليز حاولوا نسفها بحجة خوفهم من سقوطها على الناس ولكن محاولتهم فشلت فاخذت دائرة الاثار على عاتقها صيانة هذا الاثر المهم الذي يدل على عظمة وديمومة الحضارة الاسلامية التي صهرت الغزاة المحتلين



صورة ـ ٢
قاعدة مأذنة جامع الخلفـاء اثناء الصيانة



صورة ـ ٣
جامع الخلفاء الجديد

واعتنقوا الاسلام وامروا بتشييدها في بغداد التي كانت مقرا لخليفة المسلمين الذي قاموا بقتله قبل ٢٢ سنة من اصــــدار اوامرهم باعادة بناء هذه المنارة الخالدة ٠

تتميز مأذنة سوق الغزل بضخامتها حيث يبلغ ارتفاعها ٣٢٠ مترا ومحيط قاعدتها ٦٤ر٢٠م ومحيط بدنها ٢٠ر١٦م فهي بهذا اضخم واطول مآذن بغداد ، اقيمت المأذنة على قاعدة مرتفعة مضلعة قوامها اثنا عشر ضلعا يبلغ ارتفاعها ٨ أمتار وهذه القاعدة فريدة بين قواعد المآذن العراقية السابقـة لها التي كانت تبنى على قاعدة مربعة مثل مآذن سامراء والحدباء منارة الجامع النوري في الموصل ثم على قواعد مشمنة مثل منائر سنجار واربيل وداقوق ٠ ومن مميزات هذه المأذنة الاخرى وجود حوضين الاول مشيد فوق قاعدتها ومنه تبدأ سـلالم المأذنـة التي تؤدي الى الحوض الثاني الذي يتوج البدن الاسطواني للمأذنة ويحيط ببدن اسطواني أصـغر وارشـق حجما يعرف بالشمعة او الرقبة ينتهي برأس او قمة بصلية الشـكل ٠ ان وجود سلمين في هذه المأذنة هو ظاهرة عراقية معروفة في بناء المآذن حيث لدينا في العراق نماذج من هذه المآذن مثل مأذنة الحدباء في الموصل ومأذنة المظفرية في اربيل القرن ٦هـ (١٢م) ٠

ان الناحية الجمالية لمأذنة جامع الخلفاء تتركز في حليتها الزخرفية الاجرية وفي صفوف المقرنصات البديعة والمتراكبة والتي تكون قاعدة صلدة لارتكاز حوض المأذنة السفلي والعلوي ، ان التشـكيلات والحشوات الزخرفية تغطي جميع اجزاء المأذنة ومعمولة بطريقتين الاولى هي طريقة الحصول على السطوح المزخرفة بواسطة التلاعب او التفنن في طريقة رصف الاجر باشكال هندسية معينة والثانية بطريقة الحشوات الهندسية المحفورة حفرا غائرا بشـكل عروق نباتية ملتويـة ومحورة عن الطبيعـة تعرف بين المختصـين بالرقش العربي (الارابسك) وهذه الحشوات تأخذ في الغالب شكل عقود زخرفية صغيرة

كما هو موجود في قاعدة المأذنة وقد شاعت مثل هذه الزخارف الاجرية في بغداد على معظم العمائر الشاخصة والتي تعود الى العصور العباسية او التي تلتها مثل ضريح زمرد خاتون والقصر العباسي والمدرسة المستنصرية والمدرسة المرجانية .. الـــخ .

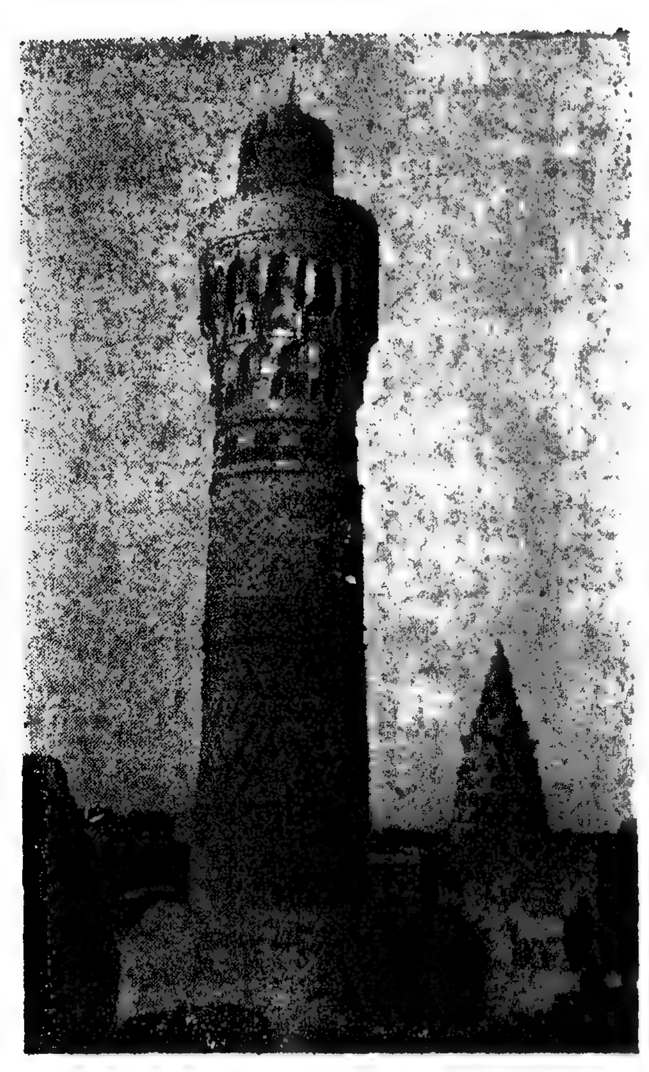
ومقرنصات مأذنة جامع الخلفاء متقنة الصــنع وتذكرنا بالمقرنصـــات البديعة الموجودة في أروقة وواجهات القصر العباسي في بغداد ويرتكز الحوض الاول على اربعة صفوف منها تتنوع في اشكالها ومستوى بروز رؤوس عقودها الصغيرة . أما الحوض الثاني فيستند على ستة صفوف من العقود والحنايا المقرنصة والمتراكبة وهي شبيهة نوعا ما في تركيبها مع مقرنصـــات الحوض الاول لكنها خالية من الحشوات الزخرفية بعكس مقرنصات القاعدة والتي تحمل الحوض الاول .

٢ ـ مأذنة ذي الكفل

يتكون بناء ذي الكفل من مرقد تعلوه قبة مقرنصة مرتبط بمسجد صغير وقاعات وغرف مختلفة الحجوم ، وبخان لايواء الزوار ومأذنـــة ضخمة . يقع البناء في قضاء الكفل التابع لمحافظة بابل وتنص الكتابة التاريخية المحفورة بالاجر على الجزء الاعلى من المأذنة بأن السلطان الايلخاني محمد خدابنده او لجايتو الذي حكم مابين سنة ٧٠٣ هـ الى سنة ٧١٦ هـ (١٣٠٣ ـ ١٣١٦ م) هوالذي امر ببنائها واكملت بعد وفاته من قبل ابنه ابي سعيد بهادرخان . أما المسجد فقد تعرض الى الكثير من التخريبات والتحويرات في العصـــور المتأخرة ورفع محرابه مما ادى الى انقطاع الصلاة فيه ويبدو من مخططـــه الحالي بانه كان عبارة عن قاعة مستطيلة متكونة من ثلاث بلاطات واربعـــة اساكيب تغطي سقفها اثنتا عشرة قبة صغيرة مفلطحة تتعامد مع جدار القبلة في اربعة صفوف ترتكز على عقود كبيرة مدببة تسندها دعامات ضخمة ذات مقطع مربع مشطوف الزوايا أما المأذنة فتنتصب بالقرب من مرقد ذي الكفل

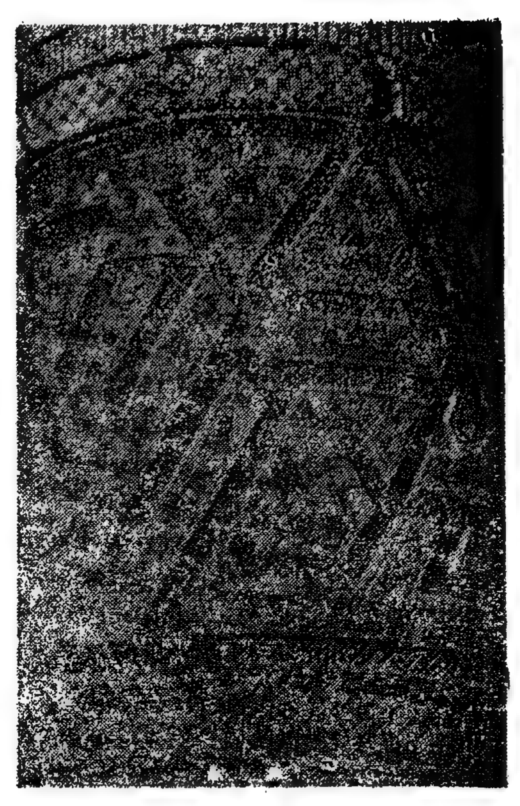
وقد إصابها الكثير من التلف نتيجة الاهمال المتعمد في العصور المتأخرة وقد قامت الاثار بصياتتها صيانة فنية وهي مثال رائع لمآذن العراق في الفترة التي تلت زوال الخلافة العباسية • بنيت المأذنة بالجص والطابوق وتتميز بضخامتها وعلوها الشاهق حيث يبلغ ارتفاعها ٢٤م وهي بهذا شبيهة بمأذنة جامع الخلفاء في بغداد يجلس بدنها الاسطواني الشكل على قاعدة مربعة ضخمة ترتفع عن سطح الارض حوالي ٦ أمتار ويبدو بانها كانت متصلة مع سور الجامع وتشكل احد اركانه من الداخل • يبلغ محيط بدن المأذنة حوالي عشرة امتار ، ينتهي البدن بحوض محمول على طبقات من المقرنصات الجميلة المتقنة ويحيط بالجزء الثاني من البدن الاسطواني (وهو ما يسمى بالرقبة) والذي يبلغ محيطه حوالي ٧٫٣٥م وتعلوه قمة مضلعة نصف كروية أما من الناحية المعمارية والزخرفية فان اقرب مثال عراقي لهذه المأذنة هو منارة الحدباء في الموصل ومنارة جامع الخلفاء في بغداد (انظر الصورة ـ ٤ ، ٥) •

أما ابرز عناصر هذه المأذنة المعمارية فهي المقرنصات التي تتكون من اربعة صفوف تزخرف واجهاتها الآجرية زخارف نباتية محفورة حفرا غائرا • أما العناصر الزخرفية التي تكسو بدون مأذنة الكفل فهي جميلة جدا وكثيرة وتجمع بين العناصر الهندسية والنباتية والكتابات الكوفية والنسخية وهي في جميعها تستوحي عناصر محلية عراقية كانت شائعة ومعروفة قبل الغزو المغولي للعراق في بناء المآذن وكذلك العمائر الاسلامية الاخرى • ان اروع التشكيلات الزخرفية على بدن هذه المأذنة هي تلك التي تغلف النطاق الاوسط من البدن وتتألف من كتابة كوفية نادرة الوجود في العالم الاسلامي وتتكون من اربع كلمات كتبت بشكل مثلثات متداخلة حسب قراءة بعض المختصين العراقيين نصها « ودي حب محمد وعلي » •



صورة ـــ ٤

منارة ذي الكفل



صورة ـ ٥
منارة ذي الكفل (الكتابات الكوفية)

أما الكتابة التاريخية التي تطوق البدن من الاعلى اسفل منطقة الحوض فتتكون من نطاقين سقطت اجزاء متعددة منها والذي بقى قريء على الشكل التالي :

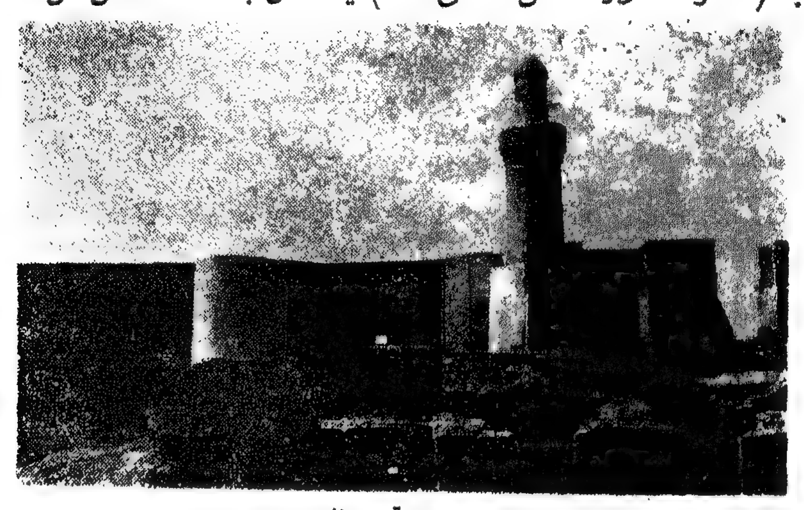
(الله تعالى وطلبا لجزيل ثوابه الامير المعظم العادل ملك الامراء منشي العدل ومقرره وحامي) أما السطر الثاني فبقي منه :

(السلطان الاعظم غياث الدنيا والدين ، خدابنده محمد طاب ثراه وتمت في دولة السلطان ..)

والكتابة هذه نفذت بطريقة الحفر على الاجر بخط الثلث الجميل .

٣ ـ بناء السفينة في صحن الكوفـــة

وهو بناء ذو صفه دينية تحت الارض سمي السفينة وذلك استنادا الى اسطورة محلية تربط المكان بسفينة نوح والطوفان التي ورد ذكرها في القرآن الكريم (سورة ١١ الايات ٣٧ الى ٤٤) ليس هناك اي نص كتابي عن هوية وتاريخ هذا البناء الا ان الاساليب المعمارية والزخرفية المستعملة في البناء والتسقيف والزخرفة تشير الى احتمال كونه مسجدا لا يتعدى تاريخه القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ولما كنا نعرف بان بعض السلاطين الجلائريين ومنهم اويس قد امر بانشاء بعض الابنية الدينية والمراقد في النجف وكربلاء ومنها مرقد الحسين ٧٦٧هـ (١٣٦٥م) فليس نستبعد كونه مسؤولا ايضا عن هذا البناء وعن مدخل مسجد الكوفة ومنارته التي هدمت للاسف في ١٣ شباط ١٩٥٦ ، أن مخطط البناء يشبه او يرمز الى سفينة فهو عبارة عن صحن وسطى مكشوف مثمن ينزل اليه بواسطة سلم يتكون من اثنتي عشرة درجة وتتصل بهذا الصحن وتفتح على مساحته ثمانية اواوين معقودة كبيرة مدببة (اظر الصور ــ من ٦ الى ١٠) يتصــل بهــذا الصحن من الناحية

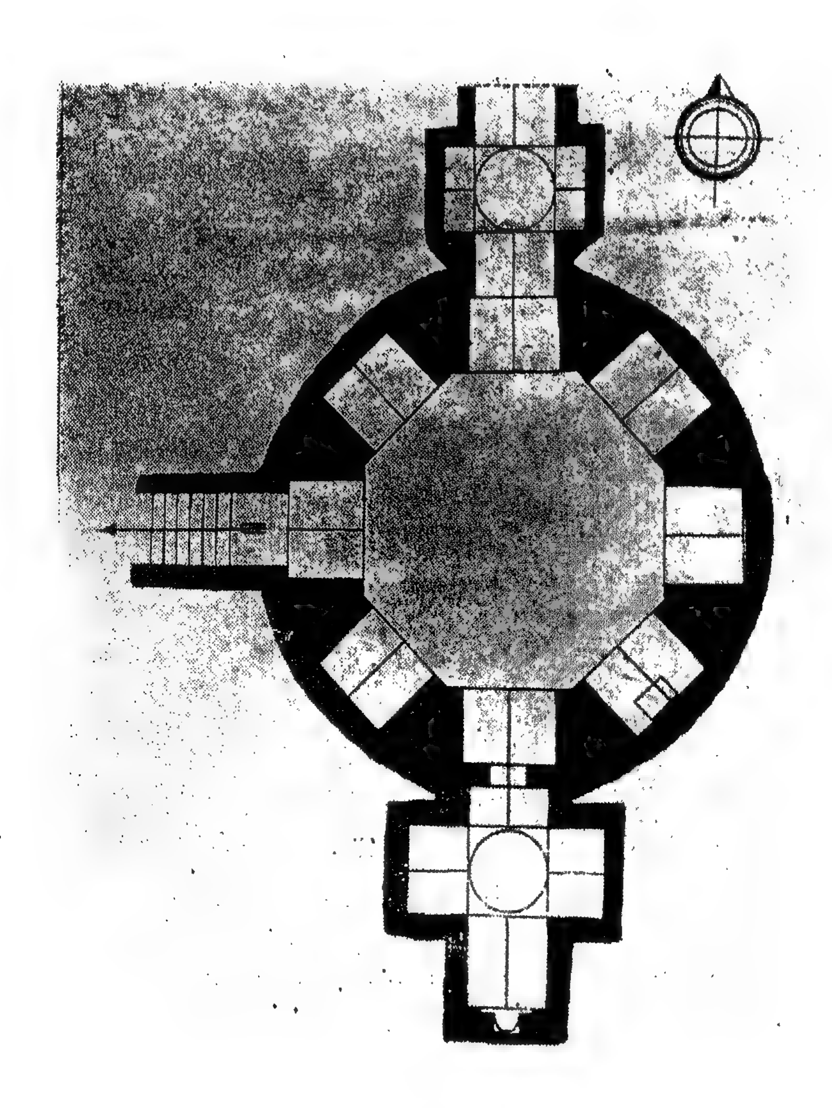


صورة ــ ٦

مدخل ومأذنة مسجد الكوفة (هدمت عام ١٩٥٦)



صورة ــ ٧
تفاصيل مدخل مسجد الكوفة (هدم سنة ١٩٥٦)



صورة ـ ٨
مخطط بناء السفينة في صحن مسجد الكوفة



صورة ــ ٩
اواوين صحن بناء السفينة في مسجد الكوفة



صورة ــ ١٠
سقف مسجد السفينة في صحن مسجد الكوفة

الشمالية والجنوبية بواسطة دهليز مقبى قاعة على شكل حرف تي الانكليزي كل منهما مسقوفة بقبو شبه مسطح ذي ثمانية اضلاع تســـوده النقوش والزخارف الاجرية وتؤطر حواشيه افاريز ذات زخارف اجرية دقيقة شبيهة بتلك الموجودة على المدرسة المرجانية وخان مرجان وفي الجدار القبلي للقاعة

الجنوبية يوجد محراب جميل ذو عقد مدبب يبرز عن جدار المحراب بحوالي ٥ سم وهو مؤطر باطار مستطيل معمول على شكل غائر في الجدار أما كتفا عقد المحراب فقد زينا بزخارف الرقش العربي (الارابسك) المتكونة من عروق نباتية دقيقة ومتشابكة هي ايضا شبيهة بزخارف عمارات القرن الثامن الهجري (١٤م) في بغداد والمحراب انيق وبسيط وبني بالاجر والجص وهو من المحاريب العراقية النادرة والاصلية والتي تعود الى القرن الثامن الهجري (١٤م) وهو جدير بالدراسة والمشاهدة • أما هوية البناء فمسألة لا يمكن القطع بها ولكن نستطيع القول بان البناء ربما كان يقصد به ان يكون مسجدا صغيراً داخل صحن مسجد الكوفة الواسع الارجاء لبعض رجال الدين كمحل للدراسة والاستراحة والتعبد (انظر الصورة ٩) ويعتبر هذا البناء الديني من الامثلة التخطيطية والعمارية النادرة التي انجزها العراقيون خلال القرن الثامن الهجري (١٤م) •

تنقطع بعد ذلك سلسلة ابنية الجوامع والمساجد في العراق لفترة تزيد على القرن والنصف من الزمان واقدم المساجد اللاحقة يعود في تاريخ بنائه الى الربع الاول من القرن العاشر الهجري (١٦م) هو جامع الكواز •

١ ـ جامع الكواز

يمثل جامع الكواز ومجموعة من الجوامع اللاحقة الاخرى المرحلة الاخيرة في فن تخطيط وبناء وزخرفة الجوامع حيث اخذت تختفي تدريجيا صفوف القباب والقبوات المفلطحة في تسقيف الجوامع لتحل محلها القبة المركزية الهائلة التي تغطي معظم بيت الصلاة وبالاخص أسكوب وبلاطة المحراب وفي مجال الزخرفة والتكسيات المعمارية اخذت اساليب الزخارف الاجرية المحفورة ضمن قطع هندسية تتخللها الزخارف النباتية تختفي تدريجيا

لتحل محلها اساليب جديدة هي التشكيلات المزججة ذات الالوان الزاهية والتي تعرف بالقراميد المزججة أو القاشاني وجامع الكواز هذا يشكل بعمارته وزخرفته مرحلة الانتقال هذه ٠

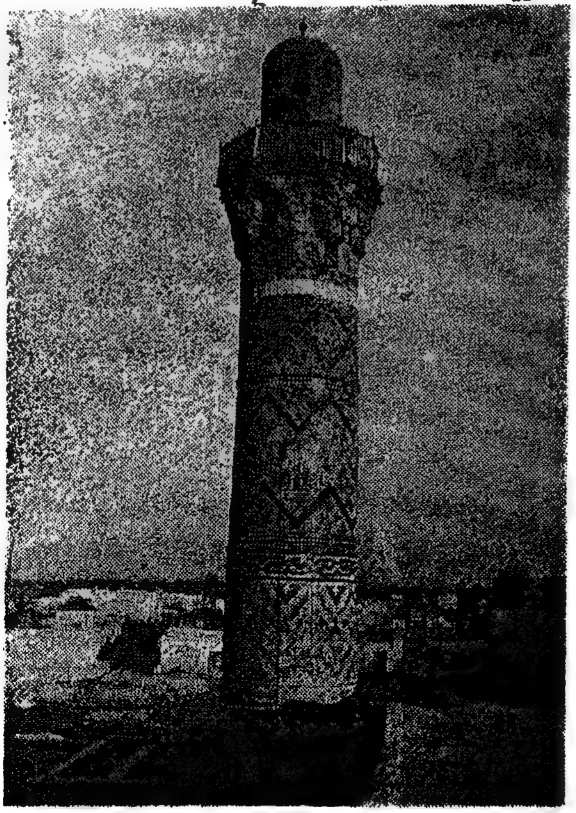
سمي الجامع بالكواز نسبة الى الشيخ محمد امين الكواز شيخ الطريقة الشاذلية الذي دفن في تربة ذات مخطط دائري تعلوها قبة كروية ذات مقطع مدبب تكسوها الزخارف الهندسية القاشانية الملونة ٠ يقع جامع الكواز في محلة المشراق في البصرة امر بتشييده الشيخ ساري بن الشيخ حسن الضاعن العبد السلام العباسي عام ٩٢٠هـ (١٥١٤م) لاستاذه محمد أمين الكواز ٠

يحتل هذا الجامع قطعة من الأرض ذات شكل شبه منحرف مساحتها ١٢٣٠ مترا مربعا ويتألف من بيت صلاة شتوي ، وصيفي يحتل القسم الجنوبي الغربي منه وصحن واسع فيه مقبرة ومأذنة تحتل الركن الجنوبي الشرقي ثم مرقد الكواز ويقع في الركن الجنوبي الغربي ٠

خطط المصلى بشكل مستطيل طوله ٣٠ر٤٤م وعرضه ١٧م ويتألف من ثلاثة اساكيب وسبع بلاطات وقد شيد بالطابوق والجص بشكل سميك ومتقن ويقوم السقف على عقود مدببة ترتكز على اثنتي عشرة دعامة ضخمة ترتفع حوالي مترين فقط وارتفاع السقف بسيط فهو لا يزيد على اربعة امتار ونصف يتوسط المحراب جدار القبلة وهو على شكل حنية في الجدار تبرز من الخارج بشكل محدب يتوج حنية المحراب عقد مدبب من النوع المنفوخ ويلاحظ وجود خمس نوافذ للتهوية والاضاءة داخل المصلى اما الدخول الى المصلى فهو عن طريق ثلاثة ابواب الوسطى مقابل المحراب ولا وجود للزخرفة داخل المصلى وهو مبيض بالجص ٠

تعتبر مأذنة جامع الكواز ذات مكانة متميزة بين مآذن العراق السابقة لها بسبب نوعية تشكيلاتها الزخرفية التي تتألف من مزيج متجانس ورائع

من الزخارف الآجرية والقاشانية الملونة (اظر الصورة — ١١)



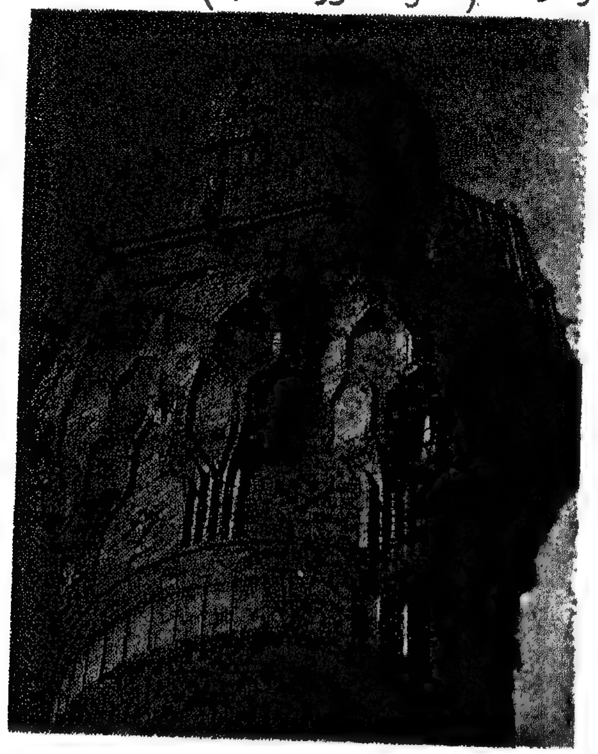
صورة — ١١

مأذنة جامع الكواز في البصـرة

بنيت المأذنة على قاعدة حجرية ضخمة مربعـة الشـكل تعلوها قاعدة مثمنة ويبلغ ارتفاع هذين الجزئين المربع والمثمن حوالي خمسة امتار وفوق هذه القاعدة ينتصب البدن المبني بالاجر والجص يتوجه حوض يستند على صفوف من المقرنصات البديعة ويصعد الى حوض المأذنة على طريق سـلم حلزوني يدور داخل البدن ويبدأ من سطح المسجد أما رقبة المأذنة فتتميز بالرشاقة تتوجها قمة نصف كروية قليلة التدبب أما ارتفاع المأذنة الكلي فيبلغ حوالي ١٥ مترا ٠

تتوزع المساحات الزخرفية على البدن على شكل انطقة وافاريز بازة وهي بهذا المظهر شبيهة بمأذنة الكفل مع الاختلاف في نوعية الزخارف في كل منهما فزخارف مأذنة جامع الكواز على مستوى واحد ويغلب فيها الطابوق المزجج والقراميد على الطابوق العادي ويعتبر النطاق الاوسط اهم الانطقة الزخرفية لبدن المأذنة حيث تتألف عناصره الزخرفية من كتابات كوفية مرتبة باشكال معينة لتناسب الشريط المتموج المسنن الذي يشغل الجزء الاعظم من هذا النطاق والمحدد بالطابوق الاسود أما الكتابات التي من بينها اسم (الله) عز وجل فقد عملت حروفها بطابوق مزجج بلون ازرق فاتح •

ومن المظاهر البديعة المتميزة في هذه المأذنة هو حوضها الجميل الذي يأخذ شكلا مثمنا وهو بهذا يعتبر المثال الوحيد والفريد من نوعه بين مآذن العراق السابقة واللاحقة (انظر الصورة ــ ١٢) •



صورة ــ ١٢
تفاصيل القسم العلوي من ماذنة جامع الكواز في البصرة

٢ ـ جامع المرادية

وهو من مساجد بغداد الشرقية العثمانية الشهيرة ويقع في الجهـة المقابلة لوزارة الدفاع الحالية من جهة شارع الرشيد وسمي بالمرادية نسبة الى الوالي مراد باشا الذي حكم فترات متقطعة متداخلة مع غيره من الولاة من سنة ٩٧٣هـ الى سنة ٩٨٥هـ (١٥٦٦م ـ ١٥٧٨م) وكان تشييده للجامع سنة ٩٧٨هـ وقد تعرض هذا الجامع الى بعض الصيانات والترميمات التي لم تؤثر على شكله العام وتخطيطه منها تلك التي حدثت في عام ١٢٩١هـ (١٨٧٤م) واخرى في عام ١٣٢١هـ (١٩٠٣م) •

خطط هذا الجامع على قطعة ارض واسعة نسبيا وبيت الصلاة فيـه بشكل مستطيل ابعاده (٢٥× ١١م) ويتألف من ثلاثـة اسـاكيب وثلاث بلاطات وبلاطة المحراب فيه عريضة جدا أذا ما قورنت مع البلاطتين المتجاورتين فهي بعرض عشرة امتار أما كل من البلاطتين المتجاورتين فيبلغ اربعة امتار كذلك هناك اختلاف في سعة الاساكيب • يتشابه تخطيط هذا الجامع بشكل عام مع تخطيط جامع مجاهد الدين في الموصـل • شـيد الجامع بالطابوق والجص بشكل متين ومتقن وقد جعلت جدران بيت الصلاة فيه سميكة نسبيا لتتحمل ثقل وضغط القباب السبع التي تسقفه وترتكز قواعد هذه القباب على جسور متينة تحملها عقود مدببة ترتكز اطرافها على اربعة اعمدة رخامية اسطوانية قطر كل منها ٧٠ سم تجلس على قواعد مربعة طول ضلع كل منها متر واحد •

ان أكبر واضخم قباب المصلى هي القبة المركزية الوسطية أو ما تسمى بقبة بلاطة المحراب حيث ترتفع فوق قسم مربع من بيت الصلاة ويبلغ قطرها ٩٫٥ م وهي شبيهة بقبة الجامع المجاهدي في الموصل ولكنها اقل ارتفاعا منها وشكل قبة جامع المرادية نصف كروية مفلطحة ومدببة قليلا وتخلو قاعدتها من النوافذ (انظر الصورة ـ ١٣) • اقتصرت زخارف القبة من الداخل



صورة — ١٣
جامع المرادية

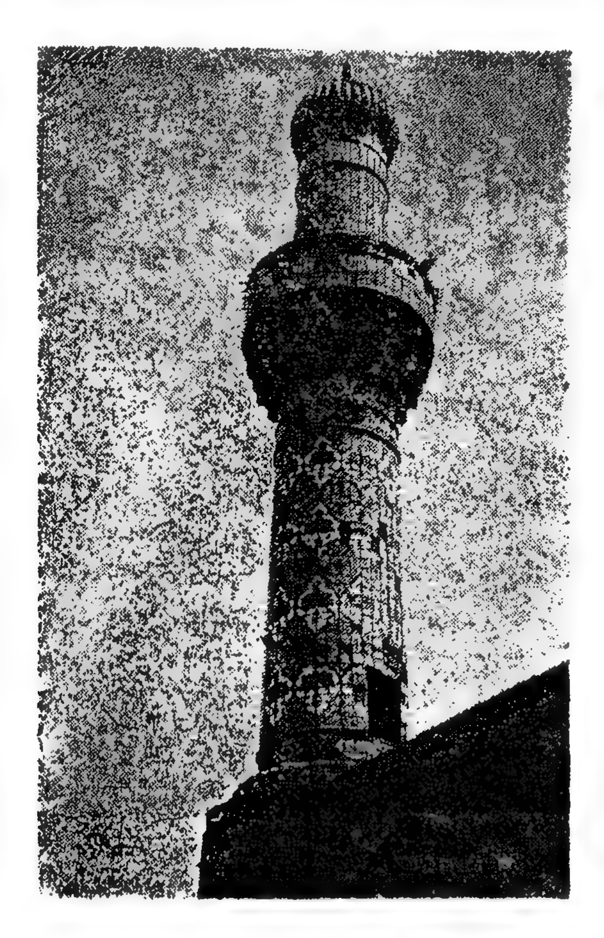
على شريط من الآيات القرآنية (آية الكرسي) يدور حول رقبتها • أما من الخارج فقد زينت بزخارف قاشانية بسيطة وجميلة قوامها قراميد قاشانية خضراء تميل الى الزرقة مرصوفة بطريقة هندسية تشكل معينات متصلة وشكل الزخرفة هذا شائع ومعروف على كثير من العمائر البغدادية السابقة لبناء الجامع •

أما القباب الست الاخرى فأصغر حجما ومبينة بشكل مفلطح وهي شكل صفين كل صف ثلاثة قباب تسقف البلاطتين المتجاورتين •

تقع المأذنة في الركن الشمالي الغربي من المصلى الصيفي وهي مبينة بالحجر وقاعدتها مربعة طول ضلعها ٥ر٣م ترتفع بارتفاع سطح المصلى الصيفي وبدن المأذنة اسطواني رشيق يبلغ قطره ٥ر٢م ويخترقه سلم حلزوني يبدأ من فوق سطح المصلى ويؤدي الى حوض المأذنة المرتكز على اربعة صفوف من

المقرنصات الجميلة تغطيها قطع القاشاني المزخرفة أما رقبة المأذنة فرشيقة ايضا ومتوجة بقمة بصلية الشكل مضلعة تبرز قاعدتها قليلا ويسندها صف من التشكيلات المقرنصة الانيقة والمتقنة الصنع •

زخرفت مأذنة جامع المرادية بقطع القاشاني الذي يحمل زخارف من عناصر نباتية جميلة وبألوان زاهية (انظر الصورة ـ ١٤) وقد قسم بدن



صورة ـ ١٤
تفاصيل زخارف مأذنة جامع المرادية

المأذنة الى أقسام حددت بحواف او افاريز مفتولة بارزة الجزء الاعظم من بدن المأذنة مزخرف بنطاق واسع تتكرر فيه التشكيلات الزخرفية النباتية المؤطرة والمتكررة بشكل فني رائع ويعتقد بعض المختصين بان هذه المأذنة هي آجمل مآذن بغداد من حيث رشاقتها وتقنية تشكيلاتها الزخرفية وجمال مقرنصاتها ووجود مقرنصات تسند قاعدة قمتها ويزيد في اهمية هذا الجامع كونه استوحى في تخطيطه وعمارته بعض مساجد القرن السادس الهجري (١٢م) مثل جامع المجاهدي في الموصل وكذلك مساجد القرون اللاحقة وعلى ما يبدو فأن طراز تخطيطه وعمارته شائع في عصرنا الحاضر •

٣ ـ جامع الخاصكي

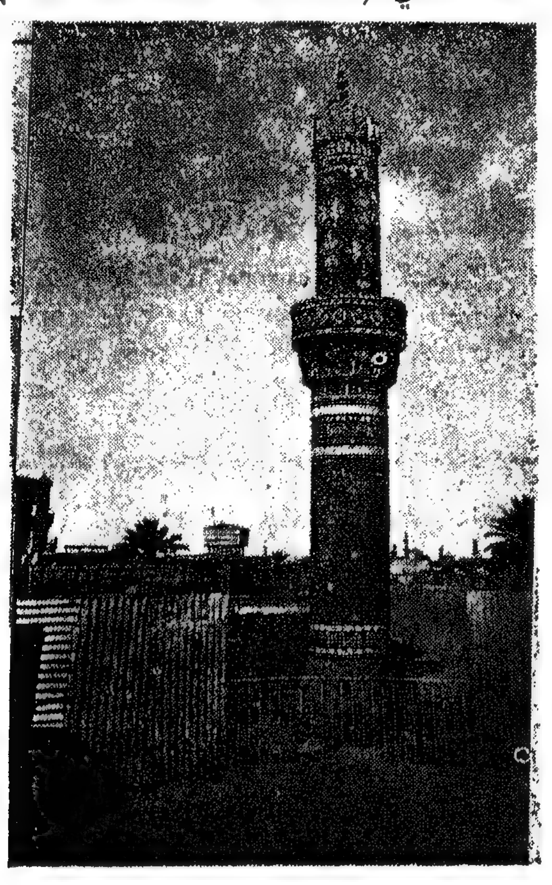
ويقع في محلة رأس القرية من محلات بغداد الشرقية وقد أمر بتشبيده محمد باشا الخاصكي في سنة ١٠٦٩هـ (١٥٦٨م) فسمي باسمه وقد جدد فيما بعد من قبل الوزير اوزون الطويل وتعرض للترميم عدة مرات وبالاخص تكسيته الزخرفية •

يحتل الجامع قطعة مربعة من الارض طول ضلعها ٣٥م ويقع مدخله في الجدار الجنوبي الشرقي وواجهته مزينة بعقد مفتول مؤطر بشريط زخرفي (صورة ـ ١٦) • أما بيت الصلاة فيه فشكله مربع ايضا طول ضلعه ١٥ مترا ويتكون من اسكوبين وثلاث بلاطات • مصلاة الصيفي مستطيل ويتكون من رواق او اسكوب واحد ينفتح على الصحن بثلاث فتحات •

يشغل بيت الصلاة الجزء الغربي من ارض الجامع وهو مشيد بالطابوق والجص بشكل متين ويغطي سقفه سطح مستوى يستند على جسور تجلس على اربعة اعمدة رخامية اسطوانية الشكل يقع المحراب في منتصف جدار القبلة وهو مجوف ذو خمسة اضلاع ويبلغ عمق تجويفه مترا واحدا ويؤطره

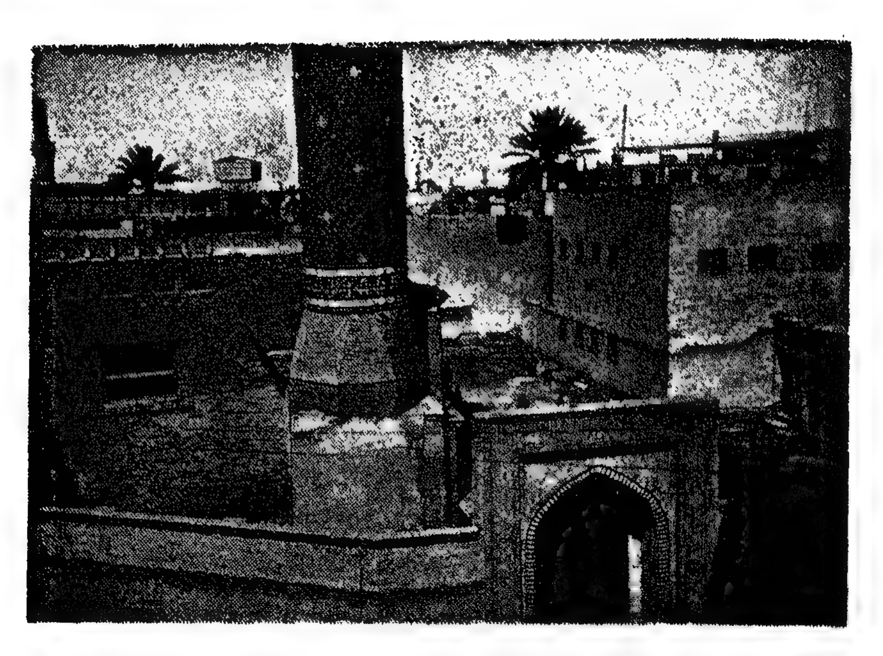
من الامام عقد مدبب • كافة جدران بيت الصلاة مبيضة بالجص في الوقت الحاضر وهو خال من الزخارف •

أما المأذنـة فقد اقيمت في الركن الجنوبي الشرقي من بيت الصـلاة وتندمج معه من الخارج ويبلغ ارتفاعها حوالي ١٥ مترا وينتصب بدنها الرشيق الجميل على قاعدة مربعة طول ضلعها ٣ر٥ متر وهناك منطقة انتقال قوامها اشكال مثلثات يتحول بموجبها مربع القاعدة الى مثمن ثم الى دائرة حيث بني بدن المأذنة الاسطواني (انظر الصور ـ ١٥ ، ١٦) ويخترق بدن



صورة ــ ١٥

مأذنـة جامـع الخاصكي



صورة ــ ١٦
تفاصيل قاعدة مأذنة ومدخل جامع الخاصكي

المأذنة المرتكز على ثلاثة صفوف من المقرنصات الجميلة المتراكبة اما رقبة المأذنة فتتميز بطولها ومتانتها اذا ما قورنت مع رقاب المآذن البغدادية ويعلوها رأس مضلع بصلي الشكل شبيه برأس مأذنة جامع المرادية •

تتميز مأذنة جامع الخاصكي بجمال زخارفها التي تتصف بالدقة والتناسق والتنوع وقد استعملت في زخارفها عناصر وأشكال هندسية وكتابات كوفية ضمن الاشكال الهندسية وأستعمل في هذه التشكيلات اكثر من لون في تزجيج تشكيلاتها الزخرفية التي تتوزع على شكل اشرطة تدور حول البدن وتحصر بينها نطاقا واسعا يشغل حوالي ثلاثة ارباع البدن قوام زخرفته عنصر هندسي يعرف بالسواستيكا (او الصليب المعقوف) متصلة الاذرع مع بعضها حددت حافاتها بسلاسل من قطع الاجر المزجج المربع الشكل

وهذه الزخرفة تغطي بدن الرقبة ايضا مع اختلاف في لون التزجيج ومن التشكيلات الزخرفية الجميلة الاخرى لهذه المأذنة هي تلك التي تزين الحوض وتتألف من كتابات كوفية داخل اشكال نجمية ثمانية الرؤوس ويتوج الرقبة نطاق من الكتابات الكوفية الجميلة اما مقرنصات قمة المأذنة واضلاعها فمغطاة بزخرفة آجرية متكونة نتيجة التفنن في رصف الآجر ٠

وفي هذا الجامع عثر على المحراب الاثري الذي يعتقد فريق من علماء الاثار بانه محراب جامع المنصور الذي بناه وسط مدينته المدورة ببغداد وقد نقل الى المتحف العراقي ويمكن مشاهدته الان في القاعة الاسلامية الثالثة ٠

٤ ـ جامع العاقولي

نسبة الى الشيخ جمال الدين عبدالله بن محمد بن علي العاقولي الشافعي وكان أحد اساتذة المدرسة المستنصرية لمدة طويلة (حوالي خمسين عاما) ولد سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠م) وتوفى يوم الاربعاء ٢٤ شوال سنة ٧٢٨هـ (١٣٢٧م) ودفن في داره ويمكن مشاهدة ضريحه الخشبي الجميل في المتحف العراقي وهو من التحف الخشبية التي تعود الى القرن الثامن الهجري (١٤م) ٠ أما الجامع فيقع في محلة العاقولية في بغداد الشرقية ولا يبعد كثيرا عن جامع الحيدر خانة ٠ وتشير مصادرنا الى ان الشيخ العاقولي كان قد اوقف داره لايتام يقرأون فيها القرآن الكريم ، وطورت دار القرآن هذه الى مدرسة ، وقد أمر الوالي محمد باشا ببناء جامع الى جوار المدرسة التي تحوي في جملة ما تحوي ضريح العاقولي وذلك عام ١٠٩٥هـ (١٦٨٤م) وبعد مرور مائة عام أمر الوالي عمر باشا بتجديد هذا الجامع عام ١١١٧هـ (١٨٠٢م) وبعد مرور حوالي نصف قرن رمم بامر سليمان باشا وذلك في سنة ١١٦٣هـ (١٨٥٠م) ٠

يعتبر جامع العاقولي من الجوامع العثمانية الصغيرة فهو يشغل قطعة ارض مستطيلة ٤٢×٣٤ متر أما بيت الصلاة فيه فشكله مستطيل طوله ٣٥م وعرضه ٥ر١٧م ويتكون من اسكوبين وخمس بلاطات اوسعها بلاطة المحراب اذ يبلغ عرضها ٥ أمتار أما البقية فبعرض ٤ أمتار اما المصلى الصيفي في هذا الجامع فشكله مستطيل أيضا ويكمل تخطيط المصلى الشتوي فهو ينفتح على الصحن بخمس فتحات ولكنه يتألف من اسكوب واحد ويقع مدخل الجامع في الجدار الجنوبي الشرقي وهو مدخل ضخم تغطيه الزخارف ويشبه مدخل جامع الخاصكي • شيد الجامع بالطابوق والجص •

وتتميز جدران بيت صلاته بالسمك حيث يبلغ سمكها ٧٠ر١م يقسم بيت الصلاة طوليا الى قسمين متساويين بواسطة صف من أربعة اعمدة رخامية ترتكز على قواعد دائرية وتتوجها تيجان رخامية مزينة بفروع نباتية تتوسطها زهرة وتحمل تيجان هذه الاعمدة عقودا مدببة ترتكز عليها عشر قباب مفلطحة تسقف بيت الصلاة في اماكن تقاطع البلاطات مع الاساكيب • يتوسط جدار القبلة المحراب وهو بشكل حنية مجوفة ذات خمسة وجوه وعقده مدبب •

بيت الصلاة خال من الزخارف ومبيض بالجص ويتم الدخول اليه عن طريق اربعة مداخل تتوزع في الجدار الشمالي منه احدها يقع قبالة المحراب •

أما المأذنة فانها مشيدة بالاجر والجص وتقع عند الزاوية الجنوبية الشرقية لمصلى الشافعية وهي اسطوانية البدن ذات قاعدة مربعة يبلغ ارتفاعها ١٥ مترا وقطر بدنها ٣ أمتار والصعود اليها من فوق سطح الجامع عن طريق مدخل يؤدي الى سلم حلزوني يؤدي الى حوضها الدائري الذي يرتكز على ستة صفوف من المقرنصات المسننة وهي من المقرنصات النادرة في بغداد ويوجد مثال واحد لها في منارة المدرسة المرجانية المارة الذكر ورقبة المأذنة

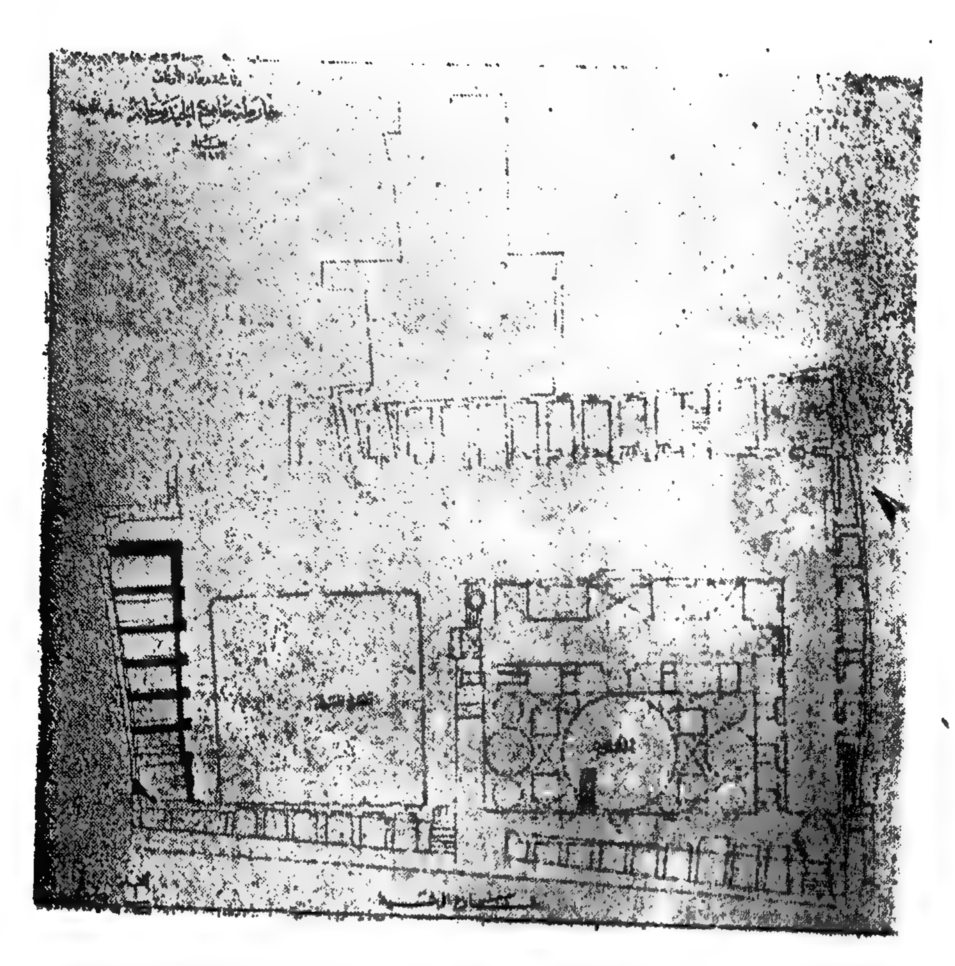
رشيقة تعلوها قمة نصف كروية تزينها المتضليعات الشبيهة بمأذنة جامع الخاصكي • ومأذنة الجامع العاقولي تختلف من حيث التحلية . ومقرنصات الحوض عن مآذن الجوامع العثمانية المارة الذكر ولكنها تتشابه من حيث الشكل العام والمقرنصات ومن حيث خلوها من النقوش والزينة مع مأذنة المدرسة المرجانية كما المحنا الى ذلك سابقا •

٥ ـ جامع الحيدر خانــة

يقع هذا الجامع في محلة الحيدر خانة ببغداد الشرقية بمحاذاة شارع الرشيد وتشير النصوص المدونة في هذا الجامع الى ان داود باشا والي بغداد من سنة ١٢٣٢هـ الى سنة ١٢٤١هـ (١٨١٦م ـ ١٨٢٥م) هو الذي أمر بانشائه ولكن الجامع تم عام ١٢٤٣ هـ (١٨٢٧ م) كما تشير لوحة الكتابة المثبتة في هذا الجامع •

يتفق علماء الاثار بأن جامع الحيدر خانـة هو أوسع واكمل واجمل جوامع العراق الاثرية المعاصرة له من حيث تخطيطه وعمارته وزخرفته ويعتبر اكبر جامع عثماني في بغداد حيث انه يشغل قطعة ارض بشكل شبه منحرف قياسها ٧٦×٦٩×٥٠م مسورة بجدار خارجي ضخم (انظر الصورة ـ ١٧) •

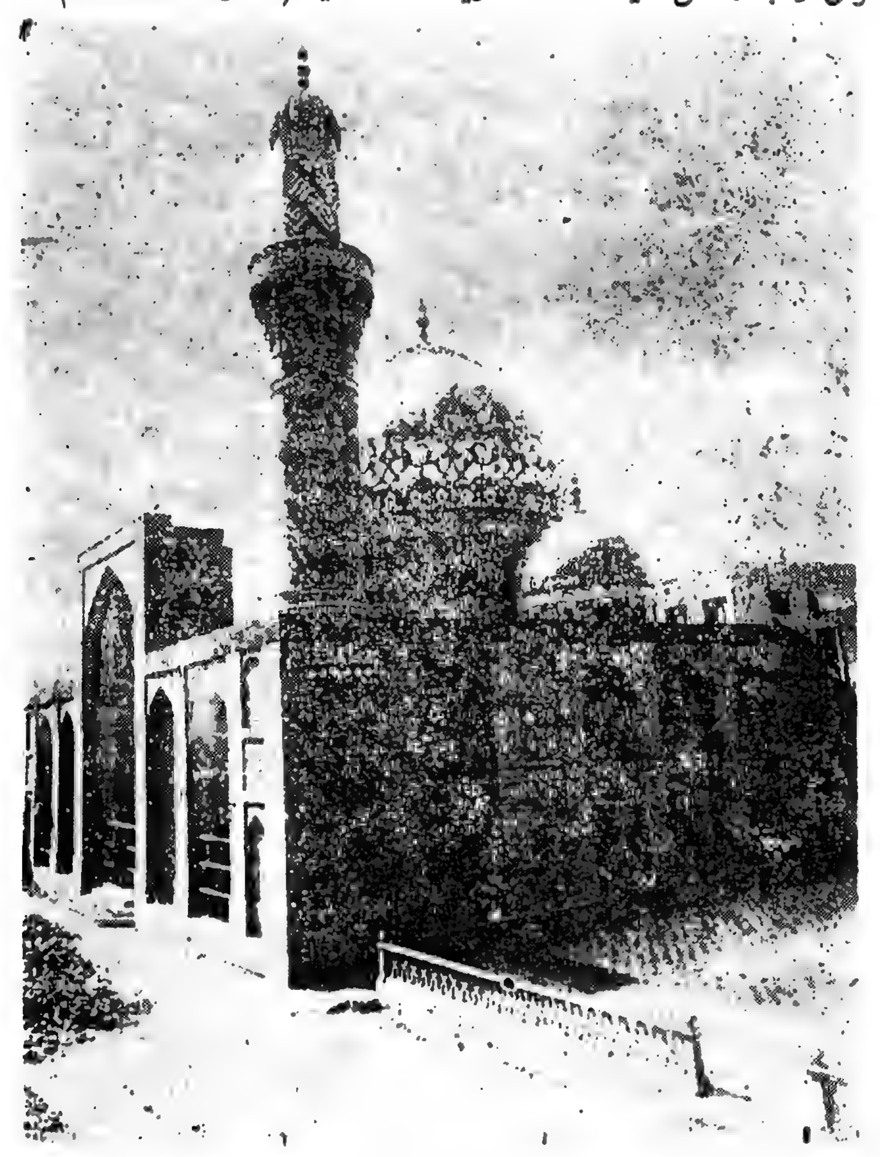
يشغل بيت الصلاة القسم الجنوبي الغربي من المسجد ويتألف من بيت صلاة شتوي واخر صيفي والمصلى الشتوي خطط بشكل مستطيل ابعاده ٣٠× ٢٧م ويتألف من ثلاثة اساكيب وثلاث بلاطات اوسعها بلاطة المحراب وهي ذات شكل مربع وتشغل نصف بيت الصلاة ويمتاز الاسكوب الاوسط بالسعة ايضا وعرضه يقارب عرض الاسكوبين الاخرين أما المصلى الصيفي فمستطيل الشكل ايضا يتكون من رواق وينفتح على الصحن بثلاث فتحات اوسعها الفتحة الوسطى •



صورة ــ ١٧
مخطط جامع الحيدر خانه

شيد جامع الحيدر خانة بالطابوق والجص ويتميز بناؤه بالضخامة والمتانة أما جدران بيت صلاته فيزيد سمكها على المترين وهذا السمك عمل بصورة متعمدة لتتحمل الثقل الهائل للقبة التي تغطي بلاطة المحراب واقيمت قبة بلاطة المحراب على رقبة اسطوانية قطرها ٥ر١٠ مترا ويرتفع رأس القبة ١٧

مترا عن مستوى ارض المصلى وتعتبر هذه القبة من أكبر قباب مساجد العراق واجملها من حيث شكلها وزينتها القاشانية (انظر الصورة رقم ١٨)



صورة ـ ١٨
جامع الحيدر خانه

أما شكل القبة الخارجي فبصلي وقد كسيت بغطاء من قطع القاشاني الذي يشكل زخارف تتألف من فروع نباتية كبيرة تلتوي وتلتف لتغطي كامل القبة وهي بلون ازرق غامق واصفر على ارضية بلون ازرق يميل الى الاخضرار ورقبة هذه القبة طويلة وفتحت بها ثماني نوافذ تعلوها عقود مدببة تتناوب مع ثماني حنايا زخرفية من نفس الطراز •

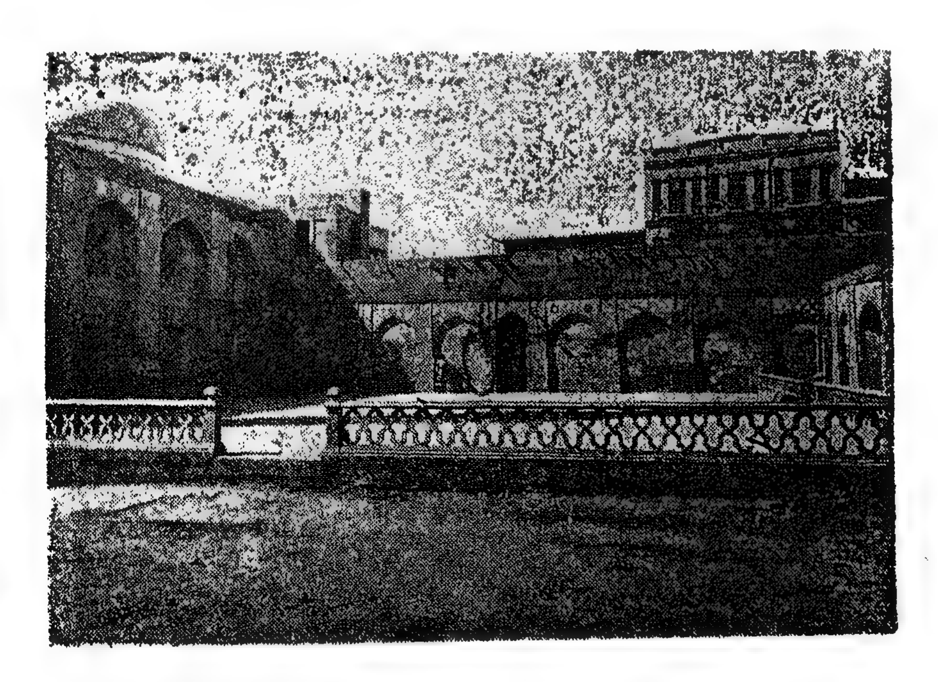
أما رقبة القبة من الداخل فقد زينت بنطاق من الايات القرآنية ويمر من تحت النوافذ وشريط اخر من نفس النوع يعلو النوافذ وزخرفت قمة القبة من الداخل بقرص مشغول بزخارف نباتية جميلة •

تغطي باقي اجزاء المصلى الشتوي والصيفي قباب صغيرة مفلطحة عدا قبتين ترتفعان عن مستوى وجه سطح المصلى بحوالي ٥ر٥م وهما وان كانتا صغيرتين فانهما تشبهان من حيث الشكل العام والزخارف قبة بلاطة المحراب •

تزين جدران المصلى الداخلية عدد من الحنايا والنوافذ ذات عقود مدببة وقد تفنن المعمار في اشغال القسم العلوي من هذه الحنايا غير النافذة بمقرنصات جميلة ذات وظيفة جمالية •

يقع محراب الجامع في وسط الجدار القبلي وهو بشكل تجويف مضلع ذو خمسة وجوه عمقه ٣٠ر١م محدد مدبب تبلغ سعة فتحته ٥ر١م وقد زخرف بشكل كثيف بزخارف قاشانية ذات عناصر نباتية وكتابات جميلة ومن ابرز القطع الرخامية الاثرية في مصلى جامع الحيدر خانة هو محرابه الجميل المعمول من الرخام المعرق والذي يعتبر من انفس التحف الرخامية العثمانية في العراق ويقع الى يمين المحراب وتزينه الزخارف النباتية الجميلة المنفذة بطريقة النحت البارز والكتابات •

أما المصلى الصيفي فيتألف من اسكوب واحد طوله ٢٧ مترا وعرضه ٥ر٥ متر ويشرف على الصحن بثلاث بوائك بهيئة اواوين اوسعها ايوان البائكة الوسطى الذي يبلغ سعته ٥ر٥م ، أن أهم وابرز مكونات بيت الصلاة الخارجية هي واجهته وتحلياتها الزخرفية يتوسطها الايوان الرئيسي الذي يحوى المدخل الرئيسي الى بيت الصلاة (انظر الصورة رقم ١٩) ٠



صورة ــ ١٩
المصلى الصيفي في جامع الحيدر خانه

أما مأذنة جامع الحيدرخانة (التي جددت سنة ١٩٢٣ م) فتقع في الركن الشمالي الشرقي من بيت الصلاة وتندمج قاعدتها المربعة البالغ ارتفاعها ٨ أمتار فيه وتظهر وكأنها جزء منه والمأذنة جميلة جدا ورشيقة حيث يبلغ ارتفاعها ٢٠ مترا مع القاعدة وقطر بدنها ٩٠ر١ م ويخترق بدنها سلم حلزوني يبدأ من سطح المسجد كما هي

العادة في معظم المساجد العثمانية ويؤدي الى حوض المأذنة الذي يستند على اربعة صفوف من المقرنصات تشبه في تشكيلها مقرنصات حوض مأذنة جامع المرادية أما رقبة المأذنة فهي رشيقة في مظهرها وقمتها مضلعة وذات تدبب قليل وتسند بواسطة مقرنصات بسيطة مستوية ذات حافات بارزة •

أن الزخارف القاشانية التي تغطي مأذنة جامع الحيدر خانة فريدة من نوعها حيث تجمع بين الاشكال الهندسية والعناصر النباتية والكتابات بخطوط متنوعة كذلك فقد عمد المعمار العراقي الى أستعمال طرازين من الزخارف المصممة على قطع القاشاني وقد زينت هذه المأذنة ورقبتها بكثير من الكتابات الدينيـــــة •

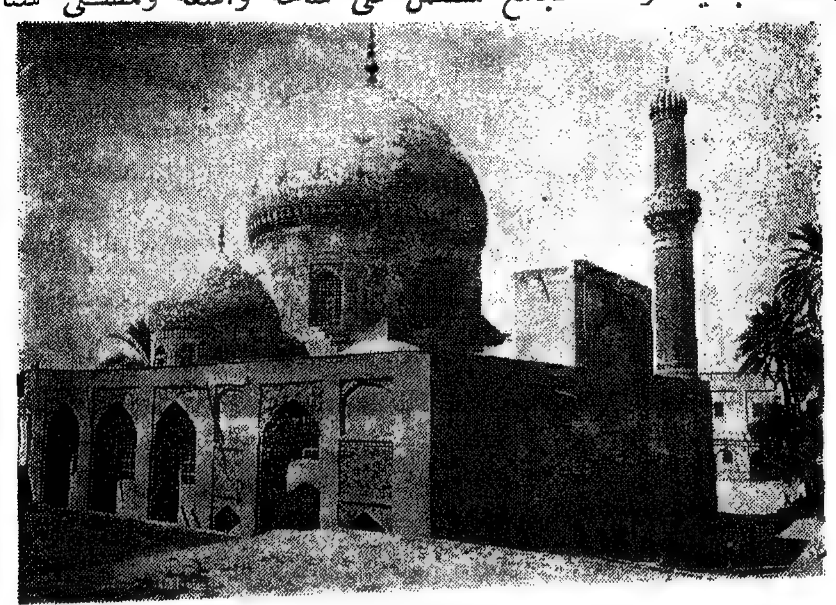
يدخل الى الجامع عن طريق ثلاثة مداخل بهيئة اواوين او مجازات تتصف بتركيبها المعماري المتشابه وعقودها المدببة المنفرجة ومقرنصاتها الجميلة وزخارفها القاشانية التي تغطي معظم عقودها ووجوهها ، يتوسط احد هذه المداخل الجدار الجنوبي الغربي منفتحا على شارع الرشيد وفاصلا بين المصلى الشتوي المسقوف والمصلى الصيفي المكشوف الذي يشغل الصحن الشمالي الغربي ويقع المدخل الثاني في الركن الجنوبي الغربي مطلا على شارع الرشيد ايضا يؤدي الى مجاز يفصل المصلى الشتوي عن الجدار الجنوبي الشرقي حيث يقود الى الصحن الواسع الذي يشغل القسم الشرقي من الجامع أما الباب الثالث فيخترق مجازها الجدار الشمالي الغربي ويؤدي الى المسجد الصيفي المكشوف وتزين جدران الجامع الخارجية هذه مجموعة من حنايا واسعة نسبيا ترتفع بارتفاع الجدار تقريبا وتشغل جدارى المصلى الصيفي من الداخل والخارج وقد زينت أكتاف عقودها وجدرانها بتشكيلات زخرفية معينة ناتجة من التفنن في رصف الأجر وتلتصق بجدران الجامع من الداخل عدد من الغرف والمرافق خصصت لايواء الطلبة حيث الحقت به مدرسة لعلوم الدين •

يعتبر جامع الحيدر خانة بحق من اجمل جوامع بغداد ويمثل استمرار

طراز تخطيط الجامع المجاهدي في الموصل والمرادية ويكشف عن استمرار تطور العناصر المعمارية التي نمت وازدهرت على يد العراقيين في القرون السابقة للعصر العثماني •

٦ ـ جامع الاحمدي

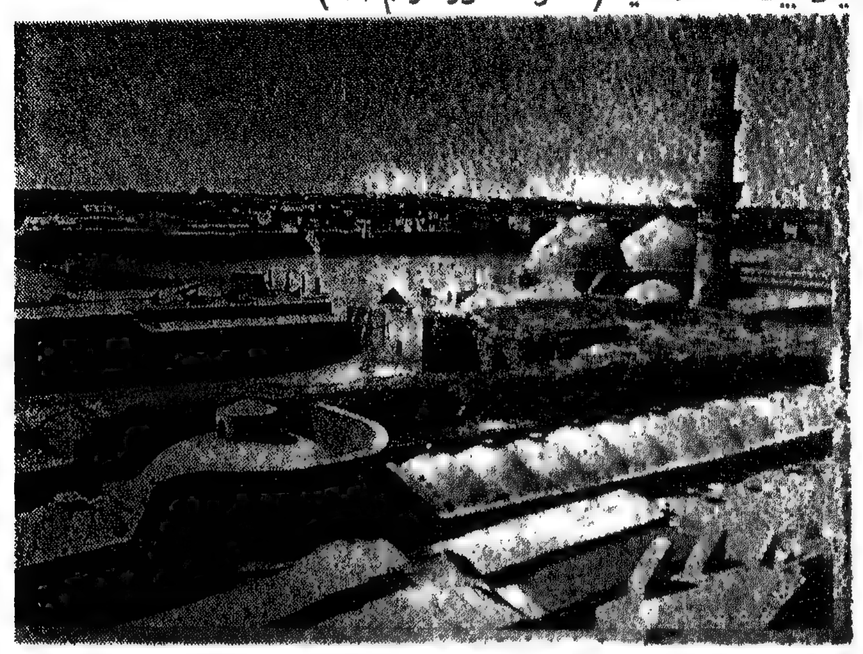
ويقع في الميدان سمي بالاحمدي نسبة الى بانيه احمد باشا كتخدا سليمان باشا الكبير وأحمد باشا هذا قتل في بغداد ودفن في مقبرة الشيخ معروف سنة ١٢١٠هـ (١٧٩٥م) وقام باكمال الجامع اخوه عبد الله سنة ١٢١١هـ (١٧٩٦م) ان هذا الجامع الجميل يشبه ويناظر جامع المرادية وجامع الحيدر خانة تخطيطا وعمارة وزخرفة (انظر الصورة رقم ٢٠) وقد ذكر عنه العلامة الالوسي بأن أحمد باشا قد استحضر لبنائه اشهر اساتذة عصره من الفعلة والمهندسين وصرف على العمارة مبالغ عظيمة ووقف عليه الاوقات الجسيمة وهذا الجامع مشتمل على ساحة واسعة ومصلى شتائي



صورة ــ ٢٠
جامع الاحمدي

مرتفع عن الارض مع رواق بجواره وعلى مصلى اخر صيفي وعلى حجر متصلة بسوره قد هدم قسم منها الوالي مدحت باشا واضافها الى الطريق وذلك سنة ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) وعلى المصلى قبة مركزية شامخة في الهواء بديعة الشكل مبنية بالحجر القاشاني الملون بالوان مختلفة تحف بها قبتان اصغر منها منقوشة بزخارف جميلة والقبة المركزية الكبرى مطوقة بنطاق كتب فيه بعض الايات القرآنية بجنبها مئذنة جميلة جدا تكسوها زخارف قاشانية ملونة وفي جانب المصلى من الجهة الجنوبية مدرسة متكونة من طابقين يدخل الى الجامع عن طريق اربعة ابواب .

ومن جوامع بغداد العثمانية الاخرى جامع الاصفية الذي يقع شمال غرب المستنصرية ويشتهر بمأذنته المرتفعة ذات الحوضين والمزينة باجمل واروع الزخارف القاشانية ويشتهر هذا الجامع ايضا بقبتين متجاورتين تغطيان بيت الصلاة فيه (انظر الصورة رقم ٢١) .



صورة ــ ٢١
جامع الاصفية

وتكثر في الموصل الجوامع العثمانية ولا مجال لذكرها خوفا من الاطالة والتكرار ومن اشهرها جامع النبي يونس الذي يتميز بمأذنته الاسطوانية المشهورة المتميزة برشاقتها وحوضيها وقمتها الفريدة المدببة التي بنيت على غرار المآذن العثمانية في اسطنبول •

الاضرحة والمشاهد

بالرغم من عدم تشجيع وتحبيذ الدين الاسلامي لبناء الاضرحة والمشاهد فقد اقيم خلال هذه العصور والعصور التي سبقتها الكثير من الاضرحة والمشاهد من قبل الحكام والولاة وبعض الموسرين من الناس لشخصيات الامة البارزة تخليدا لذكراهم • وقد اطلقت عدة مسميات على هذا النوع من البناء مثل الضريح والقبة والمرقد والمشهد والمقام والعتبات (جمع عتبة) والروضة والحضرة وكلها تعني نمطا واحدا من انماط العمارة الاسلامية يتكون بصورة اساسية من غرفة او قاعة ذات مخطط يتراوح بين المربع والمثمن ذو مدخل او اكثر تعلوه قبة وفي اغلب الاحيان يحيط به دهليز او رواق لاجل الطواف حولـــه •

يعتبر تخطيط الاضرحة والمشاهد في العصور التي اعقبت الغزو المغولي وحتى نهاية العصر العثماني في اغلب الاحيان امتدادا للعصور العباسية السابقة مع نقلات نوعية معينة حيث كان الضريح الاسلامي يبنى بتخطيط مربع داخلي يحيط به مثمن خارجي او العكس بالعكس او يبنى بتخطيط مربع او مثمن من الداخل والخارج وكان بناؤه أما بشكل مستقل كما هو الحال في المراقد كمرقد الشيخ محمد السكران والعتبات المقدسة التي تحوي قبور الائمة او جزء متكامل من بناء جامع او مسجد كما هو الحال في ضريح ذي الكفل او جزء من مخطط متكامل لمدرسة كما هو الحال في ضريح مرجان في المدرسة المرجانية وقد سبق وان اطلعنا فيما مضى من البحث على الكثير من

الابنية الدينية كالمدارس والجوامع التي احتوت مدافن للذين امروا بتشييدها او التي بنيت من قبل متبرعين تخليدا لذكرى فقيه من رجال الدين مثل ضريح الشيخ عمر السهروردي في بغداد او التي بنيت لهم في جوامع اقيمت في الاساس تخليدا لهم ولخدماتهم الجليلة مثل ضريح الكواز في البصرة .

وفي العصور المتأخرة حظيت قبور الائمة وبعض الشيوخ باهتمام كبير حيث قامت حولها مدن كاملة وتطور فن تخطيط هذه العمارات تبعا لذلك وصارت تتسم بسعة ملحقاتها وترتيبها بشكل اسوار تفصل بين القبر وما يلتصق به وفضاء يدور حوله وما يحيط به من اسواق ودور مجاورة مثل روضات الامام علي والحسين والروضة الكاظمية والعسكرية في سامراء وفي بعض الاحيان نرى هذا التطور يأخذ نمطا اخر حيث يطغى تخطيط المسجد الملحق على تخطيط غرفة القبر كما هو الحال في الحضرة القادرية والامام الاعظم في بغداد .

لم يكن المحراب عنصرا اساسيا يدخل في تخطيط الضريح الاسلامي العراقي الذي يعود الى هذه العصور وعلى الرغم من ذلك فأن بعض الامثلة الشاخصة من الاضرحة احتوت داخلها محرابا كضريح الشيخ محمد السكران اما القبة فقد كانت ابرز ما يميز هذه العمارات عن غيرها حيث مارس المعماريون كافة الانواع المعروفة من القباب لتسقيفها ومن اهمها القباب المخروطة والقباب الكروية المدببة ذات الرقبة الطويلة والقباب المفلطحة ذات الرقبة القصيرة أما القباب المخروطية والتي تسقف الاضرحة التي تعود لهذه العصور فقد تطورت واصبحت من طبقتين تختلف الواحدة عن الاخرى من حيث الشكل ، كروية من الداخل تغطيها قبة مقرنصة من الخارج يقومان في الاساس على استخدام الحنايا الركنية والمقرنصات لاغراض تحويل المربع الى دائرة لاكمال التسقيف بمراحل متعددة ومن هذه القباب قبة ضريح ذي الكفل وقبة ضريح الشيخ عمر السهروردي اللذين يعتبران من الامثلة

المتطورة للقباب العراقيــة المقرنصـــة والمخروطة والتي اسـتعملت لتسقيف الاضرحــة في العراق منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كما هو الحال في قبة محمد الدوري في الدور •

أما القباب ذات الاشكال البصلية فقد استعمل قسم منها في روضات الامام علي والامامين العسكريين في سامراء وهذا النوع من القباب ضخم ويمتاز برقاب طويلة تزيد في هيبة وضخامة القبة ويمتاز عدد من الروضات بالقباب المزدوجة مثل قباب الروضـــة الحيدرية في النجف والكاظميـــة في بغـــداد •

في حوالي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) دخلت المأذنة كعنصر من العناصر المعمارية البارزة في عمارة الاضرحة والروضات ولا غرابة في ذلك خصوصا اذا ما أخذنا بنظر الاعتبار كون هذه الابنية قد تطورت واصبحت تقام فيها الصلوات الخمس واقدم مثال من مآذن الروضات هي مئذنة الحضرة القادرية وقد تطور الامر في هذا المجال في بعض الروضات واستعملت فيها اكثر من مأذنة وصارت تحف بمدخل الحضرة وتحصر بينها مدخـل الايوان الرئيســي الذي يؤدي الى الحضرة مثل ما هو موجود في الروضات الحيدرية والعباسية والحسينية والعسكريـــة •

لقد ركز المعماريون وتفنن الفنانون العراقيون في تحلية وزخرفـــة ونقوش الأضرحة والمشاهد والروضات وقبابها من الداخل والخارج ومآذنها بمختلف صنوف واساليب الزخارف الاسلامية المعروفة سابقا والمتكررة خلال العصور المتأخرة من تفنن في رصف الاجر واســتخدام القراميد القاشانية والمرايا والذهب وتنوعت اشكال هذه التحليات حيث شملت وحدات هندسية ونباتية وكتابات قرآنية وتذكارية ذات خطوط جميلة متقنة ومن الجدير بالذكر فأن الاقبال قد زاد في العصور المتأخرة على استخدام الطابوق المزجج لتحلية الاضرحـــة وقبابهـــا وبالاخص في الفترة التي اعقبت القرن الثامن الهجري

(١٤م) ونجد هذا التطور متمثلا في قبة ضريح الكواز في البصرة وقباب الروضة الكيلانية ومسجد الامام الاعظم وبلغ هذ التطور اوجه من حيث الانسجام في التناسق والالوان فيما بعد في روضات كربلاء والنجف وبغداد والكاظمية وسامراء حيث كسيت مساحات واسعة جدا بقراميد قاشانية غاية في الجودة والاتقان تضم تشكيلات نباتية وهندسية بالاضافة الى انطقة من كتابات قرآنية وتذكارية تتوج جدران هذه الروضات والحضرات وتكون بمجموعها مئات الامتار نفذت في معظم الاحيان باللون الابيض على ارضية زرقاء غامقة •

بالرغم من تعدد وكثرة المراقد والاضرحة التي بنيت بشكل مستقل او داخل مدارس والتي ذكرتها المراجع التاريخية التي ارخت لهذه العصور فأن ما تبقى منها يكاد لا يتعدى اصابع اليد الواحدة فقد عفى الزمان على معظمها اما التي بقيت شاخصة وحظيت بالاهتمام على مر العصور فهي مراقد الائمة وبعض الشيوخ من رجال الدين ومن هذه الامثلة النادرة والتي تعود الفترة المغول الايلخانيين هو ضريح الشيخ محمد السكران •

ضريح محمد السكران ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م)

وهو من اضرحة العصر الايلخاني الذي لا يزال يحتفظ بشكله وتخطيطه الاصلي • بني هذا الضريح على تل مرتفع نسبيا في قرية الجديدة التي تقع حوالي عشرة كيلو مترات الى شمال غربي خان بني سعد وثلاثين كيلو مترا شمال شرق بغداد (انظر الصورة رقم ٢٢) •

بني هذا الضريح من قبل الشيخ خميس للشيخ الصوفي محمد السكران وكان الشيخ خميس من اتباعه ومنفذا لوصيته حسبما تشير الى ذلك الكتابة التاريخية وقد قام المرحوم النقشبندي بقراءة النص المثبت فوق مدخل الضريح على الشكل التالي :



صورة ــ ٢٢

ضريح الشيخ محمد السكران

١ ــ بسم الله الرحمن الرحيم •

٢ ــ الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار •

٣ ــ فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون •

٤ ــ هذه التربة للشيخ الصالح قطب العارفين اوحد عصره وفريد

٥ ــ دهره محيي الدين محمد بن سكران رحمة الله عليه ومنشيء هذه الزاوية

٦ ــ وموقفها على الفقراء المقيمين والواردين واليتامى والمساكين والغرباء وابناء

٧ ــ السبيل وانشأ هذه القبة خادمه ووصيه الشيخ خميس توفى الشيخ رحمة الله

٨ ـ عليه يوم الجمعة سنة سبع وستين وستمائة وصلى الله على محمد النبي وآلــــه .

مخطط الضريح عبارة عن قاعة مثمنة الشكل تعلوها قبة ويدخل الى الضريح عن طريق دهليز في الناحية الغربية . ان مخطط هذا الضريح مستوحى من نظام تخطيط الاضرحة العراقية التي سبقته والتي توصل اليها وطورها المعمار العراقي عبر قرون متعددة من الزمـــان .

أن حجـم الضريح من الداخل ووجود محراب فيـه باتجاه مكة وموقع صندوق القبر الواقع في الزاوية الشمالية الشرقية وليس في المنتصف كما هي العادة يشير الى أن الضريح كان يستخدم للصلاة ايضا بالاضافة الى وظيفته الاصلية كمدفن للشيخ محمد السكران .

بني الضريح بالاجر والجص بشكل مثمن يبلغ طول كل ضلع منه اربعة امتار وثلاثين سنتمترا تعلوه قبة معقودة مستديرة مدرجة الى ثلاثة مناطق كل منطقـة اصـغر من التي قبلها تنتهي بميل من النحاس يبلغ ارتفاع جدران الضريح ٦ أمتار حيث تبدأ عندها منطقة انتقال القبـه المتكونـة من عقود ومقرنصات انشئت القبة عليها بارتفاع اربعة امتار وهي بشكل كروي يميل الى التدبب يقع مدخل الضريح في الجنوب الغربي ويبدأ بدهليز طوله ستة امتار وعرضه ثلاثة امتار وثلاثين سنتمترا وارتفاعه نحو ستة امتار ، مسقوف بجذوع النخل ومدخله معقود بعقد مدبب وقد صـان هذا الدهليز النص التاريخي المثبت فوق باب الضريح ، ينتهي الدهليز بباب قبة الضريح وعرضه ٩٥سم وارتفاعه متران وفوقه قوسان من العقادة بينهما كتيبة عليها النص التاريخي المثبت فوق باب الضريح ، ينتهي الدهليز بباب قبة الضريح وعرضه شبكية وفي زوايا الكتيبة الاربع مسدسات لكل زاوية مسدس كتب بالنحت البارز وبالحروف الكوفية المورقة على ارضية مزخرفة في غاية الجمال والدقة وعلى الشكل التالي :

١ ـ هذه سكنى شيخ الزاوية (في القسم العلوي من اليمين) •
٢ ـ عاش ثمان وثمانين سنة (في القسم العلوي من اليسار) •
٣ ـ فلله (في القسم السفلي من اليمين) •
٤ ـ البقاء (في القسم السفلي من اليسار) •

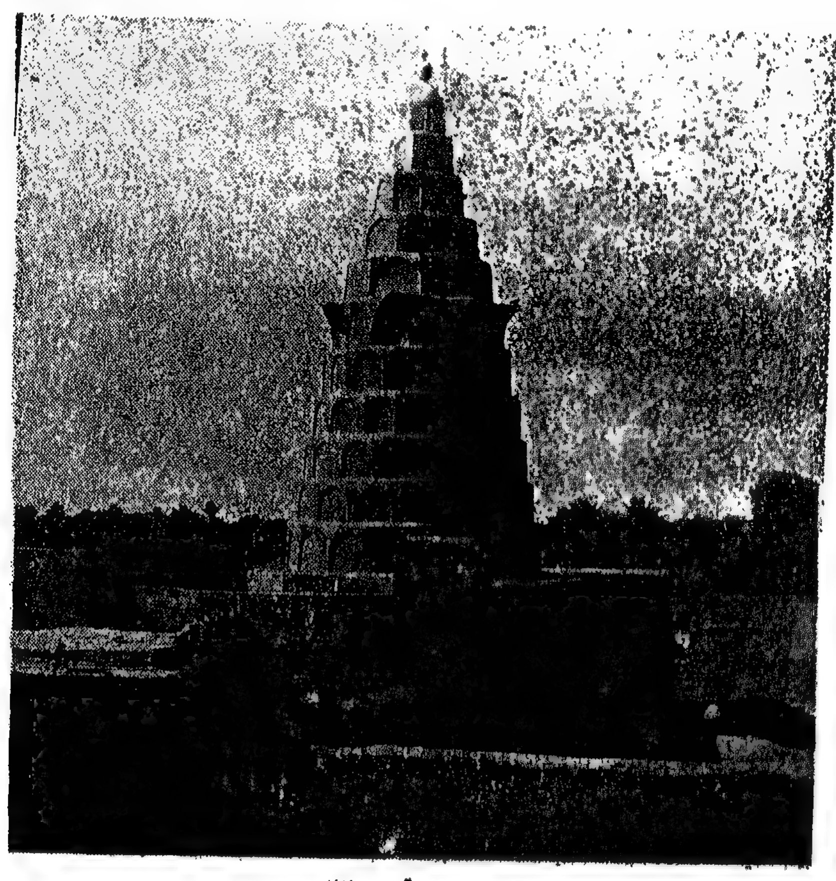
ومدخل الضريح والكتابة التي فوقه والتي يؤطرها قوس مدبب كبير شبيه بمدخل المدرسة المستنصرية والمدرسة المرجانية ببغداد • يوجد داخل الضريح محراب من الجهة الجنوبية معمول بالجص تزينه المقرنصات المتراكبة ومقطعه يشبه نصف قبة مقرنصة من الداخل • لا يوجد اي نوع من انواع الزخارف داخل الضريح وجميع جدرانه مبيضة بالجص ما عدا القبة من الداخل •

يطلق السكان على صاحب الضريح اسم الشيخ محمد بن بكران تجنبا من ذكر كلمة سكران والصحيح هو كلمة سكران كما جاءت في النص وكتب التاريخ وهذا جائز في عرف المتصوفة بمعنى سكران في حب الله وطاعته كما اشار الى ذلك ابو النصر السراج الطوسي في كتابه اللمع •

٢ ـ ضريح ذي الكفل

يعتبر ضريح او مرقد ذي الكفل الذي يقع في قضاء الكفل من المزارات التي لها قدسية عند العراقيين ويعتقد بعض العلماء المختصين بأن الضريح يعود بالاصل الى النبي حزقيال الذي يرد اسمه بالقرآن على أنه ذو الكفل وهو واحد من الصالحين الذي اورد القرآن الكريم اسماء بعضهم مثل اسماعيل وادريس وآليشا (السورة ٢١ الاية ٨٥ والسورة ٢٨ الاية ٤٨) وتنص الكتابة التاريخية بان السلطان المغولي اولجايتو الذي حكم من سنة ٧٠٣هـ الى سنة ٧١٦ (١٣٠٣ ـ ١٣١٦م) قد امر بتشييد المرقد والمصلى الذي يتقدمه وقد اتينا على اخبار المصلى والمأذنة فيما سبق •

أما المرقد فمستطيل يدخل اليه عن طريق المصلى طوله ٤٠ر١٠م وعرضه ٥م وتجلس القبة على القسم الوسطي منه وهي متكونة من طبقتين الاولى الداخلية نصف كروية مغلفة من الخارج بقبة مخروطة مقرنصة (انظر الصورة رقم ٢٣) وقد تم تحويل الشكل المستطيل لغرفة الضريح الى مربع عن طريق بناء عقدين متقابلين بنيا على الجدارين الشمالي والجنوبي وتم تحويل المربع الى شكل مثمن ثم الى دائرة لغرض اقامة القبة فوقها عن طريق بناء حنية عميقة محددة بعقد مدبب في كل زاوية من زوايا المربع تعلوها



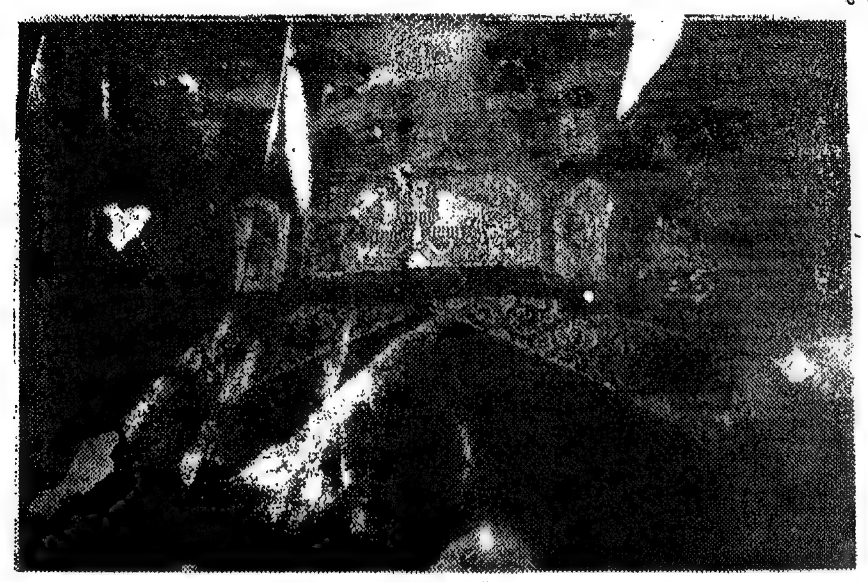
صورة ــ ٢٣

قبة ضريح ذي الكفل

مقرنصات تتراكب وتتكاثر كلما ارتفعت الى الاعلى الى ان يتم شكل الدائرة المطلوبـــة •

وقد تعرض الضريح من الداخل الى الكثير من أعمال الصيانة التــي أدت الى فقدان الكثير من المزايا الفنية الاصلية • ويلاحظ في الوقت الحاضر وجود زخارف نباتية ملونة رسمت على الجص وكذلك كتابات دينية بالخط العبري (انظر الصورة رقم ٢٤) •

أما ارتفاع القبة من الخارج فيبلغ ١٧م تنتصب فوق قاعدة مثمنـــة ترتفع عن السطح المجاور حوالي متر واحد وتقوم فوقهـــا قبة مخروطـــة مقرنصة ارتفاعها ٨م تتألف من عشرة صفوف من الحنايا المعقودة المقرنصة عدا قمتها المضلعة والذي يبدو على صفوف الحنايا المعقودة ان ارتفاعها يبدأ بالتناقص التدريجي وكذلك قطرها لتســهيل تضييق فتحـة القبة ومن ثم اغلاقها •

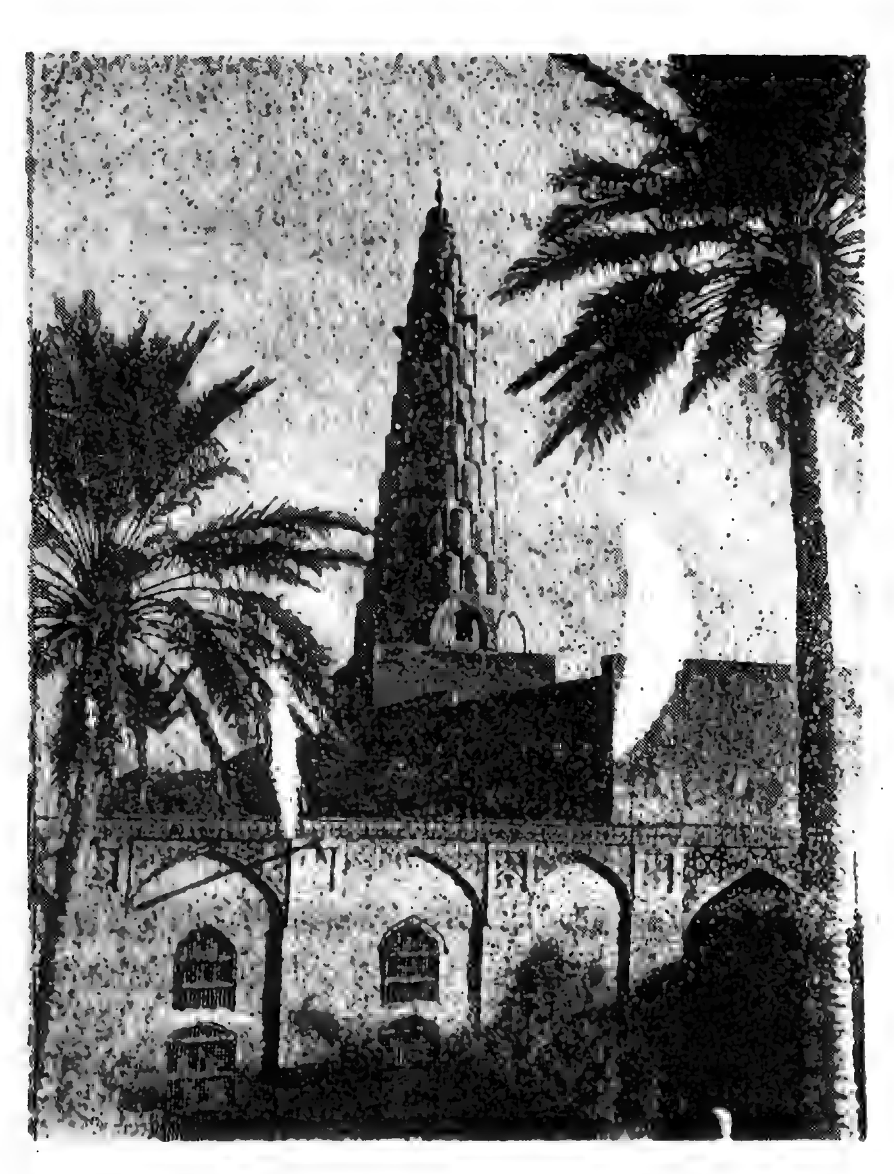


صورة ـ ٢٤
التفاصيل الداخلية لقبة ذي الكفــل

أن قبة الكفل المقرنصة هي احدى الانجازات الحضارية العراقية الرائعة والرائدة التي تمت على يد العراقيين خلال فترة الاحتلال وهي وريثة تقاليد عراقية قديمة في بناء القباب العراقية المقرنصة مثل قبة الامام الدوري في الدور وقبة زمرد خاتون في بغداد .

٣ ــ مرقد الشيخ عمر السهروردي

يقع مرقد او تربة الشيخ عمر السهروردي بجوار الباب الوسطاني او ما يسمى بباب الظفرية وهو من ابواب سور بغداد الشرقية وقد بنيت التربة في المقبرة الوردية المعروفة حاليا بمقبرة الشيخ عمر والشيخ عمر هو ابن محمد بن عموية السهروردي ويلقب بشهاب الدين وكنيته أبو حفص ولد سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) في قرية سهرورد وبعد ان بلغ السادسة عشر غادرها الى بغداد مع عمه الشيخ أبي النجيب السهروردي والشيخ عبدالقادر الجيلي وعلى يد هذين الشيخين تتلمذ وتفقه وقد ذاع صيته ولقى اهتماما ورعاية من قبل الخليفة الناصر واصبح موضع ثقته حيث ارسله سفيرا الى بعض الملوك والامراء . وفي سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٥م) توفي الشيخ السهروردي ببغداد ودفن في المقبرة الوردية وقد شيد لقبره ضريح مربع الشكل تعلوه قبة مخروطة مقرنصة (انظر الصورة رقم ٢٥) ، من المرجح انها بنيت بعد وفاته في سنة ٧٣٥هـ (١٣٣٤م) لتحل محل التربة القديمة المشيدة له سابقا وقد نصت الكتابة التاريخية المحفورة في الاجر فوق مدخل المرقد على ذلك ونصها ما يلي (بسم الله الرحمن الرحيم ، الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون جدد هذه العمارة المباركة لضريح الشيخ القدوة الرباني قطب الاولياء والعارفين شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي روض الله مرقده محمد بن رشيد اصلح الله شأنه وذلك في شهور سنة خمس وثلاثون وسبعمائة والحمد لله وحده وصلواته على نبيه محمد وآله) .



صورة ـ ٢٥

ضريح الشيخ عمر السهروردي

شيدت القبة على غرفة المرقد المربعة الشكل تقريبا طول ضلعها حوالي ١٥
اما المدخل فلا يزال محافظا على شكله الاصلي ويعلوه عقد من النوع المدبب يؤطر كتيبة النص التاريخي كذلك تسود المدخل الزخارف الاجرية المحفورة بعناصر نباتية محورة عن الطبيعة داخل اشكال هندسية متنوعة وعلى يسار الداخل يوجد مدخل يصل بين غرفة الضريح وحجرة صغيرة مربعة تقريبا يتوسطها قبر يقال انه قبر المستعصم بالله اخر خلفاء بني العباس الذي استشهد على يد المغول سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) • الضريح مسقف بقبة من طبقتين مثلما هو الحال في ضريح ذي الكفل الاولى الداخلية كروية تغطيها من الخارج قبة مخروطة مقرنصة •

وبغية تغير مربع الضريح الى دائرة قام المعمار ببناء صف من العقود او الحنايا تدور حول الجدران الاربعة عددها ١٢ حنية في كل جدار ثلاثة يعلو هذا الصف من الحنايا نص قرآني يلف حول جدران البدن الاربعة تلي النص القرآني هذا حنايا منطقة الانتقال المتكونة من ثلاثة صفوف من الحنايا والصف الثالث يتخذ شكلا نجميا ذا ستة عشر رأسا ويكون القاعدة التي تقوم عليها القبة وفي مركز القبة من الداخل قرص او طرة جميلة تتضمن آية قرآنية (قل كل يعمل على شاكلته) مكررة ثلاث مرات بشكل هندسي وفني متناسق وما عدا هذه الطرة فأن جميع الجدران مبيضة بالجص ولا وجود لاي نقوش مرسومة او محفورة داخل غرفة الضريح •

أما القبة المخروطة الخارجية (صورة رقم ٢٥) فهي مقرنصة وتقوم على مربع طول ضلعه حوالي ٥ر٧م وارتفاعه ٧٠ر٧م تقوم فوق البدن المربع

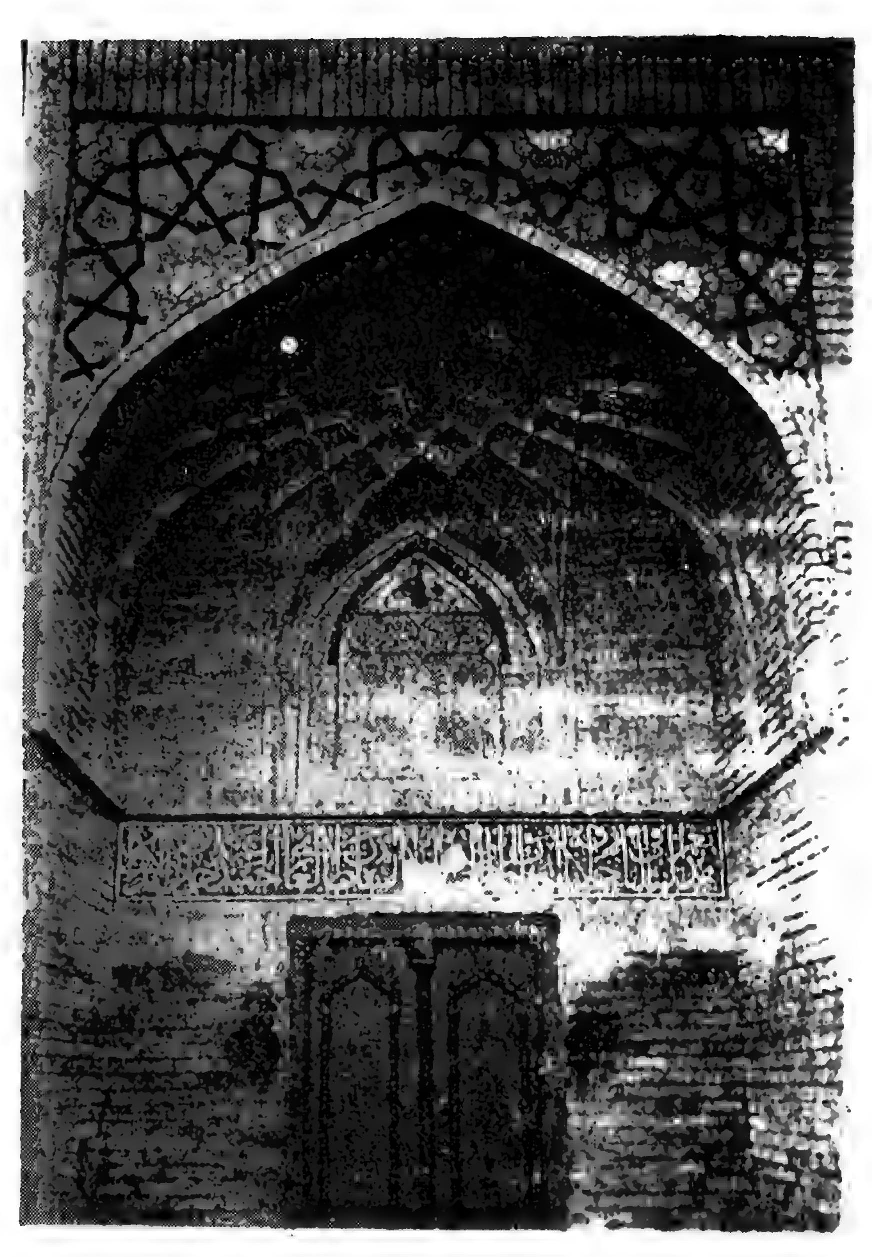
قاعدة مثمنة ترتفع حوالي ٥ر١م وهذه القاعدة مزينة بسلسلة من العقود المدببة فتحت اربعة منها كنوافذ لاضاءة وتهوية غرفة الضريح تقوم القبـة المقرنصة على القاعدة المثمنة هذه وتتألف من عشرة صفوف من الحنايا ، السبعة الاولى تتألف من ١٦ حنية محدبة من الخارج بين حنيـة واخـرى نصـف منشور رباعي كما يفصل بين صف واخر صف مـن انصـاف المنشـورات الرباعية يلي الصف السابع ثمانية تنوءات شبيهة بما هو موجود في قبتي زمرد خاتون والكنل تعمل كمنطقة انتقال من الشكل ذي الستة عشر رأسا الى الشكل الثماني الرؤوس يلي ذلك ثلاثة صفوف ثمانية من الحنايا بعد ذلك تتوج القبة بقمة مضلعة ذات ثمانية اوجه ايضا .

ومن الجدير بالذكر بان اعالي جدران الضريح من الخارج قد زينـت بنطاق من الكتابة القرآنية والتاريخية نص ماتبقى منها هو :

فأنظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير .. أمر بتجديده بعد دثوره ..

ترتفعواجهة المدخل من الخارج بارتفاع غرفة الضريح تقريبا ويتوسطها باب مستطيل يعلوه نطاق من الكتابات القاشانية واخرى محفورة على قطعة من الحجر بشكل عقد مدبب ويستدل من طراز البناء وعقوده ومقرنصاتـه ونوعية الزخارف الاجرية المؤطرة بانطقة من القراميد القاشانية على انـه يعود الى فترة تعمير عثمانية متأخرة جدا (انظر الصورة ٢٦) .

تعتبر قبة السهروردي ثاني قبة مقرنصة مخروطة شاخصـة اقامهـا المعمار العراقي في بغداد بعد قبة زمرد خاتون وهي بحق وريثة كافة الاساليب الفنية العراقية التي سادت في بناء القباب ويدل بناؤه على ديمومة واصالة النفس الفني للعراقيين بعد الغزو المغولي للعراق .



صورة ــ ٢٦

تفاصيل مدخل ضريح عمر السهروردي ، ويعود الى دور
التعمير العثماني في سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م

٤ ـ ضريح امين الدين مرجان

يشكل هذا الضريح جزءا متكاملا من المدرسة التي شيدها حاكم بغداد في العصر الجلائري أمين الدين مرجان في منتصف بغداد الشرقية في سنة ٧٥٨ هـ (١٣٥٧م) وللاسف فقد تهدم الضريح في جملة ماتهدم من المدرسة عام ١٩٤٨ وقد قامت دائرة الاثار في ذلك الوقت بتوثيق البناء بصور ومخططات وافية تلقي الضوء على مخطط وعمارة هذا الضريح •

خطط الضريح بشكل مربع ويدخل اليه من صحن المدرسة ويقع في الجهة المقابلة لمدخل المدرسة الرئيسي ويرتبط بواسطة دهليز بسلسلة من القاعات المستطيلة المربعة من الجانب الايمن تتصل هي الاخرى بمسجد المدرسة ، بني الضريح بشكل متين بالآجر والجص وتتميز جدرانه بالسمك والضخامة التي قصد بها تحمل ثقل القبة الهائل •

مدخل الضريح معقود بعقد مدبب ويقع ضمن اطار مستطيل يؤطر واجهة الضريح وتعلو المدخل نافذة ذات زخارف هندسية مفرغة • سقف الضريح بواسطة قبة تتكون من طبقتين الاولى بشكل قبو مقعر يتكون من ٢٤ جزء على شكل طبقي (او ما يشبه الزهرة الدائرية) مبنى على ثلاث طبقات من المقرنصات والضريح من الداخل مبيض بالجص وتزين جدرانه الاربعة حنيات متقابلة تعلوها عقود مدببة كبيرة الحجم اما الطبقة الخارجية من القبة فشكلها بصلي مدبب يرتكز على رقبة طويلة متكونة من سلسلة من عناصر معمارية تعرف بانصاف الاعمدة المندمجة تحليها كسوة من الزخارف الهندسية البديعة المعمولة بواسطة التفنن برصف الآجر •

يرتكز هذا البدن الاسطواني للقبة على قاعدة مثمنة وهي بدورها ترتكز على جدران غرفة الضريح المربعة بواسطة عناصر منطقة الانتقال (انظر الصورة رقم ٢٧) •



صورة ــ ٢٧
ضريح مرجان في المدرسة المرجانية

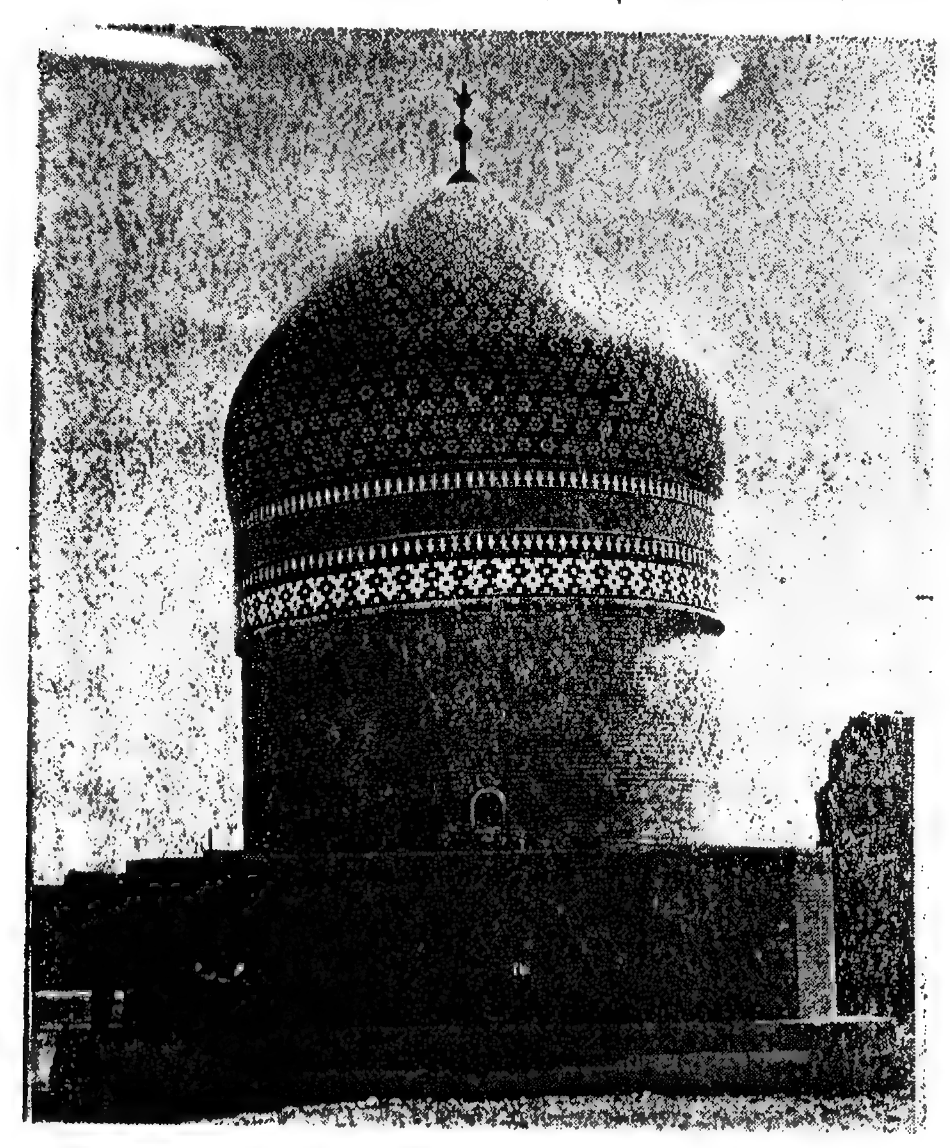
وتعتبر قبة ضريح مرجان المثال الوحيد من نوعه فيما يخص بدن او رقبة القبة ونوعية زخارفه وكذلك نوعية وشكل القبة الداخلية فبهدمهـــا ضاعت والى الابد وثيقة مهمة من وثائق العمارة العراقية في القرن الثامــن الهجري (١٤م) ٠

٥ ــ ضريح الكواز

بني هذا الضريح في البصرة ليضم رفاة الشيخ محمد امين الكـــواز شيخ الطريقة الشاذلية المتوفـــى عام ٩٥٣ هـ (١٥٤٦م) والضريح مبني في مسجد بناه الشيخ ساري بن الشيخ حسن الضاعن العبدالسلام العباســـي في عام ٩٢٠ هـ (١٥١٤م) ٠

يقع المرقد في الركن الجنوبي الغربي من المسجد ويتألف بناؤه مـــن غرفة ذات تخطيط مربع طول ضلعها ٤ امتار جدرانها سميكة تعلوها قبة رائعة

شامخة تمثل اهمية خاصة ونقلة نوعية في مضمار بناء وزخرفة القباب التـي سبقتها (انظر الصورة رقم ٢٨)، تمثل بداية مرحلة الانتقال مـن اسلوب



صورة ــ ٢٨
ضريح الكواز في جامع الكواز في البصـرة

القباب التي تسودها الزخارف الاجرية الى تلك التي شاع القاشاني المتعدد الالوان في زخرفتها •

ترتكز القبة على قاعة مستديرة وتمتاز منطقة انتقالها بعقود منفرجة تعلوها عقود مفصصة وقد زينت الاقسام العليا من جدران الضريح بصف من الحنايا المسطحة ذات العقود المدببة •

أن ابرز مايميز هذه القبة من الخارج هو رقبتها الاسطوانية الطويلة وشكلها النصف كروي المدبب أما زخارفها فمتكونة من نوعين من الوحدات الهندسية القسم الاسفل يمثل اسلوب او تقنية سادت على الكثير من عمائر القرن السادس الهجري (١٢م) وهو هنا عبارة عن معينات يتم تشكيلها عن طريق التفنن في رصف الآجر المزجج في اوضاع معينة وبأكثر من لون يفصل بين هذا النطاق من زينة الرقبة والنطاق الذي يليه بروز شريط ضيق ، أما النطاق الاعلى فمزخرف بصورة تامة بالقراميد الملونة باللون الابيض والازرق والاسود وتشكل معينات واشكالا هندسية متنوعة •

أما الجزء الكروي من القبة فهو مزخرف بأروع النماذج المعروفة في القرن العاشر الهجري (١٦م) فهي هنا تتألف من نجوم بلون ابيض تحيط بها مضلعات سداسية زرقاء ذات حواف سوداء وقد قامت هيئة فنية من مديرية الاثار العامة في بداية هذا العقد بصيانة التربة واكمال زخرفتها بقطع القاشاني المشابه للقطع الاصلية المتساقطة من حيث اللون والتقنية •

ومن الجدير بالذكر ان هذه القبة بشكلها النصف كروي المدبب وكسوتها القشية وجمال رقبتها الطويلة اصبحت فيما بعد النموذج الرائد لقباب الشيخ عبدالقادر الكيلاني والامام الاعظم •

٦ - مرقد الشيخ عبدالقادر الكيلاني

تقع الروضة القادرية في محلة باب الشيخ في بغداد الشرقية ويتألف البناء في الوقت الحاضر من ضريح يضم رفات الشيخ عبدالقادر الجيلي مؤسس الطريقة القادرية وكان مدرسا ومتوليا للمدرسة التي انشأها شرف الملك ابو سعيد المخرمي للفقهاء بباب الازج وقد دفن فيها الشيخ بعد وفاته في عام ٥٦١هـ (١١٦٥م) وتضم كذلك مسجدا ومجموعة من الغرف لطلاب ورواد الطريقة القادرية وتحتل هذه منساحة شاسعة من الارض شكلها مستطيل (١٢٠م×٥٤م) يتوسطها مصلى صيفي كبير وكانت تقوم في هذا المكان مدرسة للحنابلة وبعد ان دفن الشيخ فيها شيدت على قبره قبة من طراز القباب المخروطة المقرنصة وقد هدمت فيما بعد بأمر السلطان العثماني سليمان القانوني عام ٩٤١ هـ (١٥٣٤ م) واعيد بناؤها وامر ايضا بوضع صندوق فضي مشبك على القبر كما وامر ببناء مسجد لصق الضريح وسقفه بقبة تجاور قبة الضريح وتشير المصادر ان الوزير حسين باشا السلحدار قد امر ببناء رواق يحيط بالمشهد والمسجد وكان ذلك عام ١٠٨٥ هـ (١٦٦٤م).

يكشف تخطيط بناء الحضرة بصورة عامة صيغة معينة في ترتيب الابنية الملحقة حول القبر وخصوصا المسجد حيث جعل قبر الشيخ في موقع قبلي وقد ساد هذا الترتيب في معظم المشاهد والروضات اللاحقة . بناء الحضرة ضخم ومتين ويجمع بين طرز وأساليب معمارية متنوعة وتشكيلات زخرفية مختلفة وهذه نتيجة طبيعية لكثرة التجديدات او التوسيعات التي اجريت في هذه الروضة في العصور المتأخرة اللاحقة .

خطط الضريح بشكل مربع طول ضلعه ٨ أمتار من الداخل وترتفع جدرانه السميكة حوالي عشرة امتار عن مستوى سطح الارض ويدخل اليها من اربعة ابواب تتوسط جدران الضريح الاربعة تعلو غرفة الضريح قبة ارتفاعها ٢٠م تتميز بجمالها وطول رقبتها اما قطرها فيبلغ ١٨م شكل

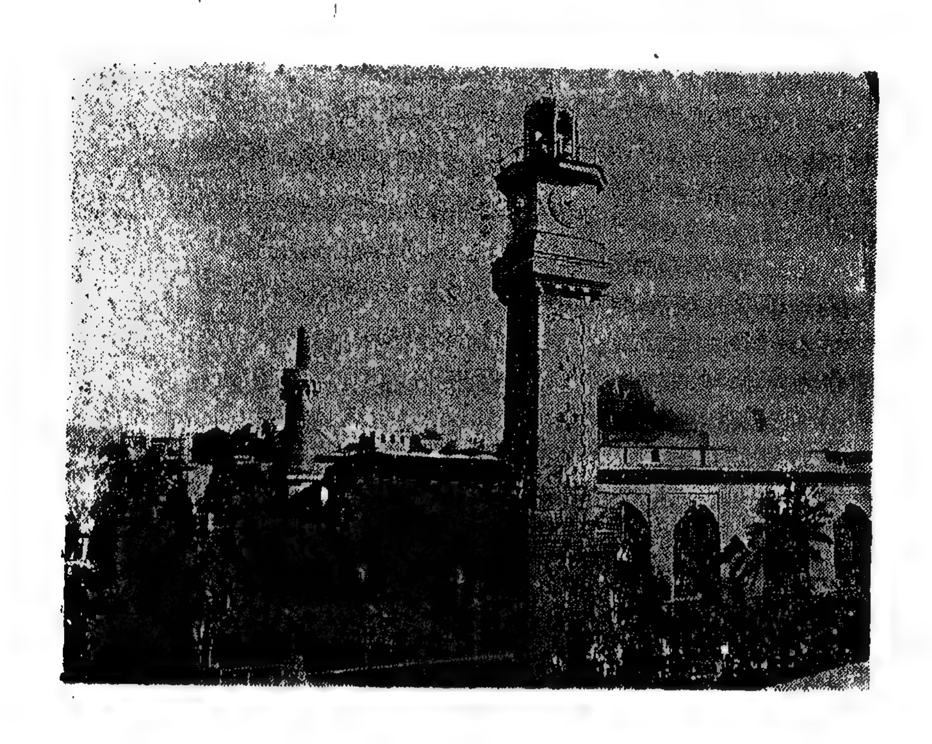
القبة كروي قليل التدبب قريبة الشبه بقبة جامع الكواز كسيت من الخارج بتشكيلات زخرفية قوامها عناصر نباتية جميلة ومنقوشة بطريقة التزجيج بالوان صفراء وبيضاء وسوداء على ارضية بلون ازرق خفيف اما رقبـة القبة الطويلة والتي يبلغ ارتفاعها ٥م فمكسية بزخارف قاشانية ايضا تتوزع عليها بشكل انطقة تطوق الرقبة وتتألف من نطاق تشغله كتابات قرآنيـة دقيقة وجميلة للغاية بلون ابيض على ارضية زرقاء غامقة وتشغل بقية الانطقة تشكيلات زخرفية هندسية متقنة وجميلة شبيهة بتشكيلات بدن القبـة الكروي وبصورة عامة فقد جمعت زخارف هذه القبة اروع التشـكيلات والعناصر النباتية والهندسية والكتابية بشكل يسوده التناسق والانسجام •

اما مسجد الحضرة فهو بشكل مربع ضلعه ٢٠م يتألف من بيت صلاة فقط يتوسط جدار القبلة فيه محراب جميل وتخلو جدران المسجد مـن التحليات الزخرفية عدا حنايا الاركان فقد زخرفت بتشكيلات جميلة والمسجد مسقوف بقبة هائلة وضخمة جدا مفلطحة الشكل ليس لها رقبة تتخللهـا اربع نوافذ وتعتبر من القباب المهمة والنادرة في العراق من حيث ضخامتها وشكلها •

صحن الحضرة واسع استعمل القسم الجنوبي الشرقي منه مسـجدا صيفيا واهم مافيه المئذنة التي تشغل الركن الجنوبي الغربي فيه واستنادا الى شكلها ونوعية زخارفها يمكن نسبتها الى العصر الايلخاني او الذي بعـده وهي مشيدة بالطابوق والجص وتجلس على قاعدة مضلعة ذات عشرة وجوه يبلغ محيطها ٥ر٨م وبدنها اسطواني قطره ٣م وارتفاعه ١٥م ولها حوضان الاول يتوج القاعدة والثاني يتوج القسم الاعلى من البدن يمكن الوصول اليه عن طريق سلم حلزوني يخترق البدن ما الرقبة فرشيقة نسبيا متوجـة بقمة بهيئة قبة نصف كروية قليلة التدبب وشكل المأذنة من الناحية المعمارية قريب الشبه مع مأذنة جامع الخلفاء •

استعملت القراميد القاشانية بتشكيلات المأذنة الزخرفية وهي بصورة عامة لاتختلف كثيرا عن العناصر الزخرفية لمئذنة جامع الكـــواز فـــي البصرة •

وينتصب في الركن الشمالي الغربي من المسجد برج عال مربع لساعة تحتل القسم العلوي فيه (انظر الصورة رقم ٢٩) والدخول الى الحضرة يكون عن طريق مدخل رئيسي يتوسط الضلع الجنوبي الشرقي اما الباب الثاني فيقع في الضلع الشمالي الغربي ويؤدي الى ساحة واسعة •



صورة ــ ٢٩

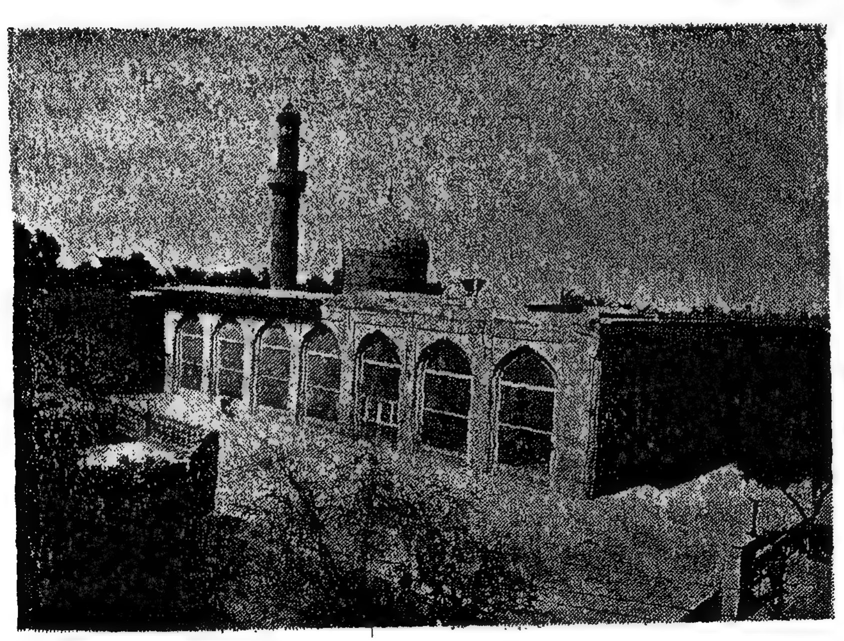
الحضـرة الكيلانيـة

٧ ـ مرقد الامام ابي حنيفة

أبو حنيفة هو النعمان بن ثابت مؤسس المذهب الحنفي الذي دعي بأسمه توفي عام ١٥٠هـ (٧٦٣م) ودفن في مقبرة الخيزران في بغداد وصارت تعرف بعد ذلك بأسمه ودعيت المحلة التي قامت حول الضريح فيما بعد بأسمه ايضا طغى على تسميتها فيما بعد اسم الاعظمية من كلمة الاعظم وهو اللقب الذي اعطي للامام أبي حنيفة .

تشير المصادر الى ان ضريح ابي حنيفة ومدرسته قد بنيا اول الامر عام ٤٥٩هـ (١٠٦٦م) من قبل العميد شرف الملك ابو سعد احد الرجال البارزين خلال فترة حكم السلاجقة في العراق وعلى ما يبدو لم تبق العمارات التي أمر ببنائها ابو سعد على حالها بل تعرضت الى الكثير من أعمال التجديد والبناء والتوسيع خاصة خلال فترة حكم العثمانيين فقد قام عمر باشا ببناء قبة ومئذنة بامر السلطان ابي الفتح محمد العثماني عام ١٠٩٢هـ (١٦٨١م) وقد أمر فيما بعد والي بغداد سليمان باشا عام ١٢١٧هـ (١٨٠٢م) بتذهيب رأس المئذنة . كذلك اجرى مزيد من التجديدات زمن السلطان عبدالحميد الذي امر بهدم الابنية المحيطة بالتربة والمسجد وتم في عهده اقامة قبة ضخمة على مصلى المسجد كما امر بتوسيع الصحن وبناء مدرسة تتألف من طابقين في القسم الشمالي الغربي من الارض التي تشغلها الابنية في الوقت الحاضر .

شيدت عمارات مرقد ابي حنيفة على ارض شبه منحرفة ابعادها ١٢٠× ٩٠ مترا ويكشف تخطيط وعمارة الابنية عن تشابه مع تخطيط وعمارة الحضرة الكيلانية وتتألف الابنية هنا من مرقد ومسجد وجامع ومدرسة تشغل القسم الشمالي الغربي من الارض ويسورها جميعا حاليا سياج بتصميم فني حديث وقد شيدت جميع هذه الابنية بالطابوق والجص (أنظر الصورة رقم ٣٠) .



صورة ــ ٣٠

مشهد الامام ابي حنيفة

خطط الضريح بشكل مربع طول ضلعه ١٠م يلتصق بجدار الجامع عند الركن الغربي ويدخل اليه عن طريق بيت الصلاة وقد زينت جدران غرفة الضريح بزخارف جميلة وتعلوها قبة رائعة للغاية نصف كروية مدببة قليلا تتميز برقبتها الطويلة قريبة الشبه من حيث الشكل والزخارف بقبة ضريح الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، زخرفت رقبة القبة بانطقة مزججة يتوسطها نطاق من النصوص القرآنية بخط جميل كتب بخط ابيض على ارضية زرقاء داكنة اما بقية الانطقة فعبارة عن تشكيلات من الزخارف النباتية والهندسية واستعملت في تشكيلات زخارف القبة الجزء النصف الكروي الوان صفراء وبيضاء وسوداء على ارضية بلون ازرق فاتح .

جامع الحضرة كبير الحجم وهو بشكل مستطيل ابعاده ٣٥×٤٠ مترا ويتألف من خمسة اساكيب وست بلاطات خططت بشكل اصبحت معه بلاطة المحراب واسعة وبشكل مربع طول ضلعه ١٤ م تمتد على تسعة مربعات ناتجة من تقاطع الاساكيب مع البلاطات تغطي هذا القسم من المصلى قبة ضخمة مفلطحة قريبة الشبه مع قبة مسجد الحضرة القادرية تجلس بصورة فنية على قاعدة مرتكزة على ثمانية أعمدة من ثلاث جهات أما من الجهة الرابعة فيسندها جدار القبلة الذي يتوسطه محراب جميل • وقبة جامع الامام ابي حنيفة تكسوها القراميد المزججة ذات التشكيلات النباتية البديعة ومن الجدير بالذكر ان الاعمدة التي تحمل قبة المصلى مصنوعة من الرخام بشكل اسطواني قطر كل منها ٩٠سم وتجلس الاعمدة هذه على قواعد مربعة طول ضلع كل منها متر واحد وتنتهي بتيجان جميلة وللجامع أربعة مداخل ضخمة يتوسط واحد منها الضلع الشرقية ويقابل الاخر محراب الجامع •

تقع مأذنة جامع ابي حنيفة في الركن الجنوبي منه وتجاور قبة الضريح وتدل عمارتها وزخارفها الى انها تعود الى نفس عهد بناء قبة الضريح اي الى سنة ١٠٩٢هـ (١٦٨١م) يبلغ ارتفاع هذه المأذنة ٢٠ مترا وقد غطت ابنية الجامع قاعدتها والجزء الظاهر منها يتألف من بدن اسطواني رشيق يتوجه حوض مبني على صفين من المقرنصات المتراكبة ورقبتها طويلة وتتميز بالرشاقة يعلوها رأس مضلع بصلي الشكل • وتسود هذه المأذنة تشكيلات زخرفية تتألف من عناصر هندسية وكتابات بخط جميل وقد تم الحصول على هذه التشكيلات والعناصر الهندسية عن طريق التفنن في رصف الطابوق المزجج وللجامع صحن واسع يشغل القسم الشمالي الشرقي والقسم الجنوبي الشرقي من الارض وتطل المدرسة على الصحن من الجهة الشمالية الغربية وينتصب في الركن الشمالي من الروضة برج طويل لساعة وهذا البرج حديث البناء وطابعه لا ينسجم مع المظهر العام لابنية الروضة •

٨ ـ روضة الحسين بن علي بن ابي طالب

تقع الروضة في المنطقة المعروفة بالحاير في مدينة كربلاء وتضم بالاضافة الى رفات الحسين (عليه السلام) رفات سبعة عشر من شهداء واقعة كربلاء المشهورة وتشير المراجع بأن اول عمارة بنيت على قبور الشهداء كانت في عام ٦٥هـ (٦٨٤م) ومنذ ذلك الحين جرت عدة تجديدات واصلاحات واضافات وتوسيعات على العمارة وحتى العصر الحاضر • أن العمارة الحالية وبشكلها المنسق هي مما أمر به السلطان الجلائري أويس عام ٧٦٧هـ (١٣٦٥م) وقد استغرق البناء ١١ عاما • وقد جرى بعد ذلك خلال القرن التاسع والعاشر اهتماما كبيرا بالروضة حيث بذلت الاموال الطائلة لتزيين الضريح وطلاء قبته ومئذنتـه وابوابـه بالذهب والفضـة والمرايا وكان ذلك عـام ٩٣٢هـ (١٥٢٥م) كما تم ايضا توسيع الصحن وبناء برج ساعة وقد ساهم العثمانيون في تجديد اقسام من الروضة الحسينية ايضا فقد تم تجديد القبة والمئذنتين واضافة مباني ومرافق جديدة بامر من السلطان سليمان القانوني عام ٩٤١هـ (١٥٣٤م) •

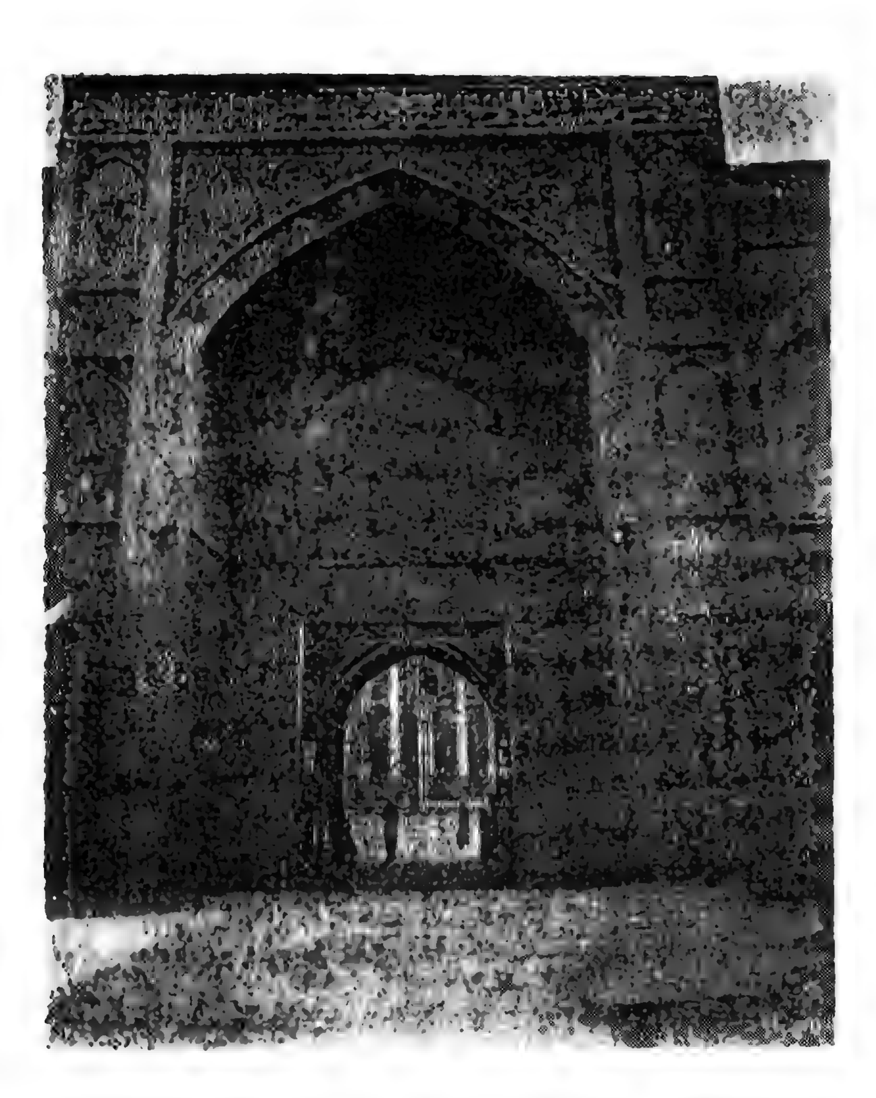
تشغل ابنية الروضة الحسينية قطعة ارض مستطيلة الشكل ابعادها ١٢٥×٩٥ متر وتتألف أبنيتها من الضريح وصحن واسع يحيط به تطل عليه من جميع الجهات سلسلة من الغرف والقاعات والاواوين وسور يفصل الروضة وصحنها الواسع عما يجاورها من اسواق وشوارع ودور سكن (انظر الصور الارقام ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣) •

والروضة مبنية بشكل ضخم ومتين بالطابوق والجص ومكسية باروع التحليات الزخرفية المنفذة في الذهب والمرايا والقراميد المزججة والمينا • تحتل



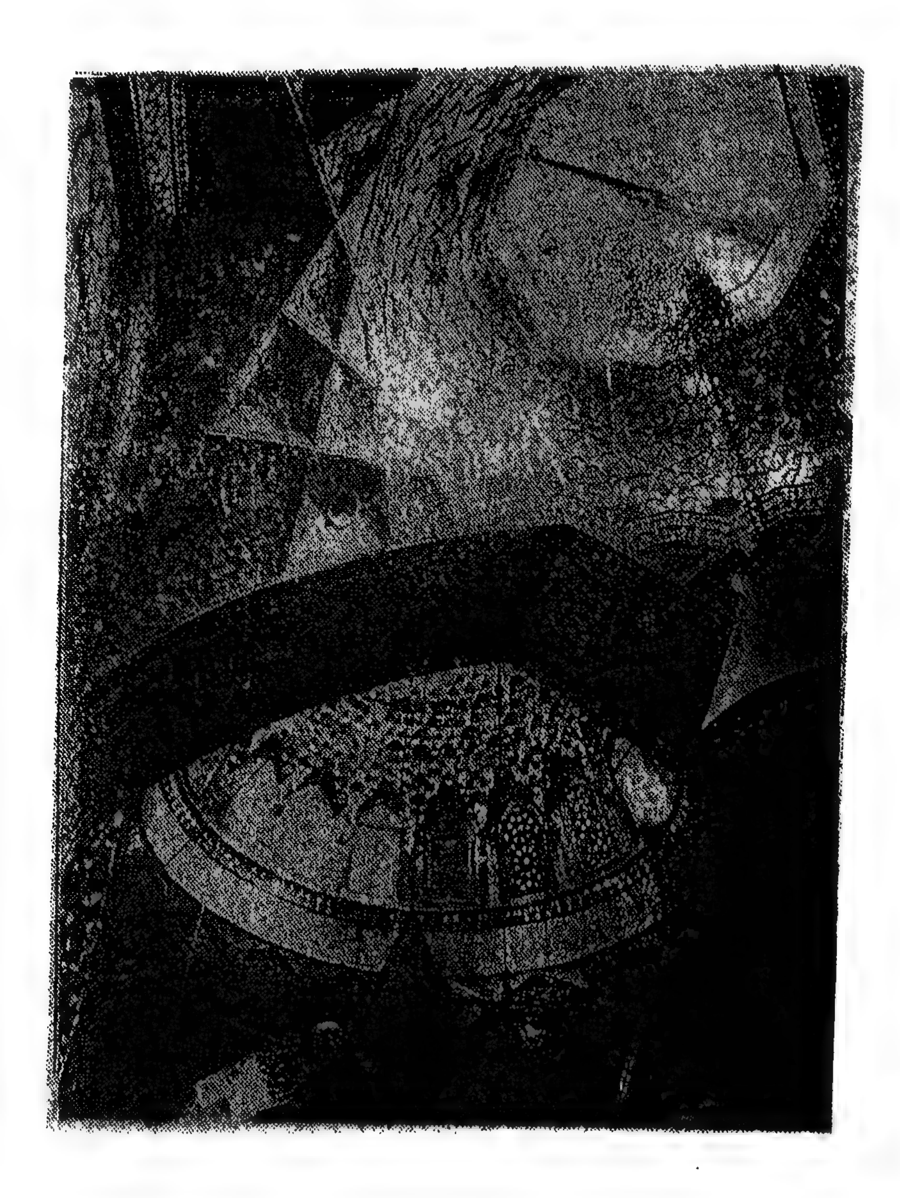
صورة ــ ٣١

الروضة الحسينية في كربلاء



صورة ــ ٣٢

باب القبلة في الروضة الحسينية في كربلاء



صورة ــ ٣٣

النقوش والتحليات الداخلية في الروضة الحسينية في كربلاء

ابنية الحضرة القسم الوسطي من العمارة وشكلها مستطيل وابعادها ٥٥× ٤٠ مترا يتوسط قبر الحسين (عليه السلام) الغرفة المركزية الوسطى التي هي بمثابة القلب في هذه البناية وتقوم فوق هذه الغرفة قبة مرتفعة ترتكز على اربع دعامات مستطيلة ضخمة طولها ٣٫٥ متر وعرضها ٢٫٥ متر وترتفع قمة القبة حوالي ٢٧ مترا عن مستوى سطح الارض وهي بصلية الشكل ذات رقبة طويلة تتخللها نوافذ ذوات عقود مدببة وقد طليت القبة ورقبتها بالذهب ما عدا نطاق من الايات القرآنية يتوج الرقبة مكتوب بلون ابيض على ارضية زرقاء داكنة •

يحيط غرفة القبر ومن ثلاث جهات رواق عريض نسبيا مصمم بطريقة بحيث يكون القسم الشمالي منه بهيئة مسجد تقام فيه الصلاة حيث يتقدمه قبر الشهيد الحسين وتبلغ مساحة هذا المسجد ٢٥×١٠ متر وجدران الرواق هذه سميكة جدا من الخارج يتخللها عدد من الغرف والاواوين ينفتح قسم منها الى الداخل ويطل القسم الاخر على الصحن ومن الجهات الشرقية والغربية والشمالية أما الجهة الجنوبية فتنفتح غرفها من الخارج على الطارمة الواسعة التي تتقدم هذا القسم من الحضرة ومن الجهة الجنوبية يرتفع سقف هذه الطارمة بمستوى اعلى من بقية اجزاء هذا البناء عدا القبة والمئذنتين ويستند على أعمدة خشبية ضخمة جدا ذات تيجان جميلة وهذه الطارمة مستطيلة عمقها ٦ أمتار وعرضها ٢٠ مترا يتوسط هذه الطارمة إيوان مرتفع يؤدي الى الرواق الثاني ومنه الى القبر مباشرة ويعرف هذا الايوان بأيوان الذهب حيث تغطي المقرنصات العنقودية التي تشغل حنية عقده وكذلك جوانبه بالذهب •

وغرفة القبر من الداخل تزينها حنايا ذات المقرنصات العنقودية بارزة دقيقة في تكوينها وجميلة في مظهرها حيث كسيت مع كوشات العقود وبطونها بمرايا غاية في الجودة والاتقان • وتمتد نقوش التحلية الى ما بين النوافذ

وتكون هنا مطوقة بنطاقين من النصوص القرآنية على نمط النطاق الخارجي للقبة واروع ما في غرفة القبر هو التشكيلات الزخرفية التي تكسو القبة من الداخل وهي جميعها مغطاة بالمرايا ومما يزيد في جمال غرفة القبر من الداخل الصندوق الفضي ذو السقف الذهبي الذي يغلف القبر ويعتبر من اجمل ما أنتجته ايدي الصناع وهذا الصندوق مشهور برمانات ذهبية ترتفع في اركانه الاربعة ويبلغ قطر كل منها ٥٠سم .

تحيط بالايوان الرئيسي للمدخل وعلى مسافة معينة من فتحته الخارجية مئذنتا الحضرة الجميلتان وتندمج قاعدتهما في الجدار الجنوبي وتبرزان من سطح البناء وتظهران بشكل متناظر على جانبي القسم الوسطي المرتفع من سقف الطارمة ومتقدمتان بتناظر ايضا على قبة الضريح . ويغلف كل من المئذنتين الواح ذهبية تصل الى المقرنصات التي يستند عليها الحوض وكذلك الرقبة وقمتها وتتميز هاتان المئذنتان بوجود سقف للحوض يستند من الخارج على عدد من الاعمدة الرشيقة والتي ترتكز على حافة الحوض العليا وتنتهي كل من المأذنتين برأس بصلي مضلع .

زينت الجدران الخارجية للروضة الحسينية بتشكيلات زخرفية رائعة تمثل الذروة في الجودة والدقة والاتقان وتتألف بصورة عامة من عناصر واشكال نباتية وهندسية وزهرية وكتابات قرآنية وتفتح على الصحن سلسلة من الغرف صغيرة الحجم عددها ٦٥ يتصدر كل منها ايوان ذو عقد مدبب ومعظم هذه الغرف استخدمت كمدافن ويستخدم القسم الباقي منها طلبة العلوم الدينية والزوار وهذه الغرف واواوينها مكسوة من الخارج باجمل وابهى القراميد القاشانية ومن بين ابنية ومرافق الروضة الحسينية مدرسة تشغل القسم الشمالي من الروضة ويتوسطها ايوان ضخم تبلغ ابعاده من الداخل ١٠×٧ متر ويقع المسجد في الجدار الشرقي وكانت له مئذنة تعرف

بسئذنة العبد هدمت عام ١٣٥٤هـ ـــ ١٩٣٥م وكان مرجان حاكم بغداد قــد أمر ببنائها عام ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) في عهد السلطان اويس •

أن تخطيط عمارة الروضة الحسينية يعتبر بحق نموذجا لعدد من الروضات التي بنيت بعده وفيه من السمات والمظاهر قلما نجدها مجتمعة في عمارات الاضرحة والترب والمشاهد السابقة فهو يعتبر نقلة نوعية في تخطيطها حيث جعل المرقد والمسجد وما يحيط بهما من اورقة في وسط المساحة التي تشــغلها عمارة الروضــة ويبدو ان هذه الصيغة احتذى بها في الاضرحــة اللاحقــة •

ومن الجدير بالذكر ان الطراز الجديد في تخطيط المشاهد يرجع الى القرن الثامن الهجري (١٤م) حيث تبلورت معالمه في الفترة التي تلت الغزو المغولي في العراق وصاحب هذا التطور في التخطيط نقلات نوعية في العناصر المعمارية وابرز هذه العناصر زوج من المآذن ترتفع على جانبي ايوان ضخم يقع في نهايـة المدخل الرئيسـي للمرقد • وهذه الظاهرة نادرة في العمارات السابقة خصوصا المساجد والمشاهد والمثال الوحيد لها في العراق هو بوابة واسط والتي تعرف بقاياها بالمنارة والتي ربما كانت تعود بالاصل الى المدرسة الشرابية التي بنيت في أواخر العصر العباسي القرن السابع الهجري (١٣م) وأخذت هــذه الظاهرة بالتبلور والظهور فيما بعد في الفترة الايلخانيــة والجلائرية وتتسم مآذن هذه الفترة بأنها غليظة وتجلس احواضها على صفوف من مقرنصات جميلة ومعقدة • ومن السمات البارزة الاخرى التي تبلورت في بناء مشاهد هذه الفترة ومنها الروضة الحسينية هي الاهتمام والتأكيد على واجهة المدخل والتركيز على ضخامة بوابته وتعتبر ايضا القبة البصلية أحد العناصر المهمة في هذه الروضة • أما المقرنصات العنقودية المتدلية فتعتبر من المميزات الجميلة لهذه العمارة وقد استخدمت هنا لا لتسند ثقل قاعدة بل كعنصر زخرفي الغاية منه زيادة في ضخامة الحنايا في الاواوين وحنايا الاركان وغيرها ولا يعني هذا ان المقرنصات لم تستخدم في الروضة الحسينية لغرض

الاسناد • أما السمات والمظاهر الزخرفية الاخرى مثل تغطية مساحات كبيرة من وجوه الجدران الداخلية بمرايا وقراميد قاشانية وذهب فانها من عصر لاحق لفترة انشاء الروضة الحسينية جرى معظمها في القرن العاشر الهجري (١٦م) زيادة في ابهة المظهر وروعة الشكل •

٩ ـ الروضة العباسـية

وتضم رفات العباس بن علي (عليه السلام) وتقع بالقرب من الروضة الحسينية باتجاه الشمالي الشرقي تشغل ابنية الروضة قطعة ارض مستطيلة ابعادها ١١٠×١٢٠ مترا وتتألف من بناية الضريح وصحن واسع يحيط بالبناء من جميع الجهات ومجموعة من مرافق تفصل العمارة عما جاورها من دور واسواق وتشكل بمجموعها ما يشبه سـورا ضخما مرتفعا بسور الروضـة وبشكل جدرانها الخارجية وفي الحقيقة والواقع ان تخطيط هذه الروضة لا يختلف في الجوهر والاساس عن تخطيط الروضة الحسينية الا في عدد الاروقة التي تطوق غرفة القبر (انظر الصورة رقم ٣٤) •



صورة ــ ٣٤
الروضة العباسية في كربلاء قبل اكسائها بالذهب

وغرفة قبر العباس واسعة نسبيا حيث يبلغ طول ضلعها ١٩ مترا من الخارج وتتسم بضخامة جدرانها وارتفاعها وتنفتح على الرواق الذي يطوقها باربعة ابواب يتوسط كل منها احد جدرانها الاربعة ويتوسط القبر هذه الغرفة وهو مغطى بصندوق فضي مشبك ضخم غاية في الدقة والاتقان والجمال • تتربع على هذه الجدران الضخمة قبة مرتفعة يبلغ قطرها ١٢ مترا شكلها نصف كروي مدببة الرأس مطولة وذات رقبة طويلة تتخللها نوافذ وتتشابه هذه القبة من حيث تشكيلاتها الزخرفية مع قبة جامع المهدي في الروضة العسكرية في سامراء وقد استبدلت مؤخرا نقوشها القاشانية البديعة بالواح معدنية مطلية بالذهب • أما التفاصيل الزخرفية لغرفة القبر فانها متشابهة الى حد كبير مع غرفة الحسين •

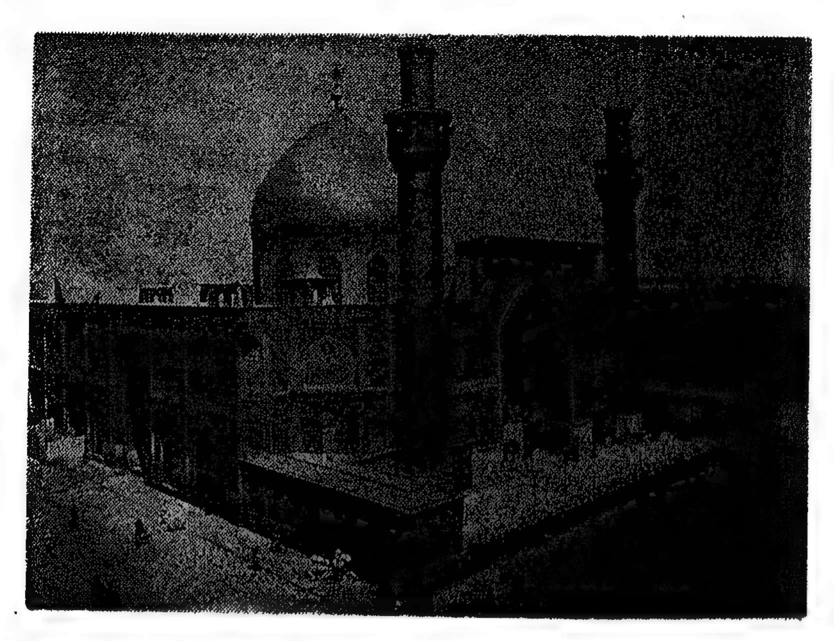
وصحن الروضة العباسية واسع ويحيط بالبناء سلسلة من غرف صغيرة عددها ٥٧ غرفة ويتصدر كل منها ايوان صغير ويتوسط كل ضلع من اضلاع المرافق الخارجية ايوان ضخم يرتفع بارتفاع طابقي الغرف الصغيرة • وأضخم هذه الاواوين ذلك الذي يتوسط الضلع الجنوبية ويمر من خلاله المدخل الرئيسي ويقع هذا الايوان على الخط المحوري لغرفة القبر وهذا الايوان مزين بنقوش جميلة منفذة على قراميد قاشانية • ويمكن الدخول الى صحن الروضة عن طريق خمسة مداخل اخرى منها باب صاحب الزمان وباب الرضا وباب السدرة • وتشكل العناصر النباتية والزهرية والهندسية والكتابات القرآنية سمة مميزة للتكسيات الزخرفية لواجهات الروضة الخارجية •

١٠- الروضة الحيدرية

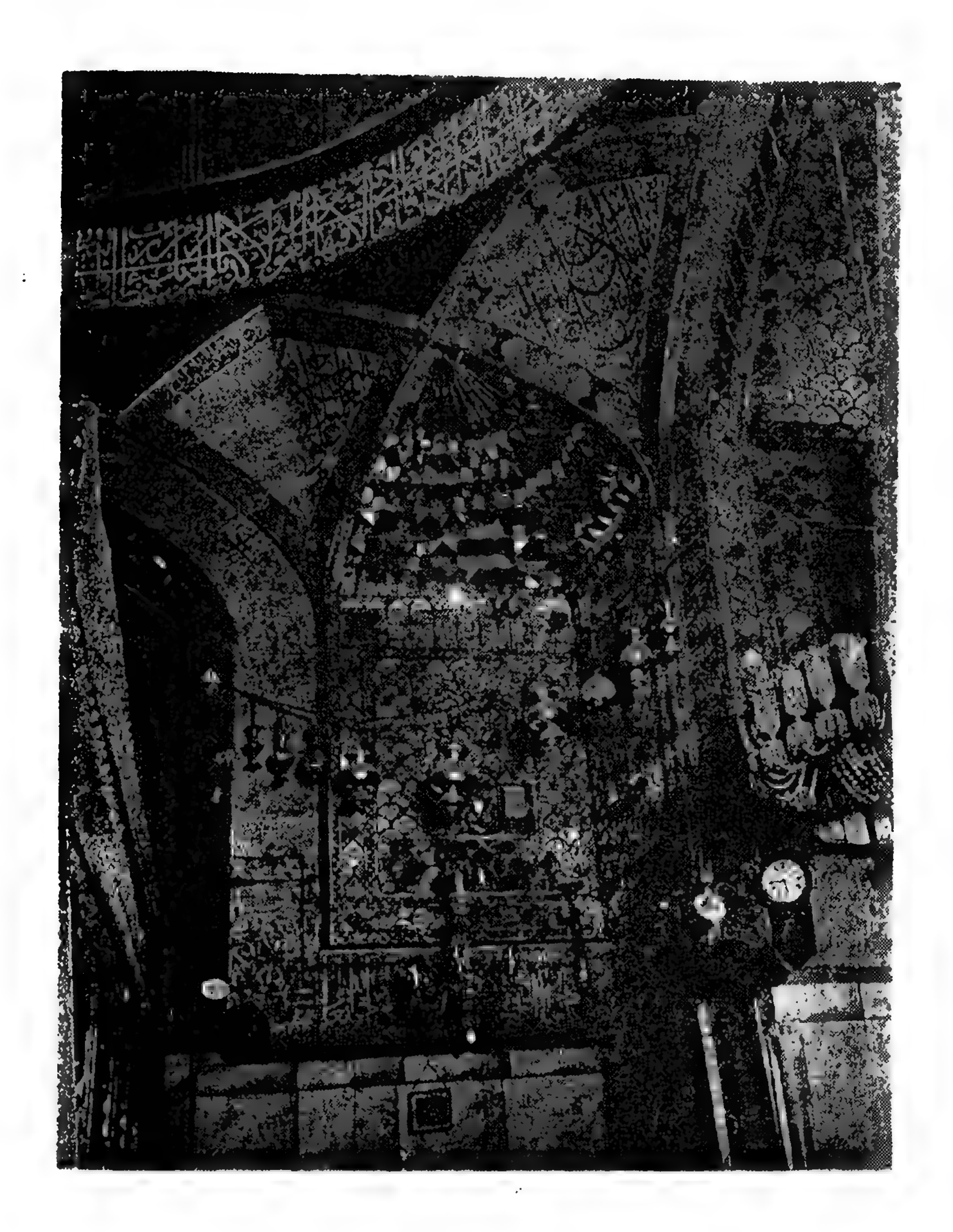
وهي مرقد الامام علي بن ابي طالب وتشير المصادر ان هارون الرشيد كان اول من أمر باقامة بناء عليه وابرز مكانته بين الاضرحة • وكان البناء

يتألف من غرفة ذات اربعة ابواب تعلوها قبة • وتكشف هذه الاشارة طراز ابنية الاضرحة في ذلك الوقت المتقدم القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وذكر بان البناء قد احترق في عام ٣٥٣هـ (٩٦٤م) واعيد بناؤه • وجدد البناء في العصر الايلخاني وأصبح بالشكل الذي هو عليه الان وكل ما حدث للمشهد بعد ذلك اضافات بسيطة واكساءات بمواد ثمينة • فقد تم أكساء القبة والمئذنتين بالذهب عام ١١٥٦هـ (١٧٤٣م) وفي عام ١٢٠٢هـ (١٨٧٨م) عمل للروضة صندوق مشبك للقبر يعتبر تحفة فنية فائقة الروعة •

تتوسط ابنية الروضة الحيدرية مدينة النجف وتشغل ارضا مربعة الشكل طول ضلعها ١١٠ امتار وتتألف ابنيتها من الحضرة وصحن واسع وسور ضخم يتألف من غرف صغيرة ومداخل ذات اواوين ضخمة (انظر الصور الارقام ٣٥ ، ٣٦) •



صورة ــ ٣٥
الروضة الحيدرية في النجف



صورة ــ ٣٦
التحليات والنقوش الداخلية للروضة الحيدرية

تحتل غرفة القبر مركز الحضرة وتتميز بارتفاع جدرانها وقبتها العالية فهي مربعة الشكل طول ضلعها ١٣ مترا من الخارج وتتصف ايضا بسمك جدرانها البالغة ٣ر٥ متر أما ارتفاعها فعشرة امتار وترفع هذه الجدران الضخمة قبة الضريح وهي قبة مزدوجة مثل قبتي الروضة الكاظمية يبلغ قطر القبة الداخلية ١٦ مترا وشكلها نصف كروي أما الخارجية فشكلها بصلي وتتميز بارتفاعها الشاهق الذي يبلغ ٣٥ مترا عن سطح الارض وترتكز هذه القبة على رقبة اسطوانية مرتفعة تتخللها اثنتا عشرة نافذة معقودة بعقود مدببة يفصل القبتين عن بعضهما مجاز عرضه ١ر٥ متر وتخترق رقبة القبة الداخلية اثنتا عشرة نافذة ايضا تقابل نوافذ الرقبة في القبة الخارجية كسيت القبة ورقبتها من الخارج بالذهب يتوسط هذه الغرفة القبر ويمكن الوصول اليه عن طريق اربعة ابواب تتوسط جدران الغرفة وتصلها بالرواق يدور حول القبر رواق مثل معظم الروضات السابقة يبلغ عرضه ٥ أمتار وترتفع جدرانه بارتفاع جدران غرفة القبر وسقف الرواق عبارة عن اقبية نصف برميلية وعقود وقباب صغيرة ذات نوافذ اما جدران الرواق الخارجي فضخمة يبلغ طول كل منها (٣٠) مترا من الخارج وهي بعرض خمسة امتار اي بعرض الرواق نفسه وقام المعمار بتحويل هذا السمك الكبير الى مجموعة من الحنايا والاواوين والمداخل من الداخل والخارج •

يتصل الرواق بالصحن عن طريق خمسة ابواب اشهرها ثلاثة بهيئة اواوين تخترق الجدران الشمالية والشرقية والجنوبية وابرز هذه الاواوين هو ايوان الذهب الذي يتوسط الجدار الجنوبي ويمتاز بمقرنصاته العنقودية المطلية بالذهب •

يرتفع ايوان الذهب عن مستوى سطح الحضرة وتحف به مئذنتان اسطوانيتان ترتفعان بارتفاع القبة تقريبا وهما مكسوتان بالواح معدنية مطلية بالذهب كما هو الحال في القبة وايوان الذهب وترتكز احواضهما على

صفوف من المقرنصات السائدة وحوضهما مسقوفان ايضا أما رأساهما فمضلعان • وتتميز الحضرة الحيدرية بعدم وجود سقيفة تتقدم جدار المدخل الرئيسي •

أما زخارف ونقوش الحضرة الحيدرية فتتشابه من حيث المظهر العام والجوهر مع ما هو موجود في الروضات السابقة لها •

١١ـ الروضة الكاظمية

وتضم رفات الامام موسى بن جعفر الصادق وحفيده محمد الجواد يتوسط القبران المكان الذي يصل بين غرفتي الحضرة الرئيستين المستطيلتين السلطان الجلائري اويس بن الشيخ حسن الجلائري قد أمر بتجديدها عام ٧٦٩هـ (١٣٦٧م) وحدث عام ٩٢٦هـ (١٥٩١م) ان هدمت الروضة من اساسها واعيد تشييدها حيث صارت تتألف من غرفتين مقببتين يحتل مركز البناية بسورهما رواق • ويحيط بهذه البناية صحن واسع مكشوف وتم بنفس الوقت وضع اساس جامع يتصل بالحضرة من جدارها الشمالي تم اكماله في عام ٩٧٨هـ (١٥٧٠م) بأمر السلطان سليم وتشير المصادر ان مآذن الروضة الاربع شيدت عام ١٠٤٥هـ (١٧٣٢م) وتم بناء اربع مآذن اخرى صغيرة في اركان الحضرة وذهبت قبتا الحضرة عام ١٢١١هـ (١٨٥٦م) وطليت ايضا بالذهب رؤوس المآذن والابواب وفرشت الروضة برخام ابيض •

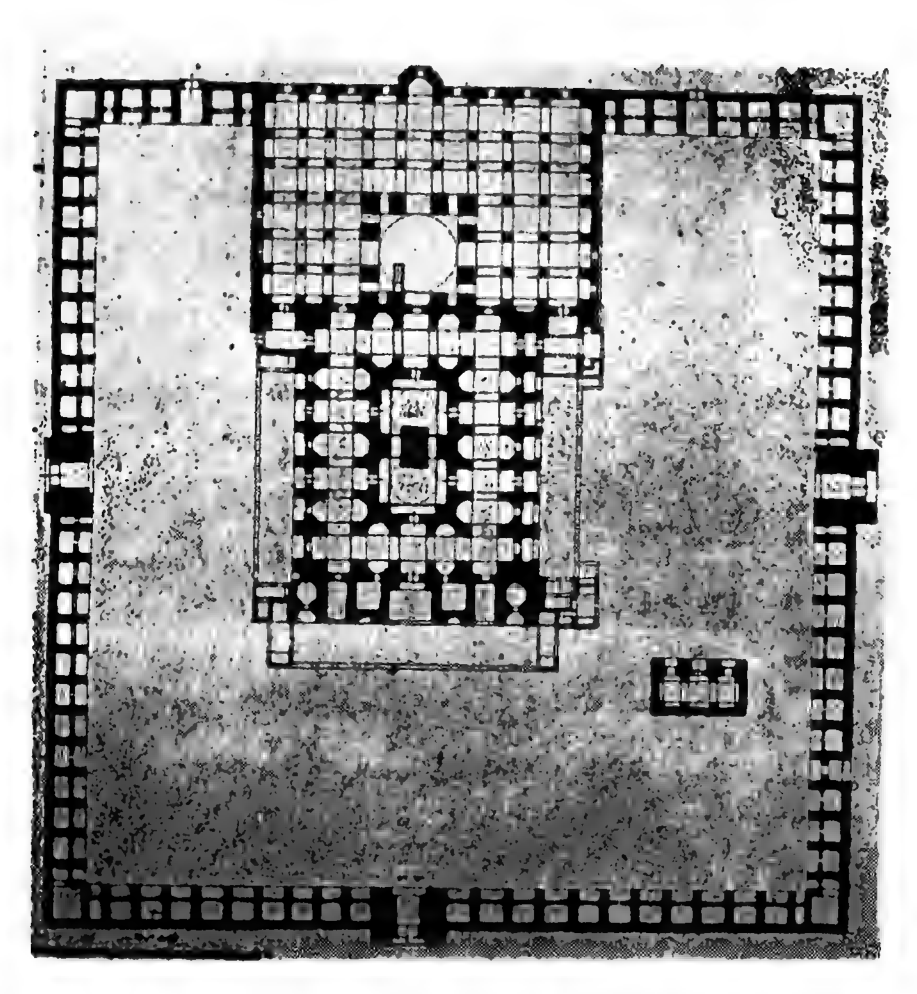
أما تغطية المقرنصات العنقودية بقطع المرايا فكان في عام ١٢٣٠هـ (١٨١٥م) أما في عام ١٢٣٩هـ (١٨٣٢م) فقد حدثت زيادة في صحن الروضة وجرى كذلك بناء جملة من الغرف الصغيرة التي تطل على الصحن واضافة اواوين وتشكل هذه المرافق الجدران الضخمة التي تحيط بالصحن وتفصل العمارة عما يجاورها من دور واسواق وطرق وكسيت وجوه جدران هذه

المرافق وبطون اواوينها بقراميد قاشانية غاية في الدقة والاتقان وتضم عناصرها رسوما نباتية وازهارا وصورا وكتابات تذكارية وآيات قرآنية وجرى تنصيب ساعتين كبيرتين على برجين عاليين وكان اتمام التحلية هذه عام ١٣٠١هـ (١٨٨٣م) ٠

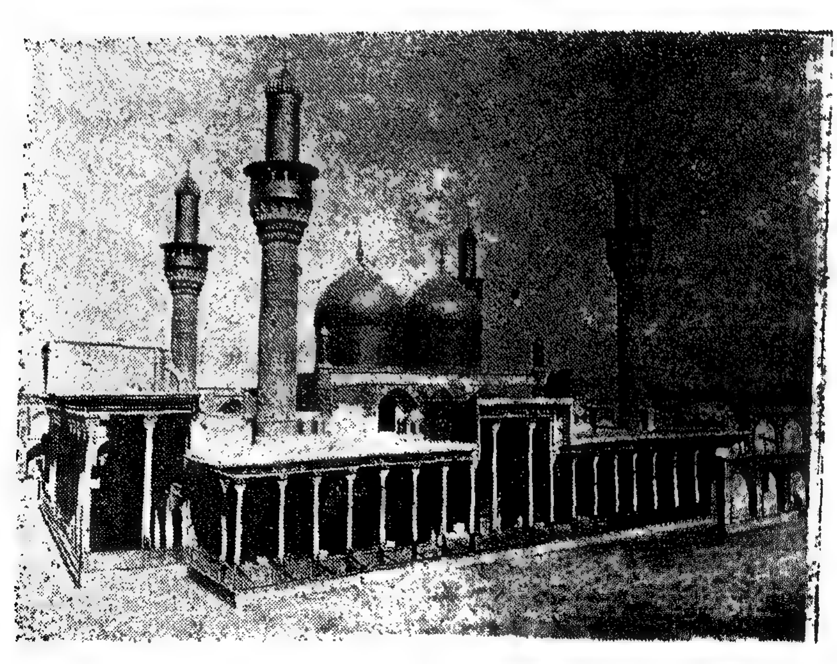
تشغل الروضة الكاظمية قطعة ارض مستطيلة ابعادها ١٤٠×١٣٥ مترا وتتألف من الحضرة والجامع وصحن فسيح يفصل بين هاتين البنايتين ولا يختلف تخطيط هذه الروضة من حيث الجوهر والطراز كثيرا عن تخطيط الروضة الحسينية والروضة العباسية (أنظر الصور الارقام ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩) ٠



صورة ـ ٣٧
منظر عام جوي للروضة الكاظمية



صورة ـ ٣٨
مخطط الروضة الكاظمية



صورة ــ ٣٩

منظر عام للروضة الكاظمية

تتكون الحضرة من غرفتين متجاورتين متصلتين مع بعضهما ورواق يحيط بهما من جميع الجهات وثلاث سقايف تطل على الصحن من الجهات الجنوبية والشرقية والغربية وبناء الروضة متين وفخم شيد بالطابوق والجص وكسيت معظم وجوه الجدران والابنية بالقراميد القاشانية والمرايا والذهب يتوسط القبران المكان الذي يصل بين غرفتي الحضرة الرئيستين المستطيلتين ويبلغ طول ضلعهما ٢١م من الشمال الى الجنوب و ١١م من الشرق الى الغرب وتتربع على جدران هاتين الغرفتين قبتان جديدتان في تكوينهما المعماري حيث تتكون كل واحدة منهما من طبقتين شكل الداخلية مفلطح لا ترتفع كثيرا عن مستوى ارتفاع الجدران الخارجيــة لهذا الجزء من البناء والذي يزيد في

ارتفاعه عن بقيــة اجزاء الحضرة اما القبتان الخارجيتان فأصـغر حجما من القبتين الداخليتين وهما متناظرتان وتتميز كل منهما برقبة طويلة خالية من النوافذ وشكلهما نصف كروي مدبب قليلا وطليت هاتان القبتان مع رقابها بالذهب ويبلغ قطر كل منهما ٧ أمتار وقد زاد المعمار في جمال مظهر سطح غرفتي الحضرة باقامة اربع مآذن صغيرة اسطوانية في اركان هذا القسم من البناء •

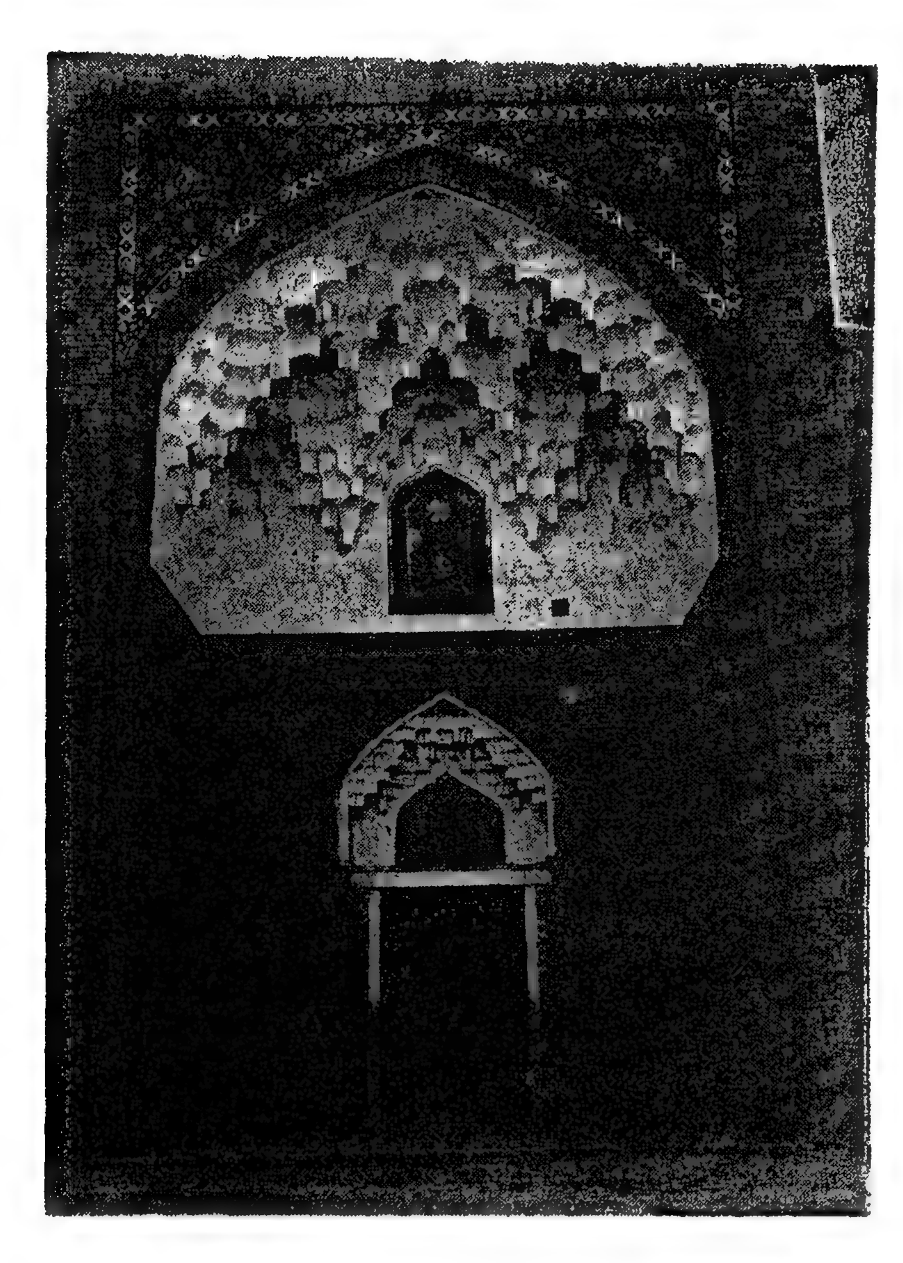
سقف الرواق في هذه الروضة اخفض من سقف غرفتي الضريح وهو مقبى تتوزع فيه قباب صغيرة تتخلل رقابها نوافذ للانارة والتهوية ويتصل الرواق بغرفتي الضريح بستة ابواب وكما يتصل بالصحن بعدد من الابواب خمسة منها بالجهة الشرقية وخمسة من الجهة الغربية وواحـد من الجهـة الشمالية يؤدي الى الجامع وواحد من الجهة الجنوبية وهو من الابـواب الرئيسية للحضرة •

وكما هو الحال في الروضات الحسينية والعباسية يتوسط جدار القبلة في الحضرة الكاظمية ايوان ضخم مرتفع يضم الباب الرئيسي للروضة ويدعي باب القبلة وشغلت حنية هذا الايوان بمقرنصات عنقودية كسيت بالذهب والمرايا والمينا واروع ما في هذا الايوان الباب النفيس المغشي بتشكيلات زخرفية بهيئة حشوات معمولة بالذهب والمينا في منتهى الروعة والجمال •

وتتميز بناية الحضرة الكاظمية بوجود اربعة مآذن تنتصب في الاركان الاربعة وتتصف بشكلها الاسطواني ورشاقة ابدانها ورقابها وكسيت الابدان بتشكيلات ناتجة من التفنن في رصف الآجر المزجج تتوجها أنطقة ذات كتابات دقيقة وتستند احواض هذه المآذن على صنوف من المقرنصات وهي مسقوفة مثل مآذن الروضتين الحسينية والعباسية أما رقاب ورؤوس المآذن فقد كسيت بالذهب وتتميز الروضة الكاظمية عن غيرها من الاضرحة والمشاهد التي

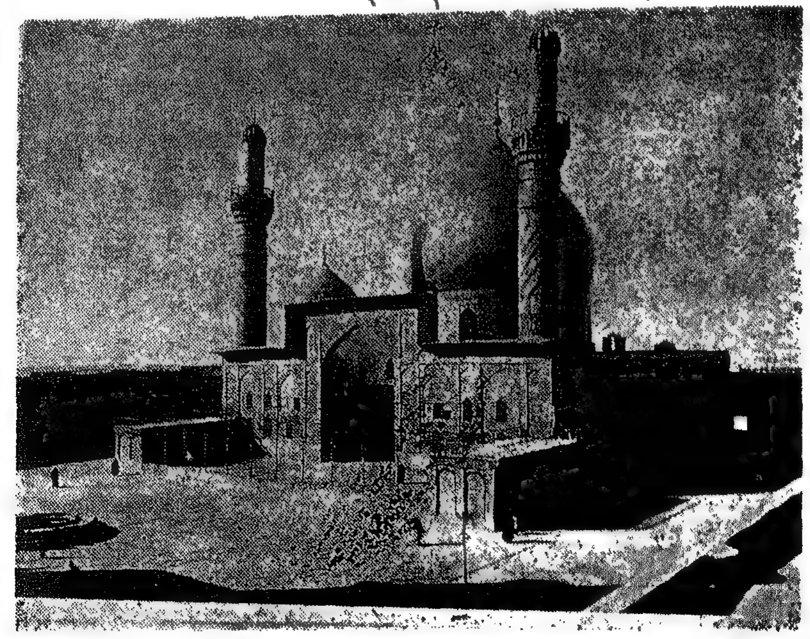
سبقتها بهذه المآذن الاربع وهي ظاهرة فريدة وتحول نوعي في تاريخ العمارة الاسلامية في العراق وهناك ميزة اخرى تميز هذه الروضة عن غيرها من الاضرحة وهي استعمال قبتين متجاورتين لتغطية غرفتي الضريح وكذلك استعمال المآذن الصغيرة الاربع على اركان الحضرة تعتبر من المميزات المتطورة والفريدة في هذه الحضرة وأذا ما أخذنا هذه الميزات بنظر الاعتبار فأن الروضة الكاظمية تحتل موقعا متميزا بين الروضات والمشاهد العراقية السابقة واللاحقة ٠

ومن العتبات المقدسة الاخرى هي الروضة العسكرية في سامراء وتضم ضريحي الامامين علي الهادي والحسن العسكري وقد شيد بناء الروضة الحالي عام ١٢٢٥هـ (١٨١٠م) وتم تذهيب قبتها عام ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) ويجاور الروضة هذه جامع المهدي الذي يقوم فوق سرداب الغيبة وتذكر المصادر ان الخليفة الناصر قد أمر ببناء هذا الجامع وتعمير سرداب الغيبة عام ٦٠٦هـ (١٢٠٩م) وما زال مشبك سرداب الغيبة يحمل تاريخ هذا التعمير (انظر الصورة رقم ٤٠) ٠



صورة ــ ٤٠
مدخل جامع غيبة المهدي في الروضة العسكرية في سـامراء

أن تخطيط الروضة العسكرية يشبه الى حد كبير تخطيط الروضة الحيدرية ويمتد التشابه ليشمل التكوين المعماري والعناصر المعمارية والزخرفية ايضا (أنظر الصورة رقم ٤١) ٠



صورة ـــ ٤١
الروضة العسكرية في سامراء

المدارس

استمر بناء المدارس خلال هذه العصور كاستمرار للتقاليد التي مارسها الحكام والولاة والاغنياء من عامة الناس في العهود السابقة حبا لعمل الخير وطلبا للفوز بمرضاة الله ٠ وكانت المدارس عادة تبنى اما بصورة مستقلة او جزء ملحقا بالجامع او المسجد اما تسمياتها فكانت تسمى باسم بانيها او باسم أحد الاساتذة المشاهير الذين يدرسون فيها ٠

مخطط المدرسة عادة يكون أما بشكل مستطيل او مربع ومن ابرز مكوناتها المعمارية هو مسجد المدرسة ذو الواجهة الثلاثية العقود والايوان وبوابة المدخل الضخمة وضريح بانيها • ووجود ضريح داخل بناء مدرسة هي صفة تيلورت وأخذت بالشيوع بعد الغزو المغولي في القرن الثامن الهجري (١٤م) وما بعده كما هو الحال في المدرسة المرجانية حيث لا وجود للضريح في المدارس التي سبقتها مثل المستنصرية والنظامية • ومن الصفات والتطورات النوعية في هذه العصور هو وجود مأذنة او اكثر تحف ببوابة المدخل التي ركز عليها المعمار كثيرا لاجل ابرازها بشكل ضخم ومتين ومتناسق في الوقت نفسه • وتتميز المدرسة أيضا بقاعاتها وغرفها المتنوعة الحجوم وكذلك بوجود حجر صغيرة في طابقي المدرسة لنوم الطلاب المنتمين اليها • وكانت المدرسة عادة يخصص لها وقف يتكون من مختلف صنوف الاملاك ليدر على المدرسة مالا ليسد حاجات اساتذتها وطلابها من رواتب وطعام وكسوة وكتب وفي هذا الخصوص تبرز المدرسة المرجانية على رأس المدارس التي خصص لها اوقاف بالغة الكثرة وتعتبر وقفيتها المنقوشة بالآجر من اعظم وأهم الوقفيات في التاريخ •

أما من حيث المكونات المعمارية الاساسية فالمدرسة كبناء مستقل بصحنها المكشوف وغرفها واواوينها المطلة عليه وفضاءاتها المسقوفة والنصف مسقوفة اشبه ما تكون بالبيت العراقي الذي تطور تلبية لحاجات علمية ودينية استجدت منذ مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) • وفي التراث المعماري العراقي من الممكن تتبع جذور مثل هذا البيت الى العصري السومري والبابلي •

أما من حيث العناصر المعمارية والتكسيات الجدارية فقد شاعت في عمارة وزخرفة المدارس نفس العناصر والتقنيات التي كانت تستخدم في الانماط المعمارية الاخرى كالجوامع والمساجد والاضرحة والمشاهد حيث استعملت

الزخارف الاجرية في المدرسة المرجانية أما المدارس التي بنيت في العصر العثماني والتي كان معظمها ضمن الجوامع او المراقد والاضرحة فقد استعمل في تحليتها الزخارف القاشانية وقد بدأ هذا التحول النوعي في الشيوع حوالي القرن العاشر الهجري (١٦ م) •

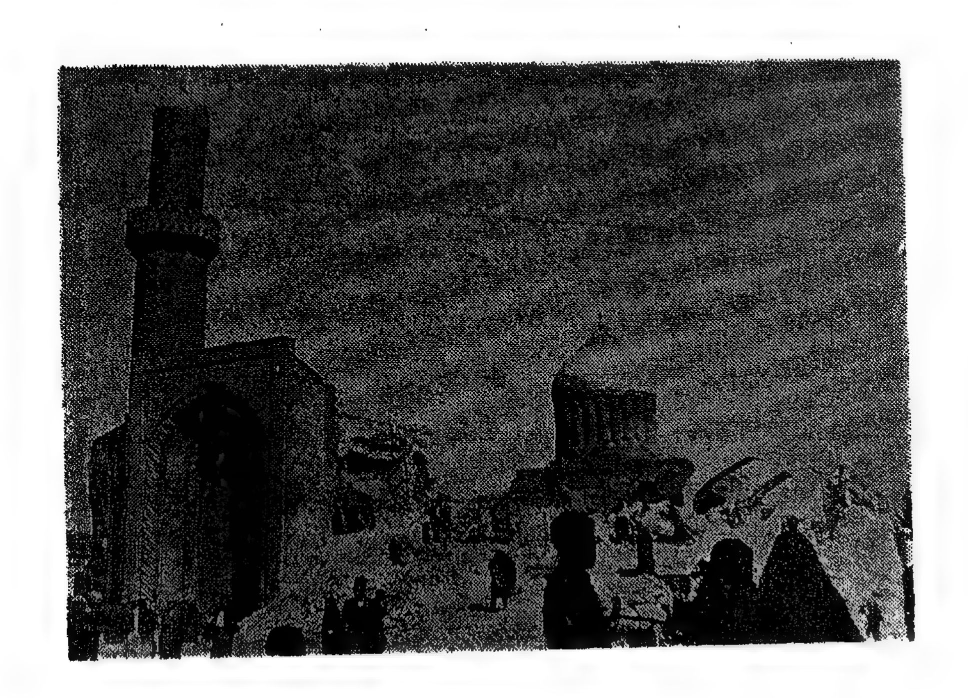
في الفترة التي اعقبت الغزو المغولي وحتى نهاية العصر العثماني هب العراقيون على الصعيدين الرسمي والاهلي ببناء العشرات من المدارس وقد اطلعنا على اسماء واخبار قسم منها في القسم المتعلق بالمسح التاريخي للنشاطات المعمارية لهذه الفترات ولكن للاسف فان معظمها قد عفى عليها الزمان واخر ماتبقى في بغداد منها هي المدرسة المرجانية التي تعتبر خاتمة لسلسلة المدارس البغدادية الخالدة التي ابتدأت حلقتها الاولى في بناء المدرسة النظامية وللاسف الشديد فقد تهدمت هذه المدرسة هي الاخرى في عام ١٩٤٥م ولم يتخلف منها سوى مدخلها الرئيسي ويقع بالقرب من مدخل سوق الشورجة ببغداد الشرقية ولحسن الحظ يوجد تحت ايدينا الكثير من الوثائق المتعلقة بها والتي نستطيع بواسطتها من اعطاء فكرة عن شكلها ومكوناتها كونها النموذج الكامل للمدرسة العراقية •

١ ـ المدرسة المرجانية

تقع المدرسة المرجانية في منتصف القسم الشرقي في بغداد بالقرب من المدرسة المستنصرية ويمر من جنبها احد اسواق بغداد القديمة وهو سوق الشورجة •

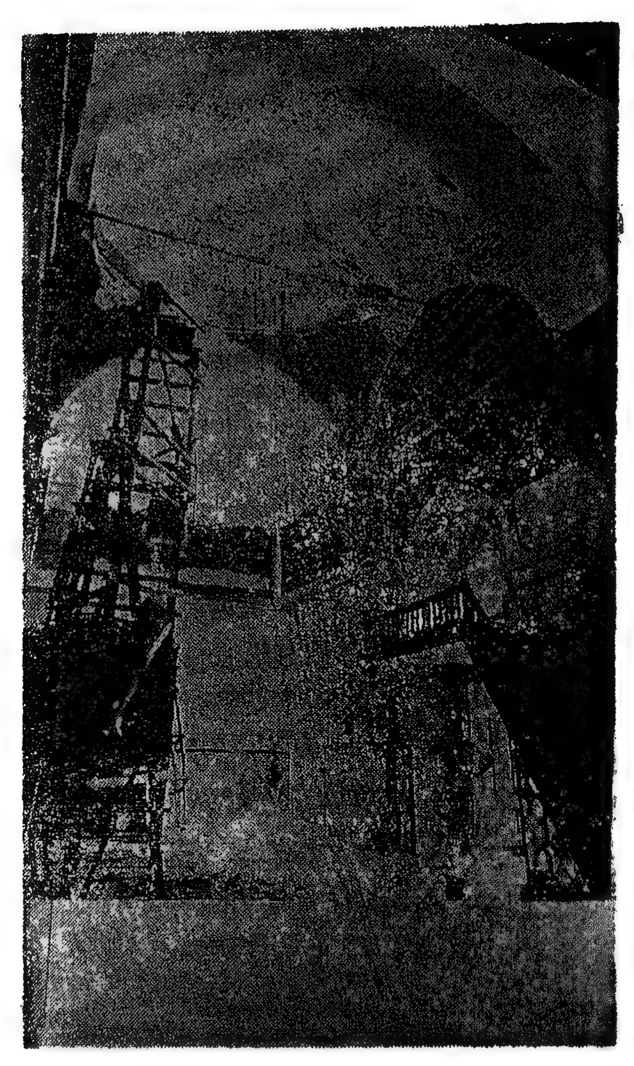
لقد هدمت معظم اقسام هذه المدرسة من قبل امانة العاصمة مابين عامي

١٩٤٥م و ١٩٤٨م لتحقيق استقامة شارع الرشيد حسبما ادعوا في حينه وذهبت سدى كل محاولات الاهلين ودائرة الاثار في حينه لانقاذ هذه المدرسة الرائعة من معاول الهدم والتخريب ولكن بدون جدوى وقد تم نقل بعض النصوص الكتابية والزخارف الاجرية العائدة الى هذه المدرسة وعرضت في القاعة الاسلامية الثانية في المتحف العراقي (انظر الصورة الارقام ٤٢،٤٣)٠



صورة ــ ٤٢

المدرسة المرجانية في بغداد ، هدمت اجزاء منها عام ١٩٤٦



صورة ــ ٤٣
المدرسة المرجانية في بغـداد
عملية نقل الزخارف الآجرية لمصلى المدرسة

تشير الكتابة التاريخية الى ان هذه المدرسة قد بنيت من قبل حاكـم بغداد امين الدين مرجان في سـنة ٧٥٨هـ (١٣٥٧م) وسـميت باسـمه (المدرسة المرجانية) وقد مول البناء من قبل ام الشيخ حسن مؤسسة السلالة

الجلائرية وخصصت المدرسة لتدريس الفقه على مذهبي الشافعي والحنفي ومن الاجزاء الاصلية الباقية من هذه المدرسة هي البوابة الفخمة التي تحوي المدخل الرئيسي تحف به مأذنة المدرسة الواقعة على يسار الداخل وهذه البوابة شبيهة ببوابة المدرسة المستنصرية والقصر العباسي من حيث الشكل العام ونوعية الزخارف الاجرية (اظر الصورة رقم ٤٤) ٠



صورة ــ ٤٤
بوابة مدخل المدرسة المرجانية ببغداد

اما النص التاريخي لهذه المدرسة فيتكون من عشرة سطور كتبت بالخط النسخي المتراكب داخل كتيبة مؤطرة بعقد مدبب تؤطرها كذلك الاشرطة الاجرية المحفورة وقد قام بقراءة النص عدد من العلماء العراقيين منهم الالوسي والنقشبندي ومصطفى جواد وهو كما يلي :

١) بسم‌الله الرحمن الرحيم انما يخشى الله من عباده العلماء

٢) انشاء هذه المدرسة المباركة والمصلى من فواضل السعيدة انار الله

٣) برهانها في دولة ولدها النويان الاعظم الـ ...
السعيد شيخ حسن .. الله

٤) وكملت في ايالة ولده النويان الاعظم ناشر العدل في العالم سلطان السلاطين غياث الدنيا والدين ومغيث

٥) الاسلام والمسلمين شيخ اويس نويان ... الله دولته على يد مولاهم الصاحب الاعظم ملجأ وملاذ الامم

٦) مربي الملوك وعضد السلاطين وكهف الضعفاء المخصوص بعناية الرحمن امين الدين مرجان

٧) اسبغ الله عليه نعمه الجزيلة انه الكريم المنان . ابتدأ عماره

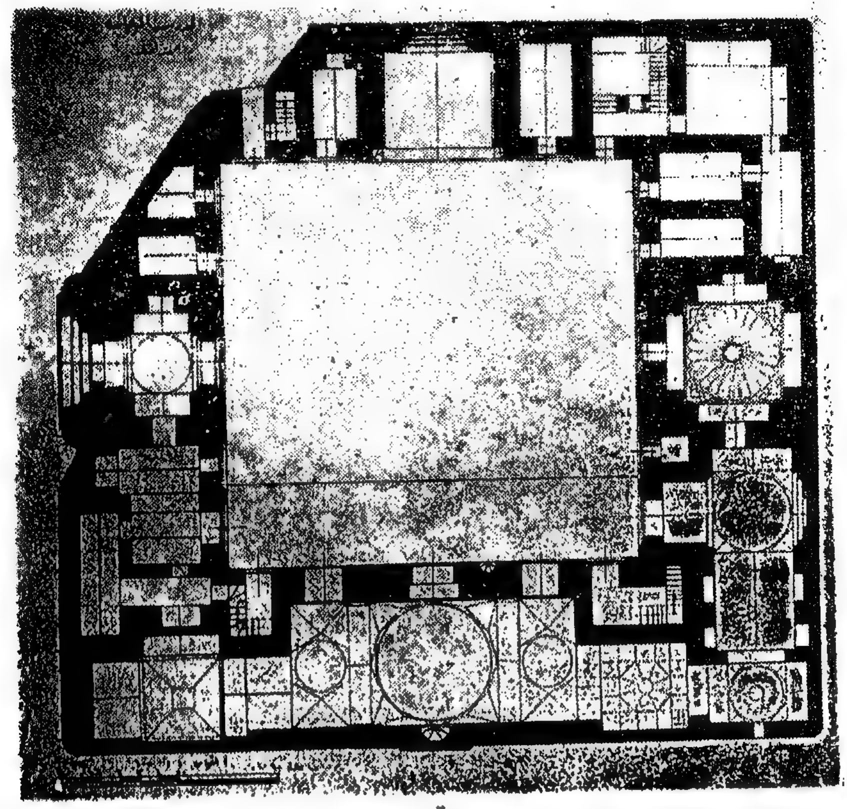
٨) هـذا المكان في تاسع جمادى ... وصلى الله على سيدنا ومولانا

٩) نبي الرحمه وشفيع الامة ومجلي الغمة محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين .

١٠) والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين كتبه العبد الضعيف المحتاج الى رحمة الله تعالى احمد شاه النقاش المعروف بزرين قلم التبريزي غفر الله ذنوبه وستر عيوبه) .

لقد استمرت المدرسة المرجانية في مهمتها الثقافية للمجتمع العراقي مدة ٤٤٠ سنة ومع ذلك فاننا لانعرف الا القليل عن الاساتذة الذين درسوا

بها وهذه ظاهرة غريبة اذا ما قورنت بالمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية اللتين كانتا قائمتين وقت انشاء هـذه المدرسة حيث نعرف الكثير عن الاساتذة الذين درسوا بهما ومن اساتذة المدرسة المرجانية القليلين الذين ورد اسمهم في كتب التاريخ هو بدرالدين محمد الاربلي المتوفى سنة ٧٧٥هـ (١٣٧٧م) وفي العصور المتأخرة أي حوالي سنة ١٠٤٨هـ و (١٦٣٨م) درس فيها الشيخ احمد بن عمر ودرس بها كذلك في سنة ١٢٠٠هـ (١٧٨٥م) عبدالله الراوي • بنيت المدرسة المرجانية على تخطيط رباعي يميل قليلا الى الاستطالة حيث يبلغ طولها ٣٩ر٢٠م وعرضها ٣٦ر٨٠م وتبلغ مساحتها حوالي ١٣٦٣م٢ ويحتوي مخططها (انظر الصورة رقم ٤٥)



صورة ـ ٤٥
مخطط المدرسة المرجانية ـ الطابق الارضي

على كل عناصر المدرسة الضرورية كالمصلى والايوان والقاعات وبوابـة المدخل ومنارتها وكذلك ضريح تعلوه قبة لمشيد المدرسة امين الدين مرجان الذي دفن فيه بعد موته وهذه ظاهرة تتميز بها هذه المدرسة عن المدرسـة المستنصرية •

تتكون المدرسة من طابقين وتحتوي على غرف وحجرات صغيرة لسكن الطلاب شبيه بما هو موجود في المدرسة المستنصرية (انظر الصورة رقـم ٤٥) •

بنيت المدرسة بالطابوق والجص وتتميز بزخارفها الاجرية الغنية كما ونوعا وكذلك بكثرة نصـوصـها التاريخيـة والدينيـة وتتركز الزخارف الاجرية لهذه المدرسة على بوابة المدخل من الخارج والداخل وعلى مصلى المدرسة الذي هو بحق آية من ايات فن الزخارف الاجرية البغدادية التـي بلغت عصرها الذهبي خلال العصور العباسية المتأخـرة وبلغـت اقصـى مستوى لها في هذه المدرسة (انظر الصور الارقام ٤٣ ، ٤٤) •

يتكون مصلى المدرسة من قاعة مستطيلة مقسمة الى ثلاثة اقسام عـن طريق عقود مدببة كبيرة تحمل مع باقي جدار المصـلى القباب الثلاث التي تغطي المصلى ويطل المصلى على صحن المدرسة بثلاثـة مداخـل معقـودة الاوسط اوسع واعلى ارتفاعا من المدخلين الجانبيين ونفس هذه الظاهـرة تتميز بها القبة الوسطى للمصلى فهي اعلى واوسع من القبتين اللتين علـى جانبيها (انظر الصور الارقام ٤٧ ، ٤٨) • اما محراب المصلى فهو بشـكل مستطيل داخله حنية تكسوه من الداخل والخارج زخارف اجرية جميلـة تشـكل مع زخارف جدران المصلى ومناطق انتقال القباب وعقودهـا ثوبـا قشيبا يغطي معظم سطوح جدران المصلى الداخلية • وفي ستة كتائب متقابلة داخل المصلى قام مرجان بحفر وقفيته الشهيرة المخصصة لهذه المدرسـة



صورة ـــ ٤٧
قباب مصلى المدرسة المرجانية



صورة ـــ ٤٨
واجهة مصلى المدرسة المرجانية المطلة على شارع الرشيد قبل هدمها

لتبقى (حسب رأيه) خالدة مع الزمن وقد وضع فيها الكثير من العقارات كالبساتين والخانات والدكاكين وغيرها في مدن متعددة كبغداد وبعقوبة وبهروز وجلولاء وخانقين لتدر اموالا لتغطية مصاريف المدرسة وتعتبر هذه الوقفية من اشهر الوقفيات من نوعها خلال القرن الثامن الهجري (١٤م) وبالنظر لندرتها واهميتها واسلوبها الادبي الجميل نوردها فيما يلي حسب قراءة الالوسي وتحقيق كل من مصطفى جواد والنقشبندي لنقدم بواسطتها نموذجا لوقفيات المدارس في تلك العصور •

(تبدأ الوقفية فوق المحراب ضمن كتيبة يعلوها عقد مدبب)

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم

٢ ـ الحمد لله الذي وفق المطيعين لعمارة ابنية بيوت العبادات والهم المخلصين باشادة اعمدة دور الطاعة ورفع الذكر

٣ ـ الولاة بتأسيس قواعد معالم المكرمات ودل ارباب السعادات على سلوك سبل الخيرات ومنح المحسنين بتشريف ان الحسنات يذهبن السيئات وحباهم بماله ان المتصدقين والمتصدقات

٤ ـ والصلاة على نبي الرحمة محمد المصطفى خير الانام واصحابه مصابيح الدجى وبدور الظلام اما بعد فيقول المفتقر الى عفو الملك المنان مرجان بن عبدالله بن عبدالرحمن بدل الله سيئاته حسنات اني هاجرت

٥ ـ في الارض مدة وجاهدت سنين في الطول والعرض ذات شمال ويمين متورطا في مخاوف البر والبحر حين اداني الجد الصاعد وادناني التوفيق المساعد فعلمت ان الدنيا دار الفرار وان الآخرة دار القرار وايقنت ان اولى

٦ ـ ما أنفقت فيه الاموال واحرى ما توجهت اليه همم الرجال ماكان وسيلة الى ابواب رحمته محط الرجال وذخيرة ليوم المحاسبة والسؤال قال النبي عليه الصلاة والسلام اذا مات الانسان انقطع عمله الا عن ثلاث صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له والصدقة الجارية .

٧ ـ هي الوقف فشمرت عن نية صادقة وسريرة للخير وافية وشرعت في عمارة هذه المدرسة المشهرة بالمرجانية وتوابعها المتصلات بها بعضها بالبعض في زمان المخدوم الاعظم الدارج الى جوار الله وجناته المستريح على اعلى غرفات جناته شيخ حسن نويان انار الله برهانه وتمت في ايام دولة

(وتستمر على يسار المحراب)

١ ـ نور حدقته ونور حديقته المخدوم

الاعظم الاعدل رافع رايات السلطة على الافلاك ناصب غايات للملكة الى

٢ ـ الشمال ساحب ذيل الرحمة على الاعراب والاتراك محيي مراسم الملة المصطفوية مزين شعار الدولة الجنكيزخانية شيخ شاه اويس .

٣ ـ خلد الله ملكه ووقفت على الفقهاء وطلاب العلم والتفسير والحديث والفقه على مذهبين الامام الاعظم محمد بن ادريس الشافعي المطلبي

٤ ـ والامام الاقدم ابي حنيفة نعمان بن ثابت الكوفي رضي الله عنهما ووقف على مصالحها كما شرح في الوقفية الموقعة بتوقيعات قضاة

٥ ـ الاسلام والموشحة بشهادات الامراء والوزراء العظماء بالريحانيين اربعة واربعين دكانا واثنى عشر عصارة في السوق الجديد

(التكملة في الجهة المقابلة للنص الواقع يسار المحراب)

١ ـ للمدرسة والصاغة وتسعة وعشرين دكانا اخرى وثلاث خانات ونصف خان احداهن انشاء الواقف ومواضع بالبدرية وبالامشاطين ٠

٢ ـ ثلاثة دكاكين وبالمشرعة اربعة عشر دكانا وخان جديد انشاء الواقف تقبل الله منه صالح الاعمال وبالحلبة ثلاثة عشر دكانا وعصارة وخانا فيه

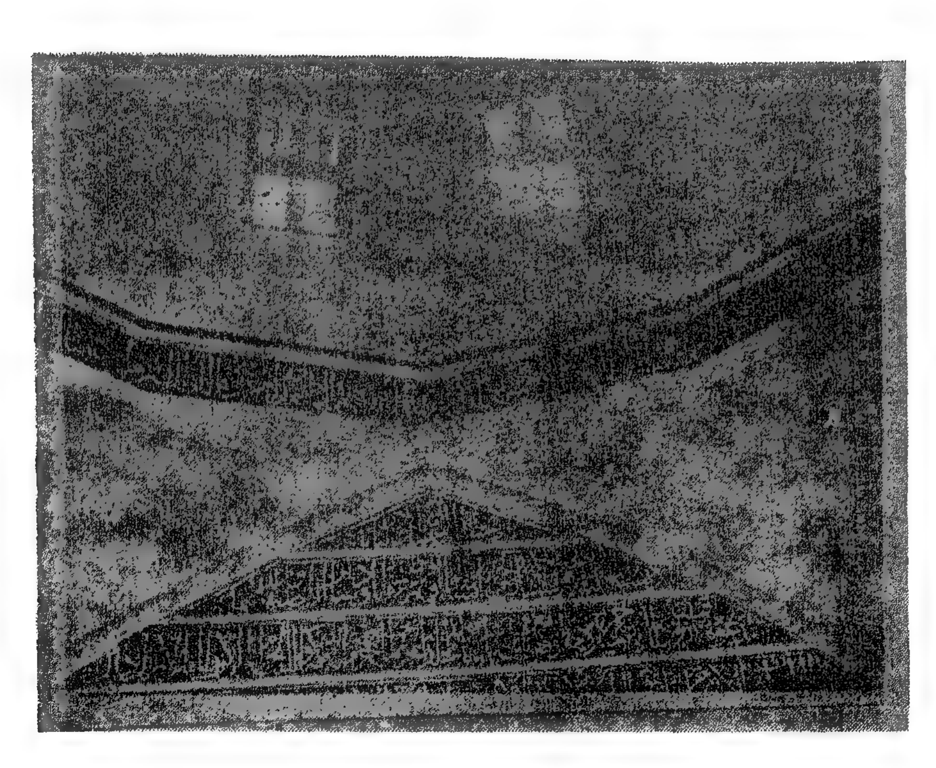
٣ ـ اثنتان وخمسون حجرة وبالجانب الغربي بمحلة القصر داراً ومداراً وخانا يعرف بالجواري وبالخليلات خان الزاوية ومدارا هي الآن من حقوق

٤ ـ الخان المذكور وبالحريم دكان كاغد أي مخزن لبيع الورق وبنهر عيسى ناحية عقرقوف ونصف القايمية وتل دحيم وبساتين بالمخرمية وبساتين بقرية الترك والجوبة وقراح الجاموس

٥ ـ وبالصراة مزرعة وبالقاطون ناحية رادمان وبجلولاء من خاناباد النصف ومن بساتين بيعقوبا وبيوهرز وبخانقين دوري ونصف زرين جوي (أي النهر الذهبي) ٠

(التكملة في الكتيبة المقابلة للمحراب انظر الصورة رقم ٤٦)

١ ـ وارحية الماء ونعمتاباد ودولتاباد



صورة ــ ٤٦
المدرسة المرجانية ــ نصوص وكتابات مصلى المدرسة

٢ ــ وبســاتين بالبندنيجين وبستان جديد ببوهريز انشاء الواقف ونهر خرماباد وسائر اراضيها ومزارعها

٣ ــ المدعو هزارنشتة وذلك بين جبل حمرين وخانقين وقفا صحيحا شرعيا مؤيدا مخلدا محرما بجميع ما حرم الله به مكة والبيت الحرام والركن والمقام لا يزال ذلك

٤ ــ كذلك الى ان يرث اللـه الارض ومن عليها وهو خير الوارثين لايندرس بكدور الاعصار ولاينطمس بمرور الادوار لايؤجـر

من متغلب ومتعزز وجندي ومن يخالف غائلته بل يؤجر من رجل مسلم معامل بمكان الوالي

٥ - على هذا الوقف من مرافعته بين يدي الحكام وقضاة الاسلام قادرا من اداء مايتوجه عليه من ضمان الوقف ومن فعل ذلك فتلك الاجازة باطلة وتصرفه حرام سحت ووصيتي الى حكام كل زمان وعصر واوان والى قاضي القضاة ببغداد ان يساعد الوالي

٦ - على هذا الوقف وعلى استخلاص الحقوق الواجبة لوقف هذه المدرسة وان ينظروا اليهم بنظر الرحمة والرأفة فان الحاكم العادل في رعيته كالوالد الشفيق على ولده الاوكل من سن سنة حسنة كان له اجرها واجر من يعمل بها الى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها •

٧ - ووزر من يعمل بها الى يوم القيامة وان لا يتعرضوا بمتولى هذا الوقف ومستوفيه ومشرفه من أسترفاع حساب او نصب وترتيب ولايداخلوهم في ذلك بشبه من الشبه ولايعقد بهذه المدرسة ديوانا لفصل القضايا الشرعية والبارغوجية فأن هذا الموضع موطن العلماء ومنزل الصلحاء فطوبى ثم طوبى لمن

(التكملة في الكتيبة الواقعة على يمين المحراب).

١ ـ استجلب ترحما لنفسه وويل ثم ويل لمن صاحبته اللعنة في رمسه فمثل ماتعاملون في حياتكم تعاملون في مخلفتكم بعد مماتكم

٢ ـ فأن المكافأة من الطبيعة واجبة كما تدين تدان وكما تزرع تحصد فان الدنيا غدارة غرارة وان طالت مدتها فما طالت وان نال صاحبها مانال •

٣) ومن غير شروط هذه الاوقاف او تصرف فيها بخلاف ماشرطت
في الوقفية فهو ظالم عند الله الا لعنة الله على الظالمين وعليه
لعنة الله

٤ ـ والملائكة والناس « ومأواه جهنم وبئس المصير » والحق
بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم
يحسبون انهم يحسنون صنعا

٥ ـ وما ذلك على الله بعزيز « وشرط الواقف تقبل الله منه الحسنات
ولا واخذه بما كسبت ايديه من السيئات ان لايسلم من اراضي
الموقوفات

(التكملة في الكتيبة المقابلة للنص الواقع على يمين المحراب)

١ـ من النواحي والبساتين والبسوط بالقرار الشمسي شيئا اصلا
ولا من المسقفات من الدكاكين والخانات والطواحين بالعرصة
ابدا ومن فعل فحكمه باطل

٢ ـ وشرطه مفسوخ وتصرف من تصرف فيها بهذه الشبهة حرام
سحت وفاعله مأثوم ملوم الخالق فمن بدله بعدما سمعه فأنما
أثمه على الذين

٣ ـ يبدلونه ان الله سميع عليم وكتب في شهور سنة ثمان وخمسين
وسبعمائه والحمدلله وحده والصلاة والسلام على نبي الرحمة

٤ ـ وشفيع الامة وكاشف الغمة النبي العربي الهاشمي القرشي المكي
المدني سيد المرسلين ورسول رب

٥ ـ العالمين وخاتم النبيين محمد النبي وعلى آله وصحبه الطاهرين
الكرام المنتخبين البررة وسلم تسليما كثيرا .

وبالرغم من هذه التحذيرات والانذارات لا يعرف بوجه الدقة ماذا حل بهذه الاوقاف بعد ان مضى على بناء المدرسة مايزيد على ستمائة سنة بالاضافة الى ان المدرسة نفسها قد تعرضت الى الهدم في الاربعينات وقد قامت الاوقاف مشكورة ببناء جامع سمي بجامع مرجان وقد ثبتت الوقفية المذكورة في المصلى الجديد لهذا الجامع في الوقت الحاضر ٠

اما تربة مرجان التي هدمت مع جملة ماتهدم من اجزاء المدرسة فقد سبق لنا الكلام عنها ضمن الاضرحة والمشاهد ٠

وتعتبر قبته المثال الوحيد من بين قباب العراق التي وصلتنا من العصور الاسلامية الوسطى ٠

أما ايوان المدرسة فقد انشيء بشكل ضخم على غرار الاواوين البغدادية المعروفة في ذلك الوقت في كل من القصر العباسي والمدرسة المستنصرية والفرق الوحيد هنا هو كونه مبيضا بالجص ولا تزينه الزخارف الآجرية مثلما هو موجود في كل من القصر العباسي والمدرسة المستنصرية وربما كان في الاصل مزخرفا وقد تساقطت نتيجة الاهمال في العصور المظلمة التي خيمت على العراق وفي العصر العثماني واثناء الصيانة التي قام بها سليمان باشا بيض بالجص كما بيضت معظم اقسام المدرسة ومن بينها كافة زخارف المصلى الاجرية (انظر الصورة ٤٣) ٠

لم تتخلف في الوقت الحاضر اي مدرسة تضاهي المدرسة المرجانية من حيث نوعية عمارتها وزخارفها كمدرسة مستقلة والتي يمكن نسبتها الى العصور التي اعقبت الغزو المغولي اما المدارس التي اسست ضمن الجوامع والاضرحة فعبارة عن بناء صغير يحتوي على بعض الغرف لنوم الطلاب وتتكون من طابقين وتبنى عادة في ركن منعزل من اركان الجامع او الروضة ويلحق بها عادة مكتبة تضم العديد من الكتب الدينية وقد مر ذكر بعض

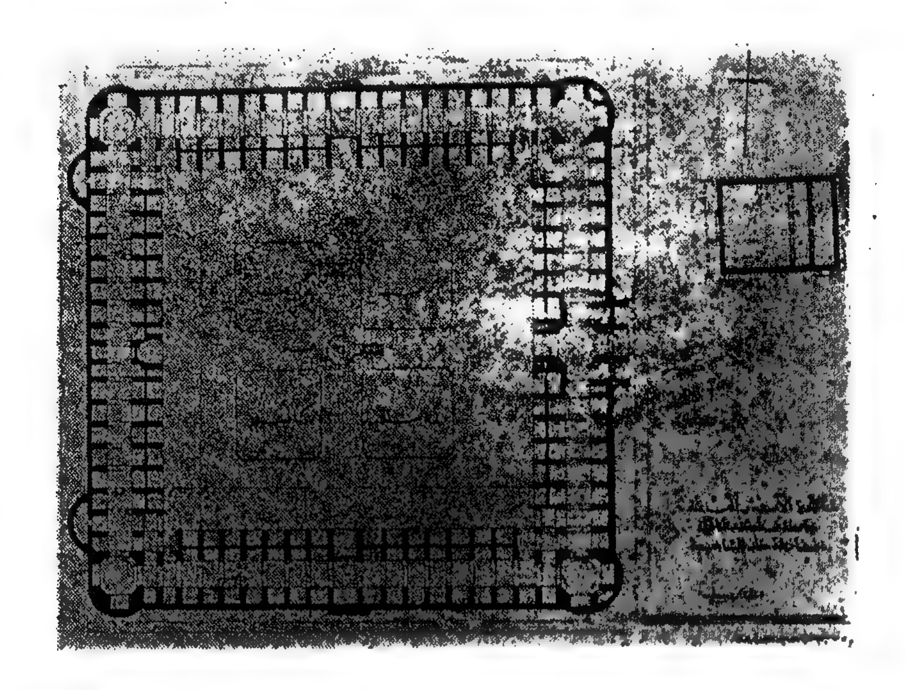
هذه المدارس عند الكلام عن الجوامع والمساجد والاضرحة والمشاهد ومثل هذه المدارس يكون بناؤها وزخرفتها جزء متكاملاً مع الاسلوب والطراز السائد في البناء الذي اسست المدرسة فيه ومن هذه المدارس مدرسة الحضرة الكيلانية ومدرسة ابي حنيفة ومدرسة الروضة الحسينية ٠ ومن مدارس العصر العثماني في بغداد الى وقت قريب مدرسة عادلة خاتون ومدرسة نازندة خاتون ٠ ومع نهاية العصر العثماني اخذت بناية المدرسة تأخذ شكلا اكثر ملاءمة لروح العصر واحتياجاته ومثل هذه المدارس اسست في بغداد على يد الوالي مدحت باشا ٠

الخانات

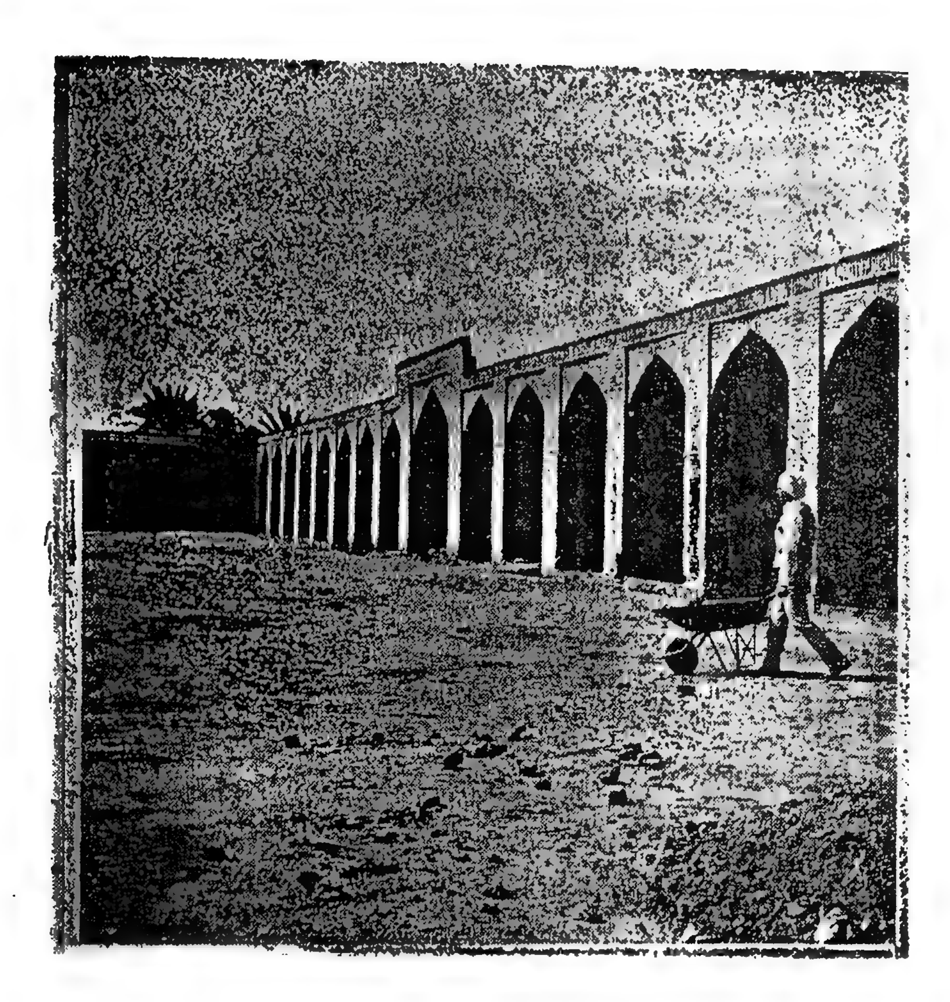
عرفت العمارة المدنية انماطا متعددة من المباني فبالاضافة الى القصور والبيوت بنيت الحصون والاسوار والقلاع والجسور والقناطر والقيصريات (الاسواق) والحمامات والبيمارستانات (المستشفيات) والخانات وكانت الخانات في الفترات التي نحن في صددها على نوعين النوع الاول هو الخانات التي تبنى داخل المدن وتكون عادة صغيرة الحجم نسبيا اذا ماقورنت بالنوع الثاني وغالبا ماتكون مسقوفة وتحتوى على العديد من الحجر التي تطل على صحن مركزي واحد ٠ وتستعمل مثل هذه الخانات عادة كمركز تجاري بحكم قربها من السوق وتشكل غرفها اماكن نوم واستراحة بالنسبة للتجار الوافدين واما صحنها فيكون عادة محلا لطرح البضائع لاجل المشاهدة والبيع ولم يتخلف من هذا الصنف من الخانات سوى مثال واحد يعود الى القرن الثامن الهجري (١٤م) وهو خان مرجان ٠ ومن نوعية هذا الخان بني في العصور العثمانية المتأخرة عدة خانات للتجار قوامها طابقين من الغرف تطل على مساحة مركزية واحدة مثل خان اجغان وخان الزرور وخان

الشابندر وقد تعرضت هذه الخانات الى الكثير من التخريب والاهمال والاضافات مما غير الكثير من معالمها الاولى •

اما النوع الثاني فيعرف بخانات القوافل ويبنى عادة على الخطوط والطرق التي تربط بين المدن المهمة والتي تسلكها القوافل التجارية وقوافل الحجاج في موسم الحج والزيارات ويحتفظ القطر العراقي بسلسلة خالدة منها قسم منها مبنى في اطراف بغداد مثل خان ضاري وخان المشاهدة وخان بني سعد (انظر الصور الارقام ٤٩ ، ٥٠) وخان اليوسفية وخان المحمودية



صورة ــ ٤٩
مخطط خان المشاهدة



صورة ــ ٥٠

خان بني سعد الى الشرق من بغداد

وخان الاسكندرية وخان النخيلة او المصلى وخان الربع وخان النصف في الطريق مابين النجف وكربلاء وكذلك خان الضلوعية الواقع جنوب سامراء وتتشابه هذه الخانات فيما بينها من الناحية التخطيطية والعمارية وهي

مبنية بالاجر والجص وتتميز بكبر حجمها وتخطط بصورة عامة بشكل مربع يطل على الصحن بسلسلة من الاواوين المعقودة بعقود مدببة ويتوسط صحنها بئر لشرب الماء ولسقي الحيوانات تحيط به دكة او اكثر مرتفعة عن مستوى بناء الخان لاجل الصلاة وهي مرتفعة لتكون بعيدة عن متناول الحيوانات • ويتميز الخان من هذا النوع ايضا باسواره العالية المدعومة بابراج وبكونه له مدخل واحد ضخم يغلق ليلا بواسطة بوابة قوية لصد اللصوص • وقد استعملت في بناء هذا النوع من الخانات كافة العناصر المعمارية المعروفة في مجال بناء العقود والقبوات والاواوين والقباب ويكون البناء عادة مبيضا بالجص في بعض اقسامه وخاليا من النصوص الكتابية والزخارف الآجرية او القاشانية وغالبا ما تعلو المدخل فيه غرفة انيقة مسقوفة بقبة او قبو منخفض تخصص للمسافرين من الشخصيات البارزة ويقع خلف الاواوين المطلة على الصحن رواق يدور حول الخان تحف به من الجانبين اواوين معقودة بقبوات نصف برميلية وفي كل ركن من اركان الرواق الاربعة توجد قاعة مربعة مرتبطة مع الرواق تعلوها قبة منخفضة مثل ماهو موجود في خان المشاهدة (انظر المخطط الصورة رقم ٤٩) وهذا الخان مبنى بشكل مربع طول ضلعه ٨٥م تتوسط اضلاعه المطلة على الصحن اربعة اواوين متقابلة وتتوسط صحنه اربع دكات للصلاة وفي مركز الصحن يوجد بئر لتزويد نزلاء الخان بالماء •

ومن الناحية التاريخية تعود هذه الخانات الى القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين (١٦ – ١٧م) او ربما الى فترات اخرى متأخرة عن ذلك •

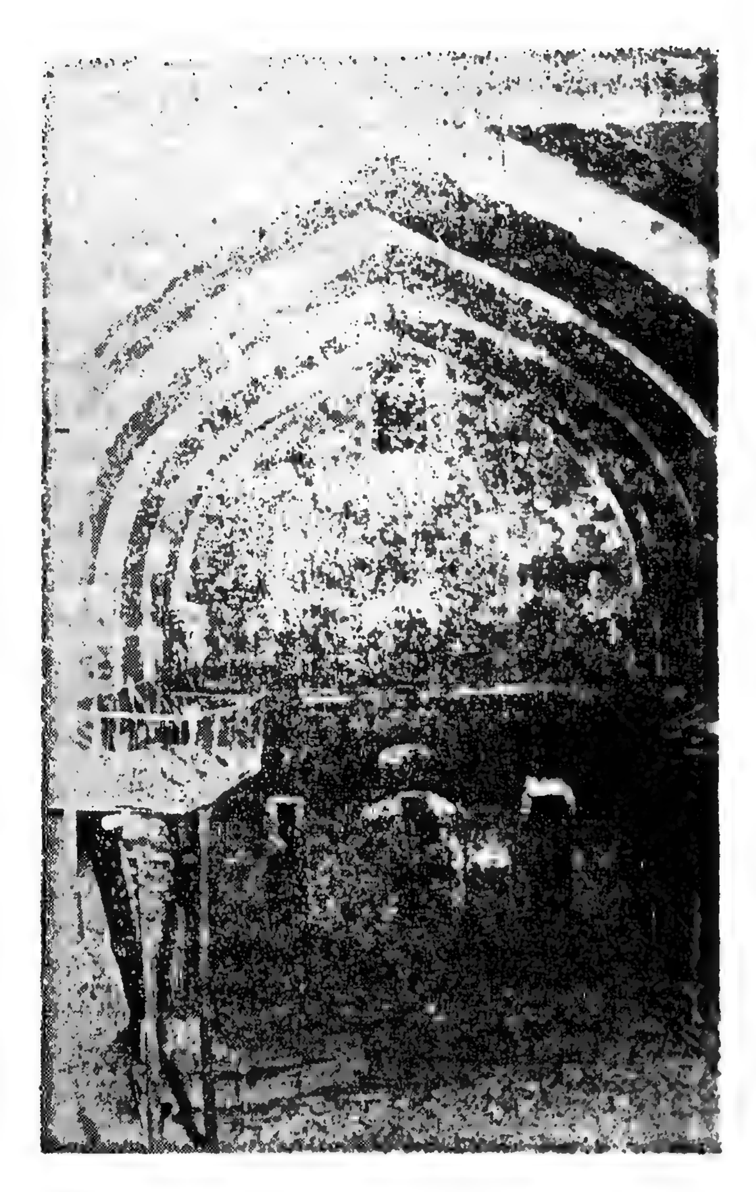
أما الخانات من الصنف الاول والتي تعود الى فترة ما بعد الغزو المغولي فقد عفى عليها الزمان ما عدا مثال واحد هو خان مرجان الذي يعطي بمخططه وعمارته وزخارفه فكرة عامة عن هذا النمط من العمارات العراقية المدنية المتطورة في العصور التي نحن بصددها •

خان مرجان

وهو من اوقاف المدرسة المرجانية ويقع بالقرب منها بين شارع السموأل وسوق البزازين قرب شارع الرشيد وهو خان فخم البناء فريد الطراز يدل على المستوى والرقي الحضاري العراقي في مجالات البناء والهندسة المعمارية العراقية خلال القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، لقد تعرض هذا الخان الى الاهمال في العصور المظلمة وقامت بعض الجهات المسؤولة في تلك الاوقات بتأجيره للتجار فاتخذوه مخزنا للسلع فآل الى الخراب وقامت الاثار في عام ١٩٣٧ بترميمه وأتخذته متحفا للاثار العربية الاسلامية وفي الوقت الحاضر اتخذ مطعما سياحيا بعد ان اجريت عليه الصيانة الاثريـة من قبل مديرية الاثار في السبعينات وكذلك التطويرات اللازمة من قبل المؤسسة العامة للسياحة (أنظر الصور الارقام ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣) ٠

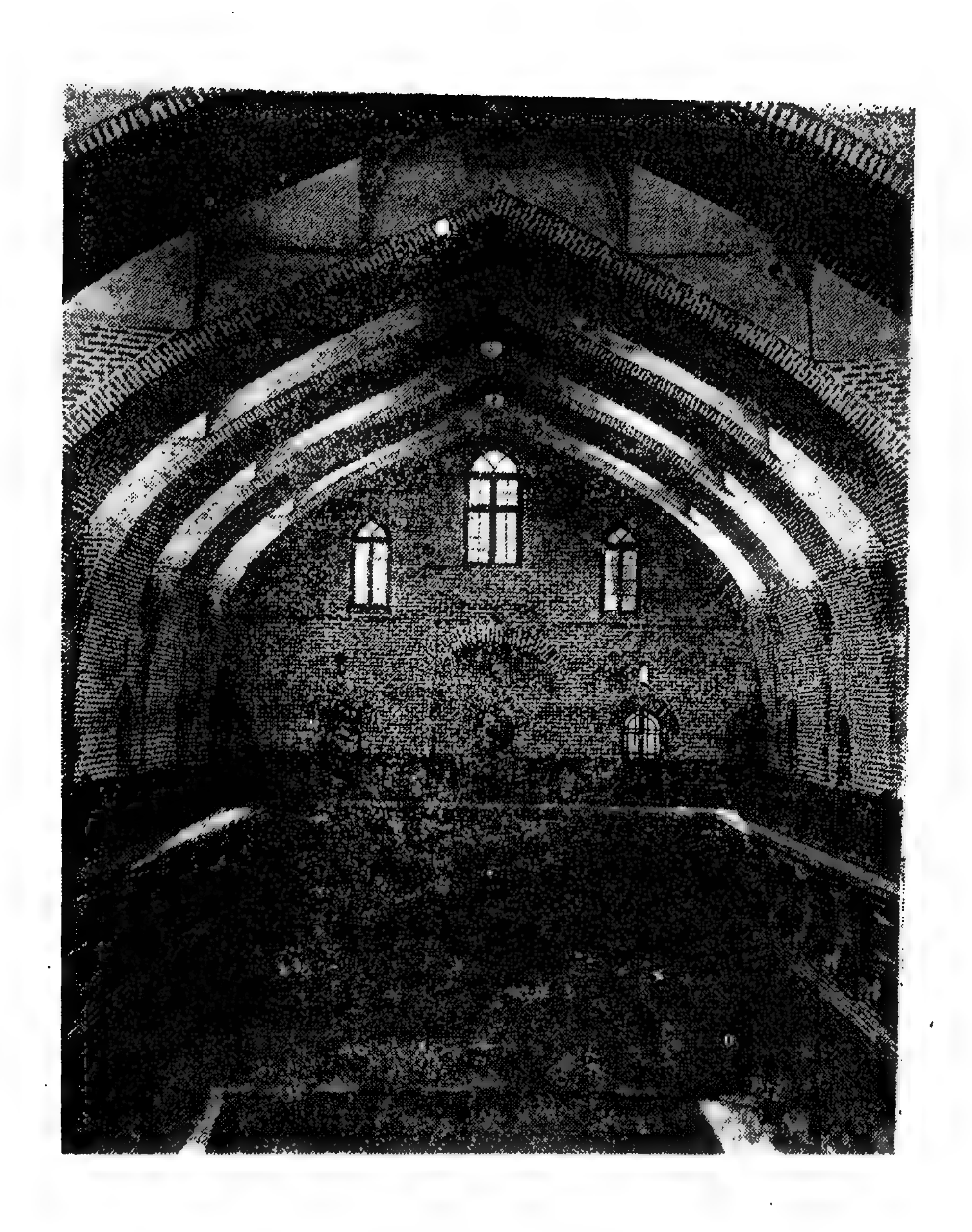


صورة ــ ٥١
خان مرجان في بغــداد



صورة ـ ٥٢

خان مرجان قبل الصيانة ـ منظر داخلي



صورة ــ ٥٣
خان مرجان بعد الصيانة

تم تشييد هذا الخان سنة ٧٦٠هـ (١٣٥٩م) بامر امين الدين مرجان الذي كان حاكما على بغداد في عهد السلطان اويس بن الشيخ حسن الجلائري الذي كان من الامراء البارزين في عهد المغول الايلخانيين وقد شيد مرجان مدرسة ومستشفى هما المدرسة المرجانية المارة الذكر ومستشفى دار الشفاء القريبة منها واوقف الخان المذكور عليهما مع عدة خانات ودكاكين اخرى في بغداد وعدة مزارع وبساتين في ضواحي بغداد وجلولاء وبعقوبة كما مر ذكـــره •

أن النص التاريخي لهذا الخان يقع في تسعة اسطر محفورة على الاجر بخط بديع وصنعة دقيقة مثبتة في كتيبة في واجهة المدخل الرئيسي للخان من جهة سوق البزازين ونص الكتابة كما يلي :

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم •

٢ ـ أمر بأنشاء هذا التيم المبارك والدكاكين المولى المخدوم الامر الصاحب الاعظم •

٣ ـ الاعدل ملك ملوك الامراء في العالم صاحب العدل الموفور عضـد السلطنة والامارة حاوى مراتب الامارة والوزارة •

٤ ـ افتخار شهدا الاوان المخصـوص بعنايـة الرحمن امين الدين مرجان الاولجايتي (نسـبة الى السـلطان المغولي الايلخاني محمد خدابنده اولجايتو) وقفها على المدرسة المرجانية ودار الشفاء بباب الغربة وكذلك ناحية عقرقوف •

٥ ـ والنصف من القائمية وتل دحيم ومزرعة بالصرارة وبساتين بقريـة الترك والرادمان وخرماباد •

٦ ـ ورباط جلولاء المعروف بقزل رباط وزرين جوى ونصـف دورى وبساتين ببعقوبا وببوهريز وبالبندنيجين وخان ودكاكين •

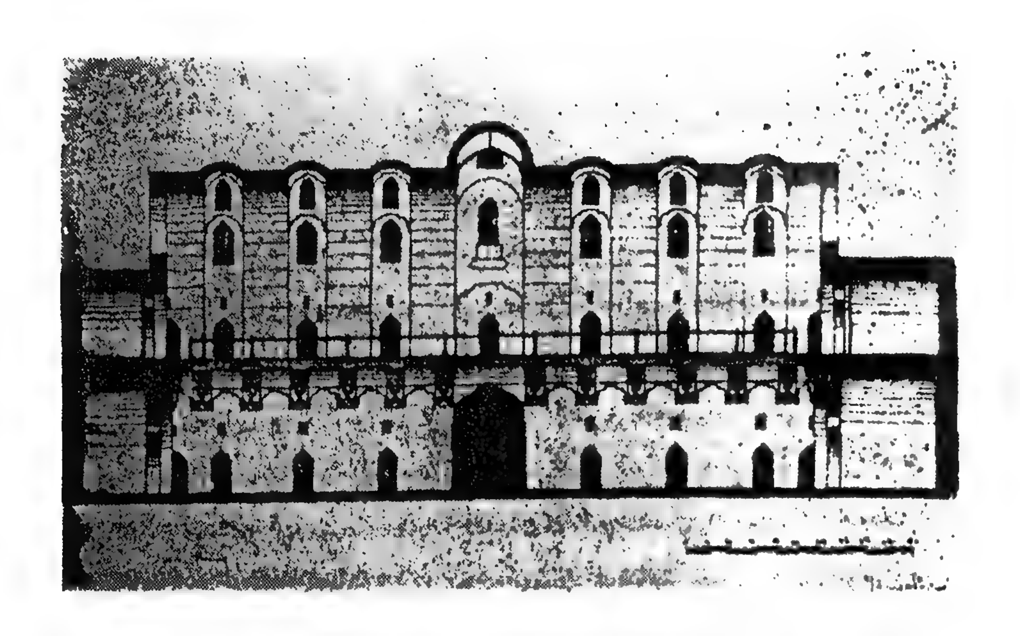
٧ ـ بالحلبـة وأربعـة خانات ودكاكين بالجوهريين وخان بالجانب الغربي ودكان كاغد بالحريم كما هو ٠

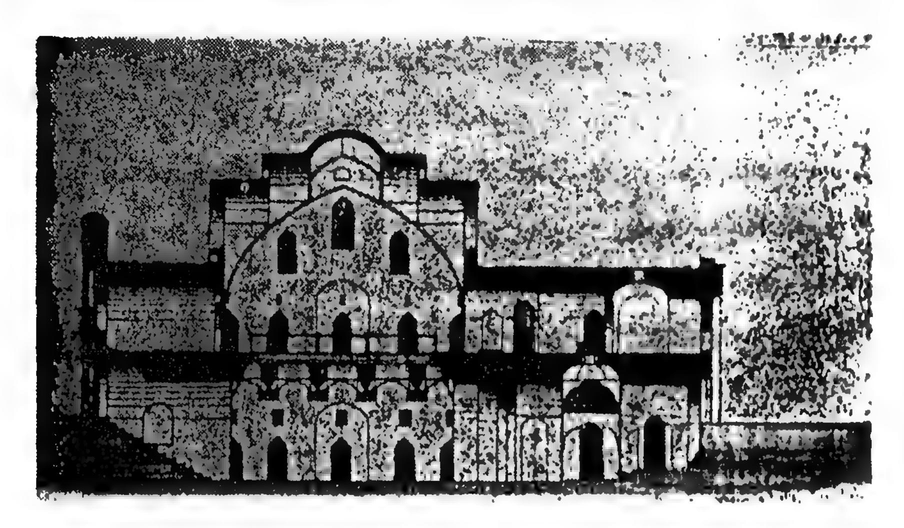
٨ ـ محدود مشروح في الوقفية وقفا صحيحا شرعيا تقبل الله تعالى منـه الطاعات في الدارين وبلغه نهاية المراد وكان الفراغ منه سـنة سـتين وسبعمائة والحمد لله وحده ٠

٩ ـ وصـلى الله على سـيدنا محمد النبي الامي العربي الصادق وعلى الـه الطيبين الطاهرين وصحبه وسلم كتبه الفقير الى رحمه ربه احمد شاه النقاش المعروف بزرين قلـم (أي صـاحب القلـم الذهبي) غفـر الله ذنو بـــه ٠

يتألف الخان من طابقين الاول منهما يحتوي على ٢٢ غرفة والثاني على ٢٣ غرفة تفتح أبواب الطابقين الارضي على بهو كبير طوله يقرب من ثلاثين متر (٢٩ر٧٢م) وعرضه يناهز العشرة امتار (١٠ر٧٠م) أما غرف الطابق الثاني فتنفتح على طنف يطل على البهو المذكور ويحيط به من جهاته الاربع على علو ستة امتار (انظر الصور ـ الارقام ٥٣ ، ٥٤) ان عقادة سقف البهو الكبيرترتفع عن ارضيته نحو أربعة عشر مترا وتكسبه منظرا مهيبا ورائعا جدا يتألف هذا السقف من سلسلـة عقادات متنوعـة الاشكال والابعاد اهمها

ثمانية عقود ضخمة مقوسة على الشكل المعروف بين البنائين باسم الدور تبلغ فتحة كل واحد منها احد عشر مترا كما يزيد عرضها على المترين هذه الطوق او العقود الثمانية مبنية بصورة متوازنـة مع فواصـل متساويـة (١ر٩٠م) باستثناء الفاصلة الوسطية التي هي اكثر عرضا من غيرها حيث تبلغ ٣ر٢٢م ان كل واحدة من هذه الفواصل قد بني فيها سلسلة جدران وعقادات متدرجـة على نظام بديع يرتفـع بين عقادة الطاقين المتجاورين في كل جانب من جانبيها جدار شاقولي فتح في اسفله باب موصل الى غرفة وفي اعلاه نافذة مطلة على السطح (انظر الصور ـ الارقام ٥١ و ٥٤) ٠





صورة ـ ٥٤
مقطعان طولي وعرضي لبناية خان مرجان في بغـداد

ان تناوب الطوق الضخمة مع مجموعة العقادات والنوافذ المتدرجة بهذه الصورة يطبع السقف بطابع بديع خاص يزيد في جمال منظر البهو ويمزج هذا الجمال بشيء كثير من الروعة والجلال •

أن هذا الطراز من التسقيف يكسب الخان مكانة معمارية ممتازة حيث تمكن المعمار العراقي بفنه وبراعته من التغلب على مشكلة تسقيف قاعة كبيرة ومرتفعة بعقادة بدون مساند مثل الاعمدة والدعامات وذلك بتقطيع العقادة الى قطع متوازية حيث تصبح كل واحدة منها تامة التماسك وقائمة بنفسها مثل طوق الابواب والقناصر ثم ربط هذه الطوق الضخمة بعقادات صغيرة متدرجة وقام بتحشية الاقسام الباقية بجدران شاقولية متدرجة • ولاشك في ان هذه الطريقة تفسح مجالا واسعا لفتح النوافذ في الجدران الشاقولية دون تقليل من متانة العقادات وتسمح لتكثير النوافذ وتوسيعها بقدر ما تقتضيه الاضاءة المطلوبة للقاعة مهما كان طولها وعرضها •

أما الطنف الذي يفصل الطابقين فهو من انفس العناصر المعمارية التي تشاهد في هذا الخان لانه يفسح مجالا لجمع الطابقين تحت سقف واحد فيسمح بذلك لزيادة ارتفاع السقف ارتفاعا يتناسب مع طول البهو وعرضه ويزيد في روعته وجماله كما أنه يؤلف في جدرانه زخرفة بديعة تجمع بين الصنعة والفن والبساطة والجمال يستند الطنف على سلسلة حوامل مقرنصة وافاريز بديعة تخرج عن الجدار بصورة تدريجية الى ان تتباعد عنه بما يقرب من المتر وتؤلف نطاقا مزخرفا يزيد عرضه على المترين ويحيط بالبهو من جهاته الاربع على علو أربعة أمتار •

أما مدخل الخان الرئيسي فهو من جهة سوق البزازين كما ذكرنا آنفا ويتألف من مستطيل كبير يزينه عقد مدبب يؤطر بوابة المدخل ومن الناحية المعمارية والزخرفية فان هذا المدخل قريب الشبه بمداخل بعض العمائر الاسلامية البغدادية مثل القصر العباسي والمدرسة المستنصرية والمدرسة

المرجانية ونتيجة لتقادم الزمن فقد انخفض هذا المدخل عن ارضية زقاق السوق المحاذي بحوالي ٢م لذا فقد أقتضت الضرورة فتح مدخل ثان من جهة شارع السموأل (اظر الصورة رقم ٥١) •

القلاع والحصون

بالرغم من الاحداث الحربية الطويلة والمريرة والتي حدثت في العراق في الفترات التي اعقبت الغزو المغولي حتى نهاية العصر العثماني والتي تلعب العمارة العسكرية كالقلاع والاسوار المحصنة دورا فعالا فيها الى جانب همة الرجال ونوعية الاسلحة فان عددا قليلا متناثرا هنا وهناك بقي منها وقسم منها مبنى في عصور سابقة ولكن شمله التجديد في العصور المتأخرة وفي العراق لم يتخلف اي أثر من هذا النوع يمكن نسبته الى الفترة التي تلت عصر المغول مباشرة اما الابنية المعاصرة مثل قلعة باش طابية في الموصل والباب الوسطاني وباب الطلسم الذي نسفعام ١٣٣٦هـ ــ ١٩١٧م وكذلك اجزاء من سور بغداد المحصن فكلها تعود الى الفترة التي سبقت الغزو المغولي • ويبقى هذا الفراغ ولم يسد الا في العصور العثمانية المتأخرة حين بدأ بعض الولاة العثمانيين ربما بدافع خوفهم من النقمة الشعبية وحركات العصيان المسلحة يتخذون مقرات حكم محصنة اطلق عليها اسم السراي وثكنات محصنة لجندهم عرفت بالقشلة •

أن هذه العمارات المدنية ذات الطابع العسكري استوحت على ما يبدو في عمارتها بعض التحصينات المستعملة في خانات القوافل مثل الاسوار العالية المدعمة بالابراج والبوابات الضخمة ذات الاواوين الكبيرة التي تحتوي بابا كبيرا يغلق اثناء الليل تحت حراسة الجند أن مثل هذه العناصر العمارية ذات الطابع العسكري والتي استعملت في هذه العمارات هي بدورها

مستمدة من التحصينات العسكرية الرائعة لحصن الاخيضر الذي ترجح نسبته الى القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) •

لقد قام العثمانيون ببناء مثل هذه الابنية في عدد من مدن القطر مثل الموصل وكركوك وبغداد وقد تعرضت هذه الابنية الى الكثير من الاهمال وجرى على بعضها الكثير من التغيرات وتعتبر قشلة وسراي بغداد اللذان لا يزالان شاخصين من الامثلة القليلة المهمة للعمارة العراقية في العصور العثمانية المتأخرة •

١ ـ بناية السراي او القشلـــة

أن القرون التي حكم فيها العثمانيون العراق لم تخل من بعض الولاة الذين اهتموا بأمور العراق مثل سليمان باشا وداود باشا ومدحت باشا والي بغداد من سنة ١٢٨٥هـ الى سنة ١٢٨٨هـ (١٨٦٩م ـ ١٨٧٢م) الذي اراد ان يرتقي بالعراق فرتب اموره العسكرية والادارية والاقتصادية وقام بانشاء عدة مشاريع كالمعاهد الثقافية والصناعية والعسكرية وترك آثارا عمرانية مهمة لازال بعضها شاخصا ومن اهمها تجديده بناية القشلة جنب السراي الذي كان مقرا للعثمانيين طوال مدة حكمهم للعراق •

وقد بدأ بانشائها محمد نامق باشا في سنة ١٢٧٨هـ / ١٨٦١م ولم تكمل في عهده فقام مدحت باشا باكمالها • والقشلة لفظة تركية مأخوذة من الفعل قاشلاغ بمعنى اشتى و (المشتى) وصارت لفظة القشلة فيما بعد اصطلاحا يطلق على (ثكنة الجند) أي وقت تعسكرهم واقامتهم وعدم خروجهم للحرب في فصل الشتاء • والقشلة كلها في بغداد بجانب الرصافة في المحلة المعروفة بمحلة السراي تشغل بنايتي السراي والقشلة مساحة مستطيلة ٢٥٠×٥٠٠م تمتد على الضفة الشرقية لنهر دجلة جنوب وزارة الدفاع وكانت تشغل ابنية السراي وزارة التربية سابقا ومديرية الشرطة العامة ووزارة الداخلية ومركز محافظة بغداد اليوم وبلصقها القشلة التي كانت وزارة المالية سابقا •

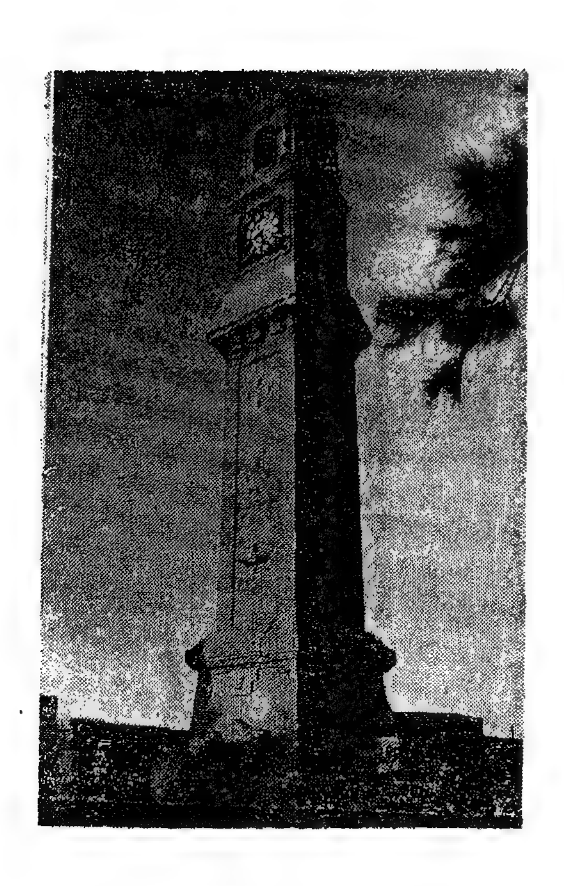
أن من اقسام السراي المهمة التي حافظت على اصالتها المعمارية والزخرفية هي بوابة السراي المعروفة بايوان السراي والطاق وهي بوابة مبنية بالآجر بشكل برج طول ضلعه ٢١م مكون من ثلاثة اقسام القسم الامامي هو المدخل مسقوف بعقد مدبب ارتفاعه ٩م زخرف باطنه باشكال هندسية وزهرية محفورة ومطعمة بانصاف كرات نحاسية وهي ظاهرة زخرفية شاعت في عمائر العصر العثماني ولم نجد لها مثيلا في العمائر السابقة له (انظر الصورة رقم ٥٥)

صورة ـ ٥٥
واجهة بوابة مدخل السراي في بغداد

وتتصل القشلة ببناية السراي من الناحية الجنوبية مكونة بناية مستطيلة تتألف من طابقين تتوسطها ساحة داخلية تتصل بساحة السراي وتمتد الى ضفة النهر حيث تتصل بها مسناة السراي ايضا والقشلة مبنية بالاجر ومطلية بالجص يقع مدخلها الرئيسي في وسط ضلعها الشرقي ولها مدخل اخر وسط الضلع الجنوبي مقابل بناية المحاكم دعمت القشلة من الداخل والخارج بأبراج ترتفع الى الطابق الاول موزعة على مسافات متساوية وهي ابراج نصف اسطوانية مندمجة بالجدران تعلوها شرفات مسننة بارزة تحصر بينها حنايا وهذه الابراج تتصدر الرواق الذي يتقدم الغرف في الطابق الارضي والذي يفتح على الساحة الداخلية .

أما الابراج الخارجية فمستطيلة المقطع تعلوها شرفات مسننة بارزة مستطيلة الشكل عقدت بينها حنايا مستطيلة ايضا أما الطابق الثاني فهو بشكل سلسلة من الغرف والقاعات يتصدرها رواق مسقوف بسقف مسطح يفتح هذا الرواق على الساحة الداخلية بسلسلة من النوافذ من الخارج تفتح الغرف على الشارع بسلسلة من النوافذ المستطيلة .

يتوسط الساحة الداخلية المطلة على النهر برج وضعت في اعلاه ساعة (انظر الصورة رقم ٥٦) بني بالآجر والجص ويبلغ ارتفاعه ٢٣ مترا ينتصب على قاعدة مستطيلة تبرز قمتها بشكل طبقات من الكوابيل المدرجة يرتفع فوقها بدن مستطيل ومزين بنوافذ موزعة على البدن بشكل مجموعات مكونة من أربع نوافذ للاضاءة وتبرز في اعلى البدن قاعدة تحملها طنف وكوابيل متدرجة وفوق هذه القاعدة وضعت ساعة ذات اربعة وجوه تعلوها قمة مكعبة في كل وجه منها نافذة يتوجها عقد نصف دائري وهذا الجزء من البرج مسقوف بقمة على شكل هرم ناقص نصبت في اعلاه علامة فلكية معدنية للاتجاهات الجغرافية والرياح .



صورة ــ ٥٦
برج الساعة في القشلة ببغداد

وخلال فترة حكم الوالي العثماني رديف باشا الذي حكم من سنة ١٢٩٠هـ الى سنة ١٢٩٢هـ (١٨٧٣م ــ ١٨٧٥م) ابتديء في سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م) ببناء قشلة كركوك التي تتميز بمداخلها الضخمة ذات الاقبية وواجهتها الثلاثية النصف دائرية والمحمولة على أعمدة قصيرة اسطوانية الشكل والمبيضة بالجص (انظر الصورة رقم ٥٧) .



صورة ـ ٥٧
واجهة مدخل قشلة كركوك



صورة ـ ٥٨
تفاصيل اقبية مدخل قشلة كركوك

وهذه القشلة مع قشلة بغداد وساعتها تعتبران من العمائر المدنية القليلة التي تخلفت من العصور العثمانية المتأخرة أما ساعة قشلة بغداد فهي مثال نادر وفريد من نوعه في العراق بين العمائر المدنية .

المصادر والمراجع

١ ـ **الالوسي** ، محمود شكري

تاريخ مساجد بغداد واثارها ، تحقيق بهجت الاثري (بغداد ١٩٢٧)

٢ ـ **آل ياسين** ، الشيخ محمد حسن

« المشهد الكاظمي في العصر العباسي » سومر ١٨ ، (١٩٦٢) ص١١٩ ـ ١٢٨

٣ ـ **آل ياسين** ، « المشهد الكاظمي من بدء الاحتلال المغولي الى نهاية الاحتلال العثماني » ، سومر ١٩ (١٩٦٣) ص ١٥٥ ـ ١٧٠

الكامل في التاريخ ، (القاهرة ١٣٧٧هـ)

٤ ـ **ابن الاثير** ، عزالدين علي بن عبدالكريم

٥ ـ **ابن الجوزي** ، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد
المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، (حيدر آباد ١٩٣٤)

٦ ـ **ابن حجر** ، احمد بن علي العسقلاني

الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة (حيدر آباد ١٣٥٠هـ)

٧ ـ **ابن خلكان** ، أبو العباس شمس‌الدين احمد بن محمد
وفيات الاعيان ، تحقيق محي‌الدين عبدالحميد (القاهرة ١٩٤٨)

٨ ـ **ابن الفوطي** ، كمال الدين عبدالرزاق بن أحمد
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، تحقيق مصطفى جواد (بغداد ١٩٣٢)

٩ ـ **الاعظمي** ، خالد خليل حمودي
« صيانة جامع الكواز في البصرة » ، سومر ٣٦ (١٩٨٠) ٠ ص ٣١٧ ـ ٣٢٣

١٠ـ **التطيلي** ، بنيامين
الرحلة ١١٦٥ ـ ١١٧٣ ترجمة وتعليق عزرا حداد (بغداد ـ ١٩٤٥)

١١ـ **جواد** ، الدكتور مصطفى وسوسة
دليل خارطة بغداد المفصل (بغداد ١٩٥٨)

١٢ـ **جواد** ، الدكتور مصطفى
« العمارات العتيقة القائمة في بغداد » سومر ٣ ، (١٩٤٧) ص ٣٨ ـ ٥٩

١٣ـ **الخليلي** ، جعفر
موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم الكاظمية (بيروت ١٩٧٠)

١٤ـ **الخليلي** ، موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم كربلاء (بيروت ١٩٦٦)

١٥ـ **الخليلي** ، موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم سامراء وقسم النجف (بيروت ١٩٦٥)

١٦ـ **الديوهجي** ، سعيد
جوامع الموصل في مختلف العصور (بغداد ـ ١٩٣٦)

١٧ـ **الديوجي** ، « مدارس الموصل في العهد العثماني » سومر ١٨ ، (١٩٦٢) ص ٦٥ ـ ٩٦

١٨ـ **سركيس** ، يعقوب
مباحث عراقية (بغداد ١٩٤٨)

١٩ـ **سلمان** ، الدكتور عيسى واخرون
العمارات العربية الاسلامية في العراق ، الجزء الاول (تخطيط مدن ومساجد) ، بغداد ١٩٨٢

٢٠ـ **سلمان** ، الدكتور عيسى واخرون
العمارات العربية الاسلامية ، الجزء الثاني ، قصور ومشاهد (بغداد ١٩٨٢)

٢١ـ **الطوسي** ، أبو النصر السراج

اللمع ، تحقيق عبدالحليم محمود (القاهرة ١٩٦٠)

٢٢ـ **العاني** ، علاءالدين احمد

المشاهد ذات القباب المخروطة في العراق (بغداد ١٩٨٣)

٢٣ـ **العزاوي** ، عباس

« من جوامع بغداد ـ جامع الخلفاء » سومر ٢٢ ، (١٩٦٦) ص ٢١ ـ٣٨

٢٤ـ **العزاوي** ، تاريخ العراق بين احتلالين ، (بغداد ١٩٣٥)

٢٥ـ **العزي** ، نجلة اسماعيل

« سراي بغداد والقشلة » سومر ، (١٩٧٨) ص ٢٢٣ ـ ٢٣٥

٢٦ـ **العمري** ، سعاد هادي

بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة (بغـــداد ١٩٥٤)

٢٧ـ **الغياثي** ، ابو الفتح عبدالله بن فتح الله

تاريخ الغياثي ، تحقيق طارق الحمداني (بغداد ١٩٧٥)

٢٨ـ **معروف** ، ناجي

المدارس الشرابية (بغداد ١٩٦٦)

٢٩ـ**النقشبندي** ، اسامـة

« جامع الحيدر خانة عمارته وموضعه » سومر ٢٩ ، (١٩٧٣) ص٢٤٥ ـ ٢٥٦ .

٣٠ـ **النقشبندي** ، السيد ناصر

« المدرسة المرجانية » سومر ٢ (١٩٤٦) ص ٣٣ ـ ٥٤

٣١ـ **النقشبندي** ، السيد ناصر

« مرقد الشيخ محمد بن السكران » سومر ١٨ (١٩٦٢) ، ص ١٩٧ ـ ٢٠٠

32- Frankfort, H. The Art and Architecture of the Ancient Orient (Harmondsworth 1954).

33- Herzfeld, E. and Sarra, F. **Archaologische Reise Im Euphrat - und Tigris - Gebiet** (Berlin, 1911 - 20).

34- al-Janabi, Tariq. **Studies In Mediaeval Iraqi Architecture** (Baghdad 1982).

35- Unsal, B. **Turkish Islamic Architecture In Seljuk and Ottoman Times 1071 - 1923.** (London 1939).

36- Van Loon, J.B. **History of Shaikh Uwais** (The Hague 1954).

37- Wilber, D.N. **The Architecture of Islamic Iran. The Ilkanid Period** (Princeton, 1955).

المحتوى

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغـداد
(١٤٩٣) لسنة ١٩٨٥

دار الحرية للطباعة

